# إشراقات قرآنية

## «حزب المُفَصَّل»

سلمان العودة

الجزء الرابع

من «سورة الطارق» إلى «سورة الناس»

## سورة الطارق

*** تسمية السورة:**

أشهر أسمائها: «**سورة الطارق**»[1]، وبه سمَّاها البخاري في «صحيحه»، وعامَّة المفسرين والعلماء؛ وذلك لوَجازته واختصاره.

وسُمِّيت في بعض التفاسير: «**سورة ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا﴾**»، كما في «تفسير مجاهد»، و«تفسير عبد الرزاق»، و«تفسير الطبري»، وغيرها[2].

وورد في السنة النبوية- كما في حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه- أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الظهر والعصر بـ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا﴾، و﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، كما تقدم في «سورة البروج»[3].

*** عدد آياتها:** سبع عشرة آية عند جمهور علماء العَدِّ.

**وقيل**: ست عشرة، وكأن القائل بهذا عدَّ قوله تعالى: ﴿سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ صَاحِبُكُمۡ﴾ آيةً واحدةً[1].

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (6/ 168)، و«تفسير السمعاني» (6/ 202)، و«الكشاف» (4/ 734)، و«المحرر الوجيز» (5/ 464)، و«زاد المسير» (4/ 428)، و«تفسير الرازي» (31/ 117)، و«تفسير القرطبي» (20/ 1)، و«روح المعاني» (15/ 305).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص720)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 416)، و«تفسير الطبري» (24/ 288)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 117)، و«التحرير والتنوير» (30/ 257).

(3) ووردت روايات بدون الواو فيهما، كما تقدم تخريجه في أول «سورة البروج».

* **وهي مكية** باتفاقهم، كما ذكر ابن عطية، والقرطبي، وابن عاشور، وغيرهم[2].

**ومما يدل على مكيَّتها**: موضوعاتها، كالحديث عن الخلق، والآيات الربانية، والبعث، ووعيد الكافرين، وهي معانٍ تتكرر في القرآن المكي.

وجاء في حديث مشهور رواه أحمد، وابن خزيمة عن عبد الرحمن بن خالد العَدواني، عن أبيه، أنه أبصر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في مشرق ثَقِيف وهو قائمٌ على قوس أو عصًا، حين أتاهم يبتغي عندهم النصرَ، قال: «فسمعتُه يقرأ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا...﴾ حتى ختمها، قال: فوعيتُها في الجاهلية وأنا مشركٌ، ثم قرأتُها في الإسلام. قال: فدعتني ثَقِيفٌ، فقالوا: ماذا سمعتَ من هذا الرجل؟ فقرأتُها عليهم»[3].

* ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا طَغَىٰ﴾:

**في الآية قَسَمان: الأول بـ«السماء»، والثاني بـ«الطَّارق»:**

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 288)، و«البيان في عَدِّ آي القرآن» (ص207)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص321)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (2/ 555)، و«روح البيان» (10/ 396).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 288)، و«تفسير البغوي» (5/ 238)، و«المحرر الوجيز» (5/ 464)، و«زاد المسير» (4/ 428)، و«تفسير القرطبي» (20/ 1)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 374)، و«التحرير والتنوير» (30/ 257).

(3) أخرجه أحمد (18958)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (1274، 1275)، وابن خزيمة (1778)، والبغوي في «معجم الصحابة» (2/ 239) (596)، والطبراني في «الكبير» (4126- 4128)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (2/ 947) (2448).

**أما السماء** فهي: كل ما علا وارتفع[1]، وتُطلَق على السبع الطِّباق التي ورد ذكرها في القرآن الكريم: ﴿ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ﴾ [الملك: 2].

والغالب في أقسام القرآن أنها متعدِّدة، فمن ذلك: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا ۝١٥﴾، ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا﴾، ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا مَا﴾.

وتعدُّد القَسَم به إشارة إلى تعدُّد الخلق ووحدانية الخالق تعالى.

وثَمَّةَ مواضع يكون القَسَم فيها مفردًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: 1]، أقسم بالنَّجم وحدَّد حالًا خاصة وهي ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾، فكأنَّ القَسَم هنا إما أن يكون بمتعدِّد يدل على تعدُّد الخلق، أو يكون قَسَمًا بجزء؛ فهو لم يقسم بالنجم كله، وإنما أقسم بالنجم في حالة كونه يهوي، وهذا ليس عامًّا للنجوم كلها، بل هو خاص بالنجم الذي يهوي، وهو الشِّهاب الثاقب المذكور في قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ [الصافات: 10][2].

وهذا يؤكِّد تعدُّد الخلق وانقسامه، ووحدانية الخالق وكماله وجلاله.

فأقسم بـ«**السماء**»، وثنَّى بـ«**الطَّارق**»، وهذا الطَّارق يهوي من السماء.

وهو مأخوذ من الطَّرْق، وهو الضرب الشديد، ومنه: المِطرقة التي يُضرب بها، وغالبًا ما يُطلَق «الطارق» على الذي يأتي في الليل[3]، ولذلك جاء في الحديث أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم نهى أن يَطْرُقَ الرجلُ أهلَه ليلًا؛ يتخوَّنهم، أي: إذا جاء من سفر فإنه يطرق بيته في الليل كأنه يختبر أهله، يخشى الخيانة من زوجته، فنهى صلى الله عليه

---

(1) ينظر: «جمهرة اللغة» (2/ 862)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص427)، و«لسان العرب» (14/ 397) «س م ا»، «س م و».

(2) ينظر ما تقدم في أول «سورة النجم».

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 288)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص518) «ط ر ق»، و«تفسير القرطبي» (20/ 2)، و«تاج العروس» (26/ 63- 64).

وسلم عن ذلك، وقد علَّل النهي بقوله: «**حتى تمتشطَ الشَّعِثةُ، وتَسْتَحِدَّ المُغِيبةُ**»[1].
أي: لكي تتجمَّل الزوجة، وتستعد لزوجها، فلا يفاجئها بالمجيء ليلًا.

وربما كان ذلك لأن الآتي في الليل يحتاج إلى طَرْق الباب، في حين أن أبواب النهار مفتوحة، لا تحتاج إلى طَرْق.

* ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾:

قال سُفيان بن عُيينة رحمه الله: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر[2].

وهو سؤال تفخيم وتعظيم، ودعوة إلى التطلُّع إلى معرفة الطارق، وحفاوة واهتمام وتضخيم لأمره؛ ليكون الذهن متحفِّزًا لتلقِّي الجواب.

والقرآن يوجِّه المخاطَبين إلى العناية بالنجوم ومراقبة حركاتها، والانتقال من ذلك إلى الإيمان بخالقها؛ لأنها من مظاهر الخلق والإبداع الرباني.

* ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾:

وصفه بأنه يثقب الظلام بضوئه[3]، وهو توصيف لم يكن معروفًا عند العرب، وجاء مرة أخرى في قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: 10].

**وقيل**: إن من معنى الثاقب: أنه يَقْصِد الشياطين فيحرقهم ويهلكهم[1].

---

(1) أخرجه البخاري (5247)، ومسلم (715) من حديث جابر رضي الله عنه.

(2) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾.

(3) ينظر: «الكشاف» (4/ 734)، و«تفسير الرازي» (31/ 117)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 303)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 450)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 260)، و«تفسير أبي السعود» (9/ 140)، و«روح المعاني» (15/ 306).

**واختلفوا في هذا النجم، أهو الثُّرَيَّا، أم زُحَل**[2]؟

**والأقرب** أن المقصود جنس النجوم، وعليه فإن اللهَ تعالى أقسم بالنجوم كلها.

* ﴿يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ أَفَرَءَيْتُمُ﴾:

﴿يَنطِقُ﴾ بسكون النون، وقد يكون معناها النفي، يعني: ما كل نفس إِلَّا عليها حافظ.

وقد يكون معناها الإثبات، فتكون مثل «إنَّ»، والمعنى: إنَّ كل نفس لعليها حافظ[3]، وعلى هذا تكون «ما» في قوله: ﴿﴿٣﴾ إِنْ﴾ زائدة أو صلة كما يقولون، والآية في الحالين تقرِّر حقيقةً، وهي أن كل نفس عليها حافظ.

**قيل**: الحافظ هو: الله[4]، كما في قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ﴾ [يوسف: 64]، فهو حفيظ على العباد، ومن أسمائه: الحفيظ، والحافظ[5].

**والأقرب**- وهو قول الجمهور- أن المقصود: الملائكة الحَفَظَة، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الأنعام: 61]، وقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 568)، و«تفسير السمعاني» (6/ 202)، و«تفسير القرطبي» (20/ 2)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 375)، و«الدر المنثور» (12/ 389)، والمصادر السابقة والآتية.

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 246)، و«تفسير السمعاني» (6/ 202)، و«تفسير البغوي» (5/ 239)، و«المحرر الوجيز» (5/ 464)، و«التحرير والتنوير» (30/ 260)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 292)، و«تفسير القرطبي» (20/ 3)، و«الدر المنثور» (15/ 348-349)، و«روح المعاني» (15/ 307).

(4) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 203)، و«تفسير الرازي» (31/ 118)، و«فتح القدير» (5/ 508)، و«روح المعاني» (15/ 307)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (15/ 176).

(5) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص48)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص146)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص165).

رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [الرعد: 11]، وقوله: ﴿مَآ أَوۡحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ إِلَّا﴾ [الانفطار: 10- 12][1].

ولهذا خَصَّ كل نفس بأن عليها حافظًا، أي: من الملائكة، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ﴾ [ق: 17]، فكل نفس عليها حافظ يخصُّها وحدها، ومهمَّته أن يحفظ أعمال الإنسان ويراقبه، والله أعطى هؤلاء الملائكة الحافظين القدرة على أن يعلموا كل ما يحتاج إلى علم ومعرفة فيقيِّدوه، حتى ما يُسِرُّه الإنسان في ضميره من الهمِّ والقول والفعل[2].

وفي الحديث: «**قال الله عز وجل: إذا هَمَّ عبدي بحسنة ولم يعملها، كتبتُها له حسنةً، فإن عملها، كتبتُها عشرَ حسنات إلى سبعمئة ضعف، وإذا هم بسيئة ولم يعملها، لم أكتُبْها عليه، فإن عملها، كتبتُها سيئةً واحدةً**»[3].

فهم على معرفة بما يَهُمُّ به الإنسان، فضلًا عما فوقه، وقد يتخلَّص المرءُ من الناس ويستتر عنهم؛ لكنه لا يستتر من الكرام الكاتبين، ولو كان عندك اثنان من كرام أصحابك، فلن تجرؤ على فعل ما لا يليق أمامهم، والملائكة أولى، ولو استحضرت حقيقة حضور الملائكة، لاستقامت سريرتك؛ ولهذا جاء في الحديث: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ**»[4].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 292)، و«تفسير الماوردي» (6/ 246)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 405)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 451)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»، و«سورة الانفطار»: ﴿رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ إِلَّا﴾.

(3) أخرجه البخاري (7501)، ومسلم (128) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) أخرجه البخاري (2475، 6810)، ومسلم (57) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

**وقيل**: أنهم يحفظون للإنسان ما كُتِبَ له من رزقه وأجله وعمله، فإذا جاء القدر خلَّوْا بينه وبينه، ولذلك ربما يتعرَّض الإنسان لكرب مفاجئ، ثم ينجو بأعجوبة؛ لأن الله تعالى وَكَّلَ به مَن يحفظه.

**وقيل**: أنهم يحفظون الإنسان في حياته إلى الموت، وهو قريب مما قبله[1].

وحقيقة الملائكة تُعَدُّ شيئًا جديدًا على أهل الجاهلية، فجاء القَسَم عليها في القرآن؛ لترسيخ الإيمان بها؛ لأن الحفظ له ما بعده، وهو أن المرء راجع إلى ربه، ثم هو محاسِبه ومجازيه على عمله.

**وهل ثَمَّ تناسب بين المُقْسَم به والمُقْسَم عليه؟**

نعم، وكأن العلم والاطلاع الذي أَقْدَر الله عليه الملائكة، ومن قبله وبعده علم الله الذي يتخلخل ظلمات النفس الإنسانية، يشبه النجم الثاقب الذي يخترق الظلام ليصل إلى مداه وما كُتِبَ له، ويزيل الظلمة من حوله، فهكذا العلم يكشف ظلمات النفس، وصدق الشاعر إذ يقول[2]:

وإذا خَلَوْتَ بريبةٍ في ظلمةٍ *** والنفسُ داعيةٌ إلى الطغيانِ

فاستحي مِن نَظَرِ الإلهِ وقلْ لها: *** إنَّ الذي خلقَ الظلامَ يراني

قد يكون في القلب معانٍ خفيَّة غامضة لا يتفطَّن لها صاحبها، والعلم الإلهي يخرق الحجبَ ولا يُكِنُّ منه سترٌ، ثم الملائكة الموكَّلون يطَّلعون ويدوِّنون؛ فخليق بالإنسان أن يكون مراقبًا لنفسه حق المراقبة، عارفًا بها، مدركًا لدوافعها ونوازعها.

* ﴿وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ ﴿١٩﴾﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (31/ 119)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «نونية القحطاني» (ص29- 30).

والمرء قد يكون غنيًّا بماله أو جاهه أو سلطانه، فبيَّن الله ضعفه الفطري بالنظر إلى أصل خلقته: ﴿فَلۡيَنظُرِ﴾ صيغة أمر، بفعل مضارع مع لام الأمر، أي: انظر مم خُلِقْتَ؟ والأمر يدل على الوجوب، فيجب على الإنسان أن يتفكَّر كيف خُلِقَ، ومم خُلِق؟

ونظر الإنسان للمادة التي خُلِقَ منها، وهي الماء الدَّافق، هو نظر اعتبار وتبصُّر وتعقُّل؛ لأن الماء الذي يراه يخرج منه، هو من جنس الماء الذي خُلِقَ منه.

**وليس المقصود هنا**: الكافر، وإن كان سياق النص قد يُوحي بذلك؛ لأن الآية فيها توبيخ وعتاب، لكن الأمر عام لجنس الإنسان أن ينظر ويتدبَّر[1].

* ﴿مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦﴾:

التنكير للتحقير، فهو دليل على هوان أصل الخِلقة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [المعارج: 39]، أي: من شيء مَهِين، وقال: ﴿مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [السجدة: 8]، فأصل الخِلقة لا يؤهِّل الإنسان للاستكبار والكفران.

وليس في الآية حَطٌّ من قدر الإنسان؛ فالله تعالى خلق الأنبياء عليهم السلام من هذا الماء، **ولهذا اختلف الفقهاء في المنيِّ**، هل هو طاهر أو نجس؟ **والراجح** أنه طاهر؛ لأنه أصل الناس، ويبعد أن يُخلق الإنسان من نجس- لا سيما الأنبياء عليهم السلام- وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يُفرك المني من ثوبه ثم يصلِّي فيه، وكان يغسله ثم يخرج إلى الصلاة وأثر الغسل في ثيابه[2]، وهذا ليس شأن النجاسة، والأصل في المياه الطهارة.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 292)، و«المحرر الوجيز» (5/ 465)، و«تفسير القرطبي» (20/ 4)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 451)، و«التحرير والتنوير» (30/ 262).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (229- 232)، و«صحيح مسلم» (288- 290)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (1/ 61- 63).

والإسلام لا يستقذِر الدوافع الجنسية، ولا يكرهها بذاتها، وحتى الاغتسال الذي أُمِرَ به الإنسان بعد المواقعة، ليس لأنه قارف خطيئة، فهو يغتسل ليتطهر منها، كلا، ولكنه إعادةٌ للحيوية والنشاط إلى جسد الإنسان.

**ومعنى** ﴿مَّهِينٍ﴾: ضئيل أو قليل جدًّا، أو ضعيف، أو رقيق، وغالب كلام المفسرين يدور حول هذا المعنى(1).

وقد أشار القرآن الكريم إلى قضايا الجنس، والعلاقة بين الرجل والمرأة في مواضع كثيرة، ومنها هذه الآية، فجعلها محلًّا للاعتبار، كما قال: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة: 37]، وقال: ﴿فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ ﴾ [الواقعة: 58- 59].

إن مثل هذه المعاني ليست مما ينبغي كتمانه أو التسترُّ عليه، بل هي حقائق مهمَّة، لا حرج أن تدركها الفتاة، ويدركها الفتى، وليس فيها استثارة للغرائز، ولا ذِكْرٌ لما ينبغي الأَنَفة منه.

إن حديث القرآن والسنة عن هذه الحقائق والمعاني حديث عفيف محتشم، ليس فيه إثارة ولا تهييج، وفي «سورة يوسف» ذكر تعالى قصته عليه السلام مع امرأة العزيز: ﴿﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ ﴾، ثم قال: ﴿فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ ﴾ [يوسف: 23- 24]، فهنا خلوة دبَّرتها امرأة العزيز؛ لتوقع يوسف عليه السلام، ولكن السياق جاء بها بطريقة متعالية عن الإسفاف والإثارة، مما يؤدِّي إلى الرُّقيِّ بهذه الدوافع والوعظ فيها، وليس إلى التحريض على فعلها.

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص544)، و«تفسير الطبري» (18/ 600)، (23/ 594)، و«تفسير ابن فورك» (3/ 118)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (3/ 438)، و«تفسير القرطبي» (19/ 159)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 83)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 298).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» للنحاس (3/ 200)، و«التبيان في تفسير غريب القرآن» (ص264).

أما حينما تتحوَّل هذه المعاني إلى وسائل للإثارة والإغراء، كما في بعض الروايات والأفلام التي تعتمد على استثارة الغرائز، بحجة الواقعية في السرد، فهذا توظيف سلبي، كما أن شدة التوقِّي والإفراط هي جاهلية أخرى مستترة، فينبغي أن يُعَالَج الإفراط والتفريط بالرجوع إلى أسلوب القرآن والسنة، ومراعاة قدر التعليم والتثقيف والمصلحة والمفسدة.

**والدَّافق** هو: المدفوق، وهي لغة الحجاز، كقوله سبحانه: ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [الحاقة: 21]، أي: مرضيَّة[1].

**والأقرب** ما رجَّحه ابن القيم وغيره، أن ﴿مِرَّةٍ﴾ معناه أنه دافق بذاته[2].

ويتقوَّى هذا إذا علمنا أن الماء الدافق يحمل ملايين الحيوانات المنوية، وإنما سُمِّيت حيوانات؛ لأنها حية، والذي يلقِّح البُويضة إنما هو واحد من هذه الملايين.

وهي في سباق محموم إلى هدفها المرسوم!

* ﴿٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ٧ وَلَهُۥ﴾:

أجمع أكثر العلماء على أن «**الصُّلب**»: عظام الظهر، والأكثرون على أن «**التَّرائب**»: عظام الصدر، وخصَّها معظم علماء اللغة بعظام الصدر للمرأة[3].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (3/ 569)، (12/ 418)، (24/ 292)، و«التفسير البسيط» للواحدي (11/ 429)، (23/ 178)، و«زاد المسير» (4/ 429)، و«تفسير الرازي» (31/ 119)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 451)، و«روح البيان» (4/ 132)، وما تقدم في «سورة الحاقة».

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص316) «د ف ق»، و«الكليات» للكَفَوي (ص453).

(2) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» (ص102)، و«أعلام الموقعين» (1/ 112)، و«بدائع الفوائد» (3/ 68).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 292- 296)، و«تفسير القرطبي» (20/ 4- 7)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 263)، و«روح البيان» (10/ 398)، و«فتح القدير» (5/ 509)، و«تفسير القاسمي» (9/ 451)، و«التحرير والتنوير» (30/ 262).

واستشكل بعض المعاصرين هذه الآية، وأحدث لَبْسًا على ضعفاء الإيمان، وحاول بعض المُغْرضين التشكيك في صحة القرآن وقدسيَّته من هذه الشبهة، فقالوا: ما علاقة «**الصُّلب**» الذي هو الظهر، و«**التَّرائب**» التي هي عظام الصدر بهذا الماء الذي يخرج من الخِصْية والبُويضة التي تتخلَّق في عنق الرحم؟

ولو كان في هذا الكلام مأخذ أو مطعن لكان المشركون الأولون أول مَن يستنكر ذلك، واستغلُّوه لتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنهم وجدوا أنه معنى صحيح جارٍ على قواعد لغتهم، وموافِق ومطابق للمحسوس، فلم يستنكروه.

و﴿**ٱلْأَعْلَى**﴾ يشمل عظام الظهر حتى عظام العَجُز، فكلها تُسَمَّى صُلبًا، فكل ما كان من العظام خلف ظهر الإنسان فهو صلب، من عظام الكتفين إلى أسفل الظهر، وبهذا يدخل العَجُز في الصلب، وهو ما يسمَّى: العمود الفقري.

﴿ ۝٧ ﴾: عظام الصدر وموضع القِلادة، وعظام الأضلاع، وكان الضحاك يقول: «إن الترائب هي عظام الرأس واليدين والرجلين».

**والمسألة فيها أقوال**، وقد ذكر ابن الجوزي، وابن كثير وغيرهما أربعة أقوال للُّغويِّين في تفسير «الصُّلب» و«الترائب»، **أجودها** أن المقصود بـ«**الصُّلب**»: **عظام الظهر**، حتى **عظام العَجُز**، و«**التَّرائب**»: **عظام الصدر**، حتى **عظام الحوض**[1].

وهذا يُوحي **أولًا**: بأن الإنسان يتخلَّق من ماء الرجل، وما يسمَّى: ماء المرأة، فهو ﴿ ﴾ [الإنسان: 2] منهما، وهو أمر لم تكن الناس تعرفه، وكان من الثقافة العالمية

---

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص489)، و«لسان العرب» (1/ 230، 526)، و«تاج العروس» (2/ 66)، (3/ 201) «ت ر ب»، «ص ل ب».

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 292- 296)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 312)، و«إعراب القرآن» للنحاس (5/ 124)، و«زاد المسير» (4/ 429)، و«تفسير القرطبي» (20/ 5- 7)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 375)، و«روح البيان» (10/ 398).

السائدة في تهميش المرأة تهميش دورها في أصل الخَلْق والتكوين، وكأن الرجل مستقل بالخَلْق[1].

إلا أنهم يُثَرِّبون[2] على المرأة ويعيبونها إذا كان نسلها الإناث، ويسمُّونها: (المِئْناث).

وربما أرادت إحداهن التنصُّل من هذه التَّبِعة، فزعمت أن الذُّكورة والأُنوثة تأتي من قبل الأب فحسب!

تقول إحدهن[3]:

ما لأبي حمزةَ لا يأتينا *** يظلُّ في البيت الذي يلينا

غضبانَ أَلَّا نلدَ البنينا *** تالله ما ذلك في أيدينا

وإنما نأخذُ ما أُعطينا *** ونحن كالأرض لزارعينا!

**وثانيًا:** فـ«الصُّلْب»- وهو: الظهر والعمود الفقري- رمز للقوة والنشاط والعمل، وهو مأخوذ من: الصلابة، وهي: الشدة، ففي الانسان خيط من القوة والعزيمة والدَّأْب، وهو في الذكور أظهر.

و«**الترائب**» والاضلاع وما حولها رمز للِّيونة والرِّقة والعاطفة والحنان، وهي في الانسان ضرورة لإنسانيته وحياته وعلاقاته العائلية والاجتماعية.

والانسان يتكوَّن من هذا وهذا، وإذا غلب أحدهما على الحياة اضطربت وفقدت اتزانها.

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة الإنسان».

(2) التثريب: التوبيخ واللَّوم.

(3) ينظر: «البيان والتبيين» (1/ 165)، و«العقد الفريد» (4/ 72)، و«محاضرات الأدباء» (1/ 397).

وذكر «السماء ذات الرَّجْع»، ثم «الأرض ذات الصَّدْع» يشير إلى التكامل والتناسق والتشابه في قوانين الخلق والحياة: ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [الملك: 3].

**وثالثًا**: يقول الشيخ الامام الطاهر ابن عاشور في «التحرير والتنوير»:

«وأصل مادة كلا الماءين مادة دموية، تنفصل عن الدماغ وتنزل في عرقين خلف الأذنين، فأما في الرجل فيتصل العرقان بالنُّخَاع- وهو الصُّلْب- ثم ينتهي إلى عرق يسمى: الحبل المنوي، مؤلَّف من شرايين وأوردة وأعصاب، وينتهي إلى الأنثيين، وهما الغدتان اللتان تفرزان المني، فيتكون هنالك بكيفية دُهنية، وتبقى منتشرة في الأنثيين إلى أن تفرزها الأنثيان مادة دُهنية شحمية ...

وأما بالنسبة إلى المرأة، فالعرقان اللذان خلف الأذنين يمران بأعلى صدر المرأة- وهو الترائب- لأن فيه موضع الثديين، وهما من الأعضاء المتصلة بالعروق التي يسير فيها دم الحيض الحامل للبويضات التي منها النسل...»[1].

* ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ إِذَا قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٢٢﴾:

أي: قادر على إرجاع الإنسان حيًّا بعد موته، وثَمَّ تناسب قوي بين ما سبق ذكره من بداية الخلق، ومن وجود الحفظة.

والضمير يرجع إلى الله تعالى بلا خلاف، وإن لم يكن لفظ الجلالة مذكورًا في السورة، إِلَّا أنه معلوم في الأذهان.

ومرجع الضمير في ﴿۝٨﴾ إلى الإنسان، على الصحيح، أي: أن الله تعالى قادر على إعادة الإنسان بعدما يموت، وهذا هو الذي سوف يحدث، فكأن الآية تحدَّثت

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (30/ 264).

عن قدرة الله سبحانه وتعالى على البعث، ولكنها لم تقرِّر هذا المعنى، فمجرَّد القدرة لا تعني تحقُّق وقوع الشيء حتى يأتي الإخبار عن حتمية وقوعه من الله.

ولهذا قال بعد ذلك: ﴿قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ فأخبر أن الرجوع سيتحقَّق.

**فقيل**: إن المقصود بقوله: ﴿فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ أي: على رجع الماء الذي يخرج من الإنسان، بحيث لا يخرج، كما قال: ﴿عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [الملك: 30]، أو على رجع الشيخ إلى شبابه، وهذه ذكرها غير واحد[1].

وهذه المعاني وإن كان الله قادرًا عليها، لكنها ليست المقصودة في الآية فيما يظهر؛ فالمقصود أن الله تعالى قادر على إعادة الإنسان للحياة بعد موته، **ولذلك قال**: ﴿قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾، وهذا صريح في أن المقصود يوم البعث، أي: أن رجوع الإنسان هو في ذلك اليوم الذي تُبلى فيه السرائر.

و﴿أَوْ﴾: تُختبَر وتُكشَف وتظهر، وهنا نلاحظ تناسبًا قويًّا بين هذه الآية وبين قوله: ﴿يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ﴾، فقد حُفِظَت الأعمال في الكتب المطوية، كما قال: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: 52- 53].

و﴿أَدْنَىٰ﴾ جمع: سَرِيرة، **والمقصود بها هنا**: الأفعال التي فعلها الإنسان سرًّا، دون أن يراها الناس، والنيات والمقاصد؛ حيث إن الإنسان قد يعمل عملًا ظاهره خير،

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 297- 299)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 312)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 180)، و«المحرر الوجيز» (5/ 466)، و«زاد المسير» (4/ 429)، و«تفسير الرازي» (31/ 121)، و«تفسير القرطبي» (20/ 7)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 376).

ومقصده سيئ، فتظهر السرائر يوم القيامة، وحينئذ تسودُّ وجوه وتبيضُّ وجوه كما ذكر الله عز وجل[1].

* ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ أَنتُمْ ﴾:

أي: الإنسان، فمن أين تأتيه القوة والناصر وقد خُلق من ماء مهين؟!

**والفرق بين القوة وبين الناصر**: أن **القوة** من النفس، **والناصر** من خارجها، كما قال الله: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا ﴾ [الكهف: 43]، أي: فلا ناصر له من غيره، ولا هو من المنتصرين بنفسه[2].

**وقد يكون المعنى**: أن القوة هي قوة المجموع، كالقبيلة؛ والناصر هو الحليف الذي ينصرها من غيرها[3].

فقد تفلَّتت يده من جميع أنواع القوة الذاتية والخارجية.

**يستشكل بعض الناس ثبوت الشفاعة يوم القيامة التي هي نوع من النصرة؟**

**فيجاب** بأن المقصود الإنسان الكافر[1]، وقد ذكر الله تعالى الكفار فقال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ [المدثر: 48]، وذكر أن الشفاعة لَمن ارتضى، فقال:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 300)، و«تفسير الماوردي» (6/ 247)، و«تفسير السمعاني» (6/ 204)، و«تفسير البغوي» (5/ 239)، و«زاد المسير» (4/ 429)، و«تفسير القرطبي» (20/ 8)، وما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ﴾.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (15/ 269)، (24/ 297- 299)، و«تفسير السمرقندي» (2/ 348)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 180)، و«الكشاف» (2/ 724)، و«زاد المسير» (4/ 429)، و«تفسير الرازي» (21/ 466)، (31/ 121)، و«تفسير القرطبي» (10/ 410)، و«تفسير ابن كثير» (6/ 257).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 301)، و«تفسير الماوردي» (6/ 248)، و«تفسير القرطبي» (20/ 10)، و«تفسير الرازي» (31/ 122)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 452)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 376).

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: 28]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: 109]، فتكون الشفاعة للمؤمنين كما وردت به السنة النبوية[2]، أما غيرهم فليس لهم من قوة، وليس لهم من ناصر.

**وقد يقال:** إن المقصود جنس الإنسان، وأنه ليس له من قوة ولا ناصر، فإنا نقول: إلا بإذن الله! فيُستثنَى من ذلك الشفاعة وغيرها مما ورد في الكتاب والسنة.

والنفي هنا مصحوب بـ﴿عَبْدِهِۦ﴾، فهو نفي مؤكَّد مستغرِق، فكأنه يقول: ليس له أدنى قوة ولا أدنى ناصر، فهو أقوى مما لو قيل: «ليس لك قوة ولا ناصر».

* ﴿كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰٓ إِلَّا﴾:

قَسَمٌ جديد، وهو قَسَمٌ ثنائي، أقسم تعالى بالسماء وبالأرض، ووصف السماء بأنها ذات الرَّجع.

و﴿مَا﴾ يُحتمَل أن يكون المطر الذي ينزل مرة بعد أخرى في كل عام، فهو يرجع للناس ويحيي الله به الأرض بعد موتها[3].

أو أن المطر يخرج من الأرض، ثم يذهب إلى السماء، ثم يعود إلى الأرض، فالمطر من البحر[4].

وقد كان هذا معروفًا عند العرب في الجاهلية، والهذلي يصف السَّحاب فيقول[1]:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 301)، و«تفسير الرازي» (3/ 494)، (31/ 122)، و«تفسير ابن كثير» (1/ 256، 257).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (4712)، و«صحيح مسلم» (183، 193- 195).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 302- 304)، و«المحرر الوجيز» (5/ 416)، و«تفسير القرطبي» (20/ 10)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 376)، و«التحرير والتنوير» (30/ 266).

(4) ينظر: «الكشاف» (4/ 736)، و«تفسير الرازي» (31/ 122)، والمصادر السابقة.

شَرِبْنَ بماء البحر ثم تَرَفَّعَتْ *** مَتَى لُجَجٍ خُضْـرٍ لهنَّ نَئِيجُ[2]

فماء البحر يرفعه الله تعالى بإذنه، فتنشأ به السُّحب، ثم يرجع، وفيه شبه مع الماء الدافق، فكما أن بالمطر تحيا الأرض، وينبت الزرع، فكذلك بالماء الدافق يتخلَّق الناس.

﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ تنصدع وتنشق عن النبات، والأرض هنا صبورة موطأة ذلول، وهي أخلاق الأنثى في أجمل حالاتها[3].

وفيه شبه مع دور المرأة التي تتصدَّع بخلق الإنسان، وهذه كرامة للمرأة؛ فالأنبياء خُلقوا في أرحام النساء.

وثَمَّ تناسب بين ظلام يُشَقُّ بالنجم الثاقب، وبين الأرض التي يشقُّها المطر ثم يخرج منها النبات، وبين المرأة التي هي موضع النسل، وبين الأرض التي هي موضع الحرث والزرع.

وهنا يتبيَّن فضل الإنسان على السماء والأرض، فما هي إلَّا جمادات مسيَّرة، لكن الذكر والأنثى مخلوقان لهما إرادة واختيار: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: 187]، فجعل للمرأة دورًا مثل الرجل، وليست مثل الأرض تُوضَع فيها البذرة ثم تنمو، دون أن يكون لها إرادة، وإنما هي مجرد محضن لها، بل هو أمر يختاره الرجل والمرأة.

* ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾﴾:

---

(1) ينظر: «ديوان الهذليين» (1/ 51- 52)، و«شرح أشعار الهذليين» (1/ 129)، و«تفسير الطبري» (23/ 540)، و«تفسير القرطبي» (19/ 126) منسوبًا إلى أبي ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي.

(2) «متى» في لغة هُذيل: «من»، والمعنى: أن السحابة استقت ماءها من موج البحار، ثم ارتفعت على سحائب أخرى سود، تمر مرًّا سريعًا في السماء محدثة صوتًا.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 304- 305)، و«تفسير القرطبي» (20/ 11)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 453).

أي: القرآن، وهذا أحسن ما قيل، وعليه جمهور المفسرين، وبعضهم يقول: الضمير يعود إلى الكلام السابق[1]، والكلام السابق من القرآن، والأَوْلى حمل الضمير على القرآن كله.

**والفصل**: الفاصل، كما قال: ﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا﴾ [ص: 20].

فهو يفصل بين الحق والباطل، والخطأ والصواب، وهذا القَسَم الرَّباني على القرآن دليل على أنه محتوٍ على لباب المعاني والأحكام، والأصول والقواعد التي يحتاجها الناس[2].

والعجب من هذه النصوص القرآنية القطعية، التي يقرؤها الصغار والكبار، ثم إذا نظرت إلى عموم الناس وجدت منهم الإعراض عن قراءة القرآن وتدبُّره، حتى إنك تجد عند المتعلِّمين وطلبة العلم ولعًا شديدًا بحفظ السنة ومتابعتها، واهتمامًا بالأحاديث والروايات، والرجال، والجرح والتعديل، وما أشبه ذلك، وربما قضى الإنسان وقتًا طويلًا في تخريج حديث، ووصل في النهاية إلى تضعيفه، في حين تسود الغفلة عن المعاني المبذولة في آيات القرآن الكريم من حِكَمٍ وأحكام وعبر وآيات، وتجد أن الدروس في شروح الأحاديث والقراءة فيها والاعتناء بها أكثر من الدروس المعتنية بكتاب الله تدبُّرًا وتفسيرًا، وحتى الدروس القرآنية غالبًا ما تنصرف إلى جوانب لغوية أو فقهية أو خلافية دون ملامسة لمقاصد القرآن وهداياته ومعانيه ودلالاته!

وأحسب أن هذا من أعظم أسباب التخلف الذي يعانيه المسلمون اليوم؛ حيث تجد العقلية الإسلامية مستغرقة في جزئيات وتفاصيل، مع أن الوقت يجب أن يُصرَف

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 313)، و«تفسير الماوردي» (6/ 249)، و«تفسير القرطبي» (20/ 11)، و«تفسير البغوي» (5/ 240)، و«زاد المسير» (4/ 430)، و«تفسير الرازي» (31/ 123).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 736- 737)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 304)، و«تفسير النسفي» (3/ 628)، و«تفسير أبي السعود» (9/ 142)، و«روح المعاني» (15/ 311)، والمصادر السابقة.

للبحث في القضايا الكبار، والأمور العظام؛ ولذا فإن الإفادة من دلالات القرآن ومعانيه، تجعل الإنسان كبيرًا في عقله، كبيرًا في فهمه، كبيرًا في اهتماماته، ولا تقل: أنا أهتم بهذا وهذا معًا.

وهو قول من حيث المبدأ سليم، لكنك لن تستطيع له تحقيقًا؛ لأنه إذا استغرق الإنسان في شيء قَصَّر في غيره.

ولهذا فإن مما أغفل المسلمين عن تدبُّر القرآن، والتخلُّق بأخلاقه، والعمل بشريعته؛ ما وقعوا فيه من تعصُّب مذهبي؛ لأنهم أُولعوا بكتب الفقهاء، ثم انفتح كثير من طلبة العلم في رِدَّة فعل لذلك التعصُّب على رفض التقليد؛ والأخذ مباشرة من أحاديث السنة، لكن ترتَّب على الإفراط في هذا الأمر؛ أن غلوا في الكثير من التفاصيل والفروع، وغفلوا عن اللباب والأصل الذي هو القرآن الكريم.

والقرآن ﴿وَلَقَدۡ﴾ فيما يختلف المؤمنون فيه، وما أكثر الخلافات والصراعات التي توجد حلولها في القرآن، في حين أن كثيرًا من الناس لا يرجعون إلى القرآن.

هذه ليست دعوة إلى إهمال الحديث، ولا إهمال الفقه، ولا الجور على شيء من علوم اللغة أو الأصول أو سواها، لكن إلى وضع الأمر في نصابه ولجم الاندفاع بأكثر مما ينبغي مما يحدث ارتباكًا وخللًا في «فقه المقادير»، و﴿ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الطلاق: 3].

* ﴿نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ رَبِّهِمۡ﴾:

أثبت سبحانه أنه «قول فصل»، ثم نفى عنه الهَزْل، وبيَّن أن ما أخبر به من الحفظة أو الوعد أو الوعيد أو غيرها؛ ليس مجالًا للهَزْل.

وفيه لوم لَمن يجعل من الجِدِّ هَزْلًا، فإذا ذُكر لهم البعث الذي ذكره الله تعالى هنا، قال قائلهم: ﴿إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الكهف: 36] أو أخذ عظمًا باليًا

ففتَّه ونفخه، وقال: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: 78]، فهؤلاء اتخذوا القرآن هزوًا وهزلًا.

* ﴿سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ مَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ صَاحِبُكُمۡ﴾:

يعني الكافرين[1]، وهذا يرجِّح أنهم المقصودون فيما قبله.

**والكيد** هو: المكر الخفي[2]، والله تعالى أكَّد كيدهم بقوله: ﴿١٤﴾، ولم يقل: «كيدًا عظيمًا»، ولا: «كيدًا سهلًا»، وهذا من الإعجاز؛ فهو كيد عظيم وسهل، كما قال تعالى: ﴿١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ﴾ [إبراهيم: 46].

**وقد قيل**: إن المقصود الإشارة إلى عظمة كيدهم، **وقيل**: الإشارة إلى هوانه[3].

فكيد الكفار عظيم بالقياس إلى قدرة الناس وطاقتهم، وهيِّن؛ لأن الله يبطله؛ فهو لا يُصلِح عمل المفسدين.

﴿جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ جعله كيدًا مطلقًا؛ ليدل على أنه كيد يليق بعظمته سبحانه.

**والمعنى**: كيدهم يليق بهم، والكيد من الله تعالى يليق به، فكيدهم يتصف بصفات البشرية من الضعف والعجز، والكيد من الله يتصف بمطلق القوة والشدة على ما يليق بجلاله.

وجاء ذكره هنا على سبيل المقابلة والمشاكلة؛ لأن فعل الله تعالى لا يُوصَف بالكيد إِلَّا على سبيل مقابلة فعلهم، كما قال: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾ [النمل: 50]..

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 307)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 313)، و«زاد المسير» (4/ 430)، و«تفسير القرطبي» (20/ 11)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 453)، و«التحرير والتنوير» (30/ 268).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 307)، و«تفسير السمعاني» (6/ 204)، و«تفسير القرطبي» (7/ 343)، (11/ 297).

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (28/ 222).

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ [آل عمران: 54]، أي: أن الله تعالى يكيد لِمَن يكيدون له، ولرسله[1].

* ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا عَنِ﴾:

أي: انتظر لهم، وأعطهم فرصة[2].

وهذا أمر مُوَجَّه للنبي صلى الله عليه وسلم، وقد تفهَّم هذا الأمر، وتأدَّب به، حتى إنه لما جاءه مَلَك الجبال وعرض عليه أن يُطبِق عليهم الأَخْشَبين[3]، قال: «**بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ من أصلابِهم مَنْ يعبدُ اللهَ وحدَه لا يشركُ به شيئًا**»[4]. فهذا من أثر تعلُّمه صلى الله عليه وسلم في مدرسة القرآن.

**أما الفرق بين «مَهِّل» و«أَمْهِل»** فهو مثل الفرق بين: نزَّل وأَنْزَل، أو: علَّم وأَعْلَم، فـ«علَّم، ونزَّل» فيها تدريج وبطء، أما «أَعْلَم، وأَنْزَل» ففيها مباشرة، فكأنه قال: مَهِّلْهم، أي: ببطء وتدرج.

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (28/ 222)، (31/ 123)، و«تفسير القرطبي» (20/ 11)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 453)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 146)، و«الإتقان» (3/ 140، 322)، و«روح البيان» (10/ 401)، و«فتح القدير» (1/ 395)، (2/ 494)، و«روح المعاني» (2/ 171)، (5/ 186)، و«التحرير والتنوير» (30/ 268)، و«أضواء البيان» (8/ 496).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 307)، و«تفسير الماوردي» (6/ 250)، و«تفسير السمعاني» (6/ 205)، و«الكشاف» (4/ 737)، و«تفسير الرازي» (31/ 123)، و«تفسير القرطبي» (20/ 12)، و«التحرير والتنوير» (33/ 268- 269)، والمصادر السابقة.

(3) أي: جبلي مكة: أبي قُبيس وقُعَيْقِعان، سُمِّيا بذلك؛ لصلابتهما وغلظ حجارتهما.

(4) أخرجه البخاري (3231، 7389)، ومسلم (1795) من حديث عائشة رضي الله عنها. وينظر ما تقدم في «سورة المعارج»: ﴿ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾، وما سيأتي في «سورة الشرح»: ﴿ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ طَغَىٰ ﴾.

أما الثانية: ﴿رُوَيۡدَۢا﴾ فهي سريعة؛ لأنها مقيَّدة بقوله: ﴿مَا﴾ أي: وقتًا يسيرًا، فكأن قوله: ﴿رُوَيۡدَۢا﴾ دليل على قرب العقاب الذي ينتظرهم[1].

**وقيل**: إن الجمع بين «مَهِّل»، و«أَمْهِلْهم» تكرير للتأكيد؛ لقصد زيادة التسكين، وخولف بين الفعلين في التعدية مرة بالتضعيف، وأخرى بالهمز؛ لتحسين التكرير[2].

ويرى بعض العلماء أن هذه الآية منسوخة بآية السيف: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: 5].

**والراجح** أنها غير منسوخة، ولكنها مُنـزَّلة على حال، وتلك الآية مخصوصة بحال[3]، والله أعلم.



(1) ينظر: «زاد المسير» (4/ 430)، و«تفسير القرطبي» (20/ 12)، و«روح المعاني» (15/ 312).

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (30/ 268)، والمصادر السابقة والآتية.

(3) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» للمقري (ص196)، و«الناسخ والمنسوخ» لابن حزم (ص65)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (2/ 624)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص496)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 472)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 449)، و«دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» للشنقيطي (ص256).

## سورة الأعلى

*** تسمية السورة:**

أشهر أسمائها عند جمهور أهل التفسير، وعليه غالب المصاحف: «**سورة الأعلى**»[1]؛ أخذًا من هذا الاسم المتميِّز الذي خُصَّت به السورة.

وتسمَّى: «**سورة** ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾»[2]، بالآية الأولى منها، وورد هذا في قصة معاذ رضي الله عنه لما أطال بقومه الصلاة، وشكاه رجلٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**فلولا صليتَ بـ**﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾...»[3].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «ما قدم النبيُّ صلى الله عليه وسلم المدينةَ حتى قرأتُ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ في سُور من المُفَصَّل»[4].

وعن النعمان بن بَشِير رضي الله عنهما قال: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في العيدين، وفي الجمعة بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾»[5].

---

(1) ينظر: «سنن النسائي الكبرى» (10/ 332)، و«تفسير الطبري» (24/ 309)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 315)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 182)، و«المحرر الوجيز» (5/ 468)، و«تفسير القرطبي» (20/ 13)، و«التحرير والتنوير» (30/ 271).

(2) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 418)، و«صحيح البخاري» (6/ 168)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 120)، و«التحرير والتنوير» (30/ 271).

(3) أخرجه البخاري (705)، ومسلم (465) من حديث جابر رضي الله عنه.

(4) أخرجه البخاري (3925، 4941).

(5) أخرجه مسلم (878).

وتسمَّى: «**سورة** ﴿﴾»[1]، ومنه قول الفقهاء: يقرأ في الجمعة بـ﴿﴾، و﴿شَدِيدٌ﴾[2].

❊ **عدد آياتها:** تسع عشرة آية باتفاق العلماء[3].

❊ **توقيت نزولها:**

الجمهور على أنها مكية.

**والدليل على ذلك**: حديث البراء رضي الله عنه المتقدِّم، وقد ذكر أكثر العلماء أنها السورة الثامنة من حيث النزول.

**ومما يؤكِّد مكيَّتها**: الموضوعات التي تناولتها؛ فإن فيها الحديث عن تسبيح الله، والإيمان به، والوعظ الذي يَكثُر في السور المكية.

**وذهب بعضهم إلى أنها مدنية**، أو فيها آيات مدنية، ويُنْسَب هذا لأبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه، وغيره.

وحملوا قوله سبحانه: ﴿تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَا﴾ على زكاة الفطر وصلاة العيد، وهاتان الشعيرتان لم تشرعا إِلَّا بعد الهجرة.

**والصحيح** أن السورة مكية كلها[1]، وعلى فرض أن المقصود بالآيتين: صلاة العيد وصدقة الفطر، فلا يلزم منه أن تكون السورة مدنية؛ لأن هذا قد يكون مما تضمَّنته الآيات من المعاني، لا أنها نزلت في مشروعيتها[2].

---

(1) وسُمِّيت في «تفسير مجاهد» (ص722): «سورة سبح الأعلى».

(2) ينظر: «تفسير ابن فورك» (3/ 198)، و«زاد المعاد» (1/ 205)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 377)، و«تحبير التيسير في القراءات العشر» (ص610)، و«روح المعاني» (15/ 313)، و«التحرير والتنوير» (30/ 271).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 309)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص271)، و«تفسير القرطبي» (20/ 13).

* ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾:

أمرٌ للنبي صلى الله عليه وسلم، والتسبيح لفظ معروف متداوَل في القرآن الكريم، وغالبًا ما يُطلَق على مجمل التعبُّد، كما في قوله سبحانه: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [الصافات: 143- 144]؛ أي: فلولا أنه كان من الذاكرين الله والمستغفرين ونحو ذلك.

وهو لفظ عربي معروف المعنى، **وقيل**: إنه من اللسان العبراني، ولكنه عُرِّب، ولا بأس بهذا، **وهو هنا يشمل أربعة معانٍ**(3):

1- تنزيه الله سبحانه عما لا يليق به، مما نَسَبَهُ إليه المشركون أو الجاهلون، عن الصاحبة والولد، والعجز واللغوب والجهل، وكل معاني النقص، ونفي النقص لا يلزم منه إثبات الكمال.

2- إثبات صفات الكمال له عز وجل، وإثبات أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وكماله المطلق، وجلاله وجماله، وعظمته ومجده وسلطانه، وعلمه وقدرته، وحكمته ورحمته، وكل ما ورد في مُحْكَمات النصوص من معاني الكمال.

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 737)، و«المحرر الوجيز» (5/ 468)، و«زاد المسير» (4/ 431)، و«تفسير الرازي» (31/ 136)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 377)، و«فتح القدير» (5/ 513)، و«التحرير والتنوير» (30/ 271- 272)، وما سيأتي في أول «سورة البينة».

(2) ينظر: «كتاب الزكاة من شرح بلوغ المرام» (ص17- 21)، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ ﴾، و«سورة المعارج»: ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 309- 310)، و«مشارق الأنوار» (2/ 203)، و«تفسير الرازي» (31/ 125)، و«تفسير القرطبي» (20/ 14)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 455)، و«إرشاد الساري» (7/ 416)، و«التحرير والتنوير» (30/ 273)، وما تقدم في «سورة التغابن»: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾.

3- تنزيه اسم الألوهية عن أن يُطلَق على الأوثان، كما كانت العرب تُطلق على اللَّات والعُزَّى ومَنَاة الثالثة الأخرى ألفاظ الألوهية، وتمنحها شيئًا من ذلك؛ أي: نزِّه ربَّك أن تطلق اسمه الشريف العظيم المقدَّس على غيره من الأوثان.

وهذا الذي ذكره الطبري وابن حزم والرازي وكثير من أهل العلم[1]، وأخذوه من قوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ ﴾، فقالوا بأن ذكر الاسم معناه: لا تطلق هذا الاسم على غير الله عز وجل.

4- أن تنزِّه الله تعالى عن أن تتسبَّب في سبِّه سبحانه، وهذا معنى لطيف، وإن لم يكن ظاهرًا في الآية، كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 108]، نهى تعالى المؤمنين أن يسبُّوا آلهة المشركين؛ لئلا يتجرَّأ المشركون فيسبُّوا الله عَدْوًا بغير علم.

فعلى المؤمن أَلَّا يأتي بابًا من أبواب الخير، إذا كان سيترتب عليه مفسدة أعظم، ولعل هذا مرتبط بقوله تعالى في آخر السورة: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾، وسنزيد الأمر إيضاحًا عند تلك الآية الكريمة.

وذكر بعضهم أن لفظة ﴿مَا﴾ في الآية تُعَدُّ صلة زائدة، كما نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وأن معنى قوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾: سبِّح ربَّك[2]، ويستدلون بقول لَبِيد الشاعر[3]:

---

(1) ينظر: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (5/ 19)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 305)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 310)، و«تفسير السمعاني» (6/ 206)، و«المحرر الوجيز» (1/ 56)، (2/ 420)، و«تفسير البغوي» (5/ 241)، و«تفسير الرازي» (31/ 126)، و«تفسير القرطبي» (20/ 13).

(3) ينظر: «ديوان لبيد» (ص51).

إلى الحولِ ثم اسمُ السلامِ عليكما *** ومَن يَبْكِ حولًا كاملًا فقد اعتذرْ

**وقصده**: ثم السلام عليكما، وبعضهم يقول: لفظ زائد، لكنهم يكرهون أن يطلقوا الزيادة على شيء من القرآن الكريم؛ تأدبًا مع قدسيته.

وفي آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ﴾ [الواقعة: 74] بزيادة الباء، وعدل عن أن يقول: «سبح اسم الله»، لأن «الربَّ» مختصٌّ بالتربية والعناية والرعاية والعطف واللُّطف، وهذه من أعظم الإفضالات والإنعامات التي يجود بها على العباد عامة، ففضله عامٌّ للخلق، وخاصٌّ للبشر، وهو للمؤمنين أخصُّ، أما الأنبياء فلهم من مقامات الصفاء والتكريم والعناية واللطف ما لا يقدر قدره إِلَّا هو سبحانه.

وناسب أن يذكر اسم الرب هنا؛ لأن المقام مقام ثناء على عطائه ونعمه وإكرامه، فلفظ الربوبية أليق؛ لأن الرب يُطلق على الخالق، وعلى المالك المتصرِّف، وعلى المُنْعِم.

و﴿ٱلْبَصَرُ﴾ تفضيل من العلو، ولا يختص بالله، ولذا قال: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: 68].

فالأسماء التي تختصُّ بالله تعالى، ولا تُطْلَق على غيره: «الله»، و«الرحمن»[1].

**والله** هو ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾، و﴿ٱلْبَصَرُ﴾ في معناه، وتدل على كمال العلوِّ، ونحن نؤمن لله تعالى بالعلو من جميع وجوهه، فله العلوُّ في ذاته، حيث استوى على العرش، وهو فوق السماوات: ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ﴾ [النحل: 50]، وهو معنى قررته الشريعة، ودَلَّت عليه الفطرة، ودلَّ عليه العقل، وله علوُّ القهر والغلبة والسلطان، وله علوُّ القَدْرِ والمكانة[2].

---

(1) كما تقدم في «سورة الفاتحة».

(2) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص48)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص108)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص163- 164).

و﴿ٱلۡبَصَرُ﴾ صفة للرب، وليس صفة لـ﴿مَا﴾؛ لأنه قال بعدها: ﴿طَغَىٰ ١٧ لَقَدۡ﴾، فالذي خلق وسوَّى هو ﴿زَاغَ ٱلۡبَصَرُ﴾.

ولا بأس أن يكون المقصود الاثنين معًا، فيكون وصفًا للاسم، ووصفًا للرب؛ لأن الاسم مَردُّه إلى الله، فالمقصود أسماء ربك العليا، أي: سبِّح ربك بأسمائه العليا؛ لأن العبد إذا أُمِر بتسبيح خالقه، فلن يسبِّحه إِلَّا بذكر أسمائه الحسنى، فإن الأصل أن يُثني العبد على الله بأسمائه وصفاته وأفعاله التي وردت في القرآن والسنة وما في معناها، ولا يخترع أشياء من عنده.

ولو أن الإنسان وصف الله تعالى بأمور من عنده، فإن كانت مما ورد معناه في القرآن والسنة، فلا بأس بها، من غير أن تكون أسماء؛ لأن الأسماء توقيفية، كقولك: «يا وجدان المحرومين، ونصير المظلومين، وأمان الخائفين، ودليل التائهين». فهذه معان صحيحة، وكان من دعاء الإمام أحمد رحمه الله: «يا دليل الحائرين، دُلَّني على طريق الصادقين»[1].

فلا حرج أن تُقال على سبيل الخبر، أو على سبيل الوصف، دون التسمية.

أما إن دلَّت على معنى غير مناسب أو مشتبه، فيجب الإعراض عنها؛ صونًا لمقام الألوهية، والتزامًا للأدب مع الرب سبحانه[2].

والذكر الذي يملأ القلوب بالإيمان والسكينة والطُّمأنينة، ويقرِّب إلى الله، ويحقِّق ما أمر به سبحانه؛ هو الانهماك في التسبيح، والثناء على الله والتقرُّب إليه، وليس أن ننخرط في جدال: هل الاسم هو عين المُسمَّى، أو هو غيره؟ وهذا مما طرحه

---

(1) ينظر: «مجموع الفتاوى» (11/ 386)، (22/ 483).

(2) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للسعدي (ص159)، و«القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى» لابن عثيمين (ص13)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص38).

بعض المفسِّرين، في هذه الآية، وخاضوا في مجادلات تَحْرِمهم لذة الاستمتاع بالنصِّ وتأمُّل معانيه الجميلة، وتلطيف وهج النفس وصخب الحياة بدلالاته وآياته.

إن لله تعالى الأسماء الحسنى، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**إن لله تسعةً وتسعين اسمًا، مئةً إلا واحدًا، مَن أحصاها دخلَ الجنةَ**»(1).

والحديث لا يعني حَصْر الأسماء الحسنى، وإنما المقصود أن من أسمائه تسعة وتسعين اسمًا مَن أحصاها دخل الجنة، وإِلَّا فإنه لا يحصي أسماءه إِلَّا هو سبحانه، حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما في حديث الشفاعة أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم يأتي فيخرُّ ساجدًا تحت العرش، قال: «**ثم يفتحُ اللهُ عليَّ، ويُلْهِمُني من محامِدِه وحُسنِ الثناءِ عليه شيئًا لم يفتحْهُ لأحدٍ قبلي**»(2).

ولله تعالى من المحامد ما لم يعلمه النبي صلى الله عليه وسلم، حتى في ذلك المقام، على جلالة قَدْره صلى الله عليه وسلم! فإن الله تعالى له الكمال المطلَق الذي لا يحيط به إِلَّا هو.

وفي الحديث: أنه لما نزلت هذه الآية ﴿١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾، قال صلى الله عليه وسلم: «**اجعلوها في سجودِكم**»(3). وهذا مناسب؛ لأن السجود هو المقصود الأعظم في الصلاة، وما قبله كالتهيئة له، فالقيام ثم الركوع كالتحية، ثم السجود هو نهاية المطاف وذروة التعبُّد لله سبحانه، فاختار النبيُّ صلى الله عليه وسلم هذا اللفظ

---

(1) أخرجه البخاري (7392)، ومسلم (2677) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) أخرجه البخاري (4712)، ومسلم (194) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وينظر ما تقدم في «سورة الحشر»: ﴿مَا يَغْشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ١٨﴾.

(3) أخرجه الطيالسي، وأحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم، وغيرهم، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وتقدم تخريجه في «سورة الواقعة»: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

للسجود، إشارة إلى أن الإنسان في هذا المقام يقرُّ لله بالعظمة والمجد، والكمال والفضل، ويقرُّ لنفسه بالعبودية والضعف، فكلما زاد الإنسان ذلًّا، زاد تعظيمًا لله، وقربًا منه.

وكَمْ لله مِــن لُـطْــفٍ خَـفيٍّ *** يَدِقُّ خَفَاهُ عن فَهمِ الـذَّكـيِّ
وكم يُسْرٍ أتى مـن بـعـد عُسْر *** ففرَّج كُربةَ القلـبِ الشَّجـيِّ
وكَمْ أَمْرٍ تُـسـاءُ بـه صبـاحًـا *** وتأتيــك المَسَـرَّةُ بالعشــيِّ
إذا ضَاقتْ بك الأحوالُ يومًا *** فثِقْ بالواحدِ الصَّمد العلـيِّ[1]

* ﴿طَغَىٰ ⑰ لَقَدۡ رَأَىٰ﴾:

كرَّر الاسم الموصول؛ لأن المقصود التعريف بالله سبحانه، فيناسب ذكر ما يدل عليه في مطلع كل آية؛ ليرجع إليه الفعل والخلق والقدرة وإخراج المرعى.

**وبدأ بالخلق**؛ لأنه أول أدلة الألوهية، فعند ما تتأمَّل الفرق بين الحي والميت، وبين الإنسان والجماد؛ تجد معنى الألوهية العظيم.

ولذلك كان الأنبياء عليهم السلام يستدلُّون على الله تعالى بالخلق، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: 50]. وقال إبراهيم عليه السلام:

﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ﴾ [البقرة: 258]. وقال: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن﴾ [الشعراء: 81]. والنبيُّ صلى الله عليه وسلم أول ما نزل عليه: ﴿⑨ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ طَغَىٰ﴾ [العلق: 1][2].

---

(1) ينظر: «النور السافر عن أخبار القرن العاشر» (1/ 389)، و«ديوان علي رضي الله عنه» (ص217).

(2) كما في حديث بدء الوحي، ينظر ما تقدم في «سورة المدثر»، وما سيأتي في «سورة العلق».

فالإبداع والخلق وإيجاد الحياة في الأرض، أو في الإنسان، من أعظم دلالات العظمة الربانية والإبداع والفضل، ولم يقل: «وسوَّى»، بل جاء بالفاء التي تدلُّ على الاتصال القوي بين الخلق والتسوية.

**والمقصود بالتسوية**: أن يكون خلقه حسنًا، كما قال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ ﴾ [التين: 4]، ولذلك قال بعض المفسرين: خلق الإنسان. وقال بعضهم: خلق آدم. وقال بعضهم: خلق الأحياء[1].

**والصواب أن نقول**: خلق كلَّ شيء فسوَّاه، حتى السماوات، والأرض، والجمادات، وغيرها، كما يدل لذلك قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [الملك: 3]، فخلقه وتسويته شاملة لا تقتصر على خلق آدم، أو الإنسان، أو الحيوان.

فالتسوية آية أخرى، وهي الجمال في الخلق والإبداع، والحسن والنظام الذي يجده الإنسان في مخلوقات الله.

والفاء تشير إلى أن الأمر الثاني مقصود مثل الأول، أو أشد؛ أي أن التسوية مقصودة مثل الخلق؛ ولو وُجِد خلق بغير تسوية لم تكتمل به الحكمة ولا النعمة.

فالانتظام والدقة والكمال في الخَلْق في الأجهزة والأعضاء والغرائز في الشيء الواحد، ثم بين المخلوقات المتعدِّدة في تكاملها وتسخير بعضها ببعض، وقيام بعضها ببعض.. هو من كمال القدرة والحكمة والرحمة والإرادة

* ﴿مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ رَبِّهِ﴾:

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 315)، و«الوجيز» للواحدي (ص1194)، و«تفسير الماوردي» (6/ 252)، و«تفسير السمعاني» (6/ 111)، و«تفسير البغوي» (5/ 241)، و«تفسير القرطبي» (20/ 15)، و«فتح القدير» (5/ 514)، و«التحرير والتنوير» (30/ 275).

الجمهور يقرؤون ﴿ءَايَٰتِ﴾ بالتشديد، وقرأها الكِسائي بالتخفيف: ﴿قَدَرَ﴾[1].

جانب آخر من الإعجاز، والذي عليه أكثر المفسرين أن معنى ﴿ءَايَٰتِ﴾: جعل لكل شيء ما يناسبه، وخلق كل شيء، من الطير، والحيوان، والسباع، والهوام، والنجوم، والسماء، والأرض وفق سنن تحكمه في ذاته، وله نظام في الحياة والنماء والتكاثر والزوال، وله تناسب مع غيره، كما قال: ﴿سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا﴾ [الفرقان: 2][2].

ثم هداه لما خلقه له، هدايةً فطريةً غريزيةً، وخلق كل شيء لغاية، ثم هدى المخلوق لما خلقه من أجله[3].

والطفل منذ ولادته إذا جاع عبَّر عن ذلك بالبكاء، وإِلَّا لمات جوعًا دون أن يُفطن له، ثم قدَّر له أن يمتصَّ اللَّبَن من ثدي أمه، وهو لا يعرف ولا يدري ما هذا الذي يلتقمه، لكن الله ألهمه أن في ذلك غذاءه!

حتى الحيوان يسقط من بطن أمه ثم يركض إلى ثديها.. مَن الذي ألهمه وعلَّمه؟ ومَن الذي علَّم أمه أن هذا ولدها، فترومه وترضعه، وترفض ما سواه؟

حتى الولادة نفسها هي نتيجة هداية، فالله هو الذي هدى الذكر والأنثى إلى الاتصال ببعضهما، فهَدَى آدم وحواء، وجعل بينهما من الانسجام والعلاقة ما يمهِّد

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 312)، و«السبعة في القراءات» (ص680)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص368)، و«الحجة للقراء السبعة» (5/ 48)، و«حجة القراءات» (ص758)، و«معجم القراءات» (10/ 386).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 311)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 571)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 183)، و«تفسير البغوي» (5/ 241)، و«زاد المسير» (4/ 431)، و«تفسير الرازي» (31/ 128-129)، و«تفسير القرطبي» (20/ 15- 16)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 456).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 311)، و«تفسير الرازي» (31/ 129)، و«تفسير القرطبي» (20/ 15)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 379).

للتواصل الجسدي، وعلَّمهما ما يكون به الإنجاب، وهدى الرحم إلى وضعية مناسبة ودرجة حرارة ملائمة واستعداد ليكون بيئة للطفل، ثم ليدفعه إلى الحياة ويسَّر له السبيل.

وهكذا الطيور والحيوانات والوحوش والدواب، وعند الحيوانات من الغرائز المدهشة ما تتَّقي به المخاطر وتتعرَّف به على الأعداء، وتحصل به على أقواتها وتحمي به صغارها، سمِّها: الغريزة، أو: الفطرة، فهي الهداية، والله تعالى هو الذي ألهمها وغرزها وفطرها.

أما الإنسان فتميَّز بالعقل والنفس وإمكانيَّات هائلة؛ من اللغة والفهم والحوار، والشِّعْر، والنثر، والبيان والإعراب، وهذا تقدير من الله وهداية.

وبها استطاع الوصول إلى الحقائق وحلِّ المشكلات، والتعرُّف على سنن الله في الكون، والاختراع والاكتشاف.

ولذا كان من أسوأ ما يفعله الإنسان لنفسه أن يضيِّع ما قدَّر الله تعالى له، فيترك توظيف عقله، بسبب التقليد والتعصب والهوى، كالذين قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: 22]، أو يترك طلب الرزق؛ اتكالًا على أُعطيات الناس، أو يترك العمل الصالح؛ اعتمادًا على حسبه ونسبه، وإنما ينجو الإنسان أو يهلك بعمله.

* ﴿﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ﴿١٩﴾﴾:

إخراج المرعى نموذج لما سبق، فهذا ربك الذي خلق، ومِن خلقه المرعى، وهو الذي قدَّر فهدى، ومِن تقديره وهدايته أنه هدى الحيوانات إلى المرعى الجيد فترعاه وتأكله، وإلَّا لهلكت.

و﴿ٱللَّٰتَ﴾ يُطلَق على النبات، أي: أخرج النبات، كما يقول الشاعر[1]:

---

(1) ينظر: «ديوان زفر بن الحارث» (ص259).

وقد يَنْبُتُ المرعى على دِمَنِ الثَّرَى *** وتبقى حَزازاتُ النُّفوس كما هِيا[1]

ويُطلَق أيضًا على المكان الذي فيه النبات؛ لأن الغنم ترعاه[2]، فتراه أخضر جميلًا يُؤكل، ثم ينتهي ليصبح ﴿وَمَنَوٰةَ﴾.

**والغُثاء**: التافه اليابس الذي تذروه الرياح[3].

و﴿ٱلثَّالِثَةَ﴾: يميل إلى السَّواد، ويُسمَّى: آدم، من الأُدمة، وهي السمرة، والحُوَّة قريب منها[4]، و﴿ٱلثَّالِثَةَ﴾ مذكر، مؤنثه: حواء، أي: تميل إلى السواد أو الخضرة الشديدة[5].

* ﴿٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ وَلَهُ﴾:

انتقل السياق إلى موضوع مختلف، كأن ذلك إشارة إلى الفرق الهائل بين الإنسان والحيوان، فلذلك أخرج المرعى للحيوان؛ لأنه إنما يهمه أن يأكل ويشرب ويتمتع، أما الإنسان اصطفاه الله، فيعبد، ويسبِّح، ويقرأ، ويتعلَّم، ويؤمن ويتذكَّر، فهي إشادة بإنسانية المؤمن الذي لا يستغرقه الأكل والشرب، والجمال في الصورة، والغنى والشهرة والسلطان، عن التسبيح لله والاقتباس من نوره.

---

(1) **الدِّمن**: ما تلبَّده الإبل والغنم بأبوالها وأبعارها، **والمراد**: نظهر الصلح وقلوبنا تخفي غيره، كما ينبت النبات النضر ويخفي تحته ما تخلفه الإبل.

(2) ينظر: «لسان العرب» (14/ 326– 327)، و«تاج العروس» (38/ 163) «ر ع ي».

(3) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص602) «غ ث ا»، و«لسان العرب» (15/ 115– 116)، و«تاج العروس» (39/ 141) «غ ث و».

(4) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص271)، و«تاج العروس» (37/ 495) «ح و و».

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 312– 313)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 315)، و«تفسير السمعاني» (6/ 208)، و«تفسير البغوي» (5/ 241)، و«المحرر الوجيز» (5/ 469)، و«تفسير القرطبي» (20/ 16– 18)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 379).

وفيه المقارنة بين الدنيا والآخرة؛ لأنه هنا قال: ﴿(١٩)﴾، والفاء تدل على التعقيب؛ إشارة إلى سرعة زوال الدنيا، كما قال: ﴿تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ (٢٥) ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [الكهف: 45][1].

وضرب المثل للدنيا بالمرعى الذي صار غُثاءً أَحْوى، بخلاف الآخرة التي فيها الخلود الأبدي بلا زوال، كما قال في آخر السورة: ﴿تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ (٢٣) أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ﴾، وقال: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾.

فبين أول السورة وآخرها ترابط واضح!

إن ذكر المرعى، وإن كان على سبيل الإشادة بنعمة، وكان العرب يرونها وهم يتنقَّلون بين المراعي، ويعرفون الفرق بين المرعى الوَفِير الذي فيه خير وخضرة وخصوبة، وبين بقايا المرعى التي هي غُثاء أَحْوى؛ إلا أن المقصود أبعد من ذلك، وهو المعنى اللَّطيف في التفريق بين الإنسان والحيوان؛ وكلهم ممن خلق الله فسوَّى، وقدَّر فهدى.

والناس متفاوتون في هدايتهم؛ للتفاوت في عقولهم، ومن الناس مَن هُدِيَ إلى طريق الدنيا فقط، فهذا حصل على نوع من الهداية، ومنهم مَن هُدِيَ إلى طريق الدنيا والآخرة، وهذا هو الكمال.

﴿(٢٠)﴾: وعد وبشارة للنبي صلى الله عليه وسلم، وهذه السورة متقدِّمة، فهي ثامن سورة في النزول[2]، وقد وعد الله سبحانه النبيَّ صلى الله عليه وسلم بأن يُقْرِئه حتى لا ينسى، فكان جبريل عليه السلام يُقْرِئه ويردِّد عليه السور؛ حتى يحفظها صلى

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (30/ 279).

(2) ينظر ما تقدم أول السورة: «**توقيت النزول**».

الله عليه وسلم، وكان يستعجل، فيقرأ مع جبريل؛ خشية النسيان، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ﴾[1].

وقد تحقَّق هذا الوعد، على رغم تشابه بعض الآيات، ومع أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أميًّا، لا يقرأ ولا يكتب، إِلَّا أنه حفظ القرآن، وأتقنه، وأقرأه أصحابه.

وقد تكفَّل الله تعالى بحفظ القرآن، كما قال: ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا﴾ [الحجر: 9]، فضُبِطَ برواية الثقات العدول الذين يروي بعضهم عن بعض إلى النبي صلى الله عليه وسلم، إلى جبريل، إلى ربِّ العزة جل وعلا، فتوافر في هذا الكتاب- على رغم عدم وجود إمكانيَّات في ذلك الوقت- من الضبط والحفظ ما هو من آيات الله المعجزة في حفظ هذا الدين، وتحقيق موعود الله تبارك وتعالى إلى اليوم المعلوم.

وذكر الإقراء، وأنه فعل الله سبحانه؛ إشادة إضافية بالقراءة، وتأكيد على أهميتها، وأنها من أعظم ما ينفع الإنسان، ويحقِّق له زكاة العقل والنفس، أن يطَّلع ويتعلَّم ما ينفعه، واليوم تجد كثيرين يقرؤون ما لا ينفعهم، فإذا نُشِرَت خصومة بين شخصين في صحيفة، أو مناظرة في قناة، وجدتَ الناس يتابعونها، كما يتجمهرون عند ما يحصل صدام في الشارع بين سيارتين أو يصفِّقون في مباراة رياضية، دون أن يكلِّفوا أنفسهم عناء السؤال عما ينتفعون به من ذلك.

إن الذي ينتفعون به هو ما يقوِّي إيمانهم، أو يصحِّح عقولهم، أو ينفعهم في دينهم، أو يعرِّفهم بربهم، أو يعرِّفهم بمصالحهم الدنيوية؛ وربما لا يعيره بعضهم اهتمامًا كاهتمامهم بفضول المعرفة والعلم والاطلاع.

---

(1) أخرجه البخاري (5)، ومسلم (448) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ونَسَبَ الإقراء إلى الله، ونَسَبَ عدم النسيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ إشارة إلى أن الصفات الموجودة فيه هي من فضل الله سبحانه وتعالى، ومن ثَمَّ فأثرها ينبغي أن يكون في طاعته، فقوة الذاكرة نعمة ينبغي أن تُوَظَّف في الخير للإنسان أو لبني جنسه.

وكتب التفسير تُرجِّح أن المقصود بالقراءة هنا: قراءة القرآن[1]، والقرآن مقصود يقينًا، لكن لا مانع من أن يكون المراد بالقراءة أوسع من ذلك، فإن علم النبي صلى الله عليه وسلم ليس مقصورًا على قراءة القرآن، بل جاء في الحديث: «**أَلَا إني أُوتيت القرآنَ ومثلَه معه**»[2]. فالنبيُّ صلى الله عليه وسلم أُوتي من العلوم العظيمة الكثيرة ما جاء بعضه في السنة النبوية، وتلقَّته عنه أصحابه[3].

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ﴾: هذا خبر وليس نهيًا، أي: سنقرئك حتى لا تنسى، فلا تخف أن تنسى شيئًا من القرآن، وهذا قول جمهور المفسرين.

وقال بعضهم: إن قوله ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ﴾ نهي، أي: نحن سنقرئك، وعليك أَلَّا تنسى، فهو نهي للنبي صلى الله عليه وسلم عن أن ينسى، وبقيت الألف هنا مع الجزم من أجل الإطلاق في آخر الآية. **والمعنى الأول هو المختار**[4].

﴿ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ﴾: هذا استثناء، **يحتمل أمورًا:**

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 315)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 503)، و«تفسير الماوردي» (6/ 253)، و«زاد المسير» (4/ 432)، و«تفسير الرازي» (31/ 130)، و«تفسير القرطبي» (20/ 18)، و«التحرير والتنوير» (30/ 280).

(2) أخرجه أحمد (17174)، وأبو داود (4604)، والمروزي في «السنة» (244)، والآجري في «الشريعة» (97) من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه.

(3) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 379)، و«التحرير والتنوير» (30/ 279)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 314- 316)، و«المحرر الوجيز» (5/ 469)، و«تفسير القرطبي» (20/ 19)، و«تفسير القاسمي» (9/ 457)، و«التحرير والتنوير» (30/ 281)، والمصادر السابقة.

**منها**: أن يكون المقصود أن ينسى النبيُّ صلى الله عليه وسلم ما نُسِخَ من القرآن، فإن الله يَنْسَخ ما شاء، قال تعالى: ﴿**إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ**﴾ [البقرة: 106]، أي: فتنسى ما شاء الله أن تنساه مما أذن الله تعالى أن يُنسخ، وهذا ذكره جمهور المفسرين، وهو صحيح[1].

**ومما استثناه الله تعالى**: النسيان الطارئ المؤقَّت؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد ينسى في وقت معين آيةً، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: كان النبي صلى الله عليه وسلم يستمع قراءة رجل في المسجد، فقال: «**رحمَهُ اللهُ، لقد أَذْكَرَني آيةً كنتُ أُنْسِيتُها**»[2].

ولكن ليس المقصود أنه صلى الله عليه وسلم نسيها مطلقًا، وإنما نسيها وهو يقرأ، ولو قرأ من الغد لأتى بهذه الآية.

**ويمكن أن يكون مما استُثني**: ما هو وراء القرآن، وهو أن ينسى بعض العلم من غير القرآن الكريم، فهذا أيضًا جائز وممكن، وليس مستحيلًا، وقد نسي النبي صلى الله عليه وسلم في صلاته، وسلَّم من ركعتين، كما في قصة ذي اليدين[3]، وورد عند مالك حديث ضعيف: «**إني لأَنْسَى- أو: أُنَسَّى- لِأَسُنَّ**»[4]. أي: لأشرِّع للناس وأعلِّمهم، ومثله نسيان تعيين ليلة القدر[5].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 315- 316)، و«تفسير السمعاني» (6/ 209)، و«المحرر الوجيز» (5/ 469)، و«زاد المسير» (4/ 432)، و«تفسير الرازي» (31/ 131)، و«تفسير القرطبي» (20/ 19).

(2) أخرجه البخاري (5038)، ومسلم (788).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (482)، و«صحيح مسلم» (573) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) ينظر: «الموطأ» (1/ 100)، و«الاستذكار» (2/ 5)، و«التمهيد» (24/ 375)، و«السلسلة الضعيفة» (101).

(5) ينظر: «صحيح البخاري» (2016)، و«صحيح مسلم» (1167).

أو يكون قوله: ﴿ٱلۡأُنثَىٰ ۝٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ﴾ على سبيل التبرُّك بذكر المشيئة، والإشارة إلى طلاقتها، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [هود: 108]، وأهل الجنة لا يخرجون منها، وليس المقصود أن منهم مَن يخرج، فهكذا هنا(1).

﴿ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنۡ هِيَ إِلَّآ﴾ أي: يعلم ما تجهر به من قراءةٍ، وما تخافت، ويعلم ما هو معلوم لديك ومحفوظ، وما أُنْسِيتَه من هذا العلم، وإن لم يكن قد زال بالمرة، فإنه قد يكون موجودًا، لكنه خافٍ غير ظاهر(2).

وفي ذلك إشارة إلى حكمة الله تعالى، وأن إثبات شيء أو نسخ شيء هو وفق حكمته وعلمه، فالله تعالى يعلم كل شيء، فإذا أمر بشيء، أو نهى عن شيء، أو نسخ، أو أحكم؛ فذلك لعلمه وحكمته.

* والمفعول المتعلِّق بقوله: ﴿۝٢٠﴾ هو القرآن والإسلام والشريعة، وفيها إشارة إلى أن الله تعالى علَّم نبيَّه صلى الله عليه وسلم ذلك كله، ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ إِذٗا﴾: وقد وقع في أذهان بعض الناس أن الشريعة صبغتها الزجر والمنع والنهي والتشديد والتعسير، حتى صاروا يظنون أن فقه العالِم هو في تشديده، وكثرة التحريم في فتواه، ويعدونه دليل الورع والتقوى، في حين أن هذه الآية الكريمة تدل على غير هذا.

والدين، وإن جاء لينقل الناس عن حكم الهوى والذوق والعادة إلى حكم الله سبحانه، لكن حكمه سبحانه السماحة والتيسير، ومراعاة ظروف الناس وأحوالهم،

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 315- 316)، و«المحرر الوجيز» (5/ 469)، و«زاد المسير» (4/ 432)، و«تفسير الرازي» (31/ 131)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 379- 380)، و«التحرير والتنوير» (30/ 280).

(2) ينظر: «تفسير البغوي» (5/ 242)، و«الكشاف» (4/ 738)، والمصادر السابقة.

وتَرْك ما يشقُّ عليهم ويعنتهم ويحرجهم، ولهذا قال: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]، ولهذا يقول سفيانُ الثَّوْريُّ ومَعْمَرُ بنُ راشد الصنعانيُّ رحمهما الله: «إنما العلمُ عندنا: الرخصةُ من ثقة، فأما التشديدُ: فيحسنه كلُّ أحد»[1].

ومع ورود التيسير في مواضع، كهذه الآية، وفي حديث: «**بُعثتُ بالحنِيفيَّة السَّمْحَة**»[2]، و«**يَسِّرُوا، ولا تُعَسِّرُوا**»[3]، و«**إن هذا الدِّينَ يُسْرٌ**»[4]؛ إِلَّا أنه لم يرد مطلقًا وصف الشريعة بالشدة أو العسر أو بمشتقيهما، أو وجود شيء من ذلك فيها، وهذا عجيب، والغفلة عنه أعجب!

**وهل التيسير هو مجرد اتباع الدليل؟**

اتباع الدليل حسب رأي المجتهد حق، ولكن لو كان هو التيسير لتساوت النصوص الآمرة باتباع الدليل في معناها مع نصوص التيسير، والنصوص تؤسِّس لمعنى جديد، هو أن من شأن الشريعة التيسير، وهذا يحفِّز المجتهد إلى اختيار اليُسر والترجيح به في المضايق ومراعاة أحوال الناس في الفتوى وتغير الظروف.. إلى غير ذلك.

وبعض القراء والمتفقِّهين كلما أَشْكَل عليه شيء أخذ بالأحوط، وشقَّ على الناس!

---

(1) ينظر: «حلية الأولياء» (6/ 367)، و«جامع بيان العلم وفضله» (1467، 1468)، و«الاستذكار» (8/ 275)، و«التمهيد» (8/ 147)، و«الأربعين المرتبة على طبقات الأربعين» لعلي بن المفضَّل المقدسي (ص525).

(2) أخرجه أحمد (22291) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (2924).

(3) أخرجه البخاري (69، 6125)، ومسلم (1734) من حديث أنس رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري (3038، 4341، 6124)، ومسلم (1733) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(4) أخرجه البخاري (39)، والنسائي (8/ 121)، وابن حبان (351) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأن تأخذ بالأحوط لنفسك، فهذا لا بأس به؛ لكن أن تحمل الناس عليه، فهذا يوقعهم في الحرج، وتكون قد احتطت لنفسك بالتضييق على الناس، وتحليل الحرام كتحريم الحلال! وقد كان بعض الحكماء يقول: مَن قَلَّ فقهُهُ كَثُرَ وَرَعُه. يعني: يكثر احتياطه بسبب عدم معرفته.

وإذا اختلف العلماء في مسألة؛ فمِن الناس مَن يدعو إلى تَرْك الشيء؛ خروجًا من الخلاف، مع أن بعض اختلاف العلماء مما لا يمكن التورُّع فيه؛ لأنك إن وافقت هذا خالفت ذاك، وإن خالفت ذاك وافقت هذا، فأحدهم يقول: هذا واجب. وآخر يقول عن الشيء نفسه: إنه محرم. فلا تستطيع أن تجتنب الخلاف والحالة هذه؛ لأنك إن وافقت أحدهما خالفت الآخر، فينبغي أن نراعي الدليل حسب قدرتنا، ونستحضر أنها شريعة اليُسر.

وبعض طلبة العلم يتحدَّثون عن يُسر الشريعة باعتباره مبدأ عامًّا وقاعدة كلية، لكن المعنى يغيب في تطبيقاتهم؛ لأنه يغلبهم حينئذ ما في نفوسهم من الميل إلى الحظر والحجر، فيترتَّب على ذلك أن كل أمر جديد غير مألوف تميل النفس إلى إدخاله في دائرة المنع، ويغلب على الظن أن ذلك الممنوع المحظور، هو باب شر وفتنة، ويسرع خياله إلى تصوّر الناس كيف سيستخدمونه وكيف سيكونون معه، فلا يرى إلا النتائج الوخيمة المردية في ظنه.

وثَمَّ محرمات ظاهرة التحريم بالدليل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: 115]، ومنها الكبائر، وما هو مجمع على تحريمه.

وثَمَّ أشياء يقع تحريمها بالاجتهاد، والنظر الذي يتأثَّر بظروف الإنسان ونفسيَّته وثقافته الشخصية وما تربَّى عليه؛ فيترتب على ذلك مشكلات عويصة تتطلَّب من طالب العلم أن يكون متيقِّظًا لمزاجه الخاص وتأثيره.

وليس الحلُّ هنا هو الانطلاق من غير زمام ولا معرفة، وإنما التوازن والاعتدال والهدوء في النظر، وأَلَّا يكون الحكم مبنيًّا على عدم الإلف، أو عدم استحسان الذوق، بل يُفَرَّق بين الأشياء المحرَّمة الصريحة، والأشياء المتردِّدة، والأشياء التي فيها مصالح للناس أو مفاسد، والأشياء التي يشقُّ الاحتراز عنها؛ لعموم البلوى بها، كما يقول الأصوليون، مما يصعب على الناس الخلوص منها، والأشياء التي يسهل تجنُّبها، إلى قواعد يعرفها مَن عنده فقه في نفسه ومعرفته، بحيث يكون في دائرة الاعتدال؛ فلا ينساق مع التيسير المطلق، ولا مع التشديد المطلق، ولا يتوقف عند حال معين؛ لأن أحوال الناس تتغير بحسب الأزمنة، وقد يكون بمقدورهم ترك شيء في وقت ما، ثم يشيع حتى لا يستطيعون الاستغناء عنه ومن ذلك ما نراه من التسهيلات والخدمات والأجهزة والكهرباء والطرقات ووسائل النقل ووسائل الاتصال والتعليم والإعلام وغيرها[1].

* ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا ﴿٢٢﴾﴾:

أمر نبيَّه صلى الله عليه وسلم بالتذكير، وعلَّق الأمر بقوله: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، فظاهره: إن كانت الذكرى تنفع فذكِّر، وقد جعله بعضهم أمرًا بالتذكير مطلقًا، دون اعتبار للشرط؛ لأنه لا مفهوم له، وعلى هذا جمهور المفسرين، وعليه فإيراد الشرط هو لتهدئة نفس المذكِّر والناصح والواعظ، حتى لا يستغرب إعراض الناس وإحجامهم.

(1) ينظر: «كيف نختلف؟» للمؤلِّف.

وذهب ابن كثير والشنقيطي والسعدي وجماعة إلى أن الآية على بابها، وأن التذكير واجب إن كان ينفع، وإذا لم ينفع فليس واجبًا، وهذا جيد[1].

وعليه يكون الأمر بالتذكير مبنيًّا على تقدير حصول المصلحة والمنفعة.

والمصلحة قد تكون للشخص نفسه، بأن يكون قابلًا للتوجيه والتذكير فينتفع، كما في أول «سورة عبس»: ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ ۝٢٢﴾، وكما قال هنا: ﴿سُلْطَٰنٍ ۚ إِن أَنتُمْ﴾.

وقد تكون للناصح نفسه، ونفع الناصح هو براءة الذمة، ولهذا قال الله تعالى لنبيِّه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: 40].

وهذا حاصل مع الإخلاص والتزام الأدب والخُلق الكريم، ولكن المراد أنه إذا تساوى جانب المصلحة والمفسدة، فقد يترجَّح الفعل؛ لأنه فعل، والفعل أولى من الترك، ولأن فيه براءة ذمة، والله أعلم.

وفي الآية معنى إقامة الحجة، ولذلك قال اليهود للرسول صلى الله عليه وسلم لما دعاهم إلى الله: قد بلَّغتَ- أو: قد أبلغتَ- يا أبا القاسم. فكان صلى الله عليه وسلم يقول: «**ذلك أريدُ**»[2]. أي: هذا ما أريد الوصول إليه وبيانه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال في حَجَّة الوداع: «**وأنتم تُسْأَلون عني، فما أنتم قائلون؟**». قالوا: نشهدُ أنك قد بلَّغتَ وأدَّيتَ ونصحتَ. فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ويَنْكُتُها إلى الناس: «**اللهمَّ اشهدْ، اللهمَّ اشهدْ، اللهمَّ اشهدْ**»[3].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 317)، و«المحرر الوجيز» (5/ 470)، و«تفسير الرازي» (31/ 132- 133)، و«تفسير القرطبي» (20/ 20)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 457)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 380)، و«أضواء البيان» (8/ 305)، و«تفسير السعدي» (ص920).

(2) أخرجه البخاري (6944)، ومسلم (1765) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) أخرجه مسلم (1218) من حديث جابر رضي الله عنه.

أما إنْ كانت مضرَّة التذكرة ترجح على مصلحتها، فالواجب تركها، ولو اعتذر بعض الدعاة بالرغبة في إبراء الذمة، فإن إبراء الذمة لا تكون إلَّا باتباع الشريعة، فإذا كانت قواعد الشريعة تقتضي ترك الموعظة في موضع ما، فبراءة الذمة بأَلَّا يفعلها، ولهذا ذكر ابن تيمية وغيره أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تجري فيه الأحكام الخمسة، فقد يكون واجبًا، أو مستحبًّا، أو مباحًا، أو مكروهًا، أو حرامًا[1].

وهكذا الدعوة، تجري فيها الأحكام الخمسة.

وقد يعلم الإنسان في حالات أن الذكرى لا تنفع، كما قال الله سبحانه لنوح عليه السلام: ﴿جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ [هود: 36]؛ لأنهم قد حقَّت عليهم كلمة ربك، فلا يؤمنون، وهكذا أبو لهب بعد نزول قول الله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [المسد: 1].

قد يُعلم هذا بطريق النص أو العقل، وإن كان أمرًا ظنيًّا اجتهاديًّا، لكن الشريعة جاءت بإعمال غلبة الظن، فقد يغلب على ظنك أن الكلام في هذا المكان علاج مناسب، ويغلب على ظنك أنه في ذاك المكان علاج غير مناسب.

وإذا كانت أمراض الناس الجسدية لا بدَّ لها من وصفات علاجية تحفظ الصحة، وتُترك إذا كان المريض مصابًا بمرض آخر قد يزيده هذا الدواء، فكذلك العلاجات المعنوية والروحية تحتاج إلى مراعاة ظروف الزمان والمكان والإنسان.

وقد يُدرك ذلك باليقين والمعرفة التامة بالمشاهدة، أو التجربة، أو الاعتبار بتجارب الآخرين.

---

(1) ينظر: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلال (ص14، 16، 37، 53)، و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لابن تيمية (ص12– 13).

وقد يستجمع الإنسان عزيمته لنصح أحد، ويحرج نفسه حرجًا كبيرًا في ذلك، وهو يعلم في قرارة نفسه أن مجال قبول النصح هنا غير وارد، وأنه لن يثمر؛ لأنه دواء في غير محله، والظروف تدل على أن المصلحة في ترك ذلك؛ فتركه أحسن.

* ﴿سُلْطَٰنٍ إِن أَنتُمْ﴾:

أي: سينتفع بالموعظة والذِّكرى مَن يخشى الله تعالى.

**يحتمل أن المقصود**: المؤمنون، كما قال سبحانه في الآية الأخرى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 55]، وهذا ظاهر؛ فإن المؤمن يخشى الله، والفقيه- كما قال الحسن البصري وغيره- هو الذي يخشى الله[1].

**ويحتمل أن يكون المعنى**: أنه سيقبل التذكير مَن كان عنده قابلية وصفاء في قلبه واستعداد للخشية؛ لأن من الكفار مَن ذُكِّر فأسلم، وحينئذ تكون الذِّكرى قد نفعته فأدخلته الإسلام، فبالتذكير ترتفع عنه الجهالة، وتشرق أنوار الحق في قلبه[2].

فالنص يشمل المؤمن الذي يخشى الله تعالى، كعبدِ الله ابنِ أم مكتوم رضي الله عنه الذي نزل فيه: ﴿بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ [عبس: 8- 9][3]، ويشمل مَن لديه استعداد فطري للقَبول، كما قال سبحانه في بعض أهل الكتاب: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ

(1) ينظر: «الزهد» لأحمد (2217)، و«شرح مشكل الآثار» (4017)، و«الجليس الصالح» (ص516)، و«فوائد تمام» (764)، و«الفقيه والمتفقه» (2/ 341)، و«تعظيم الفتيا» لابن الجوزي (48)، و«تلبيس إبليس» (ص110).

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 470)، و«تفسير الرازي» (31/ 133)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 458)، و«تفسير القرطبي» (20/ 20)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 380)، و«التحرير والتنوير» (30/ 285)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر ما تقدم في «سورة عبس».

إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة: 83].

* ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ بِهَا﴾:

الضمير عائد إلى الذكرى، ومعنى ﴿إِلَّا﴾: يترك جانبها، أي: يعرض عنها، والتجنب والاجتناب في القرآن ليس أن تترك الشيء فحسب، بل أن تتركه وما حوله، كما قال تعالى في الخمر وغيرها: ﴿رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: 90]، فمعناه: أَلَّا تشرب الخمر، وأَلَّا تجلس مع قوم يشربون الخمر؛ لأن الراعي الذي يرعى حول الحِمى يوشك أن يرتع فيه[1]، فكذلك هنا، فالأشقى لا يحب الموعظة ولا يأنس بها، ولا يجالس أصحابها، وينفر قلبه منها، كما قال تعالى: ﴿ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [المدثر: 49].

فمَن لديه صفاء فطري إذا سمع الذكر والخير لم ينفر منه، ولو لم يكن عنده معرفة وإيمان، وقد لا يقبله من أول وهلة، بل يسأل ويبحث حتى يصل إلى الحق، أما المتشبع بالهوى فإنه ينفر من الذكر والعلم، ولا يزيده استماعه إلا بُعدًا.

وقد ورد في آيات أخرى وصف ﴿شَقِيّٞ﴾، كما في قوله: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ [هود: 105]، فسماه شقيًّا، لكن اختار هنا لفظ: ﴿ٱلظَّنَّ﴾ أي: الأكثر شقاوة؛ لأنه يتكلَّم عمَّن يتجنب الذكرى فلا يستمع.

---

(1) كما في حديث النعمان بن بَشِير رضي الله عنهما مرفوعًا: «**إن الحلالَ بيِّنٌ، وإن الحرامَ بَيِّنٌ، وبينهما مشتبهاتٌ، لا يعلمُهُنَّ كثيرٌ من الناس، فمَنِ اتَّقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومَن وقعَ في الشبهات وقعَ في الحرام، كالرَّاعي يرعى حولَ الحِمى، يُوشِك أن يرتَعَ فيه**...». أخرجه البخاري (52)، ومسلم (1599). **والحِمى**: المحمِي، وهو المحظور على غير مالكه.

وقد تكون الإشارة هنا إلى شخص معين، والعادة عند علماء التفسير أنهم ينزلون هذه الآيات على رجال من كفار قريش، كأمية بن خلف أو أبي جهل أو أبي لهب أو غيرهم؛ لكن الآية مطلقة، والمعنى أنه يتجنب التذكرة مَن غلبت عليه الشقاوة، قال تعالى: ﴿ ٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ٣ إِنْ هُوَ ﴾ [المؤمنون: 106]، وفي قراءة: ﴿شَقَاوَتُنَا﴾[1]، فمَن غلبت عليه الشقاوة صار هو الأشقى[2].

* ﴿تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ إِلَّا ﴾:

قال: ﴿ٱلْأَنفُسُ﴾؛ لأنها أبلغ وأقوى من «يدخل»؛ لأن الصَّلْيَ دليل على معاناة العذاب من كل مكان[3].

و﴿وَلَقَدْ﴾ صفة للنار، إما بالقياس على عذاب الدنيا، كما قاله جماعة من المفسرين، أي أنه في الدنيا وجد عذابًا ونارًا؛ كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: 21][4].

أو يكون المقصود أن ﴿ٱلظَّنَّ ﴾، وهو الأكثر شقاوة ﴿ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ﴾، فيكون هناك تناسب بين ﴿وَلَقَدْ﴾ وبين وصفه بـ﴿ٱلظَّنَّ ﴾[5].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (17/ 117)، و«السبعة في القراءات» (ص448)، و«الحجة للقراء السبعة» (5/ 302)، و«حجة القراءات» (ص491)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 329)، و«معجم القراءات» (6/ 208- 209).

(2) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 210)، و«تفسير الرازي» (31/ 134)، و«تفسير القرطبي» (20/ 87، 88)، و«التحرير والتنوير» (30/ 285- 286).

(3) ينظر ما تقدم في «سورة الانفطار»: ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا مَا﴾، و«سورة المطففين»: ﴿أُخْرَىٰ ١٣ وَلَقَدْ رَءَاهُ صَاحِبُكُمْ﴾.

(4) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 254)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 444).

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 318)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 121)، و«زاد المسير» (4/ 432)، و«تفسير القرطبي» (20/ 21)، و«روح المعاني» (15/ 320).

والنار دَرَكات، كما أن الجنة درجات، فبين مراتب الجنة تفاضل، وبين دَرَكات النار تفاوت، فكلما نزلت كانت أشد عذابًا، والمنافقون ﴿ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ﴾ [النساء: 145].

وليسوا في مقام واحد، وكلما كان المرء أشد كفرًا كان أشد عذابًا، كما قال عن فرعون: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: 46].

وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في حال عمه أبي طالب أنه قال: «**هو في ضَحْضَاح من نار، ولولا أنا لكان في الدَّرْك الأسفل من النار**»[1]. وفي الحديث الآخر: «**إن أهونَ أهل النار عذابًا يوم القيامة، لرجلٌ تُوضع في أَخْمَصِ قدميه**[2] **جمرتان، يغلي منهما دماغُه**»[3]، فذكر النبيُّ صلى الله عليه وسلم تفاوت أهل النار في دركاتها ومقاساة حرها.

* ﴿مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣ أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ﴾:

ورد هذا المعنى- وهو عدم الموت وعدم الحياة- هنا، وفي «سورة طه» في قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤﴾، فذكر أن المجرمين لا يموتون ولا يحيون في جهنم.

فمن أهل التفسير مَن قال: المعنى أنه لا يحيا حياة ينعم فيها كما يحيا أهل الجنة، أو لا يحيا كما كان يحيا في الدنيا متنعِّمًا فيها ببعض النَّعيم، ولا يموت فيستريح[4].

---

(1) أخرجه البخاري (3883)، ومسلم (209) من حديث العباس بن عبد المطَّلب رضي الله عنه.

(2) هو خصر باطن القدم الذي لا يصيب الأرض عند المشي.

(3) أخرجه البخاري (6562)، ومسلم (213) من حديث النعمان بن بَشِير رضي الله عنهما.

(4) ينظر: «تفسير مقاتل» (3/ 34)، (4/ 670)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 312، 506)، و«تفسير الماوردي» (3/ 415)، (6/ 254)، و«الكشاف» (4/ 740)، و«تفسير الرازي» (31/ 135)، و«تفسير

**ومما يعزِّز هذا المعنى ويقوِّيه:** قوله سبحانه في موضع آخر: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ [فاطر: 36].

**وثَمَّ معنى آخر** ذكره الطبري، وجماعة من المفسِّرين، وهو أن الآية على ظاهرها، وأن أهل النار هم بالصفة التي ذكر الله عز وجل، فلا هم أموات ولا هم أحياء، ولذلك قال الطبري: «إن نَفْسَ أحدهم تصير في حلقه، فلا تخرج فتفارقه فيموت، ولا ترجع إلى موضعها من الجسم فيحيا»[1]. وذلك من شدة العذاب الذي يعانونه ويقاسونه. وهذا القول وجيه.

وقد ذكر النبيُّ صلى الله عليه وسلم أن الكافر من أهل النار لا يموت فيها ولا يحيا، فقال: «**أما أهلُ النارِ الذين هم أهلُها، فإنهم لا يموتونَ فيها ولا يَحْيَوْنَ**..»[2].

وأما المؤمنون فقال: «**فيخرجون من النار وقد امْتَحَشُوا، فيُصبُّ عليهم ماء الحياة، فينبُتُون منه كما تنبُتُ الحِبَّةُ في حَمِيل السَّيْل**»[3]. أي: يظهرون شيئًا فشيئًا حتى يحيوا ويدخلوا الجنة، وهم الذين يقال لهم: «الجَهَنَّميون».

وعلى كلٍّ، فلا بأس أن تُؤخذ الآية على ظاهرها، فيقال: إن نَفْس أحدهم تكون في حلقه، لا تصل إلى بدنه فيحيا ولا تخرج فيموت ويرتاح؛ وذلك لأن أمور الآخرة لا يصح قياسها على أمور الدنيا.

---

القرطبي» (20/ 21)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 458)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 284)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (2/ 475)، (4/ 523).

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 318)، والمصادر السابقة.

(2) أخرجه مسلم (185) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(3) أخرجه البخاري (806)، ومسلم (182) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. **وامْتَحَشُوا:** احترقوا.

**فإذا قال قائل: كيف لا يموت ولا يحيا؟**

**فنقول:** هذا إلى الله تعالى، وهذه حال لا يمكن قياسها على أمر الحياة الدنيا، وهي حال ذكرها الله تعالى في كتابه، ومعنى صحيح جاء في السنة النبوية، وربما لا يعرف الناس في هذه الدار إلا صنفين؛ حياة أو موت، أما في الآخرة فلا يمكن إجراء نواميس الحياة الدنيا عليها؛ فهي دار مختلفة، ليس لدينا شيء في الدنيا نقيسها عليه!

* وبينما أنت تتأمَّل حال الأشقى تتخيَّله مَصْليًّا بالنار الكبرى، وهو لا يموت فيها ولا يحيا، يفجؤك السياق نقلة إلى مشهد آخر، وهو في غاية المفارقة والمضادة للمشهد الأول: ﴿تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾:

﴿تَمَنَّىٰ﴾ يعرِّفها أهل اللغة بأنها حرف تحقيق، وفيها معنى التوكيد على الفلاح، ثم عبَّر بالفعل الماضي؛ لأن الفلاح متحقَّق لَمن تزكَّى.

**والتزكِّي والزَّكاة والزَّكاء معناها:** الزيادة والفضل والتطهُّر؛ لأن الزكاة تُبارك المال وتطهِّر القلب من الضغائن[1].

ولم يقل: «زكَّى»، أو: «زكَّى نفسه»؛ لأن زيادة التاء في الغالب تدل على شيء من المعاناة والمعالجة، فالتزكِّي عملية تحتاج إلى صبر ودوام مجاهدة، ولكن يأتي العون من الله تعالى لَمن يريد ذلك ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [العنكبوت: 69].

وكم من إنسان تنازعه الرغبة في الخير والاستقامة والتوبة، وسرعان ما تفتر همته وتسقط عزيمته وتخور قواه وينقطع، وتلوح له الجواذب والنوازع، فيميل إليها ويترك الخير، أو تقف عقبات الطريق أمامه فيتوقف.

---

(1) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص380) «ز ك ا»، و«كتاب الزكاة من شرح بلوغ المرام» للمؤلِّف (ص15).

والتزكِّي درجات، كما أن الشر دركات، وعلى المؤمن أن يستمسك بالحبل الذي يوصله إلى الجنة، وهو حبل الشهادة والإيمان بالله.

حتى لو أنه زل أو عثر، فهذا لا يدل على أنه ترك التزكِّي؛ لأن أصل التزكِّي ولبَّه هو زكاة القلب بالتوحيد، وأَلَّا يكون مشركًا بالله، وهذا حاصل لكل مؤمن، ومع ذلك فقد لا يحصل له كمال التزكِّي، فلديه عيوب وأخطاء وشهوات تغلبه، فتغلبه عينه بنظرة، ويغلبه لسانه بكلمة، وتغلبه محبة المال، ويغلبه قعود أو رغبة في مأكل أو مشرب أو نوم أو أهل أو ولد، فيقع التقصير.

**والتزكِّي والتزكية** من أعظم مقاصد البعثة النبوية وبعثة الأنبياء عليهم السلام.

وهو يكون بصفاء القلب؛ لأن القلب إذا صفا أشرقت عليه المعاني الطيبة، فلا يصدر عنه إِلَّا الطيب من القول والفعل، فيجب أن يكون من مقاصد التعليم والدعوة تزكية الناس، والعلوم يُفرح بها لأنها تزكِّي، فكلما كان الإنسان أكثر علمًا، وجب أن يكون أكثر تزكية.

أما إذا كانت مجرد معلومات مختزنة في الذهن، وليس لها تأثير في الحياة والسلوك؛ فقد تتحوَّل إلى المفاخرة والمباهاة.

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**إنما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق**»[1]. يتطابق مع الآية الكريمة؛ لأن المقصود من مكارم الأخلاق أخلاق الظاهر بالابتسام والكرم وحسن العلاقة مع الناس، وأخلاق الباطن بأن يكون القلب مشتملًا على الإيمان والسماحة والصدق والصفا والطيبة، متخليًا عن أضدادها.

---

(1) وفي رواية: «**صالحَ الأخلاق**». أخرجه أحمد، والبخاري في «الأدب المفرد»، والحاكم، وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقد تقدم تخريجه في «سورة القلم»: ﴿يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ﴾: «مَن تطهَّر من الشرك»[1].

وذكر أبو سعيد الخُدْري رضي الله عنه أنه مَن أخرج زكاة الفطر، و﴿٢٥ ﴾ وَكَم مِّن﴾: صلاة العيد، ونُقل هذا أيضًا عن ابن مسعود رضي الله عنه[2].

وهو معنًى صحيحٌ، ولكن لا ينبغي قصر الآية عليه، لا سيما أنها نزلت في مكة قبل أن تفرضَ زكاةُ الفطر، وقبل أن تفرضَ صلاةُ العيد، فهو داخل في عموم الآية، وليستِ الآيةُ خاصَّةً به.

**وقيل**: ﴿ٱلْآخِرَةُ﴾: اتَّقى[3]. وهو قريب من الأول.

* ﴿٢٥ ﴾ وَكَم مِّن مَا﴾:

عطف الآية على ما قبلها بالواو، ثم عطف الصلاة على الذكر بحرف الفاء، فقال: ﴿مِّن﴾، ولم يقل: «وصلَّى». وفي هذا إشعار بقوة اتصال الصلاة بالذكر، كما يُشعر بذلك قولُه تعالى لموسى عليه السلام: ﴿صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ٣ إِنْ هُوَ﴾ [طه: 14]، وفي الحديث: «**مَن نسي صلاةً، فَلْيُصَلِّها إذا ذَكَرَها، لا كفارةَ لها إِلَّا ذلك**»[4].

فالذكر متلبِّس بالصلاة؛ والصلاة ذكر، بل هي أعظم الذكر.

**وأيُّهما أفضل: الذكرُ أم الصلاةُ؟**

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 319)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 185)، و«تفسير الماوردي» (6/ 255)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 471)، و«المحرر الوجيز» (5/ 470)، و«تفسير القرطبي» (20/ 21)، و«الدر المنثور» (15/ 368).

(2) ينظر ما تقدم أول السورة: «**توقيت النزول**».

(3) ينظر: «تفسير التستري» (ص192)، والمصادر السابقة.

(4) أخرجه البخاري (597)، ومسلم (684) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الصلاة أفضل؛ لأنها مشتملةٌ على الذكر، والقرآن، والتسبيح، والاستغفار.

**والمقصود**: الذكر بالقلب؛ لأن أكثر الناس يظنون أن حقيقة الذكر لا تجاوزُ ذكرَ اللِّسانِ، وهذا خلاف دِلالة الآية.

**وقد بحث العلماء مسألة الأجر على ذكر اللِّسان دون حضور القلب؛ هل يثبُتُ أم لا؟**

فذهب البعض إلى أنه يُؤجر، لكن دون أجر الذاكر المستحضر؛ وذلك لأن مَن ذكرَ اللهَ تعالى بقلبه ولسانه حصل له أثر الذكر وثمرته، ومَن ذكر اللهَ بقلبه دون أن يتحرك لسانُه، فهو أفضل ممن يَذكرُ باللسان دون القلب[1].

والذكر بالقلب إذا لم يصحبه ذكر باللسان، قد يفضي إلى نوع من التيه والتشتت، كما حدث لبعض المتصوفة الذين اقتصروا على الذكر بالقلب ولم يَصحب ذلك ذكرُ اللسان، فلم تنضبط لهم معاني الذكر والحضور، ووقعوا في بعض الشَّطَحِ، كما وقعوا فيما يسمى بالفناء والغَيْبة وما أشبه ذلك.

وإذا ذَكرَ ربَّه بقلبه، وواطأ هذا الذكرَ باللسان، حصل الانضباط بمعرفة الأسماء الحسنى، ومعرفة عظمة الله وتنزيهه عما لا يليق به، وأن يحفظ مقامات الشرع.

* ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ صَاحِبُكُمۡ﴾:

﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ للإضراب، **والإضراب** يكون أحيانًا لإنكار المعنى الأول، كقوله سبحانه: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ۝٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنۡ هِيَ﴾ [المؤمنون: 70].

وأحيانًا يكون للانتقال إلى معنى آخر جديد، كما في هذه الآية[1].

---

(1) ينظر: «إحياء علوم الدين» (1/ 301)، و«الأذكار» (ص49)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (17/ 15)، و«تفسير الخازن» (7/ 237)، و«تخريج أحاديث المصابيح» لصدر الدين المناوي (2/ 266)، و«فتح الباري» (11/ 209).

وكأن ذلك بيان للسبب الذي جعل الناس يعرضون عن تزكية نفوسهم وذِكْرِ الله سبحانه، وعن الصلاة والتسبيح، إلى ما يضرُّهم ولا ينفعُهم.

وإيثار العاجلة من أعظم أسباب الانحراف في حياة الناس؛ لأن حقيقة إيثار الدنيا هو الزهد في الآخرة وما فيها من نعيم مقيم.

وإيثارُ الدنيا على الآخرة من أسباب الضلال المبين، وقد وصف الله المشركين بأنهم: ﴿مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ﴾ [إبراهيم: 3]، **والمقصود**: الإيثار التام المطلق، وإلا فإنه قد يقع للمؤمن أن يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة في موقف خاص، ويكون ذلك ذنبًا لا كفرًا! وذلك كما لو قَصَّر في إخراج الزكاة المفروضة، فهذا إيثارٌ للدنيا على الآخرة، ولا نقول: إنه كافرٌ بعدم إخراج الزكاة؛ لما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يُؤَدِّي منها حقَّها، إِلَّا إذا كان يومُ القيامة صُفِّحَتْ له صفائحُ من نار، فَأُحْمِيَ عليها في نار جهنم، فيُكْوَى بها جنبُهُ وجبينُهُ وظهرُهُ، كلَّما بَرَدَتْ أُعِيْدَتْ له في يومٍ كان مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، حتى يُقْضَى بين العباد، فَيُرَى سبيلُهُ إما إلى الجنة، وإما إلى النار**»[2]. فدلَّ على أنَّه لا يَكْفُرُ بهذا.

وكذلك الذي يقع في المعصية، وهو يدري أنها معصية، فإنه يكون قد آثر الحياة الدنيا وشهوتها على ما عند الله في الآخرة، ولكنه لم يُؤْثِرْها مطلقًا، فهو يصلِّي، ويذكر

---

(1) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (3/ 298)، و«الكشاف» (4/ 338، 380)، و«المحرر الوجيز» (1/ 195)، و«اللباب في علوم الكتاب» (3/ 157)، و«البرهان في علوم القرآن» (4/ 258)، و«الإتقان» (2/ 219)، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» (2/ 93)، و«التحرير والتنوير» (30/ 289)، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾، و«سورة القيامة»: ﴿زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدۡ﴾، و«سورة الإنشقاق»: ﴿بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ فَتَدَلَّىٰ﴾.

(2) أخرجه البخاري (1402)، ومسلم (987).

الله ويستغفر؛ ففرق بين المؤمن الذي آثر الحياة الدنيا في بعض الأحوال، وبين الكافر الذي آثر الحياة الدنيا على الآخرة إيثارًا مطلقًا[1].

* ﴿ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾:

**أخبر عن الآخرة بوصفين:**

**أنها خير،** أي: أحسن، وأحسن بما لا يُقاس؛ لأن الجنة ليس فيها مما في الدنيا إلا الأسماءُ[2]؛ ففيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفيها من النَّعيم المقيم ما لا يقدِّر قدره إلا الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17]، لكن هذا مما طُوي عن العباد.

**وأنها أبقى،** أي: أطول منه، والتفضيل للإيضاح، وإلا فلا مقارنة بينهما؛ لأن الدنيا محدودة، والآخرة غير محدودة[3].

فالجنة خير من الدنيا، وحتى لو فَرضنا استواءَهما في المدة، بأن تعيش في الدنيا مئة سنة في طاعة الله، وتعيش في الآخرة مئة سنة فقط؛ لكانت الآخرة في هذه الحالة خيرًا، فكيف إذا انضاف صفةٌ أخرى وهي أنها أبقى؟! ويدخل في ذلك ما أريد به الآخرة فإنه أعظم أجرًا، وأبلغ في تحقيق الرضا النفسي والسعادة في الدنيا، والأجر والمثوبة في الآخرة.

* ﴿(٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ يُوحَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا (٥)﴾:

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة النازعات»: ﴿هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾.

(2) كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، وتقدم تخريجه في «سورة الملك»: ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ (١٨) أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ (٢٠) أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ﴾.

(3) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (4/ 472)، و«تفسير الرازي» (31/ 136)، و«تفسير القرطبي» (20/ 24).

المُشار إليه ما سبق ذكره في السورة الكريمة من المعاني المذكورة[1].

**وقال بعضُهم**: المقصود قوله: ﴿تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾، فهو المذكور في الصحف الأولى[2].

**والأقرب** أن المذكور السورة كلها، وأنها مما تضمنته ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا﴾:

وهي من الدِّين العام الجامع، أي: من محكمات الشريعة وأصولها التي اتفق عليها الأنبياء؛ لأن الدين الجامع هو ما اتفق عليه الأنبياء عليهم السلام.

فيشمل ذلك أصولَ الاعتقاد، وأصولَ الأوامر والنواهي العامة التي أطبق عليها الأنبياء، فهذه المعاني: من ذكر الجنة والنار، والتزكي، وأسماء الله تعالى، وعبادته موجودة في صحف إبراهيم وموسى.

وإنما ذكر صحفَ إبراهيم وموسى خاصة؛ لأنهما من أولي العزم من الرسل، ولأن آثار نبوتهم باقية عند اليهود، وعند العرب في مكة.



---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (2/ 752)، و«تفسير عبد الرزاق» (2/ 367)، و«تفسير الطبري» (24/ 376)، و«تفسير السمعاني» (6/ 211)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 382- 383)، و«الدر المنثور» (15/ 376- 379).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 376)، و«تفسير السمعاني» (6/ 211)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 382- 383).

# سورة الغاشية

*** تسمية السورة:**

اسمها في المصاحف، وكتب التفسير والحديث: «**سورة الغاشية**»[1].

وفي «صحيح البخاري»، وبعض التفاسير: «**سورة ﴿يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ﴾**»، و«**سورة ﴿يُوحَىٰ ۝٤﴾**»[2].

وفي «صحيح مسلم» من حديث النعمان رضي الله عنه قال: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في العيدين، وفي الجمعة بـ﴿۝١٦ مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾، و﴿يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ﴾»[3].

وسماها بعضهم: «**سورة ﴿يُوحَىٰ ۝٤﴾**»[4]، وذلك على سبيل الاختصار.

*** عدد آياتها:** ست وعشرون آية باتفاقهم[5].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص724)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 420)، و«جامع الترمذي» (5/ 296)، و«سنن النسائي الكبرى» (10/ 334)، و«تفسير الطبري» (24/ 326)، و«زاد المسير» (4/ 434)، و«تفسير القرطبي» (20/ 25)، و«التحرير والتنوير» (30/ 293).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (6/ 168)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 366)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 123)، و«التحرير والتنوير» (30/ 293).

(3) ينظر: «صحيح مسلم» (878)، وما تقدم في «سورة الأعلى».

(4) ينظر: «التحرير والتنوير» (30/ 293).

(5) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص272).

* **وهي مكية** بالاتفاق، ذكر ذلك: السمعاني، وابن الجوزي، والقرطبي، والشوكاني، وغيرهم[1].

* ﴿يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾:

**الأقرب** أن ﴿يُوحَىٰ﴾ بمعنى: قد، والسؤال تقرير، أي: قد أتاك حديث الغاشية[2].

و﴿شَدِيدُ﴾ صفة لموصوف لم يُذكر، **وقد اختلف المفسرون في معناها على ثلاثة أقوال،** أشهرها وأصحها: أنها القيامة، **وقيل**: النار؛ لأنها تغشى وجوه أصحابها، **وقيل**: صيحة البعث، **والراجح** أنها القيامة؛ لأنه ذكر بعد الغاشية ما يقع فيها، وذكر أحوال أهل الجنة وأهل النار، فهي تغشى الناس جميعًا، ولا مخلص لأحد منها[3].

إن تفاصيل يوم القيامة مما لا يمكن معرفته إلا عن طريق الوحي، والإنسان قد يدرك بالعقل والفطرة حقيقة البعث والنشور، لينالَ المحسن جزاءه، ويُقتص للمظلوم من الظالم، وتتجلَّى الحكمة الربانية من الخلق.

---

(1) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 212)، و«زاد المسير» (4/ 434)، و«تفسير القرطبي» (20/ 25)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 289)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 582)، و«فتح القدير» (5/ 520).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 677)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 508)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 6)، و«زاد المسير» (4/ 434)، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۝٢٢﴾، و«سورة النازعات»: ﴿ٱلْهُدَىٰ ۝٢٣ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا﴾، و«سورة البروج»: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۝٢٢﴾.

(3) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص535)، و«تفسير الطبري» (24/ 326- 327)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 187)، و«الكشاف» (4/ 741)، و«المحرر الوجيز» (5/ 472)، و«تفسير القرطبي» (20/ 25)، و«روح المعاني» (15/ 324)، و«التحرير والتنوير» (30/ 294).

وجاءت الرسالات لتحدِّد وتوضح وتفصِّل ما تؤمن به الفِطَرُ السليمة والعقول المستقيمة، من حقائق البعث والنشور والجنة والنار، فجاء «حديث الغاشية» و«حديث القيامة» في القرآن والسنة مفصَّلًا.

والحديث يطلق على الكلام أو الخبر أو القصة، كما في قوله تعالى: ﴿تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ﴾ [يوسف: 111].

* ﴿ذُو مِرَّةٍ رَأَى﴾:

في السياق مناسبة بين قوله: ﴿﴾، وبين: ﴿شَدِيدُ﴾؛ لأن الغاشية غالبًا ما يَبِينُ أثرُها على الوجه، وما في القلب من الخوف أو الحياء أو الارتباك يظهر أثرُه على الوجه، ولهذا ناسب أن يعبِّر بـ﴿﴾، وإن كان المقصود أصحابها.

﴿ذُو﴾ يعني: يوم الغاشية، يوم القيامة، فهذه الأوصاف لهم في الآخرة.

**وفي ذلك ثلاثة أقوال:**

1- أن هذه أوصافهم في الآخرة، فوجوههم خاشعة ذليلة، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: 45].

* وعليه؛ فقوله: ﴿وَهُوَ رَبِّهِ﴾ يعني: في الآخرة أيضًا، فهم في الموقف من ركضهم وذهابهم وإيابهم وقلقهم وحركتهم يعملون وينصبون ويعذَّبون، ويكلفون أحمالًا[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 382)، و«إعراب القرآن» للنحاس (2/ 90)، و«تفسير القرطبي» (7/ 65)، (20/ 27)، و«الدر المنثور» (15/ 382).

2- أنها أوصاف لهم في الدنيا، وبناءً عليه قال: ﴿مِرَّةٍ﴾ من الخشوع، وهذا يعني أنهم كانوا يعبدون الله على غير هدًى، كعبادة الرهبان، أو عبادة الخوارج الذين عندهم خشوع في ظاهر الأمر من العبادة، ولكنه على غير هدى.

وهكذا هم يعملون أعمالًا في الدنيا، لا تنفعُهم في الدار الآخرة، وينصبون: من النصب، وهو التعب[1].

3- أن تكون صفات مشتركة، بعضها في الدنيا وبعضها في الآخرة، فالخشوع في الدنيا، والعمل والنصب في الآخرة، أو العكس[2].

**والمختار الأول** أن هذه الصفات لهم في الدار الآخرة، وليست في الدنيا، فوجوههم خاشعة ذليلة من هول ما ترى، عاملة ناصبة في الموقف بما يقع لها من الحيرة والذهاب والإياب، كما ورد في مجيئهم إلى الأنبياء وتردُّدهم عليهم[3].

وحينما يصيرون إلى النار؛ فإنهم ينصبون ويتعبون تعبًا مرهقًا، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مِنْ﴾ [المدثر: 17].

* ﴿ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ أَفَرَءَيْتُمُ﴾:

أي: هذه الوجوه وأصحابها، وأشد ما تَصْلَى النار من الإنسان وجهه، وكونهم يتقون النار بوجوههم هو من أشد ما يكون عليهم؛ لأن الحرق لو كان في رِجل الإنسان أو في يده، لكان أهون بكثير من وجهه، فإنه يجد في وجهه من أثر الحر وألمه الشيء العظيم.

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (2/ 368)، و«تفسير الخازن» (7/ 237)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير القشيري» (8/ 71)، و«تفسير البغوي» (8/ 404)، و«زاد المسير» (4/ 434)، والمصادر السابقة.

(3) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الشفاعة. ينظر: «صحيح البخاري» (4712)، و«صحيح مسلم» (194).

ولم يقل: «تُكوى»، وإنما ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾، فالنار هي مسكنهم، والعرب يعبِّرون بالصَّلْوِ، إذا قالوا مثلًا: شاة مَصلِية، فإنهم يحفرون حفرة، ويضعون فيها جمرًا شديدًا، ثم يضعون فيه الشاة أو اللحم الذي يريدون شَيَّه أو إنضاجه، وهذا أشد ما يكون، والكي يكون عابرًا ويزول، بخلاف الصَّلْي[1].

وتنكير «النار» إشارة إلى عظمتها وهولها، وأنها وإن كانت تشبه نار الدنيا من حيث الأصل، إلا أنها شيء آخرُ مما يعلمه الله ولا يتصوره البشر، وكل صورة تخطر في بالك عن نار الآخرة فالأمر أشد من ذلك.

ووصفها بأنها ﴿ثُمَّ﴾ مع أن هذه الصفة لازمة، فما من نار إلا وهي حامية.

وهذا إما أن يكون لأنها لا تَفتُر ولا تبرد، فليست كنار الدنيا، التي تستعر ثم تخبو، وإنما تَتوقَّد وتتلهب أبدًا.

أو لأنها زيادة على حرها وسعيرها، تتغيَّظ على الكافرين.

وهذا المعنى صحيح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [الملك: 8]، يعني: تتقطع من شدة غضبها وحَنَقِهَا[2] على الكافرين.

وقال بعضهم: إنها سبب في الحماية، فالوعيد بها يحمي الإنسان من الوقوع في المعاصي؛ لأنه إذا تذكَّر النار امتنع عن الذنوب، وهذا بعيد[3].

* ﴿فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ ١٩﴾:

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة الانفطار»: ﴿ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا مَا﴾، و«سورة المطففين»: ﴿أُخۡرَىٰ ١٣ وَلَقَدۡ رَءَاهُ صَاحِبُكُمۡ﴾.

(2) أي: شدة الغيظ.

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 812)، و«تفسير الماوردي» (6/ 258)، و«تفسير القرطبي» (20/ 28)، و«روح المعاني» (15/ 325)، و«التحرير والتنوير» (30/ 296).

كأن السامع تصوَّر هذا المعذَّب وهو يُصلَى بالنار، فتذكَّر الماء الذي يطفئ النار، ويروي الظمأ؛ ليخطئ هذا الوهم؛ فشأن الآخرة ليس كشأن الدنيا، فذكر ما يشربون، وهي عين من الماء ﴿قَابَ﴾ شديدة الحرارة، كما في قوله: ﴿عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ [الرحمن: 43- 44]، **والحَمِيم**: الماء الحار، **والآن**: البالغ في الحرارة منتهاه[1]، وليست كحرارة مياه الدنيا، فهذا شرابهم إذا استسقوا، ولهذا قال تعالى في «سورة الكهف»: ﴿رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢ وَلَقَدۡ﴾ [الكهف: 29]، فمن شدة حرارته يشوي وجوهَهم قبل أن يشربوه، فكيف إذا شربوه؟! ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد: 15]، والإنسان إذا تقطعت أمعاؤه في الدنيا يموت، أما في الآخرة، فهم بين الموت والحياة؛ لأنه لو كان في الآخرة موت، لماتوا بمجرد دخول النار، ولكن أمر الآخرة لا يقاس بنواميس الحياة المعروفة.

* ﴿أَوۡ أَدۡنَىٰ ٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ ٢٠﴾:

انتقل من ذكر الشراب إلى ذكر الطعام، **والضَّريع**- على قول جمهور أهل اللغة والتفسير-: نوع من نبات الصحراء سَامٌّ شوكِيٌّ، تأكله الإبل، وتسمِّيه العرب: الشِّبْرِق[2]، فإذا يبس سمِّي: ضَرِيعًا، وقد تأكله الإبل فلا ينفعها ولا يسمنها[3].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 232)، و«التفسير البسيط» للواحدي (18/ 283)، و«الكشاف» (4/ 451)، و«تفسير القرطبي» (17/ 175).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص96، 254) «أ ن ا»، «ح م».

(2) وقيل: بفتح الراء. ينظر: «البارع في اللغة» لأبي علي القالي (ص530)، و«توضيح المشتبه» لابن ناصر الدين (5/ 278).

(3) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 552)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص506) «ض ر ع»، و«تفسير ابن جزي» (1/ 2601)، و«البحر المحيط في التفسير» (8/ 458)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 293)، و«فتح القدير» (5/ 608).

* ﴿أَوۡحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾:

وفي هذا مزيد عذاب لأصحاب النار، فيعذَّبون بالجوع والعطش، ويشربون الماء الحميم، ويأكلون الضَّريع.

وقد ذكر تعالى طعام أهل النار، فسماه مرةً: الزَّقُّوم، فقال: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ﴾ [الدخان: 43- 46]، وسماه: الغِسلين، فقال: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ﴾ [الحاقة: 35- 37].

فإما أن هذه أسماء لمسمى واحد، وهي أنواع داخلة تحته، أو أنها حسب مقام الإنسان في النار، فلكل دَرْكةٍ نوع من الطعام، أو يقال: إن هذا في أحوال مختلفة، والله تعالى أعلم، والمقصود الوعيد[1].

* ﴿١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا﴾:

أي: يوم الغاشية التي هي القيامة، وقوله: ﴿عَلَىٰ﴾ من النَّعيم، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ﴾ [المطففين: 24].

* ﴿يَرَىٰ ١٢ ٢٢﴾:

رضيت سعيها في الدنيا، فلما رأوا المصير حمدوا سعيهم واجتهادهم وصبرهم، وكما قيل: عند الصباح يحمدُ القومُ السُّرَى[2].

---

(1) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (23/ 463)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (2/ 707)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 462)، وما تقدم في «سورة الحاقة».

(2) ينظر: «الأمثال» لأبي عبيد (ص170)، و«المجالسة» للدينوري (1/ 144) (131)، و«جمهرة الأمثال» (2/ 32). **والسُّرَى**: سير الليل.

**أو يكون المعنى**: راضية لنتيجة سعيها وثوابه وجزائه في الدار الآخرة، فحصل منهم كمال الرضا، والرضا معنى قلبي، فلما كان النعيم والنعومة في الوجه، كان الرضا في القلب[1].

* ﴿رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ أَنتُمۡ﴾:

**والعلو هنا علو حسي**، بارتفاعها وعظمتها وسعتها، فإن الجنة في السماء، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إن أهلَ الجنة ليَتَرَاءونَ أهلَ الغُرَف من فوقهم كما يَتَرَاءونَ الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابرَ في الأُفُق من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهم**». قالوا: يا رسولَ الله، تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرهم؟ قال: «**لا والذي نفسي بيده، بل رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقُوا المرسلينَ**»[2]. وقال: «**إن في الجنة مئةَ درجة، أعدَّها اللهُ للمجاهدينَ في سبيله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض**»[3].

فتلك نار حامية، وجمرٌ وكَيٌّ، وعقوبة وصَلْي، وهذه جنة عالية، وهو سبحانه يتحبَّب إلى عباده ويصبر عليهم ويحلُم، ولا يعاجلهم، بل يقيم عليهم الحجج، ويظهر لهم آياته، وربما عصى العبد فأمهله، وربما سلَّط عليه بعض مصائب الدنيا وأعراضها، من مرض أو فقر أو جوع أو دَيْن أو همٍّ أو غمٍّ أو عدو متسلط؛ حتى يتطهر من ذنوبه قبل أن يلقى ربه.

**وعلو الجنة علوٌّ معنويٌّ** كذلك بارتفاع رتبتها، وكونهم في جِوار ربهم تبارك وتعالى، وما فيها من رفعة المنزلة، ورفعة الشأن.

* ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ بِهَا﴾:

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (18/ 207- 271)

(2) أخرجه البخاري (3256)، ومسلم (2831) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(3) أخرجه البخاري (2790) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا من العلو المعنوي؛ فلا يُسمع في الجنة لغو، **وأصل اللغو**: الكلام الذي ليس له معنى، كما قال تعالى: ﴿**وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ**﴾ [البقرة: 225]، وقال: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا**﴾ [القصص: 55]، وقال: ﴿**وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ**﴾ [الطور: 23][1].

فمن باب أولى أنه ليس فيها الكلام الفاحش أو البذيء أو المحزن، وإنما كلام أهلها خير وَبِرٌّ، حتى صح أنهم «**يُلْهَمُونَ التسبيحَ والتحميدَ، كما تُلْهَمُونَ النَّفَسَ**»[2]. فكلامهم ذكر وبر وشكر وحمد وثناء، فقد قال تعالى: ﴿**وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ**﴾ [الحج: 24]، يعني: من غير تكلف؛ لأن الجنة ليس فيها تكليف أصلًا، بل هي تجري منهم كما يجري النَّفَسُ، وهو جزء من النعيم الذي يتلذَّذون به.

* ﴿**جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِلَّا**﴾:

بدأ السياق يتحدَّث عن مشاربهم، و﴿**ٱلْمَأْوَىٰٓ**﴾ اسم جنس بمعنى: عيون[3].

وعيون الجنة تجري على أرضها، وعلى ظاهرها، من غير أن يكون لها أخاديد تمشي فيها أو سَوَاقٍ، كما في قوله تعالى: ﴿**مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ**﴾ [محمد: 15]، فهذه الأشياء تجري على الأرض، ويجريها المؤمن كيف شاء، ومن غير حاجة إلى أن

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 574)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 467)، و«التحرير والتنوير» (30/ 299).

(2) أخرجه مسلم (2835) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(3) ينظر: «تفسير القشيري» (8/ 72)، و«البحر المحيط في التفسير» (8/ 458)، و«تفسير السعدي» (ص921).

يكون للنهر دفتان؛ لأن هذه قوانين المادة في الدنيا، في حين أن الجنة شيء آخر، فهذه العين جارية مُطَّرِدة ساعية[1].

* ﴿يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا﴾:

**السرير** معروف، ووصفه بأنه مرفوع، ومَن تعوَّد على سرير في الدنيا، توقع أن السُّرر المرفوعة بحجم ما يعرف من القياسات، لكن الشيء الذي في الآخرة لا تستطيع أن تتخيله، فرفعته ربما أرفع من قدر الأرض، وأرفع من قدر السماء، وأرفع مما يعلم الناس؛ ويكفي أن الله تعالى وصفها بذلك.

وفي الآية إلماح إلى رِفعتها المعنوية؛ لأنها أُعدَّت للأطهار الأبرار الذي نقَّوا فروجهم عما لا يحِل، وطهروها احتسابًا لذلك اليوم.

**ومن معاني ذلك**: أن مَن على السُّرُر هن النساء الطاهرات المطهَّرات المكتملات في الهيئة والشكل والظاهر والباطن والخَلْق والخُلُق[2].

* ﴿١٦ مَا رَبِّهِمُ﴾:

**الكوب**: الإناء أو الكوز الذي ليس له مِقْبَضٌ أو عُرى، ولا يكون له أيضًا مَصبٌّ يصب منه الماء.

وذكر الرافعي أن لفظ «الكوب» استُعمل في القرآن مجموعًا، ولم يأت مفردًا؛ لأنه لا يتهيَّأ فيه ما يجعله في النطق من الظهور والرقة والانكشاف وحسن التناسب كلفظ «أكواب» الذي هو الجمع[3].

ووصفها بأنها موضوعة في مقابل ﴿مَا﴾ أي: قريبة منهم وفي متناولهم[1].

---

(1) ينظر: «صفة الجنة» لابن أبي الدنيا، ولأبي نعيم الأصبهاني، وللضياء المقدسي.

(2) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 386).

(3) ينظر: «إعجاز القرآن» للرافعي (ص160).

**ومن صفاتها**: أنها مقدَّرة، مصنوعة بمقدار يناسب كل حال، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [الإنسان: 15- 16]، فهي مقدَّرة ومناسبة، وفيها من أسباب النعيم والسرور والبهجة والترف ما لا يخطر على بال.

* ﴿ٱلْبَصَرُ وَمَا مَا﴾:

جمع نُمْرُقَة- بضم النون والراء، وفتحهما، وكسرهما[2]- وهي: الوسائد، فهي مصفوفة بعضها إلى جنب بعض، لقعودهم ومُتَّكَئِهم[3].

* ﴿﴿١٧﴾ لَقَدْ صَاحِبُكُمْ﴾:

زَرابي جمع: زربيَّة- مثلث الزاي- وهي: البُسط[4].

ويقول بعض المحققين: إن أصل كلمة «زَرابي» مأخوذة من: أذربي، يعني: أذربيجان، اختصارًا، ومؤنثها: أذربية، فصاروا يقولون: زَرْبِيَّة؛ فقد قيل: إن الذال ليست في لغة الفرس[5]، لكن الله تعالى عند ما يقول عن الجنة أن فيها هذا اللون، فإن هذا فقط من باب تقريب المعنى لعقل السامع بذكر ما يعرف نعومته وجمال شكله.

* ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ عَنِ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 641)، و«تفسير الرازي» (27/ 193)، و«تفسير القرطبي» (20/ 26)، و«روح المعاني» (25/ 98)، و«التحرير والتنوير» (25/ 255).

(2) ينظر: «تاج العروس» (26/ 438) «ن م ر ق».

(3) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (23/ 471)، و«تفسير السمعاني» (6/ 214)، و«تفسير القرطبي» (20/ 34)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 463)، و«روح المعاني» (15/ 328).

(4) ينظر: «تفسير ابن فورك» (3/ 206)، و«تفسير الماوردي» (6/ 261)، و«تفسير السمعاني» (6/ 214)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص379)، و«الكشاف» (4/ 744)، و«المحرر الوجيز» (5/ 236)، و«تفسير القرطبي» (17/ 192)، والمصادر السابقة.

(5) ينظر: «التحرير والتنوير» (30/ 303).

**والإبل** مدعاة للتعجب والاعتبار في خِلقته وقوته، وصبره واحتماله للجوع والعطش، وقدرته على حمل الأثقال، وسهولة انقياده؛ ولذلك اختار الله الإبل هنا، مع أنه يوجد في الحيوانات ما هو أقوى منه أو أشد، كالفيل أو الأسد أو التمساح أو النمر، لكن الله تعالى ذكر الإبل، لعَجبِ خلقها أولًا، ولأُنسيَتِها، وكونها قريبة من الإنسان، مألوفة لناظريْهِ يخالطها ويستخدمها.

وهذا لا يمنع ولا يعارض أن يكتشف العلماء من دقائق المعاني في خلق الإبل ما لم يكن يعرفه الناس.

* ﴿وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ يُوحَىٰ﴾:

أي: إلى هذه القبة الزرقاء.

* ﴿﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ﴿٥﴾﴾:

فيرى الجبال وما فيها من القوة والرسوخ، إضافة إلى ما فيها من حفظ الأرض؛ فإن الله تعالى جعل الجبال أوتادًا تحفظ الأرض ويستقر بها توازنها.

* ﴿﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ﴿٦﴾﴾:

فالأرض هُيِّئَتْ لاستخدامات الخَلْق، من مشي ونوم وعمران وعمل وزراعة، ولا ينفي ذلك كُرَوِيَّة الأرض، كما ظن بعض مَن أخطأ الفهم، ونسبوه إلى القرآن، فكُرَويَّتها قطعية عند علماء الإسلام وعند علماء الفلك، حتى قبل أن يشاهدها العلم، وهي كرة تدور في الفضاء العظيم[1].

* ﴿﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم فَتَدَلَّىٰ﴾:

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ..﴾ [ق: 7]، و«سورة النازعات»: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾، وما سيأتي في «سورة الشمس»: ﴿يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ﴾.

أي: لست بمتغلِّب أو متسلِّط[1]، وهذا معنى عظيم؛ فإن الله سبحانه يقول لمحمد صلى الله عليه وسلم: ذكِّر هؤلاء بالقرآن: ﴿ٱلۡأُنثَىٰٓ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ٢٢ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ﴾ [ق: 45].

و﴿إِنۡ﴾ للحصر، فحصر رسالته في التذكير، فأنت مذكِّر فحسب، فلست ذا سلطانٍ فتَقْهَرَهم، ولا حاكمًا متغلِّبًا فتأخذَهم بالقوة، وإنما أنت نبي مبلِّغ، وهذا معنى عظيم، فالدعوة إلى الله ليست قهرًا وإلزامًا، وإنما أصلها قائم على الحرية في اختيار الناس: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ﴾.

وقد غفل كثيرون عن هذا المعنى، فتجد الأَبَ يربِّي أولاده على الخوف منه أكثر مما يربيهم على الخوف من الله، وبعض الدعاة يربُّون الناس على الخوف من المجتمع وعين الرقيب، ويعوِّلون في إصلاحهم وتربيتهم على السلطة التي تقهر الناس على الخير وتمنعهم من الشر، ويغفلون عن مخاطبة قلوب الناس بالخير والتذكير والتخويف بالقرآن حتى يحيا وازع الحب ثم الخوف من الله ومراقبته في قلب العبد، واليوم بعد أن غلبت العولمة وتقدمت وسائل الاتصال ضعفت السلطة وصار من المهم التربية على الرقابة الذاتية التي تعني مخافة الله وتعظيم حرماته.

ولا يعني هذا إلغاء جانب المسؤولية للأب أو الزوج أو المعلِّم أو الحاكم، وإنما المقصود أن يكون الاعتماد على الإيمان الذي في القلوب، وإلَّا فمَن لم يكن عنده إيمان لو منعته من الشر فلن يفعل الخير، وبمقدوره أن يصل إلى ما يريد دون علمك، ويظن بعضهم أن الرسل ما بُعثوا إلا للجهاد، فصار الجهاد في نفسه غاية ومقصدًا لا بد من

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 340)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 476)، و«الكشاف» (4/ 745)، و«زاد المسير» (4/ 436)، و«تفسير الرازي» (31/ 146)، و«تفسير القرطبي» (20/ 37)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 388).

إقامته وتحقيقه مهما كانت الظروف! وهذا خطأ، والجهاد وسيلة وليس غاية، والرسل بُعِثوا للهداية، وأكثرهم لم يُبعث بقتال أصلًا، والقتال إنما يُشرع في ظروف خاصة، لا لأجل التوسع ولا جِباية الأموال، وإنما لإزالة الظلم ونصرة الحق ومقاومة الباغين والمعتدين وحماية الحق.

* ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن قَابَ﴾:

استثناء منقطع، بمعنى «لكن»، أي: لكن مَن تولى وكفر فشأنه إلى الله تعالى.

وقال بعضُهم: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن﴾: الاستثناء على بابه، والمقصود أن الله يسلِّطك عليهم بأن تعذِّبهم بالجهاد، كما في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ [التوبة: 14].

وهذا معنى ضعيف؛ لأن المستثنَى هو المستثنَى منه، والله سبحانه لما قال: ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ يعني: لست على الكفار بمسيطر، فكيف يستثني ويقول: إلا الكفار. هذا لا يستقيم في الكلام الفصيح، وإنما المقصود من السياق معنى جديد مستأنف.

* ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا فَأَوۡحَىٰٓ﴾:

يعني: أمره إلى الله، ليس إليك، وإنما أنت مذكِّر، فالداعية يجب أن يستحضر معنى كونه مذكِّرًا، وليس بمتسلِّط على الناس ولا متفوق عليهم، ولا يقهرهم ولا يأخذهم، وإنما يدعوهم إلى الله تعالى.

وسمَّى عذابه في الآخرة: ﴿يَتَّبِعُونَ إِلَّا﴾؛ لأنهم عُذِّبوا عذابًا أدنى في الدنيا، بالمصائب والأمراض والشرور والفتن وغيرها مما يقع عليهم(1).

* ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ مَا﴾:

فلا تعجل عليهم ﴿مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ﴾ [النحل: 127]، فأمر الدنيا يسير ومهما طال فهو قصير، وإلى الله تعالى المصير.

* ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ عَلَىٰ﴾:

فيحاسبهم بما عملوا، والمعنى: ليس عليك من حسابهم من شيء(2)، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: 52].

وهذه دعوة إلى المؤمنين أن يكفُّوا عن محاسبة الناس، ويتورَّعوا عن الحكم بالكفر والنار، وترك ذلك لأهله، والاشتغال بإصلاح النفس والقلب والعقل، والسعي في هداية الآخرين، والإحسان إليهم، وكف الشر عنهم.



(1) ينظر: «تفسير الطبري» (18/ 632)، و«تفسير الثعلبي» (7/ 333)، و«التفسير البسيط» للواحدي (18/ 155)، و«المحرر الوجيز» (4/ 363)، و«زاد المسير» (3/ 442)، و«تفسير القرطبي» (14/ 107)، و«تفسير ابن كثير» (6/ 369).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 343)، و«تفسير القرطبي» (20/ 37)، والمصادر السابقة.

## سورة الفجر

*** تسمية السورة:**

اسمها في المصاحف، وكتب التفسير، والحديث: «**سورة الفجر**»[1].

وسمَّاها البخاري في «صحيحه»: «**سورة ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾**». وهو أيضًا في طائفة من كتب التفسير، والحديث[2]، وهما متقاربان.

* **عدد آياتها**: **قيل**: اثنان وثلاثون آية، **وقيل**: ثلاثون، **وقيل**: تسع وعشرون[3].

* **وهي مكية**، وأكثر المفسرين على ذلك.

ونُقل عن علي بن أبي طلحة أنها نزلت بالمدينة، ونقل ابن عطية عن أبي عمرو الدَّاني أنها مدنية، والقول الأول هو الصحيح[4].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص726)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 422)، و«جامع الترمذي» (5/ 397)، و«السنن الكبرى» للنسائي (10/ 334)، و«تفسير الطبري» (24/ 344)، و«تفسير القرطبي» (20/ 38)، و«التحرير والتنوير» (30/ 311).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (6/ 169)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 126)، و«المستدرك» (2/ 522)، و«تفسير ابن فورك» (3/ 210).

(3) وقد اختلفوا في أربع آيات: ﴿إِذْ ۝١٥﴾ [الفجر: 15]، ﴿وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [الفجر: 16]، ﴿يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الفجر: 23]، ﴿فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص273)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (2/ 556)، و«التحرير والتنوير» (30/ 311).

(4) ينظر: «فضائل القرآن» لأبي عبيد (662)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص273)، و«المحرر الوجيز» (5/ 476)، و«زاد المسير» (4/ 437)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 585)، و«روح المعاني» (15/ 333)، و«التحرير والتنوير» (30/ 311).

* **ولا يعرف لها سبب نزول**، والذي يظهر أنها نزلت في وقت شدة على النبي صلى الله عليه وسلم، وكان فيه محتاجًا إلى أن يُذَكَّر بمعنيين:

1- نعمة الله تعالى عليه بالنبوة وخلافة الأنبياء، وأن وعد الله تعالى له بالنصر والتمكين آت لا محالة.

2- عقاب الله تعالى للمعاندين والمكذِّبين والظالمين، وأنه مهما أبطأ فسوف يأتي، فالنصر لك ولدينك وأهل ملتك، والعقوبة على الظالمين المكذِّبين.

* ﴿وَٱلنَّجۡمِ طَغَىٰ﴾:

هذا قَسَم، والمفسرون وأهل اللغة يقولون: إن القَسَم توكيد حقيقة عظيمة، فإذا كان المقسَم به هو الله تعالى، كان الأمر أكثر توكيدًا وإلحاحًا[1].

والأشياء المقسَم بها على أي وجه فُهمت فهي من آيات الله، ولذلك ذكر الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله أن المقسَم عليه هو المقسَم به[2].

وهذا كلام بديع، لم أجده لغيره، يعني: أننا لا نحتاج إلى أن نبحث: على ماذا أقسم الله تعالى؟ بل يكفي أن نقول: إن الله أقسم بهذه الأشياء؛ لتوجيه النظر إليها، والإشارة إلى بديع صنعه فيها، وإلى عظيم نعمته على عباده.

وثَمَّ قدر مختلف فيه، وهو ماهية المقسم به، وحين تستعرض الأقوال تجد كثيرًا منها صحيحة المعنى وجيهة، فالأمر فيها واسع؛ لأنه لا يتعلق بها حكم عملي، وإنما هي ألوان من اللطائف والمعاني والأسرار التي يتميز الناس بها بحسب قوة فهمهم، ودقة إدراكهم.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 344)، و«الكشاف» (4/ 746).

(2) ينظر: «تفسير السعدي» (ص923).

أقسم بالفجر، وهو: الفجر الصادق، أي: حينما يبزُغ النهار وتزول ظُلْمة الليل، وهو وقت صلاة الفجر على ما هو متفق عليه عند العلماء[1].

وأقسم في موضع آخر بالصبح، كما في قوله تعالى: ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ﴾ [التكوير: 18]، وهو هنا عبَّر بالفجر؛ لانفجار النهار، كما تقول: انفجر الماء. والمقصود: وقت الصبح؛ إشارة إلى ما يكون في وقت الفجر من الفضيلة، فهو وقت زوال النوم، وخروج الناس من الموتة الصغرى إلى حالة اليقظة والانطلاق في طلب المعاش والعبادة ومصالح الحياة.

والله تعالى يُقسم بالشيء وبنقيضه، وفي هذا إشارة إلى أن كلًّا منهما نعمة؛ فالنوم بقَدْر نعمة، واليقظة بقَدْر نعمة، وإذا زاد أحدهما عن القَدْر المطلوب يصبح حالة تحتاج علاجًا واستشفاءً.

فأقسم بـ«الفجر»، ثم أقسم بضده، وفي هذا بيان الحكمة والرحمة في خلق الأضداد؛ فإنه سبحانه خلق الليل والنهار، والنوم واليقظة، والذكر والأنثى، وجعل الزوجية في سائر مخلوقاته.

وعرَّف «الفجر» بـ(ال)؛ لأن المقصود الفجر المعروف، والوقت الفاضل، الذي جعله تعالى ظرفًا لإحدى الصلوات الخمس، كما قال الله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ [الإسراء: 78]، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يطيل صلاة الفجر[2].

وفيه إلماحة- والله أعلم- وتنبيه للنبي صلى الله عليه وسلم إلى منة الله عليه بمناجاته ربه، وقربه منه، وخاصة في الأوقات الفاضلة، كوقت السَّحر الذي هو

(1) ينظر: «الأوسط» لابن المنذر (2/ 437).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (541)، و«صحيح مسلم» (461).

وقت النزول الإلهي(1)، وأنسام الرحمة، فيصلِّي، ويتلو كتاب الله في هذا الوقت المشهود.

* ﴿هَوَىٰ ۝١ رَأَىٰ﴾:

انتقل من التعريف إلى التنكير، فلم يقل: «والليالي العشر»، والتنكير قد يكون للتعظيم.

**وأقوى ما قيل:** أنها ليالي عشر ذي الحِجَّة، ونُقل هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة وغيرهما، وذهب إليه أكثر المفسرين(2).

**وقيل:** العشر الأواخر من رمضان؛ لأن فيها ليلة القدر(3).

**وقيل:** العشر الأُوَل من رمضان(4)، **والقول الأول أرجح.**

وعشر ذي الحجة ورد فيها فضل عظيم، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «**ما من أيام العملُ الصالحُ فيها أحبُّ إلى الله من هذه الأيام**». يعني: أيام

---

(1) كما في «صحيح البخاري» (1145)، و«صحيح مسلم» (758) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**ينزلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلة إلى السماء الدُّنيا، حين يبقى ثلثُ اللَّيلِ الآخر، فيقولُ: مَن يدعُوني فأستَجِيبَ له، ومَن يسألُني فأُعطِيَه، ومَن يستغفرُني فأغفرَ له**». وينظر ما سيأتي في «سورة القدر»: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ ۝١٩﴾.

(2) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (2/ 369)، و«تفسير الطبري» (24/ 396، 397)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 191)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 390)، و«الدر المنثور» (15/ 399- 400).

(3) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 191)، و«تفسير الماوردي» (6/ 265)، و«تفسير القرطبي» (20/ 39)، و«تفسير البيضاوي» (1/ 486)، و«تفسير الخازن» (7/ 240)، و«الدر المنثور» (15/ 402)، و«تفسير السعدي» (ص923).

(4) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 191)، و«تفسير البغوي» (8/ 412)، و«البحر المحيط في التفسير» (8/ 463)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 391)، و«روح المعاني» (30/ 120).

العشر. قالوا: يا رسولَ الله، ولا الجهادُ في سبيل الله؟ قال: «**ولا الجهادُ في سبيل الله، إلَّا رجلٌ خرج بنفسه وماله، فلم يرجع من ذلك بشيء**»[1].

وشرع الله فيها التسبيح والتهليل والتكبير والحج والهَدي والأضحية والأعمال الصالحة، وهذه المناسك مأثورة عن إبراهيم عليه السلام.

وهذا فيه توجيه للنبي صلى الله عليه وسلم إلى حفظ الله تعالى له ورعايته، وإلى وراثته لما كان عليه الأنبياء من قبل، وأن دين الله تعالى منصور، فكما نصر دين الأنبياء على الوثنية والشرك، فسوف ينصر دينَك، ويقيِّض له مَن يقوم به.

وفيه: تطييب لخاطر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله شرع له في أماكن إقامة العبادة والنسك والذكر والقرآن وأزمنتها ما يَقْوَى به قلبُه.

ولعل من مقاصد التنكير في الليالي العشر: الإشارة إلى تغيير الجاهلية للشهور، وتبديلهم لها؛ فيما عرف بـ﴿إِذَا﴾، وهو أنهم كانوا إذا احتاجوا إلى انتهاك حرمة أحد من الأشهر الحرم جعلوا مكانه غيره، فترتب على ذلك أن اختلطت الشهور، ولم يكن وقت الحج في الجاهلية هو وقته في الشرع.

حتى كان العام الذي حجَّ فيه النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع، فصادف أن استدار الزمان، وانطبق التاريخ على ما هو على الحقيقة، فكان العام الذي حجَّ فيه النبي صلى الله عليه وسلم حَجَّة الوداع هو العام الذي تطابقت فيه أزمنة الحج ومناسكه، مع ما يعلم الله تعالى أنه هو الحق من يوم خلق السماوات والأرض.

وأما قبل ذلك فكان الناس يحُجُّون ويقفون ويَبِيْتُون في غير الوقت المحدَّد؛ بسبب اضطراب التاريخ عندهم الناتج عن النَّسِيء الذي كان يعمله أهل الجاهلية.

---

(1) أخرجه أحمد (1968)، والبخاري (969)، وأبو داود (2438).

فالليالي العشر زمن الجاهلية غير مضبوطة، وهكذا في أول الإسلام قبل الهجرة، حتى وقت نزول السورة؛ فلذا نكَّرَها إشارة إلى أنه سيأتي تعريفها من الله تعالى بالفعل، وذلك عند ما حجَّ النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال في حجَّة الوداع: «**إن الزمانَ قد استدارَ كهيئته يوم خَلَقَ اللهُ السماوات والأرض**...»[1].

* ﴿ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ رَبِّهِۦ﴾:

«الشفع» ضد «الوتر»، و«الوتر» هو: المفرد، و«الشفع» هو المثنى أو الزوج، وأصلها الأعداد[2]، يعني: أن «الشفع» اثنان و«الوتر» واحد. وقد جاء في الشفع والوتر أكثر من عشرين قولًا، ذكرها الرازي وابن الجوزي والقرطبي وغيرهم[3]، **قيل**: الشفع هو المخلوق، والوتر هو الله الخالق، كما في الحديث: «**إن الله وِتْرٌ يحبُّ الوترَ**»[4]. **والأقرب** أن الشفع والوتر هو كل شفع ووتر متعلق بالسياق.

وما دام الحديث عن العبادات والمناسك والليالي العشر من ذي الحجة؛ فإن من معاني الشفع: يوم النحر؛ لأنه هو اليوم العاشر، والوتر: يوم عرفة؛ لأنه هو اليوم التاسع، وهذا معنًى صحيح.

**ومن معاني الشفع**: اليومان اللذان يأتيان بعد العيد؛ لأنه مَن تعجَّل بعد يوم العيد في يومين فلا إثم عليه، فهذا هو الشفع، ومَن تأخر إلى اليوم الثالث فلا إثم عليه لَمَن اتقى، وهكذا كل ما يصلح أن يكون شفعًا أو وترًا مما له تعلُّق بالمناسك وأيام العيد.

---

(1) أخرجه البخاري (4662)، ومسلم (1679) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 193)، و«الدر المنثور» (15/ 403).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 397- 400)، و«تفسير الرازي» (31/ 147، 148)، و«زاد المسير» (4/ 438- 439)، و«تفسير القرطبي» (20/ 38- 40)، و«الدر المنثور» (15/ 403- 406).

(4) أخرجه البخاري (6410)، ومسلم (2677) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ بفتح الواو وكسرها، قراءتان سبعيتان، ولغتان فصيحتان صحيحتان، كما ذكر الطبري وغيره، وقراءة الأكثرين بالفتح، ولغة كثير من قبائل العرب، وبالكسر لغة تَميم، والمعنى واحد[1].

* ﴿غَوَىٰ ۝٢ وَمَا أَفَرَءَيْتُمُ﴾:

﴿ وَمَا﴾ أصلها: «يسري»، حُذفت الياء للتخفيف، ولرعاية فواصل السورة، وهي قراءة صحيحة أيضًا[2].

والسُّرى هو: السير في الليل، وجمهور المفسرين يقولون: إن «يسري» هنا فعل الليل نفسه، أي: إذا يُقبل، مثل قوله تعالى: ﴿۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ﴾ [التكوير: 17] على أحد التفسيرين[3].

**وقد أقسم الله بالليل بوجوه مختلفة:** فمرة أقسم بـ«الليل» فحسب، ومرة أقسم بـ«الليل إذا يَغْشَى»، ومرة بـ«الليل إذ أَدْبَر»، يعني: آخر الليل، وهنا أقسم بـ«الليل إذا يَسْر»، وفي إقسام الله تعالى بالليل على صور عديدة إشارة إلى تنوع أحواله؛ فأول الليل: سهرة، وأوسطه: سكرة (نوم)، وآخره: عَبرة، ولكل وقت من الليل ميزة ليست لغيره.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 356)، و«السبعة في القراءات» (ص683)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص369)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص222)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 400)، و«معجم القراءات» (10/ 414- 415).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (5/ 206)، و«السبعة في القراءات» (ص683)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص370)، و«حجة القراءات» (ص761)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 111، 162)، و«معجم القراءات» (10/ 416- 417).

(3) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 194)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 390).

ولا مانع أن يكون من معاني «الليل إذا يَسْر» ليلة خاصة، مثل ليلة مزدلفة[1]؛ لتعلق الأمر بالمناسك.

* ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا ۝١٩﴾:

هذا تقرير، و﴿عَنِ﴾ بمعنى: قد، ففي هذا القَسَم قَسَم ﴿هُوَ إِلَّا﴾، يعني: لذي عقل؛ لأن الحِجْرَ هو الذي يحجُرُ على صاحبه ويمنعه، أو يعقله، وكما يقال: أولوا النُّهى؛ لأنه ينهى صاحبه عما لا يجوز وما لا يليق.

وهذا ليس تحديدًا لمهمة العقل أنه يحجر ويمنع فحسب، بل لعله إشارة إلى أن العقل مسلَّط على كل شيء، إلا ما استثني وحُجر مما لا جدوى منه، أو ما دل العقل على أنه فاسد، وأن هذا الحمى ما لم يجتنب يكون سببًا في ضياع العقل وذهاب منفعته، وإلا فالعقل يكتشف ويرتاد ويبدع ويخترع وينجز، ودوره ليس مقصورًا على المنع والحجر والنهي.

والخطاب هو لذوي العقول، وهذا تأكيد على أن الإسلام دين يخاطب العقل البشري، ويحترمه ويبني مهمة التكليف على وجوده.

والعقول السليمة والفطر المستقيمة تدلَّان على أصول ما جاءت به الشريعة.

**فمعنى الآية:** في ذلك قَسَم لذي عقل يتأمل ويعقل، ويلاحظ ويفهم الخطاب[2].

* ﴿يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ۝٢٠﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 401)، و«تفسير الماوردي» (6/ 266)، و«تفسير البغوي» (8/ 417)، و«زاد المسير» (4/ 439)، و«تفسير القرطبي» (20/ 42)، و«تفسير الخازن» (7/ 241).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص727)، و«تفسير الطبري» (24/ 358)، و«تفسير القرطبي» (20/ 43)، و«التحرير والتنوير» (30/ 317).

خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، وهو وإن كان حديثًا عن العقوبات، إلا أنه موجَّه للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو لم ير هذا الفعل بعينه، ولذلك نقول: إن الرؤية هنا علمية، والمراد: «ألم تعلم»، عبَّر بالرؤية عن العلم؛ لأنه من الأمور اليقينية القطعية المعلومة بالضرورة، فكان العلم بها كرؤيتها[1].

كما نلحظ أن القَصص الثلاث التي ذكرها عن عاد وثمود وفرعون لها آثار مادية محسوسة، ويمكن رؤية آثار العذاب الذي حاق بهم.

وقوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ أضاف لفظ الربوبية إلى ضمير المخاطب، وهو النبي صلى الله عليه وسلم؛ إشعارًا بحمايته له وخذلانه لأعدائه.

**وعاد**: اسم شخص، تحول إلى اسم قبيلة- كما نقول: تميم، أو: بنو تميم- وعاد كانوا في جنوب جزيرة العرب، في حضرموت، ولذلك قال الله سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ [الأحقاف: 21]، **والأحقاف**: جبال من رمل أو تراب، الواحد منها: حِقْفٌ، فهي مناطق رملية[2].

* ﴿مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَلَهُۥ﴾:

**الأقرب** أن ﴿مِرَّةٖ﴾ اسم جَدِّ عاد، فهو اسم قبيلة من عاد نفسها، وهو هنا بدل، وهو المقصود بعاد الأولى المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ [النجم:

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 847)، و«تفسير الطبري» (24/ 361)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 363)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 321)، و«تفسير البغوي» (5/ 248)، و«تفسير القرطبي» (20/ 187)، و«التحرير والتنوير» (30/ 318).

(2) ينظر: «غريب الحديث» لأبي عُبيد (2/ 188)، و«غريب الحديث» لابن قتيبة (1/ 551)، و«مختار الصحاح» (ص167).

50]، وثَمَّ قبيلة أخرى من عاد كانت موجودة في وسط الجزيرة العربية ولم يصبهم الهلاك، وهم من عاد، لكنهم ليسوا من عاد الأولى ولا من إرم[1].

وقال بعضهم: إن ﴿مِرَّةٍ﴾: اسم مدينة، وهذا قول مشهور[2].

وقوله: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦﴾ أي: أنها مدينة لها أعمدة، وقد يكون المقصود: الأبنية التي يُجعل لها أعمدة، وعليه؛ فهي مدينة مطمورة بالرمل، ويحاول الكثير من المنقبين البحث عن آثار لتلك المدينة التاريخية، وينشرون أحيانًا صورًا يزعم بعضهم أنها التُقطت لها من تحت الأنقاض.

أو يكون المقصود: أنها ذات القوة[3]، كما قال الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ﴾ [الأعراف: 69]، فكانوا أقوياء وأشداء في طولهم، وفي بعض كتب التفسير مبالغة في ذكر أطوالهم بما لا يدل عليه دليل، وهذا مما ينبغي رده، ولكن لا شك أنهم كانوا أقوياء، قد استكبروا في الأرض، وبلغ بهم الاستكبار أن قالوا: ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا﴾ [فصلت: 15].

**فقد يُراد بالعماد**: قوة البدن، أو قوة البناء[4].

* ﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ إِذَا﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 363)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 500)، و«تفسير القرطبي» (20/ 45)، و«التحرير والتنوير» (30/ 318).

(2) ينظر: «تفسير القرطبي» (20/ 46، 47)، و«البحر المحيط في التفسير» (8/ 461)، و«تفسير ابن كثير» (6/ 154)، (8/ 395).

(3) ينظر: «تفسير القرطبي» (20/ 46، 47)، و«البحر المحيط في التفسير» (8/ 461)، و«تفسير ابن كثير» (6/ 154)، (8/ 395).

(4) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 268)، و«تفسير السمعاني» (6/ 219)، والمصادر الآتية.

وفي قراءة: (لَمْ نَخْلُقْ مِثْلَهَا)[1]، وهذا يحتمل الرجوع إلى عاد بخلقهم وشدتهم، أو إلى بنائهم وأعمدتهم[2].

وقد أرسل الله إلى عاد هودًا عليه السلام، وهود أخوهم في النسب، ولذا سماه الله تعالى أخًا لهم.

* ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٢٢﴾﴾:

**أما ثَمُود**، فقد أُرسل إليهم أخوهم صالح عليه السلام، وكانوا يسكنون في شمال جزيرة العرب، فيما يسمى: مدائن صالح، أو: وادي القُرى، أو: الحِجْر، وهي منطقة فيها زرع وجبال؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: قطعوا الصخر[3]، وهذا هو المعنى الصحيح، كما يقال: جاب الشيء، يعني: قطعه، وسمي الجيب؛ لأنه مشقوق، وهكذا الجوبة، كما في حديث أنس رضي الله عنه: «صارت المدينة مثل الجوبة»[4]. حين وصف السحاب.

**والواد** هو: وادي القُرى، وهو في الأصل: المنحدر بين الجبلين، ثم أصبح يطلق على منطقة ثمود ووادي القُرى، ولا يزال إلى اليوم يسمى بهذا.

**والمعنى**: نحتوا من الصخر بيوتًا، كما قال تعالى: ﴿﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا﴾ [الشعراء: 149]، وكان العرب يعرفون قصتهم، وتكذيبهم، وعقرهم للناقة وما نزل عليهم من العذاب، كما يعرفون قصة قوم لوط، ويمرّون بها: ﴿﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا﴾ [الحجر: 76]، فهم

---

(1) ينظر: «زاد المسير» (4/ 440)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 472)، و«روح المعاني» (15/ 338)، و«معجم القراءات» (10/ 420- 421).

(2) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 390)، و«الدر المنثور» (15/ 410)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 368)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 322)، و«الكشاف» (4/ 748)، و«تفسير القرطبي» (20/ 47)، و«التحرير والتنوير» (30/ 320).

(4) أخرجه البخاري (933)، ومسلم (897).

كانوا بطريق العرب في أسفارهم، وكانوا يرون الآثار عند مرورهم عليها، ويسمعون أخبارها.

والنبي صلى الله عليه وسلم رأى هو وأصحابه آثارهم حين مروا بمدائن الحِجْر، وقد غطَّى صلى الله عليه وسلم وجهه وأسرع المشي، وقال لأصحابه: «**لا تدخلوا مساكنَ الذين ظلموا أنفسهم، إلَّا أن تكونوا باكينَ؛ أن يصيبكم ما أصابَهُم**»[1].

كما أمر بالماء الذي استقوه من البئر أن يُراق، وأمر بالعجين أن يعلف للدواب[2].

فيكره الذهاب إلى هذه الأماكن، إلا أن يكون معتبرًا؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «**إلَّا أن تكونوا باكينَ**». يعني: معتبرين، وأطلق بعضهم التحريم[3].

* ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ بِهَا﴾:

**فرعون** هو الذي بُعث إليه موسى وهارون عليهما السلام، وهو حاكم مصر، وقد ذكر الله قصته كثيرًا في القرآن، وجاءت هاهنا مختصرة[4].

**واختلف المفسرون في ﴿عَبْدِهِۦ﴾**[5]:

---

(1) أخرجه البخاري (3380)، ومسلم (2980) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (3379).

(3) ينظر: «فتح الباري» (1/ 530- 531)، و«مرقاة المفاتيح» (8/ 3200)، و«شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (4/ 578).

(4) ينظر ما تقدم في «سورة النازعات»: ﴿۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ عَن﴾.

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 409)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 197- 198)، و«تفسير الماوردي» (6/ 269)، و«تفسير الرازي» (31/ 153)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 397).

**فقيل**: هي الأوتاد التي كان فرعون يعذب بها مَن لا يستجيبون لسلطته وطغيانه، وقد عذَّب امرأته نفسها، كما جاء في بعض الروايات: «أن فرعون أوتد لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها»[1].

**وقيل**: هي الجيوش والجنود التي كانت تحمي قوته ودولته وسلطانه.

**وقيل**: هي أعمدة كان فرعون يضعها من أجل اللعب في المناسبات والأعياد أيام الحفل وغيره.

**ولعل من المقصود هنا**: الأهرامات الموجودة إلى اليوم في مصر، والتي بناها الفراعنة، وورثها فرعون صاحب موسى عمن قبله[2]، وقد يكون أقام شيئًا منها، **وهذا المعنى قريب؛ لعدة اعتبارات**:

1- لأن الله تعالى سمى الجبال في القرآن: ﴿ذُو﴾ [النبأ: 7]، فليس غريبًا أن تسمى كذلك، والأهرامات تشبه الجبال.

2- لضخامتها وشدة بنائها وقوتها.

3- لبقائها عبرة يراها الناس.

ولقد ذكر الله تعالى ثلاث قصص لثلاث أمم كلها لها آثار مشهودة:

فهناك «عاد» وما بنوه من المدن والأبنية الهائلة، التي هي من مقتضى قوتهم وشدتهم وبنائهم؛ فقد ذكر الله تعالى عن عاد في القرآن هذا المعنى في قوله: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ﴾ [الشعراء: 128].

**أما ثمود**؛ فقد كانوا ينحتون الصخور، ويبنون منها بيوتًا ما زالت قائمة.

---

(1) ينظر: «جامع معمر» (20445)، و«مصنف عبد الرزاق» (3604)، و«مسند أبي يعلى» (6431)، و«تفسير الطبري» (24/ 372)، و«شعب الإيمان» (1521)، و«فتح القدير» (5/ 306).

(2) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (2/ 371)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 198)، و«تفسير الماوردي» (6/ 269)، و«الدر المنثور» (15/ 414).

**وأما الفراعنة،** فمن أعظم آثارهم الأهرامات.

وضرب تعالى الأمثلة بثلاث حضارات لثلاث أمم كان لها قوة في البناء والسلطان والجيش والاقتصاد، ثم انظر: كيف فعل بهم؟!

لم يكن توبيخه وعتابه لهم لأنهم بنوا، ولا لأنهم جابوا الصخر[1]، ولا لأنهم وضعوا الأوتاد، فهذا الفعل بمجرده ليس هو المذموم، وإنما طغيانهم وغرورهم.

ولذا قال: ﴿أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ﴾، فليست المشكلة في امتلاك القوة والجيوش والاقتصاد، وامتلاك العلم والحضارة، فهذا بحد ذاته عنصر إيجابي، بل المذموم: الطغيان والاستخفاف بالناس.

والطغيان حالة نفسية يكبر معها الإنسان في عين نفسه، ويرى ذاته، ويزدري غيره، ويكفُر بربه، ويغتر بقوته.

* ﴿مَا رَأَىٰٓ ۝١١ إِلَّا﴾:

فالطغيان سبب في كثرة الفساد.

**وهذا الفساد، منه:** الفساد الأخلاقي، بالفجور والخمر والفواحش والموبقات.

**ومنه:** الظلم الذي يقع على العباد بالبغي ومصادرة الحقوق، وهو أشد من الأول؛ لأن الأول الجناية فيه على صاحبه في الغالب، أما الفساد الأعظم الذي يكون به هلاك الدول والأمم فهو الظلم وانتهاك الحقوق وبَخْس الناس واستعبادهم؛ ولهذا جعل الله تعالى العقاب مقرونًا بالظلم، كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ

---

(1) أي: نحتوا الصخر، كما تقدم.

﴿إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝٥٩﴾ [القصص: 59]. **والقُرى** هي: البلاد، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن اللهَ لَيُمْلي للظَّالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ**»[1].

* ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ﴾:

**الصَّبُّ** يستخدم غالبًا للماء والسوائل، وهذا مقصود هنا؛ إشارة إلى شدة المباغتة والسرعة، فلا ينجو منه أحد، وهو مع سرعته سيَّال يتخلل كل مكان، ولا يُكِنُّ منه شيء مهما كان ﴿ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِيَ﴾ [هود: 43].

وهذا ملاحظ في عقوباته عليهم، فقوم عاد كانت عقوبتهم: الريح، وثمود: الصيحة، وفرعون: الغرق، وكانت عقوبات مفاجئة، أتتهم بغتة فأهلكتهم.

وربك الذي تعبده، وتدعو إليه، هو الذي عذَّبهم، فهو إذن حاميك وناصرك.

و﴿۝١٢﴾ نكرة؛ لأنه قليل مما عند الله، ومع ذلك فهو بالنسبة لهم ساحق ماحق.

ولذلك قال الحسن البصري: «إن عند الله أسواطًا كثيرة، فأخذهم بسوط منها»[2].

* ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ رَّبِّهِمْ﴾:

**والمرصاد** من الرصْد، فإذا كان الناس في ساحة يلعبون ويركُضون، ولها طريق واحد للخروج؛ وعلى هذا الطريق حُرَّاس وجنود ينتظرونهم، فهم الرصد، وهذا هو المرصاد[3].

---

(1) أخرجه البخاري (4686)، ومسلم (2583) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 748)، و«تفسير الرازي» (31/ 154)، و«تفسير القرطبي» (20/ 50).

(3) ينظر: «تفسير البغوي» (5/ 251)، و«زاد المسير» (4/ 389، 443)، و«تفسير الرازي» (31/ 155)، و«تفسير القرطبي» (20/ 50)، و«التحرير والتنوير» (30/ 35).

والآية تفيد أن الله تعالى بالمرصاد لكل طاغية وظالم، فدعهم يعبثوا ويتمتعوا، فسواء طال الزمن أم قصر، فلن يفلتوا من عقابه.

وكثيرون يستغرقون في اللحظة الحاضرة من مشاهدة العدوان والقوة، ويظنون التاريخ انتهى، والأمر توقف، ولو تذكروا هذه الآية لعرفوا أنها سنة الله؛ يلعبون لعبتهم في الميدان، لكن إذا أرادوا الخروج فالله بالمرصاد، فهي فترة إملاء وإمهال، وإذا أخذهم لم يفلتهم.

أقسم تعالى في أول السورة بالفجر والليالي العشر، ولم يذكر الشيء الذي أقسم عليه، وإنما انتقل إلى قوله: ﴿يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾، وهذا ليس من الأمور التي يكثر استخدامها عند العرب، ولعلها من مبتكرات القرآن العظيم التي تهزُّ الوجدان هزًّا، ولو أن أحدهم أقسم لك بالله العظيم القوي العزيز، ثم سكت وانتقل إلى موضوع آخر، لتساءلت: هذا القسم على ماذا؟

وهنا يبدأ البحث عن المقسَم عليه، وهذا أبدع وأبلغ مما أعطاك جواب القَسَم مباشرة.

والظاهر أن القَسَم هو على ما تضمَّنه السياق، أي: لنهلكنَّ الظالمين.

* ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا مَا﴾:

كان السياق عن الأمم السابقة، وأن الله أعطاهم السلطان والعلم والقوة والمال، فكفروا، فأهلكهم، فدل هذا على أن العبرة ليست بملكية الأشياء؛ فقد يملك البشر الأشياء ظاهرًا، وفي الحقيقة أنها هي التي تملكهم، وإنما العبرة بحسن الاستخدام وحسن التصور وحسن الشكر وحسن الصبر.

**والمقصود بالإنسان:** الكافر أو العاصي، إذا ابتلاه ربه بالعطاء والمال والصحة والقوة وملذات الدنيا، قال: ما أعطاني هذه النعم التي حُرِمها كثيرون إلا لرضاه عني ولكرامتي عنده[1].

وفي هذا المعنى قوله سبحانه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت: 50]، وقوله: ﴿يَغْشَى ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا﴾ [الحج: 11]، وهذا صنف من الناس، إذا أُعطي الدنيا ظنها كرامة عند الله يستحقها؛ لأنه جدير بها!

وفي قوله: ﴿مَا﴾، و﴿مِنْ﴾ ثلاث قراءات: بحذف الياء، وبإثباتها مطلقًا، وبإثباتها عند الوصل وحذفها عند الوقف، وكلها قراءات متواترة[2].

* ﴿۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ۝١٧ لَقَدْ رَأَى مِنْ صَاحِبُكُمْ﴾:

﴿وَمَا﴾ أي: ضيَّق[3]، كما قال سبحانه: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۝٩ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾ [الطلاق: 7]، أي: أعطاه بقدْر أو بقدَر، يعني: شيئًا قليلًا.

وفي قراءة بالتشديد: ﴿فَقَدَّرَ﴾، وهي بالمعنى ذاته[1].

---

(1) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (23/ 508)، و«زاد المسير» (4/ 443)، و«تفسير القرطبي» (20/ 51)، و«التحرير والتنوير» (30/ 338)، والمصادر الآتية.

(2) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص684- 685)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص222)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 164)، و«معجم القراءات» (10/ 423).

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (7/ 370)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 509)، و«زاد المسير» (3/ 210)، و«تفسير القرطبي» (20/ 51).

﴿ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ﴾ أي: لم ينزلني المنـزلة التي أستحقها[2]، فجعل معيار الإكرام والإهانة عنده هو العطاء الدنيوي.

وفي الآيات إبطال المعيار الذي اعتبروه؛ فـ«**إن اللهَ تعالى يُعطي الدنيا مَن يحبُّ، ومَن لا يحبُّ، ولا يُعطي الدينَ إلا لَمَن أحبَّ**»[3].

وعطاء الله تعالى إنما هو لِحِكَم وأسرار يعلم العباد بعضها، ويجهلون الكثير منها، ومَن حاول أن يستقصي، ربما آل به الأمر إلى الجحود والكفر، وبمثل هذا ضل ابن الرَّاوَنْدي، فكان يقول[4]:

كم عالمٍ عالمٍ ضاقتْ مذاهـبُـــه *** وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مـرزوقا

هذا الذي جعَلَ الأذهانَ حائرةً *** وصيَّر العالِمَ النِّحريـرَ زِنْديـقا

إن المسلم مأمور بالرضا والإيمان والتسليم، على الحال الذي وصفه النبيُّ صلى الله عليه وسلم في قوله: «**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمرَهُ كلَّهُ له خيرٌ؛ إن أصابتْهُ سراءُ**

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 261)، و«تفسير الطبري» (24/ 376)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص370)، و«حجة القراءات» (ص761)، و«المحرر الوجيز» (5/ 323)، و«تحبير التيسير في القراءات العشر» (ص612)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 400)، و«معجم القراءات» (10/ 424).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 377)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 8251)، و«تفسير البغوي» (5/ 251)، و«زاد المسير» (4/ 443)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 474).

(3) تقدم تخريجه في «سورة الانشقاق»: ﴿ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ﴾.

(4) ينظر: «الآمل والمأمول» (ص4)، و«غرر الخصائص الواضحة» (ص70)، و«طبقات الشافعية الكبرى» (4/ 232)، و«معاهد التنصيص» (1/ 147)، وفيها اختلاف في الرواية، وفي النسبة بين أبي العلاء المعري، وابن الراوندي، وغيرهما.

**شكرَ؛ فكان خيرًا له، وإن أصابتْهُ ضراءُ صبرَ؛ فكان خيرًا له**»[1]. وقال صلى الله عليه وسلم: «**وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسعَ من الصبر**»[2].

* ﴿كَلَّا إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾:

﴿كَلَّآ﴾: ليس الأمر كما زعم هؤلاء، و﴿كَلَّآ﴾ حرف ردع وزجر ونفي لما ادَّعوه.

نفيٌ لما ظنوه وتوهموه، من أن الحال التي هم عليها ثابتة مستقرة، لا تتغير ولا تتبدل[3].

من الناس مَن إذا كان في حالة الفقر ظن أنه لن يغتني، وإن كان في حالة الغِنى ظن أنه لن يفتقر، وإن كان مريضًا ظن أنه لن يتعافى، وإن كان معافًى ظن أنه لن يمرض!

ومن هنا ندرك معنى قوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾؛ لأن الإنسان الذي يكرم اليتيم هو المؤمن الذي لا يقول: «أكرمني.. أهانني»؛ لأنه يعرف أن العطاء والمنع من الله، وأنه إن أعطاك اليوم فقد يمنعك غدًا، وإن منعك اليوم فقد يعطيك غدًا، ولذلك يعرف أن للناس حقًّا في عقله وفي لسانه وفي سمعه وبصره وقواه وماله.

(1) أخرجه مسلم (2999) من حديث صُهيب الرُّومي رضي الله عنه.

(2) أخرجه البخاري (1469)، ومسلم (1053) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(3) ينظر: «الكشاف» (4/ 750)، و«تفسير الرازي» (31/ 157)، و«تفسير القاسمي» (9/ 470)، و«الجدول في إعراب القرآن» (30/ 325)، و«إعراب القرآن وبيانه» (10/ 475).

﴿رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾: فيه معنى الاستنكار، أي: لماذا لا تكرمون اليتيم، مع أنكم أغنياء ولديكم أموال؟

**واليتيم**: مَن فقد أباه قبل البلوغ، **وقيل**: يستمر اليتم إلى حال استغنائه عن الناس، خاصة مع ضعف حديث: «**لا يُتْمَ بعد احتلام**»[1]. وهذا قول جيد[2].

﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ﴾، وفي قراءة سبعية: ﴿تَحُضُّونَ﴾ بغير مدٍّ[3]، أي: لا يحض بعضكم بعضًا؛ ووصف المسكين إذا أطلق يعم المسكين والفقير.

و﴿٢٠ أَلَكُمُ﴾ يحتمل أن يكون معناه: إطعام المسكين، فيكون مصدرًا، ويحتمل أن يكون المقصود الطعام الذي هو المطعوم، يعني: لا تحاضُّون على بذل الطعام للمسكين من غداء أو عشاء أو سواه.

**فثبت لهم في مجمل الصفات:**

- أنهم لا يكرمون اليتيم.
- ولا يتحاضُّون على إكرام اليتيم.
- ولا يطعمون المسكين.

---

(1) أخرجه أبو داود (2873)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (658)، والبيهقي (6/ 57) من حديث علي رضي الله عنه.

وأخرجه الطيالسي (1876)، والبيهقي (7/ 319) من حديث جابر رضي الله عنه.

ورُوي عن غيرهما، وفي أسانيدها ضعف. ينظر: «الضعفاء» للعقيلي (4/ 428)، و«علل الدارقطني» (4/ 141- 142)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (1/ 275- 278)، و«التلخيص الحبير» (3/ 217- 218)، و«إرواء الغليل» (1244)، و«السلسلة الصحيحة» (3180).

(2) ينظر ما تقدم في «سورة الإنسان»: ﴿هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾، وما سيأتي في «سورة البلد»: ﴿ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ مَا﴾، و«سورة الماعون»: ﴿مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ رَأَىٰ﴾.

(3) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص685)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص370)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 410)، و«حجة القراءات» (ص762- 763)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 400)، و«معجم القراءات» (10/ 425- 426).

- ولا يتحاضُّون على طعام المسكين.

**والخلاصة** أنهم لا يفعلون هذه الأشياء بأنفسهم، ولا يحرِّضون ويحثون الآخرين على فعلها، فنفى عنهم القول والفعل.

والأصل في المجتمع التراحم، بأن تكون الأعمال الإغاثية والتطوعية أعمالًا جماعية، يتحاض الناس عليها ويتنافسون فيها، وفي هذه الآيات لفتة إلى أن مراعاة حقوق الناس وحاجاتهم وإصلاح حالهم من القضايا الكبيرة التي جاءت بها رسالة الإسلام، وأن الأمر بذلك والحض عليه جاء في الآيات المكية وفي أوائل ما نزل من القرآن، وأنه ليس لقصد التأثير والدعوة بين الضعفاء فحسب، بل هو مبدأ وفضيلة بذاته.

* ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾:

**التُّراث** هو: المال الموروث من الموتى، وأكل التُّراث هو: الاستيلاء عليه بغير وجه حق، وحرمان الوارث منه، لا سيما إذا كان ضعيفًا أو يتيمًا[1].

وقد يكون المقصود به: أكل الطعام، وهذا احتمال؛ لأنه من مقاصد التملك.

**والأقرب**- وهو الأكثر في استعمال القرآن- أن المقصود: الاستحواذ والانتهاب من غير وجه حق، فهو من أكل أموال الناس بالباطل، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 10].

* ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾:

والحُب معنًى قلبيٌّ، وهذا يعني: أن قلوبهم معلَّقة بالمال وتملكه بكل سبيل، وأحسن ما قيل في الزهد: أن يكون المال في يدك، وليس في قلبك[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 381)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 201)، و«تفسير البغوي» (5/ 252)، و«المحرر الوجيز» (5/ 480).

وقد يملك الإنسان المال، ولكن ليس عنده الحب الشديد له، ولذلك لا يبخل به، بل ينفقه ويتصدَّق منه.

**والجمُّ**: الكثير، كما يقال: جمَّ الماء يجمُّ، إذا كَثُر في عين أو بئر، وبدأ الماء يتجمع شيئًا فشيئًا في أسفلها[2]، **والمعنى**: تحبونه حبًّا كثيرًا ينمو ويزيد.

* ﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾:

﴿رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ الأولى إشارة إلى واقعهم في الدنيا، أي: أن ادعاءهم أن ربهم أكرمهم، أو أهانهم، بناءً على ما أعطاهم في الدنيا ليس صحيحًا.

ثم جاءت ﴿رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ الثانية لتنقلَهم إلى عالم الآخرة، أي: أن الدنيا ليست نهاية المطاف، وهب أنك بَقِيْتَ في الدنيا سالمًا غانمًا معافًى إلى وقت الموت، فماذا ينفعك هذا عند الحساب؟

و«الدَّك» ورد في مواضع أخرى؛ كما في «سورة الحاقة»: ﴿٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ رَبِّهِمۡ﴾، وهنا قال: ﴿وَءَابَآؤُكُم مَّآ﴾، وليس المقصود التعدد أو التثنية، بل التوكيد أو التفصيل[3]، كما أقول: إنني أخذت الكتاب فقرأته حرفًا حرفًا. وهذا معناه: أنني استوعبته تمامًا، وليس معناه أنني قرأته مرتين، وكما أقول: عرضت الحساب على فلان رقمًا رقمًا وبابًا بابًا، وهذا معناه: أنني انتقلت معه بالتدريج إلى المسائل كلها، والله أعلم[4].

---

(1) ينظر: «مدارج السالكين» (1/ 463).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 382)، و«تفسير القرطبي» (20/ 54).

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (30/ 336).

(4) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة».

وكثير من النصوص تُبيِّن دكَّ هذه الأرض التي فيها الجبال والعمران والمنخفضات، والتي أقمنا عليها العماد، وتحركنا فيها، والتي يمشي الإنسان فيها متبخترًا متكبرًا بخُيَلاءَ وفخرٍ، وهو يظن أنه لا يموت ولا يزول، ولا ينطوي ملكُه، وينسى مَن قبله، وينسى ما بعده، فهذه الأرض كلها سوف تُدَكُّ وتكسَّر وتفتَّت، فكيف بما عليها؟

* ﴿ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ فَتَدَلَّىٰ﴾:

مشهد مهيب، ومن المتكلمين مَن يقول: إن هذا محمول على المجاز؛ لأن المجيء في حقيقته انتقال، والانتقال لا يكون إلا للأجساد؛ والله تعالى منزَّه عن التجسيم[1].

والأولى باللَّبيب أن يتدبَّر الآية، ويتذكر ذلك الموقف المهيب، ولا يشغل نفسه في تأويلها، وكيف يصرفها عما تدل عليه؟!

ولو أننا أبقينا القرآن على جماله ورونقه، ووضوحه وظاهره، لكان هذا الأجدر بالهداية الربانية، ولذلك كان من طريقة السلف: «أَمِرُّوا النصوص كما جاءت».

ومن مذهبهم أن كل ما يخطر في الذهن عند قراءة هذه الآية ونحوها خيال بعيد عن الواقع؛ والله منزه عنه، فكل ما خطر ببالك فالله ليس كذلك.

فإذا قرأت: ﴿ٱللَّهُ بِهَا﴾، وتخيلت كرسيًّا يُنْصَب، ومَلِكًا يقعد عليه، فإن هذا الخيال الذي في ذهنك مخلوق وجدير بالمخلوقين، ويجب أن يُنـزَّهَ الله عنه.

ولذلك نقول: مَن قال: إن الظاهر غير مراد. فإن قصد بالظاهر هذه الصورة الخيالية التمثيلية التي ارتسمت في أذهاننا ونحن نقرأ السورة، فهو صحيح، ولكننا نقول ببقاء النص على ظاهره، والله سبحانه يجيء من غير تكييف؛ لأننا لا نعلم كيف هو، فلا نعلم كيف أفعاله، ولا كيف صفاته، ولا يعلم ذلك إلا هو سبحانه، والموقف

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 754).

مهيب؛ لأنه إذا كان مجيء ملوك الدنيا من المواقف المهابة، فكيف بمجيء الرب العظيم الكامل في أسمائه وصفاته، وعظمته ومجده، وقدرته وسلطانه[1]؟!!

والمقصود أن الله يجيء لفصل القضاء بينهم، ونصر المظلوم من الظالم، وإعادة الحق إلى أصحابه، وثواب المطيعين المؤمنين الصابرين، وعقاب الكافرين المعاندين[2]!!

فهذا المشهد مشهد عظيم مَهِيب تَوْجَلُ له القلوب، وجلال النص أن يبقى على طلاقته، مع نفي أي صورة متخيَّلة يقترحها الذهن البشري الكليل العاجز.

ثم الملائكة يُصَفُّون صفوفًا بعضهم خلف بعض، وورد أنهم يُصَفُّون سبعة صفوف، وهم محيطون بالبشر[3]، ولهذا: ﴿وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ﴾ [القيامة: 10- 12]، وهذا من معاني المِرصاد!

* ﴿يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن قَابَ﴾:

**جهنَّم**: من أسماء النار، وقد جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**يُؤْتَى بجهنَّمَ يومئذٍ لها سبعونَ ألفَ زمام، مع كل زمام سبعونَ ألفَ مَلَك يجرُّونها**»[4].

والحديث ورد موقوفًا ومرفوعًا، وكأن الموقوف أشبه، فقد رجَّحه غير واحد، واستدرك الدارقطني على مسلم رفعه[1].

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة البروج»: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ مَا﴾.

(2) ينظر ما سيأتي في «سورة الإخلاص».

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 217)، و«زاد المسير» (4/ 444)، و«فتح القدير» (5/ 535).

(4) أخرجه مسلم (2842)، والترمذي (2573)، وابن أبي الدنيا في «صفة النار» (142)، والبزار (1754، 1755)، والحاكم (4/ 595)، والبيهقي في «البعث والنشور» (589).

ويُؤتى بالجنة، كما في قوله سبحانه: ﴿ ⁦(١٠)⁩ مَا كَذَبَ ﴾ [التكوير: 13]، يعني: قُرِّبت من أهلها[2]، وإنما ذكر جهنَّم فقط؛ لأن المقام مقام تهديد ووعيد.

﴿تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن﴾: هذا الإنسان الذي كان يقول: ﴿رَأَىٰ مِنْ﴾ إن مُنع المال والدنيا، ويقول: ﴿ٱلسِّدْرَةَ مَا﴾ إن أُعطي المال والدنيا، في ذلك الموقف يستعيد ذكرياته، ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن﴾: لفظ استفهام، معناه الإنكار أو الاستبعاد، **يعني**: أَنَّى له أن ينتفع بالذكرى[3]؟! وإلا فهو قد تذكَّر فعلًا، ولكنه لا يستفيد من الذِّكْرى؛ لأن وقت العمل قد ذهب، وجاء وقت الحساب.

* ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ⁦(١)⁩ فَأَوْحَىٰ﴾:

يقولها بلسانه أو يقولها بقلبه، وهما سِيان، يعني أن الذي مُتِّع في الدنيا، وأُعطي ونُعِّم حتى أسرف على نفسه، واشتغل بملذاتها عن فعل الفرائض والقيام بحق الله، وشك في اليوم الآخر، يأتي يوم القيامة متحسِّرًا على التفريط في جنب الله قائلاً بلسانه أو بقلبه: ﴿إِذَا هَوَىٰ ⁦(١)⁩﴾ موقنًا أن الحياة الحقة هي الآخرة، ﴿غَوَىٰ ⁦(٢)⁩ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [العنكبوت: 64].

* ﴿ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ⁦(٢)⁩ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ⁦(٣)⁩ عَلَىٰ﴾:

---

(1) ينظر: «جامع الترمذي» (4/ 282) (2573)، و«مسند البزار» (5/ 162) (1754- 1756)، و«علل أحاديث صحيح مسلم» لابن عمار الشهيد (ص150- 152)، و«الضعفاء» للعقيلي (3/ 344)، و«علل الدارقطني» (5/ 86)، و«الإلزامات والتتبع» (93)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 399).

(2) ينظر ما تقدم في «سورة التكوير».

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 526)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 580)، و«تفسير الماوردي» (6/ 271)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 521)، و«الكشاف» (4/ 752)، و«تفسير الرازي» (31/ 159)، و«تفسير القرطبي» (20/ 56)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 475)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 400)، و«التحرير والتنوير» (30/ 339).

﴿وَمَا﴾ بكسر الذال، و﴿عَنِ﴾ بكسر الثاء، وفي قراءة بفتحها[1]، أي: أن عذاب الله في الدار الآخرة لا يشبهه عذاب أحد من الناس، وكل ما تعرفونه من ألوان العذاب فهو مختلف.

**والوَثاق** هو: القيد[2]، كما في قوله سبحانه: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾ [محمد: 4]، ولا أحد يوثِق مثل وثاق القيد الذي يجعله الله تعالى للكافرين، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۝٢٥ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى﴾ [الحاقة: 30- 32]، ومَن قرأ هذه الآيات يتخيل سلاسل الحديد الموجودة في الدنيا، ودوائرها الضيقة، ومن ثَمَّ يقع عند الإنسان شيء من التشبيه، ولهذا قال هنا: ﴿صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾، فما عند الله من العذاب ومن النعيم لا يخطر على بال، ولا يلحقه خيال.

**أو المعنى**: لا يعذِّب اللهُ تعالى عذابَ هذا الكافر أحدًا غيره، أي: لا يتحمل أحد عن أحد عذابه ولا وثاقه، فعذاب كل إنسان يتحمله هو، ولا يعذَّبه أحد غيره.

وقد ذكر تعالى في هذه السورة القوة والشدة والوعيد والتهديد والعقوبات الدنيوية للأمم الكافرة، وأما العذاب الحقيقي فهو في الآخرة، ولا يقارن عذاب الآخرة ونكالها بما وقع لهم في الدنيا.

وذِكْر العذاب والوَثاق مناسب مع ما يذكر عن فرعون وغيره من أنهم كانوا يوثِقون ويقيِّدون، ويعذبون مَن لا يوافقهم.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 391)، و«السبعة في القراءات» (ص685)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص371)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 412)، و«زاد المسير» (4/ 444)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (2/ 569)، و«تفسير القرطبي» (20/ 56)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 400)، و«معجم القراءات» (10/ 429- 430).

(2) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص853)، و«لسان العرب» (10/ 371) «و ث ق»، و«تاج العروس» (8/ 289) «ص ف د».

* ثم ختم تعالى السورة بهذا الختام اللَّطيف الدال على رحمته وفضله وكرمه وعطائه ولطفه: ﴿هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ ﴿١٣﴾﴾:

**والسورة فيها مقامان:**

1- مقام التنبيه للنبي صلى الله عليه وسلم على فضل الله عليه ومنَّتِه.

2- مقام الإشارة إلى أعدائه وما سيصنع الله بهم.

فالختام خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ونفسه المطمئنة، وهو خطاب لكل الصالحين، فالنفس هنا هي كلُّ النفوس المطمئنة(1).

**المطمئنة بذكر الله** عز وجل؛ فإن ذكر الله طُمأنينة للقلب، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

**المطمئنة بالنظر وإعمال العقل والفكر في ملكوت السماوات والأرض،** وفي آيات الله الكونية المخلوقة، وفي آيات الله الشرعية المنزَّلة، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البقرة: 260]، يعني: أنه كان يريد مزيدًا من الطُّمأنينة، وهي تكون برؤية الملكوت، وتكون برؤية الله عز وجل في الآخرة، وتكون بمحض الفضل من الله، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30]، فهذه النفس المطمئنة تنال الأمن والبشارة.

**ومن معاني المطمئنة:** المنخفضة، كقولنا: هذه أرض مطمئنة، يعني: غير مرتفعة؛ فمن معانيها: التواضع، فهي متواضعة لعظمة ربها تبارك وتعالى.

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (20/ 58)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 482)، و«تفسير الخازن» (4/ 428)، و«فتح القدير» (5/ 437)، و«التحرير والتنوير» (30/ 368).

**ومن معاني المطمئنة**: استواء المشاعر من حيث التسليم والرضا بالمقدور في كل حال[1].

وسبق أن ذكر مَن كانوا إذا أصابهم المال والغنى قالوا: ربُّنا أكرَمَنا. وإذا أصابهم الفقر والجوع والمرض قالوا: ربُّنا أهانَنا. وهذا يدل على أن نفوسهم لم تكن مطمئنة.

وهنا نلحظ التوافق والتناسب بين أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ صَاحِبِكُمْ﴾، وبين الخاتمة هنا في قوله: ﴿هُوَ إِلَّا وَحْيٌ﴾، وهذا استثناء للنفوس المؤمنة بربها المطمئنة إلى وعده تعالى، فهي مطمئنة بمواقفها ومشاعرها في حال الخوف والأمن، والشدة والرَّخاء، والسَّعة والضيق، والغنى والفقر، والمرض والعافية، والكثرة والقلة، والعزة والذلة، وهي راضية بقضاء الله، ذاكرة له، ممتلئة من الإيمان والتدبر والتأمل في كتابه المشهود «الكون»، وفي كتابه المنزَّل «القرآن».

**وقد قسم بعض العلماء النفوس إلى ثلاثة أقسام:**

1- النَّفس المطمئنة.

2- النفس اللَّوَّامة.

3- النفس الأمَّارة بالسوء.

وهذه الأقسام يشبه أن تكون أحوالًا للنفس؛ فإن الإنسان يكون في حال مطمئنًّا، وفي حال أخرى لائمًا لنفسه، وفي حال أخرى تكون نفسه أمَّارة بالسوء، ثم قد تستقر النفس في نهاية أمرها على واحدة من الحالات[2].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 293)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 202)، و«زاد المسير» (4/ 444)، و«التحرير والتنوير» (30/ 242).

(2) ينظر: «قوت القلوب» (2/ 406)، و«إحياء علوم الدين» (3/ 4)، و«تفسير الرازي» (29/ 470)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 265)، و«مجموع الفتاوى» (9/ 294)، (28/ 148)، و«تفسير ابن

* ﴿ﭓ ﻋَﻠَّﻤَﻪُۥ ﺷَﺪِﻳﺪُ ﭐﻟۡﻘُﻮَﻯٰ ﭔ ﭕ﴾:

**المعنى فيه على قولين:**

﴿ﭓ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ﴾ أي: ارجعي إلى الله تعالى، وهذا هو الذي عليه جمهور المفسرين، وهو الصحيح[1].

وعن بعض السلف أنه سُئل: كيف القدوم على الله؟ فقال: «أما المحسن، فكالغائب يقدم على أهله مسرورًا، وأما المسيء، فكالآبق يقدم على مولاه محزونًا»[2].

والرجوع هنا كأنه اختياري لها وبطوعها، وقد جاء في «الصحيحين»: «**مَن أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ اللهُ لقاءَهُ، ومَن كره لقاءَ الله كره اللهُ لقاءَهُ**»[3].

فالكافر يُساق سوقًا، كما ورد في حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما الطويل في قصة النَّزْع والاحتضار، أن نفسَ الكافرِ وروحَه تتفرَّق في جسده، فتنتزعها الملائكة كما تنتزع السَّفُّود من الصوف المبلول، وأما المؤمن؛ فتخرج روحه كما تخرج

---

جزي» (2/ 432)، و«تفسير الخازن» (3/ 290)، و«الروح» (ص267)، و«التعريفات» للجرجاني (ص243)، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» (2/ 270)، و«الكليات» للكَفَوي (ص718).

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 389- 397)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 581)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 203)، و«تفسير الماوردي» (6/ 272)، و«الكشاف» (4/ 752)، و«المحرر الوجيز» (5/ 482)، و«تفسير القرطبي» (20/ 58)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 477)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 400)، و«تفسير السعدي» (ص924).

(2) ينظر: «مسند الدارمي» (673)، و«المجالسة» (8/ 149) (3456)، و«حلية الأولياء» (3/ 234)، و«تاريخ بغداد» (6/ 67)، و«تفسير السمعاني» (6/ 167)، و«إحياء علوم الدين» (2/ 147)، و«تاريخ دمشق» (22/ 30)، و«المنتظم» (8/ 33).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (6507، 6508)، و«صحيح مسلم» (2683- 2686).

القطرة من فيِّ السِّقاء[1]، يعني: بسهولة ولين، وكما في الحديث الآخر: «**المؤمنُ يموتُ بعَرَق الجَبين**»[2].

أو أن المقصود بقوله: ﴿ﰃ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ﴾ أي: صاحبك؛ أي: إلى الجسد الذي كنت تعمرينه في الدنيا، وهذا ضعيف[3].

* ﴿مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ١٦﴾:

أي: فادخلي في عبادي الصالحين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: 9]، أي: ضمن عباد الله الصالحين[4].

﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، فانظر إلى هذا الفضل العظيم، وإلى هذا العطاء الجزيل، وهذا الختام الجميل؛ الذي لن يناله مَن داخله في الدنيا غرور بمال أو سلطان أو جاه، بل مَن اطمأنت نفسه إلى الله، وتواضع لعظمته، واختاره ورضي به.



---

(1) أخرجه الطيالسي (789)، وأحمد (18614)، وأبو داود (4753، 4754)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (2628).

(2) أخرجه الطيالسي (846)، وأحمد (22964، 23022، 23047)، والترمذي (982)، وابن ماجه (1452)، والبزار (4384)، والنسائي (4/ 5، 6)، وابن حبان (3011)، والحاكم (1/ 361) من حديث بُريدة رضي الله عنه.

(3) ينظر مصادر القول الأول.

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 397)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 528)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 528)، و«الكشاف» (4/ 752)، و«تفسير القرطبي» (20/ 59)، و«التحرير والتنوير» (30/ 343).

## سورة البلد

*** تسمية السورة:**

اسمها المشهور في كتب التفسير والمصاحف: «**سورة البلد**»[1].

وفي بعض التفاسير: «سورة ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾»[2].

وسماها البخاري في «صحيحه»: «**سورة ﴿ثُمَّ دَنَا﴾**»[3]، وهذا يشتبه مع «سورة ﴿مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ طَغَىٰ﴾».

وذكر الفيروزآبادي في «بصائر ذوي التمييز» من أسمائها: «**سورة العقبة**»[4]؛ لقوله: ﴿وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ بِهَا﴾، وهو مناسب؛ لأن هذا الاسم يميِّزها عما سواها.

*** عدد آياتها:** عشرون آية باتفاقهم[5].

*** وقد نزلت بمكة**، ولم يذكر أكثر المفسرين- كالقرطبي، وابن الجوزي، وغيرهما- إلا هذا.

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 699)، و«تفسير الطبري» (24/ 401)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 206)، و«تفسير السمعاني» (6/ 225)، و«المحرر الوجيز» (5/ 483)، و«زاد المسير» (4/ 446)، و«تفسير القرطبي» (20/ 59)، و«التحرير والتنوير» (30/ 345).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص729)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 427)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 133).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (6/ 169)، و«فتح القدير» (5/ 538)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (15/ 235)، و«التحرير والتنوير» (30/ 345).

(4) ينظر: «بصائر ذوي التمييز» (1/ 520).

(5) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص274)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (2/ 556).

ولكن ذكر ابن عطية والرازي أنها مدنية، **وقيل**: أولها مكي. وهذا ضعيف.

**والراجح** أنها مكية، وحُكي إجماعًا[1].

* ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ طَغَىٰ ﴾:

يعتبر هذا جمع من المفسرين نفيًا للقَسَم، أي: أن الله لم يقسم.

**والراجح** أنه قَسَم، وهو كثير التكرار في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الواقعة: 75]، وقوله: ﴿مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ ﴾ [القيامة: 1]، وقوله: ﴿مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ ﴾ [التكوير: 15].

وهو جارٍ على لغة العرب، بل يظهر أن القَسَم بلفظ الفعل بصيغة المتكلِّم لم يرد في القرآن إلا مقرونًا بـ﴿مَا﴾، فلا تجد في القرآن «أُقسم»، وإنما تجد: ﴿مَا يَرَىٰ﴾؛ و﴿مَا﴾ ليست نافية، وإنما هي حرف صلة، وبعضهم قد يقول: زائدة، ولا يقصدون زيادتها في المعنى، وإنما يقصدون زيادتها في الإعراب[2].

ويبدو أن ﴿مَا﴾ هنا يصلح أن تكون حرف استفتاح، مثل: «ألا»، وتأتي للأهمية أو التوكيد أو التطويل في القَسَم لما يقتضي زيادة القَسَم[3]؛ فتكون أقوى من «أُقسم»؛ لأن فيها القسم، وفيها زيادة الاستفتاح.

والله تعالى أقسم بهذا البلد، فقال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ رَبِّهِ ﴾ [التين: 1- 3]، فكيف يقسم الله به ثم ينفي القسم؟ هذا بعيد.

---

(1) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص274)، و«المحرر الوجيز» (5/ 483)، و«زاد المسير» (4/ 446)، و«تفسير الرازي» (31/ 165)، و«تفسير القرطبي» (20/ 59)، و«فتح القدير» (5/ 538)، و«روح المعاني» (15/ 349)، و«التحرير والتنوير» (30/ 345).

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (30/ 189)، و«تفسير القرطبي» (20/ 59)، و«تفسير ابن جزي» (1/ 2510، 2610)، و«تفسير الخازن» (7/ 214).

(3) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 101)، و«تفسير السعدي» (ص898).

و«**هذا**» اسم إشارة يعود إلى مكة، كقوله: ﴿**صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ**﴾، وقوله: ﴿**مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا**﴾ [النمل: 91]، فالإشارة فيها تقوية وتعزيز وإشهار وإظهار.

وفي هذا تحديد للمقصود؛ حتى لا يلتبس، فليس المقصود أي بلد، وإنما هذا البلد خاصة، وهو مكة، وفيه تعظيم لهذه البقعة المباركة التي اختارها واصطفاها، وجعل من أرضها وتربتها المكان المقدَّس يوم خلق السماوات والأرض، والكعبة التي حجَّها الرسل والأنبياء وطافوا بها، وأمَّها المسلمون في صلاتهم، ولا زالوا يَؤُمُّونها إلى يوم الدين.

وفي هذا القَسَم إشارة إلى مرحلة جديدة من القوة والظهور لهذا البلد، بحيث يكون مركزًا للعلم والدعوة والإيمان والنصر والفتح، وهذا ما لم يكن موجودًا آنذاك.

وفي ذلك إعجاز رباني، وإلماح إلى مرحلة تاريخية مختلفة في حياة البشر، تكون مكة فيها مركزًا عالميًّا ورقمًا مؤثِّرًا، ومشرقًا نورانيًّا للهداية والإيمان.

* ﴿**قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ رَأَىٰ**﴾:

خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، أي: وأنت يا محمد مقيم بها، وهذه الآية يمكن أن تكون جملة معترضة، ليست تبعًا للقَسَم، ويمكن أن تكون حالية بمعنى: أقسم بهذا البلد حين تكون- يا محمد- حلًّا به.

**وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿قَوْسَيْنِ﴾ على معانٍ**[1]:

---

(1) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (24/ 10)، و«الكشاف» (4/ 753)، و«زاد المسير» (4/ 446)، و«تفسير الرازي» (31/ 164)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 480)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 339)، و«التحرير والتنوير» (30/ 347).

1- أن هذا البلد الذي حرَّمه الله، وأصبحت فيه الطيور تأمن، والوحوش والهوام والدواب والحمام[1]، إلا أن قريشًا قد استحلت عرضك ودمك في هذا البلد الأمين.

2- أو قد أحللنا لك هذا البلد، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**وإنما أُحلَّت لي ساعةً من نهار**»[2]. يعني: في فتح مكة[3].

وهذا يشكل عليه أن الإحلال كان متأخرًا، والسورة مكية، وليس له وجه ظاهر في السياق.

3- وهو مشهور، ذكره ابن كثير وابن القيم وجماعة[4]، وهو أن المعنى: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ يعني: وأنت حالٌّ مقيم بهذا البلد، أي: ساكن.

وهذا المعنى هو الأجود والأجمل، وإن كان ثمة مَن اعترض عليه، كالشيخ الطاهر ابن عاشور في «التحرير والتنوير»، حيث ذكر أنه لا يعرف في لغة العرب أنهم يقولون: فلان حلَّ، بمعنى: مقيم أو ساكن[5].

ولغة العرب واسعة، والاستعمال معروف عندهم، وإن كان نادرًا؛ كما في «بصائر ذوي التمييز»، وذكره غير واحد، فإنهم يقولون: حلَّ بهذا المقام، يعني: أقام

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (1349، 1587، 1833)، و«صحيح مسلم» (1353، 1355).

(2) أخرجه البخاري (1833)، ومسلم (1355) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 402)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 402)، و«التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم (ص24)، والمصادر السابقة.

(5) ينظر: «التحرير والتنوير» (30/ 348).

به، فهو حال وحل، وكما يقال: محرم، إذا دخل في الحرم، كذلك يقال: حل إذا دخل في الحل زمانًا أو مكانًا، ومنه حل به، أي: أقام به، أو كان ظرفًا له[1].

**فالمعنى** أنك مقيم بهذا البلد، فهذا تشريف وافٍ، حيث يقسم تعالى بهذا البلد الذي هو شريف، وزاده شرفًا مقامُك فيه يا محمد! ولاحظ كيف أن الله تعالى كرَّر كلمة «هذا البلد» مرتين في آيتين، ومع ذلك تجدها من أجمل وأفضل ما يقع في أذن السامع.

* ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ رَبِّهِ﴾:

**هذا القَسَم الثاني، والوالد** هو: آدم عليه السلام وأولاده. **وقيل**: إبراهيم وذريته. **وقيل**: كل والد وما ولد[2].

وإن نظرنا إلى مناسبة البيت والبلد، فربما يكون اختيار إبراهيم عليه السلام أنسب؛ لعلاقة إبراهيم بالبيت العتيق؛ ولأن محمدًا صلى الله عليه وسلم من ولد إبراهيم، وهو الذي عمَّر هذا البيت بالإيمان، وجدَّد ملة إبراهيم عليه السلام.

وإن نظرنا إلى السياق العام في السورة، فلا مانع أن يكون المقصود كل والد وما ولد، ويدخل في ذلك آدم وولده، وإبراهيم وذريته.

ولم يقل: «ومَن ولد»، مع أن «مَن» تستخدم للعاقل، وإنما قال: ﴿إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ نزوعًا إلى معنًى خاص، وهو نوع من الوصف لما ولد، إما لكثرة مَن ولد، وتنوعه

---

(1) ينظر: «تفسير ابن فورك» (3/ 222)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 10)، و«تفسير الرازي» (31/ 163)، و«تفسير الماوردي» (6/ 274)، و«بصائر ذوي التمييز» (1/ 690).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 432)، و«تفسير الماوردي» (6/ 275)، و«زاد المسير» (4/ 446- 447)، و«تفسير الرازي» (31/ 164)، و«تفسير القرطبي» (20/ 61- 62)، و«البحر المحيط في التفسير» (8/ 470)، و«الدر المنثور» (15/ 437- 438).

وامتداده، أو إشارة إلى الفضل والتعظيم، وكأنه يقول: انظر إلى صفات مَن ولد، كإبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم وغيرهما[1].

* ﴿أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ أَفَرَءَيۡتُمُ﴾:

هذا جواب القَسَم، **والأقرب** أن المقصود كل إنسان، فيشمل المسلم والكافر، والذكر والأنثى.

و﴿كَذَبَ﴾ ظرفية، **واختلف العلماء في تفسير: «الكبد» على أقوال، أهمها:**

1- في مشقة وتعب وعناء، وهذا الأقرب والأشهر، حتى إنه يتوارد إلى الذهن لأول وهلة.

2- في استقامة وانتصاب، قائمًا على قدميه، قوي البنية، كما في قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ﴾ [التين: 4][2].

**والأول أقوى**؛ فقد جعل «الكبد» وعاء للإنسان، وأصل كلمة ﴿ٱلۡفُؤَادُ﴾ مأخوذة من الكبد؛ فالإنسان إذا أصابه وجع في كَبِدِه يقال: كَبَد فلان، وإذا واجهه ما يؤلمه، قال: هذا فَتَّ كبدي وفراه.

وعادة يعبَّر بالكبد عما يواجهه المرء ويعانيه، ومن هنا أخذ الكبد والمكابدة، وهو قريب من قوله: ﴿۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ﴾ [الانشقاق: 6][3].

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 428)، و«الكشاف» (4/ 754)، و«تفسير الرازي» (31/ 165)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 241).

(2) ينظر: «تفسير التستري» (ص199)، و«تفسير الطبري» (24/ 408- 411)، و«تفسير القرطبي» (20/ 62)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 403).

(3) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص695) «ك ب د»، و«بصائر ذوي التمييز» (4/ 322)، وما تقدم في «سورة الانشقاق».

ومع ذلك جعل الله في الحياة ما يشبه النقيضين، فمع الكبد السرور والرضا والنعيم وقرة العين.

ومن العجائب أن بالكبد تُستلذ المتع والراحة وملذات الدنيا، فالذي يحس الجوع يستلذ الشبع غاية الاستلذاذ، والذي يحِس التعب يستلِذُّ الراحة غاية الاستلذاذ، وربما تطاولت النِّعَمُ بالمرء فأنساه ذلك لذَّتها وذهب بذلك طعمُها الذي وجده أول استطعامِه لها.

زرتُ جارًا لي أصيب بالسرطان في القولون، وعنده تورم في بطنه، وكان يعاني من آلام مبرحة، ويُعطَى جرعات من المسكِّن، ومع ذلك يظل يعاني الألم ويتلوَّى منه، فكان يقول لي: سبحان الله! إذا هدأ الألم عني أشعر بلذة لم أعرِفْها طول حياتي، لمجرد إحساسي بالراحة من الألم!

والمرأة تجد كبدًا في الحمل والولادة؛ ولعل هذا من معاني الربط في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ رَبِّهِ﴾؛ لأن في الولادة مكابدة، وفي الولد مكابدة، يُبتلى الوالد بولده، ويُبتلى الولد بأبيه؛ وكثير من الآباء يشتكي من ولده، وكثير من الأبناء يشتكي من أبيه، وتجد الأب يتلذَّذ بولده، من النظر إليه، وشمه، وذكره، والابن مثل ذلك يعتز بأبيه، فالحياة ليست لونًا واحدًا، وهي لا تستقيم للإنسان إلا بقدر من المكابدة والتحمُّل.

وتجد هنا في العبادة، كما كان بعض السلف يقول: «كابدتُ قيام الليل عشرين سنة، وتنعمتُ به عشرين سنة أخرى»[1].

---

(1) ينظر: «قوت القلوب» (1/ 71)، و«حلية الأولياء» (2/ 320)، (10/ 10)، و«سير السلف الصالحين» لقِوام السُّنَّة (ص717)، و«تاريخ الإسلام» (8/ 56)، (10/ 347)، و«سير أعلام النبلاء» (5/ 224، 355)، و«لطائف المعارف» (ص43).

وقد قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: «**إنما بعثتُكَ لأبتليَكَ وأبتليَ بك**»[1].

فقد ابتُلِي النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالكفار والمشركين والمنافقين والمؤذين وضعفاء الإيمان، وابتُلي به الناس؛ ليَعْلَم مَن يؤمن ومَن يكفر، وابتُلي به الأعداء أيضًا في النِّكاية بهم.

**وهذا يعطي الإنسان العبرة ويربِّيه على معايشة الحياة بأسباب، منها:**

الطُّمأنينة والرضا والتسليم بقدر الله وقضائه.

ومنها التدرب على استخراج السَّعادة من براثن الشقاء؛ فالإنسان يستطيع أن يسعَدَ، ويهنَأَ، إذا ملك التكيف مع المتغيرات وتقبل الأمور كما هي.

**وفي الحياة ألوان من المتعة:** المتعة بالعبادة.. المتعة بالحياة.. المتعة بالمال.. المتعة بالزوجة.. المتعة بالولد.. المتعة باكتشاف المعلومات.. المتعة بالإنجاز، لكن تحتاج كلها إلى شيء من مكابدة الشَّقاء، واستجلاب السرور والأمل.

والقناعة الذاتية عامل مؤثِّر في مسألة استشعار السعادة، فالذي يقتنع أنه سعيد، ويجب أن يكون سعيدًا، سيجد السعادة، حتى لو كان في جو شقاء، والذي يستشعر الشقاء ويقوله ويكثر من التذمُّر، ولو كان عنده المال والصحة والفراغ والعافية والشباب والقوة، سوف يشعر بالتعاسة والحسرة.

❊ ﴿رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾:

أي: هل يظن الإنسان أنه لن يُبعث ولن يقدِرَ الله عليه؛ فإن الله خلقه، وحين أصبح إنسانًا قائمًا قويًّا نسي خلقه، وصار يدَّعي أنه لن يُبعث؟!

عتاب للإنسان الجاحد الذي ظن أنه تعالى لن يقدر عليه![1].

---

(1) أخرجه مسلم (2865) من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.

* ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ٢٠﴾:

**اللُّبَد** هو: الكثير، بعضه فوق بعض[2]، وقد وردت الكلمة في قوله تعالى: ﴿أَوۡحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ﴾ [الجن: 19]، وهي بضم اللام وبكسرها، فهذا الإنسان يتكلم ويدَّعي ويفتخر ويقول: أنا أهلكت مالًا كثيرًا في الإنفاق والبر والجود والإطعام والعطاء، وعبَّر بكلمة: ﴿رَءَاهُ﴾ إشارة إلى أنه مال ضائع هالك.

* ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا وَلَهُ﴾:

بلى، فإن الله سبحانه يراه: ﴿٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾ [العلق: 14]، فيعلم صدق دعواه بالإنفاق من كذبها، ويعلم قصده من الإنفاق، وأنه أراد به الفخر والادعاء، ولذا صار يتبجَّح في المجالس ويقول: إنه أنفق وأنفق، أو يعبِّر بالإهلاك؛ لأنه لا يرجو ثواب ذلك العمل.

* ﴿ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ أَنتُمۡ﴾:

هذا المخلوق الذي جعل الله له حرية واختيارًا، فلا هو مثل الشيطان الرَّجيم، ولا هو مثل المَلَك الكريم، وإنما هو قابل لهذا وهذا، وهذا جزء من كَبَدِه في البحث والمجاهدة، والوصول إلى الحق ولزومه.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 412)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 533)، و«تفسير الماوردي» (6/ 276)، و«الكشاف» (4/ 753)، و«زاد المسير» (4/ 447)، و«تفسير القرطبي» (20/ 64).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 328)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 19)، و«تفسير البغوي» (5/ 255)، و«زاد المسير» (4/ 447)، و«التحرير والتنوير» (30/ 355).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص734)، و«لسان العرب» (3/ 387)، و«تاج العروس» (9/ 130) «ل ب د».

والاستفهام هنا استفهام تقرير، **يعني**: قد جعلنا[1].

**ومن معانيه**: الإشارة إلى ما يعتقده الإنسان من أنه لن يُبعثَ قط، وكيف لا يبعث والله تعالى زوَّده بالسمع والبصر واللغة، وهداه طريق الخير أو طريق الشر. قال عز وجل: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ﴾ [القيامة: 36- 39]، فخِلقة الإنسان وجبلَّته تدل على أنه سيبعث، **هذا معنى**.

**المعنى الآخر**: أن الله تعالى يمتن عليه بأن خلق له الوسائل التي تعينه على معرفة الحق واتباعه، ومن ذلك العين واللسان والعقل والفهم الذي به يعرف النجدين، كما قال سبحانه: ﴿جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ [الإسراء: 36].

**وفي الآية معنى ثالث**: أنه إذا كان قد جَعل الله له عينين ينظر بهما، ولسانًا ينطق به، وعقلًا يميِّزه، أفيظن بربه الذي خلقه أنه لا يرى ولا يعلم؟! فالله أولى بالكمال؛ ولهذا كان من قواعد الصفات: أن كل كمال في حق الناس فالله أولى به، وكل نقص فالله تعالى أولى بالتنزه عنه.

**والنَّجْدان** مثنى: نَجْد، وهو الطريق المرتفع[2].

والنَّجْد مناسب للكَبَد، فهو طريق لا يخلو من المشاق، كِلا طريقي الخير والشر لا ينفك عن الصعوبة والكَبَد.

وبعضهم يظن أن طريق الشر سهل ممتع، وهذا ليس دقيقًا، صحيح أن فيه لذَّات وشهوات ومغريات، لكن فيه صعوبات، حتى الشهوة والمعصية التي يريدها الإنسان

---

(1) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (20/ 344)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (15/ 242)، و«أضواء البيان» (4/ 206)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص791) «ن ج د».

أحيانًا يتعب ولا يظفر بها، وبعد حصوله يجد الأمر محفوفًا بكثير من المزعجات والمنغِّصات المادية والمعنوية، والمخاوف الصحية والاجتماعية، والآلام النفسية، واحتقار المتعة بعد الحصول عليها، وقد يشعر أنه تورَّط، ويتمنَّى الخلاص، ثم يتملَّك قلبه الهمُّ والغمُّ والقلق، والذكريات المؤلمة والتأنيب، فهذا كله عناء وكبد ومشقة، لكن كبد الطاعة ومشقتها محفوف بلُطف الله، وكل عمل يعمله الإنسان فله ثمن، فثمن الطاعة قبلها من الجهد والمكابدة، ثم يعقبها الرضا والرَّوح والسرور، وثمن المعصية بعدها من الهم والغم والقلق والمعاناة النفسية والحسية.

* ﴿وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ بِهَا﴾:

أي: لم يقتحم العقبة، وثَمَّ تناسق بين اقتحام العقبة وبين الكَبَد، فالاقتحام أمر صعب وفيه مخاطرة ويتطلَّب قوةَ قلبٍ وصبرًا، وهو مناسب للنجدين.

**والعقبة**: الطريق الوَعْر في الجبل(1)، ولذا قال الحسن البصري وغيره في تفسير الآية: إنه مَثَلٌ ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس(2).

وفي الآية إلماح إلى أن أغلب الناس لا يَقْتَحِمون العقبة، فهم يؤثِرون الرخاوة ويفشلون في الاختبار.

* ﴿رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ إِلَّا ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ﴾:

قال سُفيان بن عُيينة رحمه الله: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿رَأَىٰ مِنْ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلم يخبره به».

---

(1) ينظر: «مجمل اللغة» لابن فارس (ص620)، و«شمس العلوم» لنشوان بن سعيد الحميري (7/ 4648).

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 278)، و«تفسير السمعاني» (6/ 229)، و«تفسير الرازي» (31/ 167)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 347)، و«تفسير النيسابوري» (7/ 343).

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر[1].

وهو سؤالُ تفخيم وتهويل، أي: ما هي؟! وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ﴿١٨﴾﴾: تعريف للعقبة واقتحامها.

**والرقبة** معروفة، تُطلق على العبد الرَّقيق، وكان الإسلام- حتى وهو في الفترة المكية- يتشوَّف إلى عتق الأرِقَّاء وتحريرِهم، وإعادتهم إلى ما كانوا عليه في أصل خِلقتهم، فإن الله خلقهم أحرارًا، ولم ينزل مع آدم عبد من السماء، بل كلُّهم بنوه، وإنما طرأ الرِّقُّ عليهم، وجعل الله تعالى العتق في كثير من الكفَّارات، وجاء من النصوص في فضل عتق الرَّقيق الشيءُ الكثيرُ[2]، حتى قال بعض أهل العلم: إن أفضل أنواع الصدقة: أن يعتق الإنسان رقبةَ رَقيق.

* ﴿وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ رَبِّهِمْ﴾:

**المسغبة**: الجوع الشديد؛ والمقام مقام اقتحام وعقبة وكَبَد؛ فناسب أن يذكر الإنفاق في أشد حالاته، وأشقِّها على النفس، وهو اليوم الشديد المسغبة، كما قال: ﴿هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ﴾ [الإنسان: 8][3].

* ﴿ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ مَا﴾:

يعني: إطعام الطعام ليتيم، و﴿ٱلذَّكَرُ﴾ هنا مفعول به منصوب معمول المصدر ﴿﴿١٩﴾﴾.

(1) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾.

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (2517، 6715)، و«صحيح مسلم» (1509).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 425)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 29)، و«تفسير القرطبي» (20/ 69)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 408)، و«التحرير والتنوير» (30/ 358).

**واليتيم**: الصغير الذي فقد أباه قبل بلوغه، وقد يستمر اليتم بعد البلوغ بسبب الظروف الاجتماعية والاقتصادية[1].

**والمقربة**: القرابة، والأقربون أولى بالمعروف.

* ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ صَاحِبُكُمْ ﴾:

أي: إطعام مسكين محتاج لا شيء عنده، فهو لَصِيق بالأرض من شِدَّة المسكنة[2]، ولهذا يقال عن الفقير: يداه في التراب، والعرب كانت إذا دعت على إنسان قالت: تربت يداك، أو تربت يمينك، وهذا دعاء عليه، وأحيانًا لا يُقصد حقيقته، وإنما هو دعاء جارٍ على الألسنة[3].

فالأمر الأول- الذي ذكره الله تعالى في اقتحام العقبة- هو ما يتعلق بالتحرر من سطوة المال والتعلُّق به، وإنفاقه في سبيل الله، بخلاف الذين لا ينفقون، ويقول أحدُهم: ﴿رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾، أو ينفقون القليل، ويدَّعون أنهم ينفقون الكثير.

**لم يعتمد الإسلام على جانب واحد في حماية حقوق الفقراء والمساكين والأرِقَّاءِ، بل وضع نظاما تكامليا من أربعة محاور:**

1- الوعظ والترغيب الأخلاقي بكافة أشكاله، والوعد الدنيوي بالعوض والخلف، والأخروي بالمثوبة والأجر والرضوان؛ مما يحفِّز المؤمنين إلى البذل وإيثار ما عند الله، والتغلب على شح النفس.

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة الفجر»: ﴿رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾.

(2) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 429)، و«تفسير الطبري» (24/ 426)، و«تفسير الماوردي» (6/ 279)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 32- 33)، و«تفسير القرطبي» (20/ 70).

(3) ينظر: «الاستذكار» (1/ 295)، و«التمهيد» (8/ 340)، و«تفسير غريب ما في الصحيحين» للحميدي (ص321)، و«شرح السنة» للبغوي (7/ 235).

2- تشريع الأحكام الملزمة لكل المؤمنين بأنواع الكفارات والزكاة والنذور وسواها، مما يترتب عليه الإلزام الشرعي بإخراج المال للفقير والمسكين.

3- الإلزام العام للمجتمع بكفالة فقرائه ومحاويجه وأيتامه، وإيجاب الإنفاق على الموسرين بما يحقِّق ذلك، والدعوة إلى بناء المؤسسات والفرق الطوعية التي تحقِّق ذلك، فلا تترك حقوق الناس لمجرد التقوى أو الإيمان؛ لأنه يوجد من الناس مَن لا إيمان عنده ولا تقوى، فيفترض أن توجد جهات ومؤسسات ولجان وجمعيات وأجهزة تَحفَظُ حقوقَ الأطفال والنساء والأيتام والفقراء والغرباء وعامة الناس.

وفي العالَم الغربي أصبحت هذه ثقافة وأعرافًا سارية، وقوانين محكمة، ولها أصول وقواعد وتنافس، أما في العالَم الإسلامي، فإهدار وإطاحة بالحقوق على مستوى الحاكم والمحكوم، والزوج والزوجة، والأستاذ والطالب، والداعي والمدعو، والعالِم والمتعلِّم، وإلى الله المشتكى.

4- حثُّ المساكين والفقراء والأيتام على العمل والكَدْح والسعي؛ للاستغناء عن الناس، كما في «الصحيح»: «**لأن يأخذَ أحدُكم حَبْلَهُ، فيأتي بحُزْمة الحطب على ظهره، فيبيعها، فيَكُفَّ اللهُ بها وجهَه، خيرٌ له من أن يسألَ الناسَ، أَعْطَوْهُ أو منعُوه**»[1].

ولذلك جاءت قصة صاحب الفأس الذي علَّمه النبيُّ صلى الله عليه وسلم جمع الحطب وأشرف عليه حتى حقَّق النجاح[2]، وجاءت أحاديث الوعيد في المسألة من

(1) أخرجه البخاري (1471) من حديث الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه.

(2) ينظر: «مسند أحمد» (12134)، و«سنن أبي داود» (1641)، و«جامع الترمذي» (1218)، و«سنن ابن ماجه» (2198)، و«سنن النسائي» (7/ 259)، و«الحث على التجارة» للخلال (117)، و«سنن البيهقي» (7/ 25)، و«الترغيب والترهيب» (1/ 335)، (2/ 333)، و«نصب الراية» (4/ 22).

غير حاجة، خاصة من القوي القادر، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا تحلُّ الصدقةُ لغنيٍّ، ولا لذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ**»[1].

* ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ عَنِ﴾:

﴿إِنۡ﴾ في الأصل للعطف والترتيب، والإيمان يكون قبل الإطعام؟

**وأخَّر الله تعالى الإيمان هنا لأسباب:**

1- الإشارة إلى علو الرتبة، فرتبة الإيمان أعلى وأقدم مما قبلها، وما قبلها فرع عنها.

2- أن صاحب الفطرة السليمة الكريمة الباذل المعطاء قد يمن عليه بالإيمان والعمل الصالح، كما في قصة حَكِيم بن حِزام رضي الله عنه لما قال: أي رسول الله، أرأيتَ أمورًا كنتُ أتحنثُ بها في الجاهلية من صدقة أو عَتاقة أو صلة رحم، أفيها أجر؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «**أسلمتَ على ما أسلفتَ من خير**»[2].

أي: لَمَّا آمنتَ كُتبت لك أعمالك الصالحة[3].

**فمن معاني الآية:** أن أناسًا قبل الإسلام كان عندهم أخلاق طيبة، ولم يكن عندهم إيمان، ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم فأصبحوا من: ﴿أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ﴾، فكُتبت لهم أجورهم، وكان إيمانهم بسبب ما أسلفوا من الخير،

---

(1) أخرجه الطيالسي (2271)، وأحمد (6530، 8908)، وأبو داود (1634)، والترمذي (652)، وابن ماجه (1839)، وابن خزيمة (2387)، وابن حبان (3290)، والحاكم (1/ 407)، والبيهقي (7/ 13) من حديث عبد الله بن عمرو وأبي هريرة رضي الله عنهما، وينظر: «إرواء الغليل» (877).

والمقصود بقوله: «**ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ**»: القوي على الكسب والعمل.

(2) أخرجه البخاري (1436)، ومسلم (123).

(3) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (2/ 140- 141)، و«فتح الباري» لابن رجب (1/ 159).

والإنسان إذا أسلم وحسن إسلامه يكتب له ما كان يعمله قبل الإسلام من الأعمال الصالحة.

﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ﴾ متناسب مع قوله: ﴿أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ أَفَرَءَيْتُمُ﴾، والكبد يهوِّنه على الإنسان الصبرُ؛ ولهذا قال عمر رضي الله عنه: «وجدنا خيرَ عيشنا بالصبر»[1]. فبالصبر تطيب الحياة، ويتحول الكبد إلى لذة.

﴿مَّآ أَنزَلَ﴾ وهذا متناسب مع ما قبله؛ لأن الفقراء والجياع يكابدون شَظَف العيش، ويحتاجون إلى مَن يُشفق عليهم؛ وهناك مَن يدَّعي أنه بذل وأنفق وأهلك مالًا لُبدًا، وهناك مَن ينفقون المال في فك الرقاب، والإطعام في المساغب، بل ومَن لا يكتفون بمجرد العطاء والبذل، حتى يُوصوا به غيرهم، وهنا نجد طريقين: مَن يهلك المال لُبدًا، وهو يحسب أن لم يره أحد، ومَن ينفق المال في فكِّ رقبة، وإطعام في مَسْغبة.

* ﴿بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ يُوحَىٰ﴾:

أي: أصحاب اليمين الذين تجري أمورهم على اليسر والتوفيق، وهذا من معاني اليمين واليُمن، فهم يُعطون كتبهم باليمين، وهم أصحاب الجنة.

* ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ﴿٥﴾﴾:

جعل تعالى الكفر عنوانًا لكل شر، كما قال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: 254]، فالكافر يجحد البعث والنشور، ولذا يبخل بالمال، وهو يكفر نعمة الله عليه، ولا يصبر إذا أصابته مصيبة، ولا يرحم اليتيم والمسكين، قريبًا كان أو بعيدًا.

---

(1) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (630)، ووكيع في «الزهد» (198)، وأحمد في «الزهد» (612)، والبخاري (8/ 99) معلقًا، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (1/ 50)، وابن حجر في «تغليق التعليق» (5/ 172).

و﴿تَهۡوَىٰ﴾ من الشؤم، والمقصود بها: الشمال، يعني: هم ممن يُؤتى كتابه بشماله، وهم أصحاب الشمال[1].

وقد جرت أعراف الناس ولغاتهم وعاداتهم على أن اليمين مما يُتفاءل به، وأن الشمال مما يُتشاءم به، حتى اليَمَن سُمِّيت يمنًا تفاؤلًا، والشَّام سُمِّيت شامًا عندهم تشاؤمًا، فجاء الإسلام لينفي هذا المعنى، فقال صلى الله عليه وسلم: «**اللهمَّ بارك لنا في شامنا**»[2]؛ ليبيِّن أن هذا الأمر لا يُعبأ به.

فالمشأمة تعني: الشؤم على أنفسهم، بأعمالهم الفاسدة.

* ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم ﴾:

ختم السورة بالإطباق والإغلاق عليهم، وقُضي الأمر، والوصيد هو: الباب[3]، لا تُفتح لهم أبدًا، وهم الذين كفروا، فلا يخرجون من النار، بخلاف عصاة الموحدين، فإن الله يعذِّب مَن أراد عذابه، ثم يخرجون منها برحمة الله، والله تعالى أعلم.

❍ ❍ ❍

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 286)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 291)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 201)، و«تفسير البغوي» (5/ 6)، و«تفسير القرطبي» (17/ 198)، (20/ 72)، و«التحرير والتنوير» (30/ 362).

(2) أخرجه البخاري (1037) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(3) ينظر: «العين» للخليل (7/ 145)، و«الجيم» لأبي عمرو الشيباني (3/ 313).

## سورة الشمس

* **تسمية السورة:**

اسمها: «**سورة الشمس**»، أو: «**سورة ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾**»، كما في معظم كتب التفسير، والحديث[1].

وسماها البخاري في «صحيحه»، والترمذي في «جامعه»: «**سورة ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا﴾**»[2]، بالآية الأولى منها، وهكذا هي في بعض كتب التفسير، وهذا جيد للتفريق بينها وبين سور مبدوءة بالشمس، مثل: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾.

* **عدد آياتها:** خمس عشرة آية، أو ست عشرة، بحسب اختلافهم[3].

* **وهي مكية** بإجماع المفسرين[4].

وفي هذه السورة خَصِيصة ليست لغيرها، وهي: افتتاحها بأحد عشر قَسَمًا متتاليًا[1].

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 709)، و«سنن النسائي الكبرى» (10/ 336)، و«تفسير الطبري» (24/ 434)، و«تفسير السمعاني» (6/ 232)، و«المحرر الوجيز» (5/ 487)، و«زاد المسير» (4/ 450)، و«تفسير القرطبي» (20/ 72)، و«التحرير والتنوير» (30/ 365).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص732)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 431)، و«صحيح البخاري» (6/ 169)، و«جامع الترمذي» (5/ 297)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 410)، والمصادر السابقة.

(3) وذلك أنهم اختلفوا في قوله: ﴿مَا يَرَىٰ﴾ [الشمس: 14]. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص275)، و«التحرير والتنوير» (30/ 365).

(4) ينظر: «زاد المسير» (4/ 450)، و«تفسير القرطبي» (20/ 72)، و«روح المعاني» (15/ 357)، و«التحرير والتنوير» (30/ 365).

وأنت إذا تأملت القرآن، وجدت جمهور معانيه ودلالاته التي يُحتاج إليها في تقرير الإيمان ورسم مسيرة الإنسان في الدنيا والآخرة، مما يسهل فهمه على الشاب في مقتبل عمره، والأعرابي في الصحراء، وغير المتخصِّص، والعامي في متجره وحقله، دون حاجة إلى مراجعة كتب التفسير؛ لأنه خطاب لهم، وهم متعبَّدون بتلاوته والإيمان به.

وفي الوقت نفسه تجد من دقيق المعاني ولطيفها ما لا يدركه إلا الخواص؛ لأنه من العلم الذي يخاطب الخاصة دون غيرهم، أيًّا كان اختصاصهم.

وفي القرآن الكريم أنواع عظيمة من الإعجاز المبهر، على أنه لم يحشد من المعاني التي لم يكن الناس يعرفونها بما يكون ابتلاء لهم، وقد يكون سببًا في كفرهم، فلو قال الله لهم: إن حجم الشمس كذا؛ وبُعدها عن الأرض كذا، مما لم يكن العلم قد وصل إليه ولا ألمَّ به، لكان في ذلك محنة لهم.

ولو قال الله لهم: سوف تأتي طائرات في الفضاء، وسيارات، وأجهزة اتصال، وأجهزة بث فضائي وكمبيوترات دقيقة ومتطورة؛ قبل مشاهدتهم لها؛ لربما كانوا يستبعدونها بالحسِّ، ولا يعرفون كيف ستقع؛ ولهذا جعل الله تعالى الإشارة إلى مثل هذه المعاني إشارات عامة، يؤمن بها كل أحد، دون الدخول في التفاصيل، فأشار إلى النجوم ومواقعها وعظمتها، وترك التفاصيل لأهل الاختصاص الذين يطلعهم الله في كل وقت على ما لم يكن معروفًا عند أهل العلم من قبلهم.

وقد منح الله الناس العقول وسلَّطهم على الكون باكتشافه وتسخيره، ولم تأت الكتب السماوية لتلقِّن الناس تفصيلات العلوم، بل لتحفِّز عقولهم ومداركهم على البحث عنها واستقصائها وتجريبها.

---

(1) ينظر: «التفسير القرآني للقرآن» (16/ 1582).

* ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا طَغَىٰ﴾:

القَسَم يدل على عظم خلق الشمس وأهميتها في الحياة؛ ولذا أقسم الله تعالى بها أولًا، وأقسم بضحاها ثانيًا[1].

أقسم بالشمس، سواءً أكانت طالعة أم غائبة، مرئية أم غير مرئية؛ لأنها جِرْم هائل، وهي كتلة من اللَّهب جعل الله من شأنها أن تَفِيض على هذا الوجود طاقةً عجيبة.

والشمس كتلة من اللَّهب بحجم كتلة الأرض مليون وثلاثمئة ألف مرة، ويا للحكمة والقدرة الربانية أن تبقى هذه الكتلة معلَّقة في الفضاء، ثم يجعل الله سبحانه بينها وبين الأرض بُعدًا كبيرًا، بحيث لا تصل أشعتها إلى الأرض إلا وقد بردت، وأمكن أن يستفاد منها، ولذلك يذكر العلماء أن متوسط حجم المسافة بين الشمس والأرض مئة وخمسون مليون كيلو مترًا.

والشمس ليست إلا كوكبًا من الكواكب التي نثرها سبحانه وتعالى في السماوات، إلى جوار مجرَّات وأفلاك وعوالم، لو أن الإنسان قرأ وتأمل فيها لاستشعر معنى جدية الخلق، وجدية الكون، وجدية الإيمان، لكن كثيرًا من الناس لا يمنحون عقولهم وقلوبهم الإيمان والانتفاع والاعتبار.

وهذا ليس من الكلام الذي يجب على الناس الإيمان به، ولم يُمتَحنوا به، لكنَّ أهل الاختصاص وأهل الذكر في هذا الجانب بنوا ذلك على حقائق ومعلومات واستنتاجات علمية صحيحة.

ويقول العلماء: إن حرارة الشمس تتفاوت كثيرًا ما بين حرارتها عند سطحها وما بين حرارتها في مركزها، فحرارتها عند السطح تصل إلى خمسة آلاف وخمسمئة درجة

---

(1) ينظر: «الواضح في علوم القرآن» (ص309– 310).

مئوية، لكن حرارتها عند المركز تصل إلى عشرة ملايين درجة مئوية، وانظر الفارق الهائل[1]!

والإنسان يرى الشمس قرصًا مدوَّرًا، فلا يفرِّق بينها وهي تجري من بعيد في الأفق، وبين المصابيح الكاشفة التي صنعها البشر!!

فالله تعالى يكشف عن الإنسان الغفلة والإِلف حينما يطرق سمعك بالقَسَم بالشمس، والقَسَم بضحاها.

**والضُّحى** يشمل نور الشمس الذي يضيء هذه الأكوان، فتشرق بعد ظلام، ويشمل الحرارة[2]، ولا يصل إلى الأرض من حرارة الشمس إلا اثنين من بليون، أما البقية فتضيع في الفضاء الهائل الذي خلقه الله وأبدعه، وهذا القدر اليسير كم فيه من البركة والخير والنماء والحياة!!

وكم فيه من الحرارة التي تصهر الإنسان حين يكون في وهج الظهيرة وفي قلب الصحراء وليس ثَمَّ ما يُكِنُّه من الهجير.

فهذا القَسَم من شأنه لفْتُ نظر الإنسان إلى بديع مخلوقات الله سبحانه وتعالى، ومن ثَمَّ يستَدِلُّ بالمخلوق على الخالق.

* ﴿ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ﴾:

القمر بالنسبة للأرض مولود صغير؛ فهو أقل من جزء من خمسين جزءًا من حجم الأرض، وهو ذرة صغيرة بالنسبة للشمس.

وهو تابع من توابع الأرض يدور حولها، وكذلك هو تالٍ للشمس، وفي الكون أقمار كثيرة، لكنه تعالى ذَكَرَ القمر لنفعه في الأرض، وإذا كانت الشمس آية النهار،

---

(1) ينظر: «القرآن وإعجازه العلمي»، و«القرآن وعلوم الأرض».

(2) ينظر ما سيأتي في «سورة الضحى».

فالقمر آية الليل، والله سبحانه يقول: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: 12].

**ومعنى محو القمر**: أنه ليس فيه ضوء بذاته، وإنما نوره انعكاس الشمس عليه[1].

فهذا من معاني قوله: ﴿﴿١﴾ مَا ضَلَّ﴾ كما ذكر الفرَّاء وغيره، أن المعنى: تبعها[2]، فالقمر ضوؤه من ضوء الشمس، ونوره من نورها.

والمشهور عند أكثر المفسرين- ونُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره- أن المعنى: أن القمر يجيء بعد الشمس[3]. وذلك أنه إذا أظلمت الدنيا وذهبت الشمس حل القمر محلها، وبخاصة في أول الشهر وفي أيام البِيض حينما يكون القمر بدرًا، فكأنه يخلف الشمس في إنارة الأرض وإشراقها.

ولهذا كان القَسَم بالشمس أقوى؛ لأنه أقسم بجِرمها، ثم بضحاها، أما بالنسبة للقمر فأقسم بالقمر وحده، وذكر حالة خاصة له، وهي: ﴿مَا ضَلَّ﴾ أي: الشمس، وفي ذكر القمر أشار إلى نسبته إلى الشمس!

* ﴿وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ رَبِّهِ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (2/ 524)، و«تفسير الطبري» (14/ 516)، و«التفسير البسيط» للواحدي (30/ 98)، و«زاد المسير» (3/ 13).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (5/ 213)، و«تفسير الطبري» (24/ 435)، و«تفسير الرازي» (31/ 172)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 355)، و«فتح القدير» (5/ 636).

(3) ينظر: «فضائل القرآن» لأبي عبيد (128)، و«الزهد» لأبي داود (448)، و«تفسير الطبري» (24/ 452)، و«المستدرك» (2/ 524)، و«تفسير الماوردي» (6/ 281)، و«تفسير الرازي» (31/ 172)، و«تفسير القرطبي» (2/ 95)، و«تفسير ابن كثير» (1/ 403)، (8/ 410)، و«الدر المنثور» (1/ 577)، (15/ 455).

النهار يتناسب مع الشمس؛ لأنه أثر من ضوئها، ومعنى ﴿ ٢ ﴾: كشفها وأظهرها[1].

ويحتمل أن يكون مرجع الضمير إلى الشمس، يعني: أنها تتجلَّى وتُرى في النهار.

ويحتمل أن يكون المعنى: جلَّى البسيطة، أي: الأرض، وإن لم تكن في السياق، ولكن هذا معروف، وهو أسلوب من أساليب القرآن البديعة في الأشياء الواضحة التي يفهمها كل أحد، ولا يحتاج الأمر فيها إلى عود الضمير على مذكور، لأن كل سامع يدري أن النهار هو الذي يكشف ويجلِّي الأرض[2].

* ﴿يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ أَفَرَءَيْتُمُ﴾ أي: يغطِّي الأرض فتظلم.

ويحتمل أن يكون المعنى: يغشى الليل الشمس، فيذهب بضوئها عند غيابها[3].

أقسم تعالى بالشمس وبالنهار، وأقسم بالقمر وبالليل، وكل ذلك فيه الإشارة إلى النور؛ فالشمس نور، وضحاها نور، والقمر نور، والنهار نور، وحتى الليل، وإن كان ظلامًا يَغْشَى، إلا أن الله جعل فيه نور القمر، وفي ذلك إشارة إلى غلبة النور وكثرته وأصالته وعمقه، ومن هذا المعنى أخذ بعض المفسرين أن هذه الآية فيها إيماء وإشارة إلى قوة الدين وغلبته وظهوره وعزته.

* ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ﴾:

---

(1) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (5/ 145)، و«إعراب القرآن وبيانه» (10/ 494).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 436)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 562)، و«تفسير الماوردي» (6/ 282)، و«زاد المسير» (4/ 450)، و«تفسير القرطبي» (20/ 74)، و«البحر المحيط في التفسير» (8/ 473)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 356)، و«روح المعاني» (15/ 358).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 437)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 585)، و«تفسير القرطبي» (20/ 74)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 315)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 486)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 359)، و«فتح القدير» (5/ 546).

استكمل تعالى بهاتين الآيتين كل ما حول الإنسان، بحيث إذا نظرت يمينًا أو شمالًا أو إلى فوق أو تحت أو أمام أو وراء؛ فلا مخرج لك من هذه الأقسام التي أقسم الله بها.

وهنا ذكر بناء السماء، فقوله: ﴿هُوَ﴾ يحتمل أن تكون اسمًا موصولًا، يعني: والذي بناها، وهو الله سبحانه[1]، وهذا مثل قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 22].

ويحتمل أن تكون مصدرية، يعني: والسماء وبنائها، فيكون إشارة إلى صفة بناء السماء[2]، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [الذاريات: 47].

وحينما تتأمل ملكوت السماوات والأرض، أو تشاهد صورها في المواقع المتخصِّصة أو البرامج العلمية والأفلام، تجد أمرًا عجبًا، فمن أسباب قوة الإيمان رؤية السماء والنجوم والمجرَّات والكواكب الهائلة المذهلة، وكذا رؤية البحر والأرض، وما خلق الله.

ويدخل في بناء السماء المجرات والأفلاك والنجوم؛ لأنها في السماء؛ فكثيرون يفهمون أنها السماء التي فيها الملائكة فحسب، في حين أن الصحيح في الشرع واللغة: أن كل ما علا وارتفع فهو سماء[3]، فيدخل في ذلك الأفلاك والمجرات والكواكب والنجوم والسماوات السبع التي ذكرها الله.

---

(1) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 137)، و«تفسير الخازن» (4/ 432)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 437)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 332)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 541)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 53)، و«زاد المسير» (4/ 450)، و«تفسير القرطبي» (20/ 74)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 411)، و«روح المعاني» (15/ 359).

(3) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾، و«سورة النازعات»: ﴿مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾.

﴿يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ﴾: لما ذكر السماء أعقبها بذكر الأرض التي جعلها مهادًا وبساطًا، وقرَّبها للناس وسهَّلها لهم، و«الطحو» جاء بلفظ «الدحو»: ﴿يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾ [النازعات: 30]، والدال والطاء متقاربان في المخرج، **وله عدة معانٍ:**

**منها:** كون الأرض كرة، كما هو معروف، وهذا أمر بدهي، وقد ذكره المتقدمون من أهل الإسلام وغيرهم، وممن ذكر هذا ابن تيمية، ونقله عن أبي الحسين ابن المنادي من الحنابلة، ونقل إجماع العلماء عليه[1].

**ومن معاني:** ﴿عَلَّمَهُۥ﴾: بسطها[2]، فمع أن الأرض كُرَوِيَّة، إلا أنها مبسوطة للناس؛ يمشون عليها، ويستفيدون منها، وينتفعون بها.

وإذا أراد الإنسان أن يبني عليها أو يزرع أو يقيم بناءً، يجد الأرض مذلَّلة لكل ما يحتاج.

**ومن معاني الطَّحو:** أن جعل في باطنها من الخيرات والمعادن والبركات ما يكفي لحاجة البشر ويزيد عليها[3]، كما قال: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ۝١٨ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ۝٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾ [فصلت: 9- 10].

* ﴿ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو وَلَهُ﴾:

(1) ينظر: «مجموع الفتاوى» (6/ 566)، (25/ 195)، و«درء تعارض العقل والنقل» (3/ 288)، وما تقدم في «سورة نوح»: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدۡ﴾، و«سورة النازعات»: ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 438)، و«زاد المسير» (4/ 450)، و«تفسير القرطبي» (20/ 74)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير المراغي» (30/ 168).

هذه خلاصة القَسَم، ومدار الأمر وواسطة عقد النظام في الأقسام، أقسم تعالى بالنفس، فالمخلوقات خُلِقتْ وذُلِّلَتْ من أجل الإنسان، كما قال: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ﴾ [الجاثية: 13].

وهذا يثمر عند الإنسان حالة من الإيمان والاعتبار، ولا يمكن أن يحصل عليها بسهولة إلا إذا فَكَّر وتأمَّل.

**والصحيح** أن القَسَم ليس بنفس خاصة، كنفس آدم عليه السلام، أو نفس شخص بعينه، وإنما أقسم بكل نفس[1].

والنفس تُطلق على الروح، وتطلق على الإنسان من حيث هو بدن وروح[2]، والمدار هنا على الإنسان بعدما اكتمل، وإن كان في ذلك إشارة إلى النفس وشرفها؛ لأنه لما أقسم بالنفس لم يقسم بالجسد المجرَّد، وإنما أقسم بالنفس التي يصير بها هذا الجسد الجامد كائنًا حيًّا مكلَّفًا مُكَرَّمًا عزيزًا، ويتلقى الإلهام، ومنهم الأنبياء والرسل، ومنهم مَن يدخل الجنة ويتشرَّف بجوار الله عز وجل، ومنهم مَن يكون له من المقامات في العلم والعمل القدر الكبير.

فالقَسَم هنا بالنفس، وإن كان قَسَمًا بالإنسان من حيث هو جسد وروح، إلا أن فيه إشارة إلى شرف النفس، وما أحسن ما قيل[3]:

يا خادمَ الجسمِ كم تَشْقَى بخدمتِــه *** لتطلبَ الربحَ فيما فيه خســرانُ

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 283)، و«زاد المسير» (4/ 451)، و«تفسير الرازي» (31/ 176)، و«تفسير القرطبي» (20/ 75)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 488)، و«تفسير ابن عرفة» (4/ 76)، و«فتح القدير» (5/ 547).

(2) ينظر: «تفسير الشافعي» (2/ 755)، و«التفسير البسيط» للواحدي (2/ 141)، و«المحرر الوجيز» (5/ 482)، و«تفسير المراغي» (4/ 176).

(3) ينظر: «ديوان أبي الفتح البُستي» (ص183).

أقبِلْ على النفسِ فاستكملْ فضائلَها *** فأنت بالنَّفسِ، لا بالجسمِ إنسانُ

وقد خلق تعالى جسم الإنسان جميلًا، إلا أن النفس أجمل؛ فبها ترقَّى الإنسان عن رتبة الحيوان.

فإقبال الإنسان على نفسه بتزكيتها بالإيمان وبالعبادة وبالعلم، هو الذي يصبح به الإنسان أشرف وأكرم، في حين أن غالب الناس يعتنون بأجسادهم وصحتها ما لا يعتنون بأرواحهم، وهذا من تقديم المفضول على الفاضل.

* ﴿فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ إِذَا﴾:

كلمة «الإلهام» ليست كثيرة الاستعمال في اللغة العربية، ومن العرب مَن لا يعرف معنى الإلهام، إلا «اللَّهْم»، فإذا صار عند الإنسان شيء يَلْهَمُه دفعة واحدة، أي: يضعه في فمه ويبتلعه، كما قال رُؤْبة[1]:

كالحوتِ لا يُرْوِيه شيءٌ يَلْهَمُهْ *** يصبحُ ظمآنَ وفي البحر فمُهْ

فهو تعبير عن الرغبة الشديدة فيه.

الإلهام معنًى نفسي عزيز راقٍ، وهو العلم الضروري عند الإنسان الذي لا يحتاج إلى استدلال، أي: أن الله تعالى يوصل إلى الإنسان معلومات وحقائق دون مقدمات؛ لأن كثيرًا من العلوم تحتاج إلى مقدمات وأدلة، بخلاف الإلهام.

وهنا ذكر الإلهام للتقوى والفجور، فيحمل على معنى المشاكلة والاتباع.

أو يكون المعنى أنه يسَّرها لذلك، ويسَّره لها، وكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له، والله أعلم[2].

---

(1) ينظر: «ديوان رُؤْبة بن العجَّاج» (ص159).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 440)، و«تفسير الماوردي» (6/ 283)، و«زاد المسير» (4/ 451)، و«تفسير القرطبي» (20/ 75)، و«التحرير والتنوير» (30/ 369).

وفي التقوى خاصة يُلْهَمُ بعض المؤمنين من اللطائف والأسرار والمعاني ما يأتي دون بحث أو تنقيب، ويكون حلًّا لمشكل، أو بيانًا لغامض، أو كلامًا عذبًا يهز الوجدان، أو توقعًا لمستقبل لا تقوم عليه أدلة.

وأصول الأشياء تُعرف بالإلهام والفطرة، كأصل الإيمان بالله؛ فإنه فطرة، يعرفها الخاص والعام، لكن جاءت الرسالات بأسماء الله وبصفاته، وأصول الأخلاق تُعرف بالفطرة، وكل الناس يدرون أن الكذب مذموم، وأن الصدق فضيلة، وأن الظلم شؤم، وأن العدل محمدة.

والله سبحانه خلق لنا السمع والأبصار والأفئدة، والسماوات والأرض، وما فيهما من الشمس والقمر والنهار والليل، ثم سلَّط قدراتِنا ومَلَكاتِنا وجوارحَنا وأعضاءنا عليها، فنرى ونسمع ونفكِّر ونحلِّل، حتى يصل الإنسان إلى الحق؛ فهذا من الإلهام؛ ولذلك كان مناسبًا أن يذكر الله تعالى هذه الآية بعد أقسام شملت كل ما خلقه الله تعالى مما يراه الإنسان أو يحسه.

والسمع والأبصار والأفئدة منافذ لرؤية الأشياء المحسوسة من حولنا، واكتشاف الإيمان والوصول إليه، **فتجد أن الحجة قامت على الخلق من وجوه:**

1- الخلق المحسوس الذي نراه ونسمعه ونلمسه ونشاهده.

2- القوى البشرية من السمع والبصر والفؤاد، قال الله تعالى: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى﴾ [النحل: 78].

3- الإلهام، بمعنى: المَلَكة والمقدرة العقلية والنفسية على الاستفادة من هذه الأشياء، وأن تتحول إلى فَهْمٍ وإدراك وإيمان ومشاعر؛ ولذلك لا أحد يستطيع أن يعرِّفَ الحبَّ والبغض، والفرح والحزن، والرضا والسخط، والسرور والهم والغم؛ لأن هذه المعاني والواردات النفسية عبارة عن عالم هائل يصعب حصره، لكن كلُّنا يحس به.

فقد جعل الله به كمال الحجة على الإنسان؛ ولهذا قال: ﴿فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ﴾ يعني: أن الله تعالى أَلْهم الإنسان معرفة الفجور ومعرفة التقوى، وبيَّن له الخير والشر، والهدى والضلال، ثم أقدره على أن يسلك أي النجدين وأي السَّبيلين؛ لأنه لو جعله بالاضطرار تقيًّا مؤمنًا لم يكن ثَمَّ مجال للتفوق والامتحان.

* ﴿ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا ۝٢٢﴾:

**الفلاح**: نيل المطلوب من خير الدنيا والآخرة[1].

و﴿دَنَا﴾: نمَّاها[2]؛ ولهذا سُمِّيت: الزكاة؛ لأنها تُنَمِّي المال[3]، **والمعنى**: أن يكون الإنسان طيبًا، وأن يكون طاهرًا[4].

**وهل النفس تنمو أو تكبر؟**

**الجواب**: النفس لا تكبر كبرًا حسيًّا، وإذا شعر بالكبر سُمِّي متكبرًا؛ لأنه كبَّر نفسه، والواقع أنها صغيرة، لكن بالزكاة تكبر النفس كبرًا معنويًّا، في حين أن صاحبها يراها صغيرة، وليس عن تكبر، ولكن عن نمو صحيح وطهارة وزكاة.

ولذا قال عُتبة بن غَزْوان رضي الله عنه: «**وإني أعوذُ بالله أن أكونَ في نفسي عظيمًا، وعند الله صغيرًا**»[5].

---

(1) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (2/ 37)، و«التوضيح لشرح الجامع الصحيح» لابن الملقن (3/ 241)، و«الكليات» للكَفَوي (ص908)، و«تاج العروس» (7/ 26) «ف ل ح».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 443)، و«تفسير البغوي» (5/ 260)، و«زاد المسير» (4/ 451)، و«تفسير القرطبي» (20/ 77)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (22/ 78)، و«تفسير القاسمي» (9/ 482).

(3) ينظر: «كتاب الزكاة من شرح بلوغ المرام» (ص15).

(4) ينظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (1/ 184)، و«النهاية» (2/ 765)، و«لسان العرب» (14/ 358)، و«المصباح المنير» (1/ 254).

(5) أخرجه مسلم (2967).

فالنفس واحدة، لكنها تكبر بالإيمان، كما تكبر بالعلم، فالإنسان الذي عنده عشرة آلاف معلومة أحسن من الذي عنده ألف معلومة، وأوسع نطاقًا منه الذي عنده مليار معلومة، مع أنهم يقولون: إن الإنسان لا يستفيد من عقله إلا بأقل من عشرة في المئة في كل الأعمال التي يجريها، هذا في مجال العلم فقط، وهكذا مجال تزكية النفس وطهارتها.

* ﴿٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ﴾:

**الدَّس والتدسية**: الإخفاء، أي: ضيَّقها وضيَّعها وصغَّرها وقلَّلها، ودائمًا تجد الخير واضحًا، والشرَّ في الغالب يقصد فيه الاستخفاء والإخفاء[1].

* ﴿أَدْنَىٰ ٩ فَأَوْحَىٰ بِهَا﴾:

ولا أعلم سبب تخصيص ذكر قصة ثمود في هذه السورة، إلا أن يكون هذا لأن قصتهم معروفة عند العرب، وديارهم ليست بعيدة عن ديارهم[2]، فكان من المناسب أن يذكِّرهم الله تعالى بما يعرفون، وأن يذكر لهم مثلًا مما سبق في تاريخهم، وكثير من الناس إذا ذكرت له مثالًا من تاريخه الذي يعرفه تأثر به أكثر من تأثره بما لا يعرف؛ ولذلك تجد الفلَّاح إذا عرضت له قصة النبات، وكيف تخرج الزَّهْرة والوردة والشجرة يتأثر بها أكثر مما لو حدَّثته عن الفلك.

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 544)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 586)، و«تفسير الماوردي» (6/ 385)، و«التحرير والتنوير» (30/ 371).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص300، 314)، و«الكليات» للكَفَوي (ص453).

(2) **ديار ثمود** تقع في الحِجْر، شمال الجزيرة العربية، وما زالت آثارهم موجودة على الطريق بين الحجاز والشام، وكانت قريش يمرون عليها وهم ذاهبون إلى الشام، ومر بها النبيُّ صلى الله عليه وسلم في طريقه إلى تبوك، كما في «صحيح البخاري» (3378، 3380)، و«صحيح مسلم» (2980)، وينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿٢٢ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾.

وقد يكون هذا أنموذجًا واضحًا لإلهام الفجور والتقوى، كما قال: ﴿قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ﴾ [فصلت: 17].

**والطغوى**: الطغيان، وهي صيغة مبالغة[1]، **والمعنى**: أنهم بطغيانهم كذَّبوا، وقد جاء في آية أخرى ما يدل على أن الله تعالى عاقبهم بجنس عملهم، كما في «سورة الحاقة»: ﴿﴿٢٢﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّآ ﴿١٩﴾﴾، يعني: بالصيحة الطاغية التي تتناسب مع طغيانهم[2].

* ﴿عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰٓ إِلَّا﴾:

**أشقى ثمود هو**: قُدَار بن سالف، وكان سيدًا زعيمًا كبيرًا، كما في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**انْبَعَثَ لها رجلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ مَنِيعٌ في رهطه، مِثْلُ أبي زَمْعَةَ**»[3]. ولم ينبعث للناقة إلَّا بعدما بايعوه كلهم وأقروه؛ ولذلك كان الراضي المقر للفعل مثل الفاعل.

وهو أشأم رجل على قومه، وكان قد أظهر نيته في قتل الناقة، وكأنهم حرَّكوه وأغروه، كما قال تعالى: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: 29]، أي: فعقر الناقة[4].

* ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾:

---

(1) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (24/ 64)، و«الكشاف» (4/ 760)، و«تفسير الرازي» (31/ 178)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 489)، و«فتح القدير» (5/ 547)، و«روح المعاني» (15/ 362)، وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص520) «ط غ ى».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 209)، و«تفسير الماوردي» (6/ 76)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 124)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 208)، و«التحرير والتنوير» (29/ 116).

(3) أخرجه البخاري (4942)، ومسلم (2855) من حديث عبد الله بن زمعة رضي الله عنه.

(4) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 182)، و«تفسير الطبري» (22/ 143)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 479).

﴿ٱلۡفُؤَادُ مَا﴾ هو: صالح عليه السلام، ﴿رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ يعني: احذروا، ولفظ: ﴿رَأَىٰٓ﴾ منصوب على التحذير[1]، أي: احذروا ناقة الله وسقياها، ولا تتعرَّضوا لها ﴿جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣ أَمۡ﴾ [الأعراف: 73]، وذلك أنه كان لها شِرب ولهم شِرب يوم معلوم، ففي يوم كان الماء لبهائمهم ودوابِّهم، وفي يوم آخر تشرب الناقة، ثم تدر لهم ما يحتاجونه من اللَّبَن[2].

* ﴿مَا يَرَىٰ ١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣﴾:

كذَّبوه بما جاء به، وكفروا بالدين والتوحيد، وخالفوا أمره، فعقروا الناقة، **والعَقْر** هو: قطع رجلَيِّ الدابة أو يَدَيْها فتسقط، ثم صار يستعار للقتل[3].

﴿١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾: والعلماء مختلفون في معنى ﴿١٢﴾[4]، لكنك حين تسمع الكلمة تجد في أذنك صوت الصيحة التي ألَمَّت بهم، حتى إنك لا تجد كلمة أخرى أجل وأوضح من كلمة ﴿١٢﴾؛ لتعريفها وبيانها، وهو صوت الصيحة تخرق آذانهم، ثم تفضي إلى قلوبهم، فيتساقطون ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ﴾ [الحاقة: 7].

﴿أُخۡرَىٰ﴾ أي: تساووا جميعًا في العقوبة؛ لأنهم تساووا في الجريمة.

---

(1) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (24/ 68)، و«زاد المسير» (4/ 541)، و«تفسير الرازي» (31/ 179)، و«تفسير القرطبي» (20/ 78).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (2/ 580)، و«تفسير الطبري» (24/ 449)، و«التحرير والتنوير» (30/ 374).

(3) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (9/ 212)، و«زاد المسير» (2/ 135)، و«تفسير القرطبي» (7/ 240)، و«فتح القدير» (2/ 251)، و«تاج العروس» (13/ 102) «ع ق ر».

(4) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (5/ 333)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 546)، والمصادر الآتية.

وقد يكون المعنى: أن الله سوَّى الأرض بهم، وهذا قريب أيضًا[1].

والعامة تعبِّر بهذا الفعل فتقول: سوَّاها فلان، يعني: عملها.

* ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾:

فالله لا يخاف شيئًا، والإنسان إذا همَّ أن يعاقب أحدًا قد لا يبالغ في العقاب، ويقول: أَبْقِ للصلح موضعًا. وربما تعاقب فتبالغ فيكون عند الطرف الآخر ردة فعل قوية، وقد ينتقم منك ويجد فرصة الرد ولو بعد حين؛ ولذلك لا يكون عقابهم بليغًا، أما الله تعالى فممَّا يَخاف؟ وممَّن يَخاف؟!!

فكان أخذه كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]، والله تعالى أعلم.



(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 450)، و«تفسير الماوردي» (6/ 285)، و«زاد المسير» (4/ 852)، و«تفسير القرطبي» (20/ 79)، و«التحرير والتنوير» (30/ 375)، والمصادر السابقة.

## سورة الليل

*** تسمية السورة:**

الذي في كتب التفسير عامة: «**سورة الليل**»، أو: «**سورة ﴿عِندَهَا﴾**»[1].

وسماها البخاري في «صحيحه»، والترمذي في «جامعه»: «**سورة ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾**»[2].

* **عدد آياتها:** إحدى وعشرون آية[3].

* **وهي مكية** عند الجمهور، وبعض المفسرين لم يذكروا إلا هذا، لكن نُقل عن بعضهم أنها مدنية.

**وقيل**: فيها المكي والمدني، ففي آخر السورة: ﴿ ﴿٢﴾ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ** ﴿٣﴾ **إِنْ يُوحَىٰ**﴾، جاء في بعض الروايات أنها نزلت في أبي الدَّحْداح الأنصاري رضي الله عنه، حيث أنه كان لرجل من الأنصار نخلة، يسقط من بلحها في دار جار له، فيتناوله

---

(1) ينظر: «جامع الترمذي» (5/ 41)، و«سنن النسائي الكبرى» (10/ 336)، و«تفسير الطبري» (24/ 455)، و«معاني القراءات» (3/ 151)، و«تفسير السمعاني» (6/ 236)، و«تفسير البغوي» (5/ 261)، و«المحرر الوجيز» (5/ 490)، و«زاد المسير» (4/ 453)، و«تفسير القرطبي» (20/ 80)، و«التحرير والتنوير» (30/ 377).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص734)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 433)، و«صحيح البخاري» (6/ 170)، و«جامع الترمذي» (5/ 298)، و«مستخرج أبي عوانة» (2/ 492)، والمصادر السابقة.

(3) وقيل: عشرون آية. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص276)، و«المحرر الوجيز» (5/ 490)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص323)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (2/ 557)، و«بصائر ذوي التمييز» (1/ 523)، و«روح المعاني» (15/ 365)، والمصادر السابقة.

صبيانه، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**تبيعها بنخلة في الجنة؟**». فأَبَى، فاشتراها أبو الدَّحْداح رضي الله عنه، فنزلت هذه الآية[1].

هكذا ذكر بعضُ المفسرين، واستدلوا بذلك على أن السورة مدنية، أو أن يكون فيها المكي والمدني.

والسبب المذكور- على القول بثبوته- لا يلزم القطع بكونه سبب نزول الآيات؛ ولذا نرجِّح ما ذهب إليه الجمهور من أن السورة نزلت بمكة، بل هي من أوائل السور نزولًا بها، والموضوعات التي تُعالَج في القرآن المكي واضحة فيها[2].

* ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾:

أقسم سبحانه بالليل حين يغطِّي الكون بظلامه، وقرنه بفعل مضارع ﴿ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾.

وبالنهار، وجعل مع النهار الفعل: ﴿ٱلسِّدْرَةَ﴾، وهو ماضٍ.

وبدأ تعالى بالليل قبل النهار؛ لأنه خُلق أولًا، والله أعلم[3]؛ فإن الكون كان ظُلْمة حتى خَلَق الله الشمس والقمر، وخَلْقُ السماوات والأرض كان قبل خلق الشمس والنور، والله أعلم.

فالأصل أن الظلام كان موجودًا، فأشرق بنور ما خلق الله سبحانه.

---

(1) سيأتي قريبًا.

(2) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص276)، و«المحرر الوجيز» (5/ 490)، و«تفسير القرطبي» (20/ 80)، و«الإتقان» (1/ 52)، و«روح المعاني» (15/ 365)، و«التحرير والتنوير» (30/ 377)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (2/ 384)، و«تفسير الطبري» (16/ 258)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (8/ 2717)، و«تفسير البغوي» (1/ 116)، و«تفسير ابن كثير» (5/ 339).

فالبدء بالليل إشارة إلى أنه هو الأول السابق؛ ولذلك يبدأ التاريخ من الليل، والليلة تسبق يومها، فنقول مثلًا: ليلة الاثنين، والاثنين بعدها، فالليل قبل النهار، وهذا في الشريعة معتبر، إلا في حالة واحدة، وهي ليلة عرفة؛ فإنها تكون بعد نهار عرفة.

و﴿يَغۡشَىٰ﴾ فعل مضارع، و﴿تَجَلَّىٰ﴾ فعل ماضٍ، ذكر ابن القيم أن السبب في ذلك أن الليل يأتي متدرِّجًا، فهو يغشى شيئًا فشيئًا، بخلاف النهار فهو يخرج دفعة واحدة سريعًا[1]؛ حيث تشرق الشمس، فإذا الكون كلُّه نور، **فهذا سرٌّ من أسرار التعبير**.

﴿يَغۡشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ﴾: «ما» يحتمل أن تكون اسمًا موصولًا، يعني: والذي خلق الذكر والأنثى، فيكون القَسَم بالله سبحانه، ويحتمل أن تكون مصدرية، يعني: وخَلْقِ الله الذكر والأنثى[2]، وهذا أقرب وأجود؛ ليكون القَسَم بالخلق، أي: خلَق الليل، وخلَق النهار، وخلَق الذكر والأنثى.

والله خَلَق الليل والنهار، وخَلَق الذكر والأنثى، فلماذا قال هنا: ﴿يَغۡشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ﴾ ولم يقل في الليل والنهار: «وما خلق الليل والنهار»؟

لعله لأن الليل والنهار مخلوقات ليس عليها تكليف، وليست مطالبة بالمعرفة، وإنما جاء ذكرها هكذا كآيات، أما الذكر والأنثى فجاءت مقرونة بخلقها، إشارة إلى أنها متعبّدة بمعرفة خالقها، مكلَّفة بطاعته والإيمان به؛ ولذلك قال بعدها: ﴿وَمَا طَغَىٰ

---

(1) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم (ص55).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 458)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 549)، و«تفسير الماوردي» (6/ 286)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 76)، و«الكشاف» (4/ 761- 762)، و«تفسير القرطبي» (20/ 80)، و«التحرير والتنوير» (30/ 379).

﴿١٧﴾، وهذا خطاب للذكر والأنثى، ولفت النظر إلى ما في خلقها من العبرة والإبداع، خاصة وهي المخاطبة بالكلام.

وهنا نلاحظ التنويع والتشابه، فالذكر والأنثى مثل الليل والنهار؛ الذكر يشبه النهار من جهة الفعل والعمل والحركة والسعي والظهور، والأنثى تشبه الليل من جهة الهدوء والاستقرار والسكون والروحانية والخفاء، والحياة البشرية لا تقوم إلا بهذين الركنين، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ﴾ [القصص: 71- 73]، فالكون يصلح بالليل والنهار، والحياة تصلح بالذكر والأنثى.

وجاء في «الصحيحين» رواية عن أبي الدرداء وابن مسعود رضي الله عنهما قراءة: (**وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَى**)[1].

وهذه ليست من القراءات المتواترة السَّبْعية، ولا يصح القراءة بها[2].

وحملها بعضهم على أن هذا كان في أول القرآن لما أُذن للناس بشيء من الاجتهاد في القراءة ولو لم يكن بحرفيتها، ثم جمع الله تعالى الناس على القراءة الأخيرة التي قرأها جبريلُ عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم، وقرأها النبيُّ صلى الله عليه

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (3742)، و«صحيح مسلم» (824).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 270)، و«تفسير الطبري» (24/ 455)، و«تفسير البغوي» (5/ 490)، و«تفسير القرطبي» (20/ 81)، و«التحرير والتنوير» (30/ 380)، و«معجم القراءات» (10/ 461).

وسلم على جبريل في رمضان في آخر سنة مرتين[1]، وصارت هي القرآن الذي تعبَّد الله الناس به، والله أعلم.

* ﴿وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ أَفَرَءَيْتُمُ﴾:

هذا هو المُقْسَم عليه، ولم يقل: «عملكم»، **فهل السعي هو العمل؟**

هو قريب منه، لكن السعي أقوى؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إذا أقيمت الصلاةُ، فلا تَأْتُوها وأنتم تَسْعَونَ** - يعني: تركضون - **وَأْتُوهَا تمشونَ، وعليكم السَّكينةُ**»[2].

فالسعي يدل على السرعة والشدة، وفيه إشارة إلى أن طبيعة الحياة الشدة والمكابدة، والنجاح فيها يتطلب جهدًا عقليًّا وبدنيًّا؛ حتى يستطيع الساعي أن يحصل على المطلوب، وأن يتغلب على العقبات[3].

**ومعنى «شتَّى»**: مختلف[4]، وهذا قد يكون جمع: شَتِيت، كما يقال: مَرِيض ومَرْضى، وقَتِيل وقَتْلى، وجَرِيح وجَرْحى.

والآية تؤكِّد أن الحساب والجزاء ليس بمتقضى الجنس؛ ذكورةً وأنوثة، بل بمقتضى العمل والسعي؛ إيمانًا أو كفرًا، عطاءً أو منعًا.

**فهذه الآيات الأربع اشتملت على عناصر النجاح للأمم، وتحقيق الرُّقي والتقدُّم والحضارة:**

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (3623، 3624)، و«صحيح مسلم» (2450).

(2) أخرجه البخاري (908)، ومسلم (602) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 11)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7465)، و«تفسير النسفي» (3/ 482)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 138).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 460)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 335)، و«زاد المسير» (4/ 453)، و«تفسير القرطبي» (20/ 82).

1- الزمان، وهو الليل والنهار.

2- الإنسان، وهو الذكر والأنثى معًا، ولكل منهما دوره وحضوره، فإن الإنسان هو العنصر الأساسي؛ وهو أهم استثمار، فإذا صلح حقَّق الانتصارات الكبيرة.

3- العمل، وهو السعي.

وقَـلَّ مَـنْ جَدَّ في أَمـرٍ يُحَاوِلُـهُ *** واسْتَصْحَبَ العزمَ إِلَّا فازَ بِالظَّفَرِ[1]

4- المال، وهو عصب الحياة.

* ﴿رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ﴾:

«أمَّا» للتقسيم، ثم ذكر الله تعالى ثلاثة أفعال بها يفوز الإنسان وينجو: «أعطى»، و«اتَّقى»، و«صدَّق بالحُسنى».

**يقول العلماء: إن في الإنسان ثلاث قوى:**

**1- قوة الفعل.**

**2- قوة الترك والامتناع.**

**3- قوة العلم والعقل.**

فهذه الآيات اشتملت على القوى الثلاث، فمَن أعطى فقد وظَّف قوة الفعل، بما في ذلك قوة البدن في العطاء والإحسان، حتى أصبحت جزءًا من شخصيته وسَجِيَّةً وطبعًا، والمال أول مذكور، ولهذا جاء قوله تعالى: ﴿ضِيزَىٰٓ ٢٢ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ بِهَا﴾.

ثم الكلمة الطيبة صدقة، والابتسامة، والشفاعة في الجاه، والمشورة، وبذل العلم، وهذا يعني تنمية القوة العملية عند الإنسان بالعطاء.

---

(1) ينظر: «الآمل والمأمول» (ص6)، و«الشعر والشعراء» (1/ 194)، و«غرر الخصائص الواضحة» (ص193)، و«ربيع الأبرار» (ص325)، و«حماسة القرشي» (ص28).

ومَن اتَّقى فقد نجح في توظيف القوة التَّرْكية أو الامتناعية؛ لأن التقوى ترك المعاصي والمخالفات، فتقوى الله هي: ترك معاصيه، بأن يمتنع من الشهوة الحرام، والمال الحرام، والنكاح الحرام، وكل ما لا يرضي الله.

وجماهير المفسرين على أنها نزلت في أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه[1].

وقد أخرج الحاكم، وغيره، أن أبا قُحافة قال لابنه أبي بكر رضي الله عنهما: يا بُني، إني أراك تعتقُ رقابًا ضعافًا، فلو أنك إذ فعلتَ أعتقتَ رجالًا جلداء يمنعونك ويقُومون دونك. فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبت، إني إنما أريدُ ما أريدُ. فنزلت هذه الآيات فيه، إلى آخر السورة[2].

وذكر الواحدي، والثعلبي، والقرطبي، وغيرهم أنه كان لرجل من الأنصار نخلة يسقط من بلحها في دار جار له، فيتناوله صبيانه، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**تبيعها بنخلة في الجنة؟**». فأَبَى، فخرج، فلقيه أبو الدَّحْداح رضي الله عنه، فقال: هل لك أن تبيعنيها بـ«حُسْنَى»؛ حائطٍ له؟ فقال: هي لك. فأتى أبو الدَّحْداح إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسولَ الله، اشترها مني بنخلة في الجنة. قال: «**نعم، والذي نفسي بيده**». فقال: هي لك يا رسولَ الله. فدعا النبيُّ صلى الله عليه وسلم جارَ الأنصاري فقال: «**خذها**». فنزلت: ﴿**عِندَهَا**

(1) ونقل الإجماع على ذلك: البغوي وابن عطية والرازي وغيرهم. ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 465)، و«تفسير السمعاني» (6/ 240)، و«أسباب النزول» للواحدي (1)، و«تفسير البغوي» (8/ 448)، و«المحرر الوجيز» (5/ 464)، و«زاد المسير» (4/ 453)، و«تفسير الرازي» (31/ 180، 185)، و«تفسير القرطبي» (20/ 88)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 422).

(2) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (66)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (415)، وعبد الله بن أحمد في زوائده على «فضائل الصحابة» (291)، والحاكم (2/ 525)، والواحدي في «أسباب النزول» (1)، وابن عساكر (30/ 69).

﴿جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ...﴾ إلى آخر السورة في بستان أبي الدَّحْداح وصاحب النخلة، وفي سنده ضعف شديد[1].

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ١٨﴾: هذه الآية تمثِّل القوة العلمية والعقلية وكذا القلبية، بأن يكون عنده تصديق بالحق.

**وقد اختلفت عبارات المفسرين في «الحُسنى»، فقال بعضهم**: هي الجنة، **وقيل**: الشريعة، أو كلمة: لا إله إلا الله، أو الصلاة، وكلها معانٍ صحيحة، لكنها أمثلة فحسب، والمقصود: كل حق يجب التصديق به[2].

والقوة العلمية تؤدِّي بالإنسان أحيانًا إلى حصول شبهات وشكوك.

والقوة العملية تفضي إلى الوقوع في الشهوات، فهذه السورة قرَّرت وجود هذه القوى عند الإنسان، ثم شجَّعت الإنسان على الامتناع من توظيفها فيما لا يحل ولا يحسن، وذلك بتحقيق التقوى.

وذكْرُ الخلق في السورة دعوة إلى التفكر في ملكوت السماوات والأرض، وفي خلق الناس لدفع الشبهات وتعزيز الإيمان.

كما أن التحذير من النار الحامية المعدَّة لمتَّبعي الشهوات يحيي في القلب التقوى ومراقبة الله.

﴿وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩﴾: **وأحسن ما قيل في ﴿١٩﴾**: أن يسهِّل الله أموره في الدنيا والآخرة؛ من السعادة والهناء وقرة العين.

---

(1) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص717- 718- تحقيق ماهر الفحل)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 220)، و«تفسير البغوي» (4/ 495)، و«زاد المسير» (4/ 454)، و«تفسير القرطبي» (20/ 90)، و«التحرير والتنوير» (30/ 387).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 461- 464)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 551)، و«تفسير الماوردي» (6/ 287- 288)، و«التحرير والتنوير» (30/ 382- 383).

**ومن التيسير لليسرى**: رضا الله.

**ومنه**: الفرح بلقاء الله عند الموت، ونعيم القبر، ومنه: التيسير في الحساب.

**ومنه**: تسهيل الله له دخول الجنة، فبقدر ما تكون الأعمال الصالحة سهلة عليه يسهل عليه دخول الجنة، وبقدر ما تشق عليه هذه الأعمال- حتى ولو كان من الصالحين- يكون الأمر عليه أصعب، وفي حديث معاذ رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسولَ الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة. قال: «**لقد سألتَ عن عظيم، وإنه ليسيرٌ على مَن يسَّره الله عليه**»[1].

**ومنه** أن ييسِّر الله له الذكر ويطوِّع له لسانه وقلبه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: 17][2].

* ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا ﴿١٦﴾﴾:

**ذكر ثلاثة أعمال**: **أولها**: البخل، وليس المقصود البخل بالمال فحسب، وإنما البخل بكل ما يُمدح الإنسان ببذله مما هو مشروع، كالنصيحة والكلمة الطيبة والبشاشة، وهي في مقابل العطاء في الآيات قبلها.

**وثانيها**: الاستغناء، وهو مقابل التقوى؛ لأن المتَّقِي عبد خاضع لربه، مُقِرٌّ بالعبودية والافتقار، ويقابله المستغني- وليس الغَنِي- وهو مَن رأى نفسه غنيًّا بما لديه، مغترًّا بقوته، ناسبًا الفضل لنفسه، معرضًا عن ربه، متكبِّرًا على عباده.

**وثالثها**: التكذيب بالحسنى، وهو أساس الانحراف، وسبب البخل، والشعور بالاستغناء.

---

(1) أخرجه الطيالسي (561)، وأحمد (22016)، والحاكم (2/ 413)، وينظر: «علل الدارقطني» (6/ 73- 79)، و«جامع العلوم والحكم» (2/ 134- 136) (29)، و«إرواء الغليل» (413).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 466)، و«تفسير الماوردي» (6/ 288)، و«زاد المسير» (4/ 454)، و«تفسير القرطبي» (20/ 83)، و«فتح القدير» (5/ 551)، و«روح المعاني» (15/ 367).

والأمم التي كفرت بالله تعالى، وإن كان لها إنجازات حضارية، فلديها خَوَاءٌ روحي وخلل إيماني؛ بسبب شعورها بالاستغناء؛ وكأنهم بسبب العلم والحضارة ظنوا أنهم لم يعودوا بحاجة- كما يعبِّرون- إلى وصاية الله عليهم؛ واستغنوا عن الله تعالى، وكذَّبوا بالحُسنى، فييسِّرهم للعُسرى.

ولو أنهم اتقوا الله وأطاعوه مع ما عندهم من الحضارة، لكان ما هم فيه من التيسير أعظم وأتم، وهم قد حُرِموا من النعيم الإيماني، وهو أعظم وأتم نعيم في الدنيا.

وعند هذه الآيات يبحث العلماء موضوع القَدَر، وفي «الصحيحين» أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان في جنازة، فأخذ شيئًا، فجعل يَنْكُتُ به الأرضَ، فقال: «**ما منكم من أحد إلَّا وقد كُتبَ مقعدُهُ من النار، ومقعدُهُ من الجنة**». قالوا: يا رسولَ الله، أفلا نتَّكلُ على كتابنا ونَدَعُ العملَ؟ قال: «**اعملُوا؛ فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له، أما مَن كان من أهل السعادة؛ فَيُيَسَّرُ لعمل أهل السعادة، وأما مَن كان من أهل الشَّقاء؛ فَيُيَسَّرُ لعمل أهل الشَّقاوة**». ثم قرأ النبيُّ صلى الله عليه وسلم هذه الآية: «﴿رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ (١٨) أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ (٢٠) أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا (١٦)﴾»[1].

وفي الآيتين جعل الله البدء من عند الإنسان نفسه، فالذي يسَّره الله لليسرى هو مَن سبق أن ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِ﴾، ولذا جاء حرف السين الدال على المستقبل، والذي ﴿(٢٠) أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ هو الذي سوف ييسِّره الله للعُسرى، وكأن المعنى أن الله مكَّنهم وأقدرهم على سلوك الطريق الذي يختارونه دون قهر أو إلزام.

---

(1) أخرجه البخاري (4949)، ومسلم (2647) من حديث علي رضي الله عنه.

ثم إن الحساب والعقاب في الآخرة، إنما يكون بموجِب ما جعله الله تعالى في الفطرة من الإدراك الضروري أنه يفعل باختياره، ولا يوجد قوة تفرض عليه ضد إرادته.

وحين يكون لديه خيارات متعدِّدة في المسكن أو الزواج أو القرارات الأخرى، يفكِّر ويبحث ويستشير، ثم يختار بمحض إرادته ويتحمل نتائج خياره.

إن أمور الإنسان الدنيوية؛ من دراسة، وأكل وشرب، ونوم ويقظة، وكلام، وذهاب وإياب وسفر، لا يحتج الإنسان فيها بالقضاء والقدر، ألم يكن لديك- وأنت إنسان- شعور ضروري تحس به حتى ولو كنتَ طفلًا صغيرًا أنك تفعل باختيارك، وتترك باختيارك؟!

وهذا هو الوُسع: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة: 286]، وهو الفطرة، ولو أن الناس كانوا مقهورين على طريق ما؛ لم يكن للحياة معنى، ولا للاختيار حكمة، ولتساوى البر والفاجر، والصالح والطالح.

والله تعالى خلق الخلق وعلم ما هم عاملون، فلا يظن عاقل أن الله يفاجَأ بما يعملون.. تعالى الله عن ذلك، بل علم ما هم عاملون، وهو مكتوب عنده: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ﴾ [طه: 52]، لكن عِلْم الله تعالى ليس هو الذي يملي على الإنسان ما يعمل، ويقهره عليه.

وهل يظن عاقلٌ أن إرادة الله اعتباطية، بحيث إن هذا الإنسان يريد الخير والله يريد له الشر؟! وهل يقول أحد بهذا؟! إنما إرادته سبحانه هي فيما يعلم أن هذا الإنسان يريده، بمعنى أن الإنسان هذا لو ترك وشأنه لم يكن ليفعل إلا ما فعله من قبل نفسه من خير أو من شر.

والقَدَر قد أُخْفِي عن العباد، والشرع قد أُظْهِر، وكان القدر ابتلاءً ليؤمن به الإنسان، والشرع ابتلاءً ليعمل به الإنسان، ولا تضاد ولا تناقض[1].

* ﴿ضِيزَىٰٓ ٢٢ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ بِهَا﴾:

«**ما**»: نافية، أي: لا يغني عنه ماله، ويحتمل أن تكون استفهامية، أي: ما الذي يغني عنه ماله؟ ولم يَذْكُرْ هنا شخصًا؛ فهي تعم كل مَن ينطبق عليه الوصف[2].

وإذا كان مدار النهوض على المكان والزمان والإنسان، فهذه الآية تشير إلى شرط المال، والذي يملك المال يملك القوة؛ ولذلك أبرزه الله في هذه السورة مع أنه من العطاء المذكور في قوله: ﴿رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ﴾، وهو واحد من الأشياء التي يبخل بها، وهي المذكورة في قوله: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ﴾.

وقد يكون تخصيصه إشارة إلى تعلُّق بعض الغافلين به؛ لأن المقام مقام ذم، فهو يشير إلى فئة شغلتها أموالها عن التزكِّي والتطهُّر والسُّمو.

معنى ﴿أَسۡمَآءٞ﴾: هوى في نار جهنم، أو: تردَّى في قبره، أو تردَّى رداء الكفن الذي يلبسه، **والأقرب أن المعنى**: إذا هلك وسقط، ويدخل في ذلك هلاكه في الدنيا، والآخرة؛ لأن المال يحول أحيانًا بين الناس وبين الهداية والطاعة، ولزوم الطريق المستقيم.

* ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾:

---

(1) ينظر تعليق المؤلِّف على «مختصر صحيح مسلم» للمنذري، كتاب القدر (1838- 1844).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 762)، و«تفسير الرازي» (31/ 185)، و«تفسير القرطبي» (20/ 85)، و«تفسير ابن عرفة» (4/ 357)، و«روح المعاني» (15/ 368)، و«التحرير والتنوير» (30/ 387).

أوجب تعالى على نفسه- كرمًا منه وفضلًا- الهُدى، وهو بيان الحق للناس، وليس معناه: جبرهم على الحق؛ لأن الواقع أن منهم المهتدي والضال، فهي هداية البيان وإقامة الحجة، وليست هداية الإلهام والتوفيق ولزوم الطريق[1].

وفي هذا إشارة إلى استطاعة الاهتداء، ومهما يكن، فالثمرة من اهتداء الإنسان هي له، والله لا ينفعه هداية مهتدٍ ولا ضلالة ضال، ولهذا قال بعدها: ﴿ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾، فلا ينفع الناسُ ربَّهم إن أطاعوه، ولا يضرونه إن عصوه؛ فله الدنيا وله الآخرة، ومَن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومَن ضل فإنما يضل عليها.

وقد قال جلَّ وعلا في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أَوَّلَكُمْ وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أَتْقَى قلب رجل واحد منكم، ما زادَ ذلك في مُلكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أَوَّلَكُمْ وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقصَ ذلك من مُلكي شيئًا...**»[2].

* ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا رَبِّهِمُ﴾:

هذا من الهُدَى الذي وعد الله أن ينذر الناس النار.

**ومعنى** ﴿إِلَّا﴾: تتوهَّج وتتَّقد[3]، وخطب النبيُّ صلى الله عليه وسلم في المسجد، فجعل يقول: «**أنذرتُكُمُ النارَ، أنذرتُكُمُ النارَ، أنذرتُكُمُ النارَ**». حتى لو أن رجلًا كان بالسوق لَسَمِعَه، حتى وقعت خَمِيصة كانت على عاتقه عند رجليه[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 475)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 552)، و«تفسير الماوردي» (6/ 289)، و«زاد المسير» (4/ 455)، و«تفسير الرازي» (31/ 185)، و«تفسير القرطبي» (20/ 86).

(2) أخرجه مسلم (2577) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 476)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 336)، و«تفسير الماوردي» (6/ 289)، و«تفسير السمعاني» (6/ 239).

* ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا صَاحِبُكُمۡ﴾:

﴿إِذَا﴾ أي: يدخلها، **وقيل**: من الصَّلْي، يقال: صَلَى الشاة، إذا شواها[2].

و﴿①﴾: الأكثر شقاوة، وقد ورد أن الشَّقِي في النار: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ [هود: 105]، فإما أن يكون معنى ﴿①﴾: الشقي، وهنا لا إشكال، أو يكون المقصود هنا نارًا خاصة، وهي نار الكفار التي لا يخرجون منها، وهي نار الخلود الأبدي السَّرْمدي، كقوله: ﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا﴾ [مريم: 70]، فيكون الأشقى هو الكافر، والنار يدخلها الكفار، ويدخلها بعض عصاة المؤمنين ممن شاء الله تعذيبهم فيها، ثم يخرجهم منها بإذنه[3].

﴿ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا﴾ فالشقاء هنا يتعلق بالتكذيب والتولِّي، والتكذيب هنا باللسان، والتولِّي بالفعل، فهو جمع بين التكذيب بلسانه والتكذيب بفعله.

* ﴿② وَمَا يَنطِقُ﴾:

﴿وَمَا﴾ أفعل تفضيل من التقوى، وهو: المُيَسَّر لليسرى، وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه[4]، ولا يعني هذا قصر الآية عليه.

---

(1) أخرجه الطيالسي (829)، وأحمد (18398)، والدارمي (2854)، وابن حبان (644، 667)، والحاكم (1/ 287) من حديث النعمان بن بَشِير رضي الله عنهما.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 476)، و«المحرر الوجيز» (5/ 492)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 421)، وما تقدم في «سورة الطور»: ﴿وَمَا غَوَىٰ ...﴾ [الطور: 16]، و«سورة الانفطار»: ﴿ٱلۡمُنتَهَىٰ ⑭ عِندَهَا جَنَّةُ﴾.

(3) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 290)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 86)، و«تفسير السمعاني» (6/ 239)، و«زاد المسير» (4/ 455)، و«تفسير القرطبي» (20/ 87).

(4) كما تقدم عند قوله: ﴿رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾.

ولأن المقام مقام وعيد وتخويف وإنذار، ناسبَ أَلَّا يذكر الجنة تصريحًا هنا، مع أن مَن زُحزح عن النار فسيدخل الجنة.

* ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ يُوحَىٰ﴾:

أي: يعطي ماله طلبًا لزكاة نفسه من البخل والشح، وطلبًا لمرضاة الله تعالى، وطلبًا للإحسان إلى عباد الله، فهو لم يفعل ذلك رياءً ولا سمعة[1].

* ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ۝٥﴾:

ما أعطاهم ليرد لهم جميلًا[2]، وفيه مشروعية رد الجميل؛ لأن الإنسان السَّوي يحفظ الجميل، ومن اللؤم نسيان الجميل، بل من أسباب انقطاع الناس عن فعل الجميل أن يفعل الإنسانُ المعروفَ لشخص، ثم يتنكَّر له، كما قال عنترة[3]:

نُبِّئت عَمرًا غيرَ شَاكرِ نِعْمَتِي *** والكُفْرُ مَخبَثَةٌ لنَفسِ المُنْعِمِ

* فأبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه لم يكن عطاؤه مجرد رد يُجازي به، بل ابتداء بالفضل والإحسان، وابتغاء وجه ربه الأعلى: ﴿۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ ۝٦﴾.

* ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ٱلْأَعْلَىٰ﴾:

وهذا وعد، وانظر قوله عن الرضا: ﴿بِٱلْأُفُقِ﴾ فأحال على المستقبل؛ لأن الرضا يكتمل له في الدار الآخرة بما يُعطاه من الثواب في الجنة، وهو الرضا الذي لا يعقبه سخط، وأعظمه حينما يتلقَّى أهل الجنة رضا الله عنهم: ﴿ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا﴾ [البينة:

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 478)، و«تفسير السمعاني» (6/ 240)، و«زاد المسير» (4/ 455)، و«تفسير القرطبي» (20/ 88)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 422).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 478)، و«زاد المسير» (4/ 455)، و«تفسير الرازي» (31/ 188)، و«روح المعاني» (15/ 370)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «ديوان عنترة بن شداد» (ص83).

8]؛ ولذا يسأل تعالى أهل الجنة: «**هل رَضِيتُم؟ فيقولونَ: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا من خلقك! فيقولُ: أنا أعطيكم أفضلَ من ذلك. قالوا: يا ربِّ، وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضْواني، فلا أسخطُ عليكم بعده أبدًا**»[1].

**وهنا معنًى لطيف**: أيهما نزلت **أولًا**: «سورة الليل»، أو «سورة الضُّحى»؟

**الأقرب** أن «سورة الضُّحى» نزلت أولًا؛ ففي «سورة الضُّحى» أعطى سبحانه النبيَّ صلى الله عليه وسلم، ومهَّد له كثيرًا، وقال: ﴿﴾، وأبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه أفضل الأمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم، فناسب أن يكون له نصيب من هذا الرضا؛ ولذا قال هنا: ﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، وناسب أن تكون السورتان متجاورتين؛ فتلك فيها البشارة والرضا للنبي صلى الله عليه وسلم، وهذه فيها البشارة والرضا لأبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، على أن الآية ليست خاصة بأبي بكر رضي الله عنه، وإن كان هو سبب نزولها، إلَّا أنها لكل مَن عمل بمثل هذه الأعمال الصالحة الفاضلة، والله تعالى أعلم.

❍ ❍ ❍

---

(1) أخرجه البخاري (6549)، ومسلم (183) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

## سورة الضحى

*** تسمية السورة:**

اسمها: «**سورة الضُّحى**»، أو: «**سورة** ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴾»، كما في «صحيح البخاري»، و«جامع الترمذي»، وكتب السنة والتفسير، ولم يُذكر اختلاف في التسمية[1].

* **عدد آياتها:** إحدى عشرة آية[2].

* وهي السورة الحادية عشرة تقريبًا في ترتيب النزول، **فهي مكية** بإجماع المفسرين، كما ذكر القرطبي وابن الجوزي وابن عطية والقاسمي والطاهر ابن عاشور وغيرهم، فقد اتفقوا على مكيتها وتقدُّم نزولها[3].

ولنزولها سبب مروي في «الصحيحين»، وكتب التفسير، وهو أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم أصابه مرض، فترك القيامَ ليلتين أو ثلاثًا، فقال له بعض المشركين: ما نرى ربك إلا قد قَلَاك، أو جفاك. فحزن لذلك صلى الله عليه وسلم، فنزلت[4].

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 435)، و«صحيح البخاري» (6/ 173)، و«جامع الترمذي» (5/ 299)، و«تفسير الطبري» (24/ 481)، و«المحرر الوجيز» (5/ 493)، و«زاد المسير» (4/ 456)، و«تفسير القرطبي» (20/ 91)، و«روح المعاني» (15/ 372)، و«التحرير والتنوير» (30/ 393).

(2) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص277).

(3) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 493)، و«زاد المسير» (4/ 456)، و«تفسير القرطبي» (20/ 91)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 601)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (3/ 202)، و«فتح القدير» (5/ 556)، و«روح المعاني» (15/ 372)، و«التحرير والتنوير» (30/ 393).

(4) ينظر: «صحيح البخاري» (1125، 4950)، و«صحيح مسلم» (1797)، و«تفسير الطبري» (24/ 485)، و«أسباب النزول» للواحدي (457)، و«تفسير القرطبي» (20/ 93)، والمصادر السابقة.

وفيها الثناء البالغ على النبي صلى الله عليه وسلم، والبُشرى بالوعد الحق له، مما يظهر منزلته عند ربه، وقد أذن الله أن يكون السبب في ذلك أَذيَّة المشركين، لما قالوا له: إن ربك قد جفاك أو قَلَاك.

والله تعالى قد يستخرج للعبد المؤمن الخير والفضل في الدنيا والآخرة بسبب أعدائه وخصومه، ويأذن له من الثناء الحسن والسمعة الطيبة ورِفعة المنزلة، وثقل الميزان في الدار الآخرة، ما لا يحصل عليه إلا بفضله تعالى، ثم بسبب العدو الذي يريد المضرَّة.

وعليه؛ فالسورة نزلت بعد فترة الوحي، أي: فتوره وتأخره، وهذا قال به كثير من المفسرين وأهل السير.

**والذي يظهر**- والله أعلم- أن الوحي فَتَرَ في النزول على النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة، أولها بعد نزول «سورة ﴿ ٩ ﴾»، ثم أنزل تعالى: ﴿ ١٨ أَفَرَءَيْتُمُ ﴾، وبضع سور، ثم حصلت فترة ظلت أيامًا معدودة، فحزن لذلك النبي صلى الله عليه وسلم، ثم نزلت «سورة الضُّحَى»[1].

فكأن النبي صلى الله عليه وسلم لما تهيَّأ لنزول «سورة الضُّحى»، كانت قد تَروَّضت نفسُه، واستعدت لتلقِّي الوحي، وعادة ما يتم الترويض بعد الثلاث، فكان بداية ذلك أن يمهِّد ربنا سبحانه وتعالى بهذه البشارات العظيمة في هذه السورة.

❊ ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ رَأَىٰ ﴾:

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (5/ 142)، و«سيرة ابن هشام» (1/ 241)، و«تفسير الطبري» (24/ 484- 487)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص457- 459)، و«المحرر الوجيز» (5/ 493)، و«الروض الأنف» (2/ 281)، و«تفسير القرطبي» (20/ 93)، و«التحرير والتنوير» (7/ 429)، وما تقدم في أول «سورة المدثر».

القَسَم يكون بأمور جليلة عظيمة، **والضُّحى** هو: أول النهار[1]، وقد يكون ذلك قَسَمًا بالنهار كله، **والأقرب** أنه بجزء من النهار، وهو بداية حرارة الشمس، قبل وقت القَيْلولة[2].

يُقسم تعالى ببداية النهار وما فيه من الحياة والإشراق والعمل، كما يُقسم بالليل ﴿فَكَانَ ﴿٨﴾﴾ أي: غطَّى، فالليل لباس يُغَطِّي الكون، قال تعالى: ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ [النبأ: 10]، وتقول: هذا رجل مُسجَّى، أي: مُغَطَّى، **والمعنى**: إذا عمَّ الكونَ وغطَّى بظلامه[3].

**ومن معاني** ﴿فَكَانَ﴾: هدأ[4]، تقول: البحر الساجي، أي: الذي هدأت عواصفه وأمواجه، وهَدْأَة الليل: آخره[5]، تقول: ائتني هَدْأَة الليل؛ أي: إذا سكن الناس، ولم يعد في الطريق ذاهب ولا آيب.

**ومن مقاصد هدوء الليل**: قلة الناس، وهو الوقت الذي كان يتعبَّد فيه النبيُّ صلى الله عليه وسلم.

وقد ترك صلى الله عليه وسلم قيام الليل ليلة أو ليلتين، بسبب مرض أصابه[6].

---

(1) ينظر: «لسان العرب» (14/ 475)، و«تاج العروس» (38/ 455) «ض ح و».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 481)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 556)، و«تفسير البغوي» (5/ 266)، و«زاد المسير» (4/ 457)، و«فتح القدير» (5/ 557).

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 731)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 98)، و«زاد المسير» (4/ 457)، و«تفسير الرازي» (31/ 190)، و«تفسير القرطبي» (20/ 92)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 453)، و«تفسير الطبري» (24/ 483)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 339)، والمصادر السابقة

(5) ينظر: «الصحاح» (1/ 83)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص399)، و«تاج العروس» (1/ 504- 505) «هـ د أ».

(6) تقدم قريبًا.

**ومن معاني:** ﴿**فَكَانَ**﴾: طال[1]، فيكون قَسَمًا بالليل وطوله، وطوله ظرف لتلذذ العُبَّاد الذين يفرحون بالليل كلما طال؛ ويناجون ربهم ذا الجلال، ويتلذذون بقراءة كتابه.

وأطول ما يكون الليل على المحب وعلى الحزين وعلى الخائف؛ لأنهم لا ينامون بسبب الاشتياق أو الهم أو الحزن، ولا يدرون عمَّ ينجلي، وكثيرًا ما كان الشعراء يشتكون طول الليل، قال أحدهم[2]:

أَرِقْتُ فَباتَ ليلي لا يَزُولُ *** وليلُ أخي المصيبةِ فيهِ طولُ

وقال الآخر[3]:

لكلِّ ما يُؤذِي وإنْ قَلَّ أَلَمْ *** ما أطولَ الليلَ على مَن لم يَنَمْ

وقد تكون إشارة إلى معاناة النبي صلى الله عليه وسلم في انتظار الوحي، أو معاناته من الصعوبات التي تعترض دعوته.

وللقَسَم مناسبة لسبب النزول، وارتباطٌ لصيقٌ بالمقسَم عليه، **وفيه الجمع بين معنيين مهمين:**

1- العمل والنشاط، فالضحى أول النهار الذي هو أول وقت النشاط، وفي الحديث: «**اللهمَّ بارك لأمتي في بُكُورها**»[4]. وإذا سجى الليل فذلك وقت العبادة

---

(1) ينظر: «زاد المسير» (4/ 457)، و«تفسير الرازي» (31/ 190)، والمصادر السابقة

(2) ينظر: «الاستيعاب» (4/ 1675)، و«الروض الأنف» (7/ 598)، و«الحماسة المغربية» (2/ 786)، و«أسد الغابة» (6/ 141) منسوبًا إلى أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رضي الله عنه.

(3) ينظر: «تاريخ الإسلام» (15/ 459)، و«معاهد التنصيص» (2/ 283) منسوبًا إلى أبي العتاهية من أرجوزة «ذات الأمثال».

(4) أخرجه الطيالسي (1342)، وأحمد (15443، 19430)، والدارمي (2479)، وأبو داود (2606)، والترمذي (1212)، وابن ماجه (2236)، وابن حبان (4754) من حديث صخر الغامدي رضي الله عنه.

ووقت العلم والسَّهر على ما فيه من خير، ومصلحة وإنجاز، فهذا يكرِّس الإقبال على الجد والعمل.

2- الهدوء والاستقرار والطمأنينة، فإن بعض الناس قد يغلبه الجد فيتحول إلى أزمة في نفسه، حتى لا يبتسم ولا يضحك ولا يمزح ولا يستريح ولا يهنأ بعيش.

وآخرون على النقيض، حياتهم عبث ولهو ولعب، فنهارهم وليلهم ضائع في غير طائل، ولذلك جاء في الحديث: «**لا سَمَرَ بعد الصلاة**- يعني: العشاء- **إلَّا لأحد رجلين: مُصَلٍّ، أو مسافر**»[1].

وعُدَّ من السهر المحمود: مداعبة الرجل أهله، ومحادثة ضيفه، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يسهر مع أهله بعد صلاة العشاء[2].

**ومن معاني القَسَم**: ذكر التنوع في خلق الله سبحانه، وما قدَّره من قوة وضعف، وعز وذُل، وغنى وفقر؛ وهو تنوع عظيم: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ﴾ [الرحمن: 29].

فلا يدوم إنسان على حال، ودوام الحال من المحال، وما يعانيه يتغير كما يتغير النهار والليل.

---

ورُوي عن غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم، وقال أبو حاتم: «لا أعلم في «**اللهمَّ بارك لأمتي في بكورها**» حديث صحيح». لكن قال العقيلي: «ثابت بإسناد جيد». وينظر: «العلل» لابن أبي حاتم (2300)، و«الضعفاء» للعقيلي (1/ 124، 236)، (3/ 319)، (4/ 101، 117)، و«العلل المتناهية» (1/ 313-326)، و«فتح الباري» (6/ 114).

(1) أخرجه الطيالسي (363)، وأحمد (3603)، وأبو يعلى (5378)، والطبراني في «الكبير» (10519)، والهيثم بن كُليب في «مسنده» (820) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (2435).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (602، 3581، 4569)، و«صحيح مسلم» (763، 20571)، و«سنن أبي داود» (1393)، و«سنن ابن ماجه» (1345)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (5/ 136، 146)، و«فتح الباري» لابن رجب (5/ 173- 175)، و«عمدة القاري» (5/ 29)، و«إرشاد الساري» (1/ 504).

وكما امتنَّ الله تعالى على البشرية بالليل وما فيه من الهدوء والسكون للكائنات حتى النباتات، امتنَّ عليهم بالنهار وما فيه من الحركة والنشاط.

وكذلك كان الناس في الجاهلية في ظلام وجهل يشبه الليل المظلم، فامتن الله عليهم بالوحي الذي هو نور وإشراق وبصيرة.

وعند ما تقرأ كلام المفسرين حول آية من القرآن، تشعر أن الوقوف عند آية واحدة يمكن أن يمتد كثيرًا في توليد لطائف جديدة.

* ﴿قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ رَبِّهِ﴾:

هذا المُقْسَم عليه، وهذه الحقيقة التي أراد الله بشارة النبي صلى الله عليه وسلم بها، بعدما قال المشركون: إن ربك تركك وقَلَاكَ.

**والفرق بين** «**وَدَّعَ**» **و**«**قَلَى**»: أن **الوَدْع** هو: الترك والهجر، **والقِلَى** هو: البغض(1)، فيكون المعنى: إن الله لم يترك نبيَّه ولم يبغضه(2).

وفي قراءة: **(مَا وَدَعَكَ)** بالتخفيف(3)، والمعنى واحد.

ولم يقل: «وما قلاك»؛ رعاية لفواصل السورة؛ لأنها ألف مقصورة؛ ولأن المقصود نفي القَلَى، وهو البغض، فمن محبة الله لنبيه صلى الله عليه وسلم أن ضميره لا يجتمع مع لفظ القَلَى، مبالغة في تأكيد الرد على ما ادَّعاه الكفار من ذلك.

---

(1) ينظر: «لسان العرب» (15/ 198)، و«تاج العروس» (27/ 91)، (39/ 342) «ت ر ك»، «ق ل ي».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 484)، و«تفسير الماوردي» (6/ 292)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 105)، و«تفسير البغوي» (5/ 266)، و«تفسير القرطبي» (20/ 94)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 425).

(3) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 141)، و«الكامل في القراءات» (ص662)، و«المحرر الوجيز» (5/ 493)، و«زاد المسير» (4/ 457)، و«تفسير القرطبي» (20/ 94)، و«معجم القراءات» (10/ 479).

وهذه الآية وإن جاءت بصيغة النفي، إلا أن المقصود منها إثبات الحب والوصل، وبشارة النبي صلى الله عليه وسلم بأن الوحيَ مستَمِرٌّ، وأنه رسول الله ونبيه ومصطفاه، وأن الله يحبه ولن يتخلَّى عنه.

* ﴿عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠ مَا أَفَرَءَيۡتُمُ﴾:

أي: إن الدار الآخرة خير لك من الدار الدنيا، وكلاهما لك خير[1].

وثَمَّ معنًى أعمُّ وأشملُ وأعظمُ، وهو أن الحال الآخرة خير لك من الحال الأولى، وكنتُ ذكرته مرة لبعض الإخوة فاستغربوه، ثم وجدتُ نص العلماء عليه، وممن نص عليه من المتأخرين الشيخ عبد الرحمن السعدي[2].

وحاصله أن كل حال لك يا محمد فما بعدها خير منها، وهذا يعني ترقِّي النبي صلى الله عليه وسلم في مدارج الفضل ومعارج الكمال والعز والرفعة؛ فكل حال آتية فهي أفضل مما قبلها، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم ما مات إلا وهو في أكمل أحواله صلى الله عليه وسلم تقوى وإيمانًا، وعلمًا وعملًا، وكذلك الوحي الذي أرسل به.

وفيه دعوة للمؤمن إلى الترقِّي في مراقي مرضاة الله، وألَّا يكتفي بما هو عليه، بل كلما وصل إلى درجة، تطلَّع إلى ما هو خير وأفضل منها.

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 732)، و«تفسير الطبري» (24/ 487)، )، و«مختصر في شواذ القرآن» لابن خالويه (ص175)، و«المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (2/ 364)، و«تفسير الماوردي» (6/ 293)، و«المحرر الوجيز» (5/ 493)، و«زاد المسير» (4/ 457)، و«تفسير القرطبي» (20/ 95)، و«روح المعاني» (15/ 378).

(2) ينظر: «تفسير السعدي» (ص928).

والوحي مر بثلاث مراحل بالنسبة للفتور والتواصل، فالحالة الثالثة- التي نزلت فيها هذه السورة- أكمل وأفضل من الحال التي قبلها، ويكفي ما في هذه السورة من البشائر والوعود مما لم يكن من قبل.

وحال النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة كانت أكمل من حاله بمكة؛ لما في ذلك من اكتمال الشريعة ونصرة أصحابه، وقوة الدعوة، ومن هذا المعنى أن حاله في الآخرة خير وأفضل من حاله في الدنيا.

وورد عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال في تفسير هذه الآية: «**عُرِضَ عليَّ ما هو مفتوحٌ لأمتي بعدي، فسرَّني، فأنزل اللهُ تعالى:** ﴿عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا ...﴾»[1]. فيكون هذا من معاني الآية.

* ﴿ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ ۝١٩﴾:

هذه الآية وما قبلها، كلها في سياق واحد متدِّرج: نفى الله ما زعمه المشركون من تركه أو قَلَاه، وهذا متضمِّن الرضى والمحبة من الله للنبي صلى الله عليه وسلم.

ثم انتقل إلى بيان أن كل حالٍ له أكمل من التي قبلها، فما ينتقل إليه خير مما انتقل عنه.

ثم جاء الوعد بالعطاء السمح، وهو وعد أُكِّد باللام، وبـ«سوف»، ولم يذكر ماذا يعطيه، فيعم كل عطاء؛ فيعطيه الرسالة، والذكر الطيب، والأصحاب الأفاضل، والعلم الغزير، والمجد والدولة والسلطان، والشفاعة والكَوثر والجنة، والوسيلة التي هي درجة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وهو محمد صلى الله عليه وسلم[2]، ويعطيه

(1) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (572)، والضياء في «المختارة» (12/ 345) (380). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (2790).

(2) كما في «صحيح مسلم» (384) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

ما لا يخطر على بال ولا يعلمه أحد ولا يحيط به عقل، ولا يدركه خيال، ولهذا لم يذكر المفعول الثاني لـ«يُعطِي»، ولم يحدِّد العطاء؛ سيعطيك حتى يرضيك[1]!

إذًا فهو معنيٌّ بإرضائك، وإن كان صلى الله عليه وسلم راضٍ بكل حال، كما قال الشاعر[2]:

رَضِيْتُ في حُبِّكَ الأيامَ جائرةً *** فعلقَمُ الدَّهْرِ إن أرضَاك كالعَذْبِ

فهو صلى الله عليه وسلم يرضى عن الله وهو محروم من المال، أو من الأصحاب، أو حين ينزل الموت ببعض أحبابه، أو يؤذيه المشركون، فيحتسب ذلك كله في ذات الله، ويقول: «**إِنْ لم يَكُنْ بك غضبٌ عليَّ فلا أُبالي**»[3].

وهنا جمع الله له بين الأمرين، بأن يمنحه كمال الرضا وكمال العطاء، وجَعْل العطاء منه، والغاية إليه، فهو سبحانه يحدِّد العطاء ويعلم الرضى، ولا يعني أن للعطاء أمدًا يتوقف عنده؛ لأن ما بعده خير منه؛ كما قضت الآية قبلها!

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 487)، و«تفسير الماوردي» (6/ 293)، و«تفسير البغوي» (5/ 267)، و«زاد المسير» (4/ 457- 458)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 425).

(2) للشاعر عصام العطار.

(3) أخرجه الطبراني في «الكبير» (13/ 73) (181)، وفي «الدعاء» (1036)، وابن عدي (7/ 269)، وابن منده في «جزء فيه ذكر ترجمة الطبراني» (ص346)، وقِوام السُّنَّة في «الحجة في بيان المحجة» (462)، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (1839، 1840)، وفي «السابق واللاحق» (ص211)، وابن عساكر (49/ 152)، والضياء (9/ 179) (161، 162). وينظر: «سيرة ابن هشام» (2/ 268)، و«تاريخ الطبري» (1/ 554)، و«مجموع الفتاوى» (10/ 184، 667)، و«تاريخ الإسلام» (1/ 285)، و«زاد المعاد» (1/ 96)، (3/ 28)، و«عدة الصابرين» (ص51)، و«البداية والنهاية» (3/ 136)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 290)، و«مجمع الزوائد» (6/ 35)، و«السلسلة الضعيفة» (2933).

وذهاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، وما لاقاه هناك ثابت في «صحيح البخاري» (3231)، و«صحيح مسلم» (1795).

ويلاحظ أن القَسَم كان بـ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ ﴾، وهما أمران، فجاء السياق في بقية الآيات مشابهًا له، فقال **أولًا**: ﴿قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ ﴾ عدم الترك وعدم البغض.

ثم قال: ﴿عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا ﴾ وهما أيضًا اثنتان: الآخرة والأولى، وكلاهما للنبي صلى الله عليه وسلم خير، لكن إحداهما خير من الأخرى.

ثم قال: ﴿ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ وهما اثنتان: العطاء والرضا، وهذا العطاء له صلى الله عليه وسلم ولأصحابه ولأمته في الدنيا وفي الآخرة.

* ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ ۝٢٠﴾:

انتقل إلى التذكير بالماضي على سبيل البرهنة على تحقُّق الوعد الآتي كما تحقَّق في الماضي؛ فقد مات أبوه صلى الله عليه وسلم وهو حَمْل، وكان له إذ ذاك ستة أشهر في بطن أمه، ثم ماتت أمه في صغره، ثم كفَلَهُ جده، ثم مات جده، فكفَلَهُ عمُّه أبو طالب، فهذا من الإيواء، وهو أن يُقَيِّض الله تعالى له مَن يعتني به في طفولته.

ومثل ذلك في الرضاعة، لما كانت المراضع يأتين إلى بيوت قريش ويأخذن أولاد الأكابر والأثرياء؛ طمعًا فيما عندهم، وكان صلى الله عليه وسلم يتيمًا لا مال له، فتحتسب حَلِيمة السَّعْدية، وتختاره لترضعه، وهذا من إيواء الله عز وجل له[1].

**ومعنى** ﴿مَا﴾: يَعْلمك، **ومعنى** «آواك»: جعل لك مَن تأوي إليه[2].

---

(1) ينظر: «سيرة ابن هشام» (1/ 160- 164)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (1/ 131- 136)، و«الروض الأنف» (2/ 101- 104).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 489)، و«تفسير البغوي» (5/ 268)، و«تفسير الرازي» (31/ 196)، و«تفسير القرطبي» (20/ 96)، و«فتح القدير» (5/ 558)، و«روح المعاني» (15/ 380).

ثم يقيِّض تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها قبل الرسالة وفي أول الرسالة، ثم يقيِّض له أتباعه الذين يؤمنون به، ثم يقيِّض له أهل المدينة يؤمنون به وينصرونه، فهذا كله من الإيواء، ولهذا لما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة: «**ألم أجِدْكُم ضُلَّالًا، فهداكم اللهُ بي؟**». عاد فقال: «**ألَا تقولونَ: أتيتنا طَريدًا فآويناك؟**»[1]. فهذا من الإيواء.

يا يتيمًا واليُتْمُ دَمْعٌ وضَعْفٌ *** كيف ذَلَّتْ لِيُتْمِكَ الأقوياءُ؟!

فانظر اليتيم الذي عنده من الجَلَد والصبر والقوة والمقاومة، وكمال العلم والعمل، وكمال الشخصية، وكمال العقل والفصاحة، ثم يختاره ربه سبحانه ويصطفيه بالرسالة، فهو صلى الله عليه وسلم فخر للأيتام كلهم، كما أنه فخر للعرب أن يكون منهم، وفخر للإنسانية أن يختار الله واحدًا منها للنبوة وينزل عليه الوحي.

* ﴿رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ وَلَهُ﴾:

هذا هو الموضع الوحيد في القرآن الذي جاء التعبير فيه بهذا اللفظ عما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم، **ولذلك اختلف المفسرون كثيرًا في تفسير هذا الحرف على نحو من ستة أقوال:**

فقال جمهور المفسرين: وجدك ضالًّا عن الوحي وعن الشريعة والإيمان[2]، ومثل قول الله تعالى: ﴿**وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ**﴾ [الشورى: 52].

---

(1) أخرجه أحمد (11547، 13655) من حديث أنس وأبي سعيد رضي الله عنهما.

وبنحوه عند البخاري (4330)، ومسلم (1061) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 226)، و«تفسير البغوي» (5/ 268)، و«زاد المسير» (4/ 458)، و«روح المعاني» (15/ 381)، والمصادر الآتية.

فليس الضلال هنا اتباع الباطل؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة- وإن لم يكن عنده معرفة بالوحي ولا بالشريعة ولا بالإيمان- كان يتمسك بالفطرة السليمة وما تمنع عنه من الضلالات، فكان يتعبد ويتحنث على الملة الحنيفية، ولم يقع في الشرك الذي وقع فيه من حوله.

ويشبه هذا ما جاء في قصة يوسف عليه السلام، حيث قال إخوتُه لأبيهم: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: 95]، فهم لا يقصدون الضلال في الدين، وأبوهم كان نبيًّا، وإنما مقصودهم أنك لا زلت في غفلتك القديمة، فهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم في غفلة عن الإيمان والكتاب.

حتى في «سورة يوسف» أخبر الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أنه كان قبل وحي القرآن من الغافلين، فقال: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ رَبِّهِ ﴾!!

**فالضلال هنا**: الغفلة[1]، والسياق يدل على أن الضلال لم يكن سوى عدم معرفة الطريق إلى إنقاذ الناس ودعوتهم وهدايتهم، ثم هداه الله تعالى إلى ذلك.

**وقيل**: معناها: ناسيًا[2]، وهو مستعمل في القرآن الكريم، كما في آية الدَّيْن: **﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾** [البقرة: 282]، **وتضل** هنا معناها: تنسى.

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 561)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 109)، و«تفسير القرطبي» (20/ 96)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 389)، و«فتح القدير» (5/ 558).

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 228)، و«تفسير الماوردي» (6/ 294)، و«تفسير الرازي» (31/ 198)، و«تفسير القرطبي» (20/ 97)، والمصادر السابقة.

**وقال بعضهم**: تائهًا، وفسروها بالمعنى الحسِّي، وهو أنه لما سافر في تجارة خديجة رضي الله عنها ضاع في الطريق، وقالوا: إن الشيطان نفخه حتى وقع بعيدًا[1].

وهذه من الروايات التي ينبغي تنزيه كتاب الله عنها، فالشيطان أضعف وأذل من أن يفعل هذا برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قبل البعثة، وإنما تسلَّط الشيطان على بني آدم بالوسوسة والكيد وما أشبه ذلك.

**وقال بعضهم**: إنه ضاع قريبًا من مكة[2]، حتى قلق عليه عمُّه، فكان يمسك بباب الكعبة ويدعو ربه ويقول[3]:

رُدَّ إِلَيَّ صَاحِبِي محمَّدَا *** رُدَّهْ إِلَيَّ واصطَنِعْ عِنْدِي يَدَا

حتى جاء به أبو لهب أو أبو جهل على بعيره، وهذا محتمل.

**وقال بعضهم**: إن المقصود ضلال الناس من حوله، يعني وجدك في قوم ضالين في مكة، فهداك وهداهم بك[4].

**وأول الأقوال أولاها**، والله أعلم.

* ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰٓ إِذۡ﴾:

**والعائل**: الفقير، وقد يكون ذا العيال الكُثُر، والمقصود هنا الأول[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 228)، و«تفسير البغوي» (8/ 456)، و«تفسير الرازي» (31/ 197)، و«تفسير الخازن» (7/ 259)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 426).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 561)، و«تفسير البغوي» (5/ 268)، و«زاد المسير» (4/ 458)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 426)، و«فهم القرآن» لعابد الجابري.

(3) ينظر: «المعرفة والتاريخ» (3/ 252)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 226)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (1/ 151)، (2/ 20)، و«تاريخ الإسلام» (1/ 51).

(4) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 561)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 229)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 592)، و«تفسير ابن فورك» (3/ 236)، و«زاد المسير» (4/ 458)، و«فتح القدير» (5/ 558).

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم فقيرًا، فأغناه الله تعالى بمال خديجة رضي الله عنها لما ذهب مع غلامها ميسرة، وتاجر في الشام وربح[2]، وكذلك كان صلى الله عليه وسلم عائلًا فأغناه الله تعالى بالأموال الطائلة التي سيقت له بالفتح وغيره، ومع ذلك؛ فإنه صلى الله عليه وسلم ما اعتبر هذا المال له، وإنما كان ينفقه في سبيل الله ويتصدق به، ولم يكن يدخر منه شيئًا لنفسه، حتى إنه مات صلى الله عليه وسلم ولم يورث دينارًا ولا درهمًا.

وهذا دأب الأنبياء والصالحين، فالواحد منهم ولو تيسرت له الدنيا فإنها تكون في يده ولا تكون في قلبه، وإنما يستعملها كما يستعمل الفِراش الذي يجلس عليه والدابة التي يركبها، فيستخدمها ولا يخدمها، ولا يكون عبدًا للدرهم والدينار.

وغناه صلى الله عليه وسلم غنى لأصحابه، فإنهم كانوا عالة فأغناهم الله به صلى الله عليه وسلم كما قال ذلك للأنصار[3]، وكذلك المهاجرون كانوا فقراء بعدما أُخِذت بيوتهم في مكة، فلما هاجروا إلى المدينة فتح الله تعالى عليهم خزائن الأرض.

بل غِناه صلى الله عليه وسلم غِنًى لأمته، كما في «الصحيح» أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**بينا أنا نائمٌ، أُتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض، فوُضعت في يديَّ**». قال أبو هريرة رضي الله عنه: وقد ذهب رسولُ الله، وأنتم تنتثِلونها[4].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 489)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 562)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 229)، و«تفسير البغوي» (5/ 268)، و«زاد المسير» (4/ 458)، و«تفسير القرطبي» (20/ 100)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 427)، و«فتح القدير» (5/ 559).

(2) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص81)، و«سيرة ابن هشام» (1/ 188)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (2/ 66)، و«الروض الأنف» (2/ 151).

(3) تقدم قريبًا.

(4) أخرجه البخاري (2977)، ومسلم (523).

**وتنتثلونها**: تخرجون ما فيها وتتمتعون به.

فإنه، وإن كان الله تعالى يخاطب بها النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أن الخطاب يعم أمته من بعده، ولو تأملنا ما سبق لوجدنا العطاء للنبي صلى الله عليه وسلم عطاء لأمته، والنبي صلى الله عليه وسلم لما دعا كان يقول: «**ربِّي، أُمَّتي أُمَّتي**». فكان ربه سبحانه يقول: «**إِنَّا سنُرْضيك في أُمَّتك، ولا نسُوؤُكَ**»[1]. فجزاه الله عنا خير ما جزى نبيًّا عن أمته، ورضي وأنعم.

وعند ما يقول: ﴿**عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴿٢٠﴾**﴾؛ تجد هذا منطبقًا على الأمة التي كانت أمية جاهلة، ليس لها تاريخ ولا حضارة.

ولو تأملت معنى اليتم، لوجدت أن اليتيم هو مَن انقطع تسلسلُه مع مَن قبله، فلم يجد مَن يرعاه، وهكذا كانت الأُمة يتيمة، وإنما كانت الحضارة عند اليونان والرومان والهنود والصينيين وغيرهم، وكانت حضارات عريقة وراسخة، ومع ذلك أَبَى الله إلا أن يختار هذه الأمة اليتيمة فيؤويها ويصطفيها كما آوى واصطفى نبيها محمدًا صلى الله عليه وسلم.

وهي أُمة أُمِّيَّة، لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها علم، حتى أنزل الله عليها الحكمة والكتاب، فأصبحت أُمة العلم، وصار رجالها سادة الأمم وقادتها حُقبًا طويلة.

تتكلم مصنفات كثيرة عربية وغربية عن أثر الأُمة ومجدها في قيادة البشرية كلها، حتى في علوم الدنيا، فضلًا عن علوم الهُدى والإيمان والسلوك والآخرة.

وهذا، وإن كان حسنًا، إلا أنه من غير المستساغ أن نعيش في تخلفنا ونكتفي بالحديث عن الماضي ومضغ الذكريات الجميلة!

---

(1) أخرجه مسلم (202) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

والعرب كانوا فقراء لا يجدون غير المرعى والمطر يرقبونهما ليعيشوا عليهما، يقتل بعضهم بعضًا على المرعى، وتاريخهم معروف في ذلك، فلم يكن عندهم إلا واحات صغيرة في جزيرة العرب، ورحلة الشتاء والصيف.

وها هي الثروات الهائلة، وأهمها النفط؛ الذي يوجد أكثر مخزونه في بلاد المسلمين، والثروات الأخرى الهائلة التي منحها الله تعالى هذه الأمة وأغناهم بها من عيلة!

وهذا من إعجاز القرآن وديمومة اتساع معانيه ودلالاته.

وليس المقصود غنى المال فقط، بل يتناول غنى النفس، كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**ليس الغِنى عن كثرة العَرَض، ولكنَّ الغِنى غِنى النفس**»[1]. وقد أعطاه الله تعالى الغنى في نفسه والقناعة باليسير.

فضلًا عما أعطاه من العلم والنبوة والحكمة والبصيرة والخلق الجميل.

* ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ أَنتُمۡ﴾:

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥ ٢٢﴾: وهذا يتناسب مع قوله: ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢ ٢٠﴾، وهذه الفاء الفصيحة، و«أما» للتفصيل والتقسيم، **لكن المعنى**: مهما يكن من أمر، فلا تقهر اليتيم، وما بعده متناسب مع ما قبله، ويُسمِّيه علماء البلاغة: «اللَّف والنشر المرتَّب»[2].

ومن الخطاب الجاري في اللغة أن يقال: «لا تقهر اليتيم». ولكن السياق أبلغ؛ فإنه قدَّم لفظ «اليتيم»؛ إشارة إلى الحفاوة والعناية؛ لأن تقديم المعمول يشعر بالتنبيه

---

(1) أخرجه البخاري (6446)، ومسلم (1051) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) ينظر: «مفتاح العلوم» للسكاكي (ص425)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (7/ 129)، و«الإيضاح في علوم البلاغة» (2/ 185).

والاهتمام، كما لو قال: أما البيت، فلا تدخله مطلقًا، وأما المال؛ فلا تأخذ منه شيئًا، وأما الأولاد، فلا تعتدِ عليهم؛ فإن المخاطب يشعر أنها نقاط محدَّدة، وقد استجمع كل ذهنه للاستماع والإنصات.

وفيه التأكيد الرباني على حفظ حقوق الناس؛ لأن اليتيم لا يجد مَن يأخذ حقه ويدافع عنه، وكذلك قوله تعالى بعدها: ﴿يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ أَنتُمْ﴾، فإنه وصية خاصة بالضعفاء، كما وصَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحق المرأة وبحق اليتيم[1].

إن مدار الشريعة على حفظ الحقوق، وجماع ذلك: حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «**إنما بُعثتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاق**»[2].

وكثيرون يظنون أن الدين لم يأت بالحقوق ولم يحافظ عليها، بسبب نقص العلم وسوء التطبيق عند المسلمين، ويتمثل ذلك في الإطاحة بالحقوق بين الأزواج، فمعظم البيوت قائمة على مشكلات وبلايا، حتى الأولاد والآباء.

وفي بعض المجتمعات تعميق الصراع بين الآباء والأولاد، والأزواج والزوجات، والأبناء والبنات، وبين طبقات المجتمع والقبائل والبلدان، وهكذا... في حين أن الأمم الغربية قامت حضارتها اليوم على حفظ الحقوق، ولذلك حصل لهم العز والنصر والتمكين في الدنيا.

ولا يكاد يوجد في مجتمعات المسلمين مدونات واضحة ضابطة لحفظ الحقوق، وإن وُجدت فهي غالبًا حبر على ورق!

---

(1) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**اللهمَّ إني أُحرِّجُ حقَّ الضَّعيفين: اليتيم، والمرأة**»: أخرجه أحمد (9666)، وابن ماجه (3678)، والنسائي في «الكبرى» (9104، 9105)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (1015).

(2) وفي رواية: «**صالحَ الأخلاق**»، وتقدم تخريجه في «سورة القلم»: ﴿يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

والقهر يكون بالقول، كالسَّبِّ والشَّتم، ويكون بالفعل، كأخذ المال، ويكون بالإشارة، مثل الازدراء أو التحقير أو الإعراض أو الإهمال.

﴿يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ أَنتُمْ ﴾: وهذا يتناسب مع قوله: ﴿رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ وَلَهُ ﴾، ووجه التناسب أن السائل هنا هو طالب العلم الذي يسأل عن دينه ويريد الجواب، وهذا قول سفيان بن عُيينة وجمع من السلف، واختاره طائفة من المفسرين، وهو قوي[1].

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتيه الناس يسألونه عما لا يُسأل عن مثله الأنبياءُ عادة، فكان صلى الله عليه وسلم يجيب بصبر وحلم، وهذا مما أدَّب الله به نبيه صلى الله عليه وسلم، حتى لما قال له رجلٌ: يا رسولَ الله، مَن أبي؟ قال: «**أبوكَ فلانٌ**». ولم يمتنع عن الجواب، وربما سأله رجل عن ناقته إذا ضلَّت[2]، فكان النبي صلى الله عليه وسلم في غاية التواضع للناس.

وفي هذا تربية لأصحاب الخطاب الدعوي وحملة العلم والهدى من بعده، أن يكون عندهم من الصبر على الناس وتحمل حماقاتهم وإزعاجهم وعجلتهم وطيشهم، ما لا ينفرهم عنهم.

وكذلك في الخطاب العام: كخطبة الجمعة، وسائر المواعظ، أن لا يكون الدعاة أشداء، بل رحماء.

وإذا خُوطب وأُدِّب بهذا محمد صلى الله عليه وسلم، فنحن أولى؛ لأن الناس ينقادون له بالنبوة، أما غيره فلا ينقاد لهم الناس كذلك، وقد يكون لدى الآخرين من

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 230)، و«تفسير السمعاني» (6/ 246)، و«تفسير البغوي» (8/ 458)، و«المحرر الوجيز» (5/ 466)، و«تفسير الرازي» (31/ 199)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 427)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (7/ 328)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (15/ 307).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (4622، 7295)، و«صحيح مسلم» (2359).

العلم أو الخير أو الأخلاق مثلما عند الدعاة أو أقل أو أكثر، أو هكذا يظنون، فلذلك ينبغي الحرص على رعاية هذا الجانب.

**ومن معاني** ﴿ٱلسِّدۡرَةَ﴾: الفقير الذي يطلب المال، وقد امتثل النبيُّ صلى الله عليه وسلم فأعطى رجلًا غنمًا بين جبلين، وأعطى آخر مئة من الإبل، ولم يُسأل شيئًا قط فقال: لا[1].

فكان صلى الله عليه وسلم أكرم الناس وأجودهم.

* ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا بِهَا﴾: وهذا متناسب مع قوله: ﴿ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴿١٩﴾﴾، أي: أعطاك فرضيت، فتحدث بنعمة الله تعالى عليك!

ونِعَمُ الله تعالى على الناس لا تحصى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: 34]، وإنك لو أردت أن تحصي الخلايا الموجودة في جسمك، لما استطعت؛ لأنها تفوق العدَّ والحصر، ولو انفجرت خلية منها لسبَّب لك الأمراض المستعصية، فعندك بقدر هذه الخلايا من النعمة بسلامتك من هذا المرض!

ولو ذهبنا نعدِّد الأمراض التي سلِمت منها لم نحصِها، ولانقضى العمر قبل إحصائها، فكيف لو أردتَ أن تَعُدَّ جميع النعم في البدن؟! فكيف إذا ذهبتَ تعدِّد النعم المعنوية من الإسلام والعقل والفهم والوالدين والمال والولد والزوجة: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ﴾ [النحل: 18]؟! وهنا قال: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا﴾؛ أي: لا تعدها، ولكن تحدَّث بالنعمة.

فكيف بالنعم في البيئة والكون والطبيعة، والنعم على الناس كلهم سابقهم ولاحقهم؟

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (3150، 6034)، و«صحيح مسلم» (1062، 2311، 2312).

وقد يكون من مقاصد النعمة هنا: النبوة، كما قال: ﴿نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ سِدۡرَةِ﴾ [القلم: 2]، أي: فادع الناس إلى ربك وإلى الإيمان، وحدِّثهم أن الله تعالى أوحى إليك هذا القرآن، وتحدَّث بما أنعم الله تعالى به عليك.

**وهنا مسألة:** هل يناسب أن يتكلم الإنسان عن أعماله الصالحة من باب التحدُّث بالنعمة؟

**الجواب:** لا يناسب في الأغلب؛ لأن إخفاء العمل خير من إظهاره.

لكن جاءت نقولات خاصة عن بعض السلف، كعمرو بن ميمون وغيره، أنه قد يتحدَّث لبطانته ولَمن يحب، إذا كان في ذلك تحفيز على العمل، وأمن من العُجب والرِّياء[1].

وكثير من النعم ليست خفية، وإنما إظهارها من باب الاعتراف بها، وشكرِ الله تعالى عليها، وحث النفس على إدراكها، وحسن توظيفها، والله أعلم.



(1) ينظر: «قوت القلوب» (2/ 178)، و«إحياء علوم الدين» (1/ 227، 229)، (3/ 318)، و«مقاصد الرعاية» (ص97).

## سورة الشرح

*** تسمية السورة:**

غالب كتب التفسير والحديث على تسميتها: «**سورة ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ﴾**».

والبعض يختصر: «**سورة ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾**»، أو: «**سورة ﴿لَقَدْ﴾**»[1].

ومن أسمائها: «**سورة الشرح**»، وهو المصدر[2].

وبعضهم يسميها: «**سورة الانشراح**»[3].

*** عدد آياتها:** ثمان آيات[4].

*** وهي مكية** باتفاق، قاله كثير من المفسرين[1].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص736)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 437)، و«صحيح البخاري» (6/ 172)، و«جامع الترمذي» (5/ 299)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 564)، و«تفسير السمعاني» (6/ 248)، و«تفسير الرازي» (32/ 205)، و«تفسير القرطبي» (20/ 104)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 429)، و«التحرير والتنوير» (30/ 407).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 739)، و«تفسير الطبري» (24/ 492)، و«تفسير البغوي» (5/ 274)، و«الكشاف» (4/ 770)، و«المحرر الوجيز» (5/ 496)، و«زاد المسير» (4/ 460)، و«فتح القدير» (5/ 562)، و«روح المعاني» (15/ 385)، و«التحرير والتنوير» (30/ 407).

(3) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص532)، و«السبعة في القراءات» (ص690)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص323)، و«التبيان في إعراب القرآن» (2/ 1293)، و«التحرير والتنوير» (30/ 407).

(4) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص278)، و«روح المعاني» (15/ 385).

وخالف في ذلك بعضهم، كالقاسمي الذي رجَّح أنها مدنية[2].

وقد يحتج بدلالة السورة ومعناها ومضمونها، وهو خلاف قول الجمهور، ومن السلف، كعمر بن عبد العزيز، وبعض الصحابة مَن يَعُدُّ «سورة الشرح»، و«سورة الضُّحى» كالسورة الواحدة، وبعضهم لا يفصل بينهما بالبسملة، ويقرؤهما في الركعة؛ لأن مضمون السورتين متقارب[3].

وربما تكون هذه السورة في ترتيب النـزول الثانية عشرة، ونزلت بعد «سورة الضُّحى»[4].

* ﴿ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ طَغَىٰ ﴾:

بدأ تعالى السورة بصيغة السؤال، الذي قصد به الإثبات لا النفي.

**والمعنى**: قد شرحنا لك صدرك. وجواب السؤال معلوم، ولذا عطف عليه الإثبات بقوله: ﴿رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

يمتن سبحانه على النبي صلى الله عليه وسلم بحالة الرضا والسكينة والطُّمأنينة والإيمان التي يجدها في قلبه، فيهون بها كل شيء، وهي من أعظم الأسباب المحققة لنجاح الدعوة، ولذلك لما أنزل الله الوحي على موسى عليه السلام وأمره بالبلاغ، كان

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (5/ 604)، و«تفسير الماوردي» (6/ 296)، و«المحرر الوجيز» (5/ 467)، و«زاد المسير» (4/ 460)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (3/ 207)، و«فتح القدير» (5/ 653)، و«روح المعاني» (15/ 385)، و«التحرير والتنوير» (30/ 407).

(2) ينظر: «تفسير القاسمي» (9/ 494)، و«حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (8/ 372)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 569)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 399)، و«تفسير النيسابوري» (7/ 358)، و«روح المعاني» (30/ 165).

(4) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص135)، و«تفسير الخازن» (1/ 10)، و«بصائر ذوي التمييز» (1/ 66)، و«الدر المنثور» (15/ 495).

أول ما دعا به: ﴿ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ٢٢﴾ [طه: 25- 26]؛ لأن الداعية يواجه من العنت والأذى الشيء الكثير.

والأنبياء والصالحون هم أطيب الناس عيشًا، وأرضاهم نفسًا، وأكملهم سعادةً؛ لما جعل الله في قلوبهم من الانشراح، بخلاف مَن يعانون فراغًا روحيًّا، وخَواءً قلبيًّا لا يقاوم مصاعبَ الحياة ولَأْواءها.

**وقد اختلفت عبارات المفسرين في تفسير «الشرح»:**

فنُقِلَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «شرح الله صدره للإسلام»[1].

ويشهد له قوله عز وجل: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢﴾ [الزمر: 22].

فنزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم هو من شرح الصدر، إضافة إلى ما جعل تعالى في قلبه من الفرح بفضل الله؛ ولهذا قال الحسن: «إن قلب النبي صلى الله عليه وسلم مُلِئَ حكمة وإيمانًا»[2].

ويجوز أن يكون المقصود به ما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة، لما جاء المَلَكَ واستخرج قلبه، ثم غَسَلَه وملأه حِكمةً وعلمًا، ثم ردَّهُ، فقد ثبت أنه حدث للنبي صلى الله عليه وسلم في طفولته، وفي يوم المِعراج[3].

وبهذا نقول: إن العلم من أكثر ما يشرح صدر الإنسان؛ فالإنسان لا ينشرح صدره بكثرة المال، فترقُّب زواله يقلقه.

ولا بكثرة الولد؛ فالخوف عليهم من الموت ومن المصائب يزعجه.

---

(1) ذكره البخاري (6/ 172) تعليقًا، وأخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم- كما في «الدر المنثور» (15/ 495)- وابن مردويه- كما في «تغليق التعليق» (4/ 373)، و«فتح الباري» (8/ 712).

(2) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 248)، و«الدر المنثور» (15/ 495).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (349)، و«صحيح مسلم» (162).

فيبكي إِنْ نَأَوْا خوفًا عليهمْ *** ويبكي إِنْ دَنَوْا خوفَ الفِراقِ[1]

ولا بالسلطان؛ لأنه يخشى من ذهاب السلطان، لكن العلم سرور وقُرَّةُ عين وسعادةٌ وأُنسٌ، وليس القصد المعلومات التي يتكثَّر بها الإنسان، أو يتصدر بها المجالس، بل العلم النافع الذي يظهر أثرُه على صاحبه بالسرور، وقُرَّةِ العين، كما يظهر في حسن القول، وصدق العمل، والخُلق الفاضل والإحسان.

وقال سهل بن عبد الله التُّستَرِي: «شرح الله صدره بنور الرسالة»[2].

ونقل ابن عطية عن الجمهور أن الله تعالى شرح صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعرفة، وشرح صدره بالطاعة، وشرح صدره بفعل المعروف والمبادرة إليه[3].

وبعضهم قد يفسرون ذلك بالأثر الناتج عن انشراح الصدر، وهو أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم طيِّب الخاطر في كل الأحوال، يمرَض وهو كذلك، يغتني أو يفتقر، ينتصر أو يهزَم، يقيم أو يظْعَن وهو طيب النفس، مثلما قال المتنبي[4]:

وحالاتُ الزَّمانِ عَلَيكَ شَتَّى *** وحالُكَ واحِدٌ في كُلِّ حَالِ

وفي إضافة كلمة ﴿لَكَ﴾ في الآية مزيد بيان، أي: شرحناه من أجل إسعادك وإرضائك.

ولم يقل: نشرح لك «قلبك»، وإنما قال: ﴿صَدۡرَكَ﴾؛ رعاية للفواصل، فكلها بالراء والكاف.

---

(1) ينظر: «أمالي الزجاجي» (ص44)، و«ديوان المعاني» (1/ 266)، و«اللطائف والظرائف» (ص238).

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (30/ 408).

(3) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 467).

(4) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص266)، و«شرحه» المنسوب إلى أبي البقاء العكبري (3/ 20).

وله مقصد آخر، وهو أن شرح الصدر أبلغ من شرح القلب؛ لأن الصدر هو البحر الذي يسبح فيه القلب؛ فإذا انشرح الصدر كان القلب منشرحًا من باب أولى.

**وانشراح صدر النبي** صلى الله عليه وسلم **له صور عديدة، منها:**

1- **الصبر على المخالفين**، فهذا من انشراح الصدر؛ لأن ضيِّقَ العَطنِ لا يطيق أحدًا يخالفه، ولا يرد عليه، في حين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان منشرح الصدر حتى مع المخالفين، مع أنه كان على بينة من ربه، ويعلم أنه على الحق.

**ومن ذلك** أنهم تآمروا على قتله في مكة[1]، وأُوذي حتى وضعوا سَلَى الجَزور بين كتفيه وهو يصلِّي[2]، وشجَّوه حتى أَدْمَوه، وهو يقول: «**اللهمَّ اغفرْ لقومي؛ فإنهم لا يعلمون**»[3].

2- **صبره على الأتباع الذين قد لا يوافقونه في كل حال على ما يحب**، مثلما حصل من الأنصار في حُنَين عند ما وجدوا أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أعطى قومه عطاءً ولم يُعطهم، فقال بعضهم: لقد لقي رسولُ الله قومه! فجمعهم وقال: «**ما قالةٌ بلغتني عنكم...؟**» الحديث[4].

وهكذا في الحُدَيْبِيَة، لَمَّا عقد النبي صلى الله عليه وسلم الصلح، ولم يكن يريد بذلك مصلحة لنفسه، ولا يريد دنيا، ومع ذلك تألَّم أصحابُه وخالفوا أمره، ولم يسارعوا إلى طاعته بالتحلُّل بالحلق أو التقصير حتى فعل ذلك أمامهم، حتى قال عمر رضي الله عنه: أتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم، فقلتُ: ألستَ نبيَّ الله حقًّا؟ قال:

---

(1) ينظر: «مصنف عبد الرزاق» (6743)، و«سيرة ابن هشام» (1/ 482- 483)، و«طبقات ابن سعد» (1/ 194)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (2/ 465- 470).

(2) أخرجه البخاري (3854)، ومسلم (1794) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(3) تقدم تخريجه في «سورة المعارج»: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

(4) أخرجه أحمد (11730) من حديث أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه.

«**بلى**». قلتُ: ألسنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطِلِ؟ قال: «**بلَى**». قلتُ: فلم نعطي الدَّنِيَّة في ديننا إذًا؟ قال: «**إني رسولُ الله، ولستُ أعصيه وهو ناصري**». قلتُ: أو ليسَ كنتَ تحدِّثُنا أنا سنأتي البيتَ فنطوفُ بهِ؟ قال: «**بلى، فأخبرتُكَ أنا نأتيه العامَ؟**». قلتُ: لا. قال: «**فإنك آتيه ومطَّوِّفٌ به**». قال: فأتيتُ أبا بكر، فقلتُ: يا أبا بكر، أليس هذا نبيُّ الله حقًّا؟ قال: بلى. قلتُ: ألسنَا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطل؟ قال: بلى. قلتُ: فلِم نُعطِي الدَّنِيَّةَ في ديننا إذًا؟ قال: أيُّها الرجل، إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس يعصِي ربَّه وهو ناصِرُه، فاستمسِك بغرزه، فوالله إنه على الحق[1]. أي: الزم طريقه وتمسك بجادته، ولا تخرج ذات اليمين ولا ذات الشمال؛ فإنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

3- **صبره على المنافقين الذين يُحسبون ظاهرًا على المسلمين**، وكان يقع منهم على الرسول صلى الله عليه وسلم كثير من الأذى والمضايقة، كما كان يفعل عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلُولَ وغيره ممن كانوا يتآمرون على النبي صلى الله عليه وسلم.

**ومن أشد ذلك**: إشاعتهم لحادثة الإفك المعروفة، التي فيها طعنٌ في عرض عائشة رضي الله عنها، حتى نزلت براءتُها من السماء، وكان النبي صابرًا في تلك الفترة محتسبًا[2].

4- **ثقة النبي** صلى الله عليه وسلم **بالمستقبل**؛ فقد أنزل الله تعالى هذه السورة بمكة، وكانت عاشر سورة ولم يكن الإسلام قد انتشر آنذاك، وكان صلى الله عليه وسلم يتأذى لصُدودِ قومه عنه. وما ارتفع له ذكر في الدنيا عند الناس، فأتباعه قليل، وهو في مكة محاصر لم تظهر بوادر النصر، لكن كان عنده ثقة كبيرة بنصر هذا الدين.

---

(1) أخرجه البخاري (3182، 4844)، ومسلم (1775) من حديث سهل بن حُنيف رضي الله عنه. وأخرجه البخاري (2731) من حديث المِسوَر بن مَخْرَمة ومروان بن الحكم.

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (2661، 4141، 4750)، و«صحيح مسلم» (2770).

ولهذا روى البخاريُّ حديث خَبَّاب بن الأَرَتِّ رضي الله عنه وقول المستضعفين: يا رسولَ الله، أَلَا تدعو لنا، أَلَا تستنصر لنا؟! فيقول رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**وَالله، لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ، حتى يمشيَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَموتَ، لا يخافُ إِلَّا اللهَ، والذئبَ على غنمه**»[1]. يقول هذا وهو متوسِّد بردة بجانب الكعبة، لا يملك إِلَّا أتباعًا يُعذَّبون!

لقد كان يتعامل بهدوء واتِّزان وثقة بالله؛ لأن الصراخ والانفعال والغضب والتأثر بالحوادث لا يصنع شيئًا، سوى تدمير صاحبه من الداخل.

وهذا تعبير عن الهدوء والسكينة النفسية، التي ينبغي أن يتحلَّى بها العالم والداعية، بل والإنسان الناجح أيًّا كان في كل الظروف.

ولذا لما هاجر صلى الله عليه وسلم ولحق به سُراقة بن مالك رضي الله عنه، قال له: «**كيف بك يا سُرَاقَةُ إذا لَبِسْتَ سِوارَيْ كِسْرَى؟**». فقال سُراقة: كِسْرَى بنُ هُرْمُزَ؟! قال: «**كِسْرَى ابنُ هُرْمُزَ**»[2]. وهذا الرجل كان كافرًا، ومع ذلك يخبره أنه سوف يلبس سِواري كِسْرى بن هُرْمُزَ، وهو أعرابي من بني مُدْلِج! وقد تحقَّق ذلك.

وعند ما تجمَّع الأحزاب حول المدينة، والنبي صلى الله عليه وسلم يحفر الخندق مع أصحابه، فضرب صخرةً فلمِعَتْ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**رُفعت لي**

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (3612، 3852، 6943).

(2) ينظر: «طبقات ابن سعد» (4/ 366)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (36610)، و«مسند أحمد» (3)، و«صحيح البخاري» (2439، 3652)، و«صحيح مسلم» (2009/ 75- كتاب الزهد والرقائق)، و«صحيح ابن حبان» (6281)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (2/ 484)، (6/ 325)، و«الاستيعاب» (1/ 174)، و«أسد الغابة» (1/ 422)، و«الكامل» لابن الأثير (1/ 277)، و«البداية والنهاية» (3/ 187- 188)، (6/ 194)، و«الإصابة» (3/ 41).

**مدائنُ كِسْرَى، ومدائنُ قَيْصَرَ**»[1]. ففي وقت الضعف والخوف والقلق، وتسلُّطِ الأعداء، ووقوع الحصار يبشرهم.

وكان المنافقون يقولون: محمَّد يعِدُنا بكنوز كِسْرى وقَيْصر، والواحد منا لا يستطيع أن يذهب لقضاء حاجته!»[2].

وهكذا لما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم رضي الله عنه: «**هل رأيتَ الحِيرَةَ؟**». قال: لم أرَها، وقد أُنْبِئْتُ عنها. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**فإن طالت بك الحياةُ؛ لترَيَنَّ الظَّعينةَ ترتحلُ من الحِيرَةِ حتى تطوفَ بالكعبة، لا تخافُ أحدًا إلَّا الله**»[3].

فكانوا يستغربون ويستكثرون ذلك؛ لما يعلمونه من خطورة الطريق من الحِيَرة إلى مكة، ومع أنها من الغيب، إلا أنهم آمنوا بها؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بها، فوقعت وشهد عديٌّ بعضَها.

5- **مداومته** صلى الله عليه وسلم **على العمل والدعوة والطاعة**، دون يأس أو ملل، وكان بمكة، ثم ذهب إلى الطائف، ثم إلى المدينة، وفي قلبه من السرور وقرة العين ما يجعله يتغلَّب على الصعاب.

وأكثرُ الناس تقعد بهم الصعوبات، وقد يبدأ الفرد منهم متحمِّسًا لمشروعه العلمي أو الإعلامي أو التجاري أو التعليمي أو الوظيفي، فإذا واجه العقبات بدأ

---

(1) ينظر: «سنن النسائي» (6/ 43)، و«البداية والنهاية» (6/ 31).

(2) ينظر: «سيرة ابن هشام» (1/ 522)، (2/ 222)، و«تاريخ الطبري» (2/ 572)، و«تفسير الطبري» (19/ 30)، و«سنن البيهقي» (9/ 31)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (3/ 402، 435)، و«تاريخ الإسلام» (2/ 289)، و«البداية والنهاية» (5/ 11)، (6/ 39).

(3) أخرجه البخاري (3595) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

يتذمَّرُ ودبَّ إليه اليأس، وملَّ وترك ما هو فيه من خير، ولو صبر لَيَسَّرَ الله له ما تعسَّر.

6- **عدم استعجال النبي** صلى الله عليه وسلم **للنتائج وقطف الثمار**، على طريقة حرق المراحل.

وما أكثر الذين يستعجلون؛ لأنهم ليسوا أهلًا لتحمل النجاح.

7- **التزامه** صلى الله عليه وسلم **بالخلق الكريم والتسامح**، فعن أنس رضي الله عنه قال: كنتُ أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه بُرْدٌ نَجْرانيٌّ غليظُ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ، فجذبهُ جذبةً شديدةً، حتى نظرتُ إلى صفحة عاتق النبي صلى الله عليه وسلم قد أثَّرت به حاشيةُ الرِّداء من شدة جذبته، ثم قال: مُرْ لي من مال الله الذي عندك. فالتفتَ إليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فضحك، ثم أمرَ له بعطاء[1]. وكان هذا من حسن خلقه صلى الله عليه وسلم.

وكذلك موقفه من أهل مكة يوم الفتح بعدما حصل منهم ما حصل، ومع ذلك قال: «**ما ترونَ أني صانعٌ بكم؟**». قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «**اذهبوا فأنتم الطُّلَقاءُ**»[2]. ثم إنه لم يسترجِع منهم أموال المهاجرين ودُورَهم، ولا انتقم منهم.

وكذلك غَوْرث بن الحارث الذي رفع السيفَ عليه وهو نائم تحت شجرة وقال: مَن يمنعك مني؟ قال صلى الله عليه وسلم: «**اللهُ**». فسقط السيفُ من يده، فأخذه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال: «**من يمنعكَ مني؟**». قال: كُن كخيرِ آخِذٍ. قال

(1) أخرجه البخاري (3149، 5809)، ومسلم (128).

(2) ينظر: «سيرة ابن هشام» (2/ 411)، و«أخبار مكة» للأزرقي (2/ 122- 123)، و«الأموال» لابن زنجويه (1/ 214)، و«سنن النسائي الكبرى» (11298)، و«مسند أبي يعلى» (6647)، و«تاريخ الطبري» (2/ 161)، و«شرح معاني الآثار» (3/ 325)، و«سنن البيهقي» (9/ 118)، و«زاد المعاد» (3/ 307- 309)، و«البداية والنهاية» (6/ 567- 568).

صلى الله عليه وسلم: «**أتشهدُ أن لا إله إلَّا الله، وأَنِّي رسولُ الله؟**». قال: لا، ولكن أعاهدك على أن لا أقاتِلَكَ، ولا أَكونَ مع قومٍ يُقَاتِلُونَكَ. فخلَّى سبيله صلى الله عليه وسلم[1].

8- **الهدوء في معايشة الحياة مع أطفاله وأهل بيته**، ومن ذلك أنه سابق عائشة رضي الله عنها، وكانوا في غزوٍ[2]، على سبيل المتعة والمؤانسة وأداء الحقوق، وهذا يزيد من القدرة على التعليم، ويضمن استمرار العمل والعلاقة.

9- **عدم استغراقه** صلى الله عليه وسلم **في اللحظة الحاضرة**؛ فإن تيَّار الحياة متدفِّق، والتاريخ لا ينتهي ولا يتوقف حتى يأذن الله سبحانه وتعالى بخراب هذا الكون.

فالإيمان يعطي قدرًا من التفاؤل بالمستقبل، وتأتي الأمور على أفضل مما تظن.

❊ ﴿رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ١٨ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩ رَبِّهِ﴾:

أكثر المفسرين على أنه وُضع عنه ذنوبه صلى الله عليه وسلم، وغُفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر[3].

**والذي يظهر** عدم حصر الآية في هذا المعنى، **وأن الأقرب** حمل الوِزر على المعنى اللُّغوي، **والوِزر في اللغة** هو: الحِمْل الذي يثقل الإنسان[1]، ومن ذلك الحرج، ومنه الشيء الثقيل، **فوضع الوزر عن النبي** صلى الله عليه وسلم **يشمل**:

---

(1) أخرجه أحمد (14929)، وابن حبان (2883)، والحاكم (3/ 31) من حديث جابر رضي الله عنه. وأصل القصة في «صحيح البخاري» (2910، 4139)، و«صحيح مسلم» (843).

(2) أخرجه الطيالسي (1565)، والحميدي (261)، وأحمد (26277)، وأبو داود (2578)، وابن ماجه (1979)، وابن حبان (4691) من حديث عائشة رضي الله عنها. وينظر: «إرواء الغليل» (1502).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 492- 493)، و«زاد المسير» (4/ 460)، و«تفسير القرطبي» (20/ 105، 106)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 430)، و«روح المعاني» (10/ 462).

- **وضع الآصار والأغلال عن هذه الأمة**، وإنزال الشريعة التي فيها اليسر والسماحة، ورفع الحرج والمشقة، فهذه الشريعة هي شريعة اليسر: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ﴾ [الأعلى: 8].. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: 17].

ولا شك أن ما وُضع عن الأمة، فقد وُضع عنه صلى الله عليه وسلم: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]، **فيَعِزُّ** عليه صلى الله عليه وسلم ما **يُعَنِّتُ** أمته ويحرجها.

- **وضع ما كان عليه أهل الجاهلية**، مما كانوا يعملونه؛ كتغييرهم دين إبراهيم الخليل عليه السلام، فعلَّمه الله تعالى ما لم يكن يعلم.

- **إزالة الحزن والكرب الذي كان يتغشَّاه** صلى الله عليه وسلم **أول الأمر**، ففي «الصحيحين» أنه لما نزل الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم، خاف في أول الأمر، وجاء إلى خديجة رضي الله عنها يقول: «**زَمِّلُوني**»، «**دَثِّرُونِي**». وقال لها: «**لقد خشيتُ على نفسي**»(2).

وكذلك لما انقطع عنه الوحي قلق من الانقطاع، فوضع ربُّه عنه وزرَه، وأزال عنه الـحُزنَ، وأذهب عنه الكربَ.

- **غُفرانُ الذنب**، كما في قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2].

**فإن قيل: وما الذنب؟**

---

(1) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص867)، و«النهاية» (5/ 179)، و«لسان العرب» (5/ 282)، و«تاج العروس» (14/ 358) «و ز ر».

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (3، 4، 4922، 4953)، و«صحيح مسلم» (160، 161)، وما سيأتي في «سورة العلق».

**فالجواب:** إن «سيئاتِ الأبرار حسناتُ المقرَّبين»، فالذنبُ بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم هو ترك الأَوْلَى، وقد يكون فعل ما يدخل في باب المكروه في حقه صلى الله عليه وسلم، بخلاف عموم الناس، وقد يفعل شيئًا باجتهاده فيعاتبه ربه، كما قال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ...﴾ [الأنفال: 67].

ومنه غفران الذنب لأُمَّته من بعده صلى الله عليه وسلم، وذلك بما جاء في الشريعة من التوسعة والكفارة والتوبة وغيرها.

﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩﴾ أي: أثقل ظهرك[1]، وذلك أن الحمل إذا كان ثقيلًا؛ فإنه يكون له صوت وأَطِيطٌ من ثقله.

وهذا الذي جعلنا نستبعد أن يكونَ المقصود الذنب فحسب؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم ليس له ذنبٌ يُوصف بهذا الوصف.

* ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ٢٠ أَفَرَءَيْتُمُ﴾:

وذِكْر النبي صلى الله عليه وسلم مرفوع باللِّسان أولًا، ومرفوع في قلوب المؤمنين به.

أما ذِكْره باللسان؛ فإن الله سبحانه قد قرن اسمَ محمدٍ صلى الله عليه وسلم مع اسمه في الأذان والإقامة والشهادة.

وفي ذلك الوقت الذي نزلت فيه الآية لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يُعرف إلا في حدود مكة، لكن الله تعالى رفع ذكره في الملأ الأعلى، كما أنه ناداه في القرآن بالنبوة والرسالة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ...﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ...﴾، بخلاف الأنبياء

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص736)، و«تفسير الطبري» (24/ 492)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 566)، و«تفسير الماوردي» (6/ 297)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 125)، و«زاد المسير» (4/ 460)، و«فتح القدير» (5/ 563).

الآخرين الذين يذكرهم بأسمائهم: ﴿وَٱلنَّجۡمِ ...﴾، ﴿رَأَىٰٓ ...﴾، ﴿عَلَّمَهُۥ...﴾، ﴿(١٨) ...﴾... إلى غير ذلك[1].

* ﴿ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ (٢١) تِلۡكَ﴾:

هذه الفاء الفصيحة، وسُمِّيت: فصيحة؛ لأنها تختصر كلامًا طويلًا، كأنه يقول: فإذ قد شرحنا لك صدرك، ورفعنا لك ذكرك، ووضعنا عنك وزرك؛ إن مع العسر يسرًا. **والمعنى**: أنه ما دام هذا كله صنيع الله تعالى بك فيما مضى، فكيف تظن بصنيع الله تعالى بك فيما يأتي؟! فلتكن أكثر ثقة وطمأنينة بوعده.

وكثير من المفسرين يفسرون الآية على أنها نوع من الاستعارة؛ لأن العُسر واليُسر نقيضان، فلا يجتمعان معًا.

وما ذهبوا إليه فيه نظر، **والأقرب** أن الآية على ظاهرها؛ لأن الله تعالى هنا لم يقل: «إن العُسرَ يُسرٌ»، وإنما قال: ﴿إِذَا قِسۡمَةٌ﴾ أي: يقارنه ويصاحبه، وهذا مشاهد معروف[2].

وقد رُوي: «**لو كان العُسرُ في جُحْر، لدخلَ عليه اليُسرُ؛ حتى يخرجه**»[3]. و«**لن يغلبَ عُسْرٌ يُسْرين**»[1]. وهذه أحاديث ضعيفة، ولكنها في معنى الآية الصريحة.

---

(1) ينظر ما تقدم في أول «سورة التحريم».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 495)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 233)، و«تفسير الماوردي» (6/ 297- 298)، و«تفسير البغوي» (5/ 275)، و«المحرر الوجيز» (5/ 497)، و«تفسير الرازي» (32/ 209)، و«تفسير القرطبي» (20/ 107)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 431)، و«فتح القدير» (5/ 564)، و«التحرير والتنوير» (30/ 413).

(3) أخرجه البزار (7530) من حديث أنس رضي الله عنه.

وأخرجه الطبراني (9977) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (4/ 235)، و«فتح الباري» (8/ 712)، و«السلسلة الضعيفة» (1403).

والتكرار للتوكيد، فكأنه لما قال في المرة الأولى: ﴿ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾، كان هذا كالتعقيب على ما يتعلق بحال النبي صلى الله عليه وسلم، وأن الصعوبات التي يلاقيها معها يسر، وهي دعوة إلى قراءة الوجه الإيجابي للعسر، وأنه مصحوب في الوقت ذاته بألوان من اليسر والروح والفرح والرحمة، لمن تأمل ونظر، ولم يستغرق في التشاؤم.

* ثم انتقل إلى إنشاء حكم جديد، ومسألة مستأنفة، وسياق آخر، فقال: ﴿إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴿٢٠﴾﴾:

وهذا تأسيس أيضًا، فهو يؤسِّس لقاعدة عظيمة لا تخصُّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم، بل هي لكل الناس، فالأُولى مربوطة بما قبلها بالفاء، والثانية تأسيس لقاعدة عامة، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الطلاق: 7]، **وفيها عدة معان:**

1- أنه نكَّر كلمة «يُسر»، وعرَّف كلمة «العُسر»، وفي هذا معنى لطيف، وهو: أن «العُسر» غالبًا معروف، فكل إنسان يعرف «العُسر» الذي يعانيه، كالفقر، أو

(1) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (3/ 428)، والطبري في «تفسيره» (24/ 495، 496)، والحاكم (2/ 528)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (9541) من مرسل الحسن وقتادة.

وأخرجه مالك (3/ 633)، وابن المبارك في «الجهاد» (217)، وعبد الرزاق (2/ 428)، وابن أبي شيبة (19486، 33840)، وأبو داود في «الزهد» (76)، وابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (31)، والطبري (6/ 334)، والحاكم (2/ 300)، والبيهقي (9538) عن عمر وابن مسعود رضي الله عنهما من قولهما.

ورُوي مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (4/ 235- 236)، و«فتح الباري» (8/ 712)، و«تغليق التعليق» (4/ 372)، و«المقاصد الحسنة» (1/ 538- 540)، و«كشف الخفاء» (2/ 175- 177)، و«السلسلة الضعيفة» (4342).

المضايقة، أو الأذى، أو الظلم، أو المرض، لكن «اليُسر» قد يأتيه من حيث لا يحتسب ولا يدري، ولذلك قيل[1]:

عَسَى فـرجٌ يـأتِـي بـــه اللهُ إنَّـهُ *** لهُ كلَّ يومٍ في خليقتِهِ أَمْرُ

وقيل[2]:

عَسَى الكَربُ الذي أَمسيتَ فيه *** يكونُ وراءَه فرجٌ قريـبُ

وعلى المؤمن أن لا ييأس من رَوْح الله، مهما ادْلَـهَمَّت في وجهه الخطوب والصعاب، ولو ظن أنه لا سبيل إلى فرج، فإن الفرج قريب، والله عند ظن عبده به.

2- جاء «اليُسْرُ» مكررًا مرتين، وهو نكرة، بخلاف «العسر» فهو واحد؛ لأنه معرفة، فالعُسر الأول هو الثاني، وهو يقابل يُسرين، و«**لن يغلبَ عُسرٌ يُسرين**»، **بل هي ألوان من اليسر:**

**اليسر الأول:** يسر الصبر والرضا والشكر؛ لأنه إذا كان الإنسان في مصيبة، ثم رزقه الله تعالى سرور القلب، والطمأنينة، والرضا، حتى صار لا يبالي بالحال لِـمَـا عنده من الإيمان، كان هذا يسرًا عظيمًا؛ وبذا تحصل سعادة القلب، وسرور النفس، فهذا اليسر المصاحب للرضا والصبر والشكر.

**اليسر الثاني:** يسر الفَرَج وزوال الغمِّ، أي: زوال الشيء الذي يعاني منه الإنسان مرضًا كان أو فقرًا، أو سجنًا، أو همًّا، أو غمًّـا.

وهذا غير الأول؛ فالأول أن يسلِّم ويرضى بقضاء الله، والثاني أن يهيَّأَ له انكشافُ الأمر من حيث لا يحتسب.

---

(1) ينظر: «خريدة العصر» (1/ 208)، و«بهجة المجالس» (1/ 34).

(2) ينظر: «الكتاب» لسيبويه (3/ 159)، و«العقد الفريد» (2/ 355)، و«أمالي القالي» (1/ 72) منسوبًا إلى هُدبة بن خَشْرم العذري.

**اليسر الثالث:** يسر يعمله الإنسان ويحاوله، وهو يسر التسبب والحيلة؛ لأنه مطلوب منه أن يبذل الأسباب الموصلة للمراد، وأن يسعى لزوال الأسباب الموجبة للهمِّ والغمِّ.

**اليسر الرابع:** يسر العطاء والمنحة والفضل من الله سبحانه من غير سبب، والله تعالى يقول: ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ﴾ [ص: 39]، فقد يعطي الله العبد من غير تسبب.

**اليسر الخامس والسادس:** يُسر الدنيا ويسر الآخرة، وهو ما يعطي الله تعالى العبد في الدنيا من الخير والبرِّ والفضل؛ فإن فاته ذلك ظفر باليسر الأُخروي، ولذلك إذا تخيل المؤمن ما عند الله تعالى من النعيم والفضل والعطاء، سُرَّ بذلك واطمأَنَّتْ نفسُه وَقرَّت عينُه.

**اليسر السابع والثامن:** يسر الحال والمآل: **فيُسر الحال** هو ما يعيشه المرء الآن، والمصيبة قد تكون سببًا في ألوان من الخير والفيض والعطاء، **ويُسر المآل** هو الانتظار والترقب، وانتظار القادم، وتوقع الأفضل.

والعسر مسبوق بيسر ومتبوع بيسر، وقبل الفراق كنت مع مَن تكره فراقَه، وأحببت الاجتماع به زمانًا طويلًا، ثم أنت الآن محروم، وستعود إليه، ويعود إليك، كما يقول القائل[1]:

إذا رأيتَ الوَدَاعَ فاصبِرْ *** ولا يَـهُـوْلَـنَّـك البِعَـادُ
وانْتَظِرِ العَوْدَ مِنْ قَرِيبٍ *** فإنَّ عَكسَ «الوَداعِ»: «عادُو»

فينبغي بالعبد أن يدرك أن العسر محفوف باليسر معه وقبله وبعده.

* ﴿هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ إِذَا﴾:

---

(1) ينظر: «يتيمة الدهر» (4/ 496) منسوبًا إلى أبي عبد الرحمن النيلي.

قال مجاهد وغيره: إذا فرغت من دنياك[1]. فالإنسان يضطرب في دنياه وكسبه، فإذا فرغت منها فأقبل على ربك، بالنَّصَب والعبادة.

وقال الحسن وغيره: إذا فرغت من الجهاد[2].

لكن الآية لم تذكر المفعول للفعل ﴿إِلَّآ﴾، ولا للفعل ﴿أَسۡمَآءٌ﴾، ولذلك تجري مجرى المَثَل، لاشتمالها على أقصر وأخصر الألفاظ وأعظم المعاني، والمعنى: كلما وجدت فراغًا فاستثمِرْه، وأقبل على ربك، وانصب نفسك له بالعبادة.

وذلك لأن العبادة شكر على العطاء الذي منه شرح الصدر، وهي ينبوع من ينابيع السعادة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: 28]، وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**العبادةُ في الهَرْج**[3] **كهجرة إِلَـيَّ**»[4]. وذلك لأن الإنسان ينشغل بأمر نافع، بينما الناس ينشغلون بالقيل والقال.

ولأن العبادة تكسب الإنسان سكينة وطمأنينة، وتخفف من التوتر والاحتقان النفسي الذي يحدث بسبب الضغوط، وتجعل الإنسان أكثر اعتدالًا وهدوءًا وتعقُّلًا في قوله وفعله، وتبعده عن الحالات التي قد يفضي فيها إلى يأس أو قنوط، وقد يقول أو يفعل ما يوبق دنياه وآخرته.

وبعض الناس إذا غضب قد يطلِّق زوجته أو يقتل، أو ينتحر، أو يقول الكفر أو يفعله، بسبب فرط الانفعال والغضب.

---

(1) ينظر: «الزهد» لابن المبارك (1146)، و«الكشاف» (4/ 772)، و«تفسير القرطبي» (20/ 109)، و«تغليق التعليق» (4/ 373)، و«فتح القدير» (5/ 564).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 379)، (24/ 498)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 433)، و«التفسير المظهري» (10/ 294).

(3) أي: الفتنة واختلاط أمور الناس.

(4) أخرجه مسلم (2948) من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه.

وقدَّم قوله: ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ﴾ على الفعل؛ للاختصاص، أي: لا ترغب إلَّا إلى الله في تحصيل ما تريد من أمر الدنيا وأمر الآخرة، والله أعلم.



## سورة التين

*** تسمية السورة:**

تُعرف عند المفسرين، وفي المصاحف بـ«**سورة التِّين**».

وقد يذكرون الواو، فيقولون: «**سورة ﴿وَٱلتِّينِ﴾**»، أو: «**سورة ﴿وَٱلتِّينِ إِذَا﴾**»[1].

*** عدد آياتها:** ثمان آيات[2].

*** وهي مكية**، ولم يذكرها السيوطي في «الإتقان»، وغيره في السور المختلف في نزولها؛ لأن الأكثرين يرون أنها مكية.

**ويرجِّح القول بمكيتها:** قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾، فهو إشارة إلى مكة، والإشارة إلى معهود حضوري، وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها مدنية، **والراجح** الأول[3].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص737)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 440)، و«صحيح البخاري» (6/ 172)، و«جامع الترمذي» (5/ 300)، و«تفسير الطبري» (24/ 501)، و«المحرر الوجيز» (5/ 499)، و«تفسير القرطبي» (20/ 110)، و«التحرير والتنوير» (30/ 419- 420).

(2) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص279)، و«روح المعاني» (15/ 393).

(3) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 253)، و«زاد المسير» (4/ 463)، و«تفسير الرازي» (32/ 9)، و«تفسير القرطبي» (20/ 110)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 434)، و«الدر المنثور» (15/ 506)، و«التحرير والتنوير» (30/ 419).

وهي من السور المبدوءة بالقَسَم، وأقسم تعالى هنا بأربعة أشياء، فقال: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ رَبِّهِ﴾.

وتوجد علاقة بين ما أَقَسم الله تعالى به، وبين الموضوع المقسَم عليه؛ ولكل شيء في القرآن سر وحكمة.

❋ ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا طَغَىٰ﴾:

**التِّين والزيتون**: شجرتان معروفتان، وثمرتان مأكولتان، **فهل هما المقصود؟**

هذا ما قاله جمع من أهل التفسير، وصحَّ عن ابن عباس رضي الله عنهما[1]، ورجَّحه الطبري، وقالوا: إنه ظاهر السياق[2].

ويرى بعض الباحثين المعاصرين المهتمين بالإعجاز العلمي أن القَسَم بـ«التِّين والزيتون» مرتبط بخواص غذائية لهاتين الشجرتين.

**والذي يترجَّح**- والله أعلم- أن القَسَم هنا بـ«التين والزيتون» ليس قَسَمًا محضًا بهاتين الشجرتين، وإنما هو قَسَم بمواطن التين والزيتون ومنابتها.

❋ والتِّين غالبًا ينبُت في بلاد الشام، والزيتون ينبُت في بيت المقدس وأرض فلسطين وما حولها، وهذا يتناسب مع قوله: ﴿۝١ مَا رَأَىٰ﴾.

**والطُّور**: الجبل، وأدق من ذلك أن يقال: إن الطُّور هو الجبل الذي تنبت فيه الأشجار؛ وغالب جبال الجزيرة العربية جرداء، بخلاف جبال الشام وأوروبا وغيرها، فهي مكسوة بالخضرة والأشجار[1].

---

(1) أخرجه الحاكم (2/ 528) بسنده إلى «تفسير مجاهد» عن ابن عباس رضي الله عنهما.
وهو في «تفسير مجاهد» (ص737)، و«تفسير الطبري» (24/ 501- 502) من قول مجاهد.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 503)، و«المحرر الوجيز» (5/ 499)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 434)، و«التحرير والتنوير» (30/ 420).

و﴿ مَا﴾ يعني: جميل، أو حسن، أي: الطُّور الحسن، أو المبارك، أو الجميل[2].

وذهب الأكثرون إلى أن «طور سينين» اسم موضع، وهو المذكور في آية أخرى، حيث قال تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ﴾ [المؤمنون: 20]، ونُقل عن ابن مسعود رضي الله عنه وغيره، ويسمَّى: جبل موسى؛ لأنه الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى عليه السلام ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [مريم: 52][3].

فهنا أقسم الله تعالى ببلاد الشام ومهد المسيح عليه السلام، ومنابت التين والزيتون، فالمسيح وُلد في بيت لحم في فلسطين، وعاش في بيت المقدس[4]، فأقسم بجبل بيت المقدس، وأقسم بـ«طور سينين» وهو جبل سيناء، وهو جبل موسى عليه السلام، وفي بيت المقدس جبل يسمَّى: جبل زيتا وجبل سيناء، ففي القسم إشارة إلى الموضع وإشارة إلى الشجرة أو الثمرة لذاتها ولمنافعها، والسياق القرآني يظل مفتوحًا على المعاني الصحيحة المحتملة لغويًّا.

* ﴿صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ رَبِّهِ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 440)، و«تفسير الطبري» (24/ 507)، و«تاريخ دمشق» (1/ 216)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (22/ 135).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص737)، و«تفسير مقاتل» (4/ 751)، و«تفسير الماوردي» (6/ 301)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 149)، والمصادر السابقة والآتية.

(3) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص485)، و«معاني القرآن» للفراء (2/ 392)، و«تفسير الطبري» (19/ 622)، (24/ 503- 504)، و«زاد المسير» (4/ 463)، و«تفسير القرطبي» (12/ 114)، (20/ 113)، و«التحرير والتنوير» (18/ 34)، والمصادر الآتية.

(4) ينظر: «معجم البلدان» (5/ 251)، و«الكامل في التاريخ» (1/ 274)، و«المختصر في أخبار البشر» (1/ 35)، و«تاريخ ابن خلدون» (2/ 172)، و«الروض المعطار في خبر الأقطار» (ص571).

ذِكْرُ البلد الأمين في نهاية القَسَم؛ إشارة إلى ترابط النبوات، وأن الأنبياء إخوة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**الأنبياءُ إِخوةٌ من عَلَّاتٍ**[1]**، وأمهاتُهم شتَّى، ودينُهم واحدٌ**»[2].

فيأخذ بعضهم بركاب بعض، ويزكِّي بعضُهم بعضًا، ويصدِّق بعضُهم بعضًا، عقيدتهم واحدة، وإن اختلفوا في الشرائع.

فأقسم الله تعالى بمهد المسيح عليه السلام، ثم بجبل موسى عليه السلام؛ إشارة إلى الديانات السماوية- أعني: دين المسيح ودين موسى- ولا أريد أن أسميها: اليهودية، لأن هذا الاسم لم يرد إشارة إلى دين موسى عليه السلام، وإن كانت اسمًا ينتحله الذين يزعمون أنهم أتباع موسى عليه السلام، لكن لا نقول: إن موسى دينه اليهودية، وإنما دينه المنزَّل من عند الله تعالى.

فهذا القَسَم بالأديان السماوية التي نزلت على الأنبياء، وبخاصة الأديان التي بقي لها أثر وحضور، وامتداد تاريخي، وهو قَسَم يؤكِّد معنى ربانيًّا إيمانيًّا، وهو أن الأنبياء كلهم إخوة، وملَّتهم واحدة، وليس بينهم تعارض ولا تناقض، وكلهم جاؤوا بالتوحيد، **هذا أولًا**.

**ثانيًا:** تأكيد ختم الرسالات والنبوات بمحمد صلى الله عليه وسلم، حيث جاء ذكر البلد الأمين في آخر القَسَم.

**ثالثًا:** تأكيد معنى وراثة النبي صلى الله عليه وسلم للأنبياء كلهم، فقد جاء ليجدِّد شرائعهم، وقد كان صلى الله عليه وسلم يقول: «**أنا دعوةُ أبي إبراهيمَ، وبشارةُ عيسى**»[1]. ولدعوة إبراهيم عليه السلام علاقة قوية بالبلد الأمين.

---

(1) أولاد العَلَّات: الذين أمهاتهم مختلفة، وأبوهم واحد. أراد أن أصل إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة. ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (15/ 119).

(2) أخرجه البخاري (3443)، ومسلم (2365) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فالقَسَم بالبلد الأمين إشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث في البلد الأمين، وإشارة إلى إبراهيم عليه السلام، وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو مجدِّد ملة إبراهيم، ومحيي دينه، ومزيل أوثان الجاهلية عن البيت الحرام.

وفيه معنى وراثة النبي صلى الله عليه وسلم لكل معاني القيم الفاضلة والتوحيد الخالص، التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام.

وألتمِسُ في هذا القَسَم **معنًى رابعًا**، وهو: أن دِيْنَ محمد صلى الله عليه وسلم لما كان خاتمًا للرسالات وناسخًا للشرائع لا يدخله التبديل ولا التحريف ولا النسخ، وبقي بصفائه ونقائه، فقد جاء القَسَم المتعلِّق بهذه النبوة ومكانها بوضوح بعيدًا عن اللبس وغموض المعنى، ولم يذكر ﴿ ⁨٨⁩ ﴾ مطلقًا بغير قيد ولا تحديد، ولم يقل: ﴿**وَمَا غَوَىٰ**﴾ فحسب، ولكن أشار إليه وسمَّاه ووصفه بما يزيل كل التباس، وإذا كان المفسرون قد اختلفوا في تحديد «التين والزيتون» و«طور سينين»، فإنهم لم يختلفوا قط في أن البلد الأمين هو مكة[2].

**وثَمَّ معنًى خامس**: فأنت تقرأ هذه السورة، وفي مقدمتها القَسَم، تلحظ أن هذه المواطِن التي أقسم الله بها أو بما ينبُت فيها، تكاد تجتمع فيها أهم الحوادث والصراعات بين الأمم والطوائف الدينية.

ولذلك يتقوَّى أن نربِطَ بين ما أقسم اللهُ به في هذه السورة، وبين مشاهد الحوادث في هذه المنطقة، لا سيَّما إذا استدعينا بعضَ النصوص النبوية التي يذكر فيها النبي صلى الله عليه وسلم أرض الشام، وأرض المَحْشر والمَنْشر، وأرض الميعاد،

---

(1) أخرجه أحمد، وابن حبان، والحاكم، من حديث العِرباض بن سارية رضي الله عنه. وتقدم تخريجه في «سورة الصف»: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ⁨١⁩ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ...﴾ [الصف: 6].

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 751)، و«تفسير الطبري» (24/ 508)، و«تفسير السمعاني» (6/ 253)، و«روح المعاني» (15/ 393)، و«التحرير والتنوير» (30/ 422).

وأرض الطائفة المنصورة، وأرض المجاهدين في سبيل الله إلى قيام الساعة، حتى يقاتل آخرُهم المسيحَ الدجالَ.. إلى غير ذلك، مما يعطي المؤمن شعورًا بأن القَسَم هنا له امتدادات ومعانٍ عميقة، قد يدرك الناس طرفًا منها بالتأمُّل.

* ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ أَفَرَءَيْتُمُ﴾:

هذا جواب القَسَم، ولأهميته احتاج إلى تأكيده بالقَسَم السابق، ثم باللام، ثم بحرف التحقيق وهو «قد».

ليس المقسَم عليه هو مجرد خلق الإنسان؛ لأن خلق الله تعالى للإنسان من المعلوم، حتى للمشركين، فقد كانوا يعترفون بأنه تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما.

وقد يقال: إنه نزَّلهم منزلة المنكرين لهذا المعنى؛ لأنه لم يظهر أثره عليهم، فهم يقولون ذلك بألسنتهم، لكنهم لا يعبدونه سبحانه، ولا يطيعون رسله، ولا يلتزمون أوامره، فكأنهم نزلوا منزلة مَن ينكر خلق الله تعالى له، **فهذا وجه!**

**والأقوى** أن يكون القَسَم غير منصبٍّ على مسألة خلق الإنسان، بل على خلقه في أحسن تقويم، ثم ردَّه أسفل سافلين، وهذا معنى أوسع يشتمل على قضية خلق الإنسان، وعلى أنه خُلِق في أحسن تقويم، وعلى أنه رُدَّ إلى أسفل سافلين، وعلى الاستثناء: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ﴾ [التين: 6]، فهي أربع قضايا إذًا.

وإذا تقرر هذا، **فما هو التقويم الحسن الذي خُلق عليه الإنسان؟**

أكثر المفسرين يميلون إلى الكلام عن الجانب الجسدي المشهود في الإنسان، من حسن صورته واعتدال قامته، واكتمال أعضائه وسمعه وبصره وخلقته، وهذه من

مظاهر القدرة العظيمة، والحكمة الباهرة، والعلم المحيط في خلق الإنسان بهذه الصفة[1].

عند ما تنظر إلى الجمال في خلق البشر، صورة وشكلًا تجده ظاهرًا، فلو فقد الإنسان من أعضائه جزءًا صغيرًا لشعر بالنقص والتعيب، كما لو فقد ظفرًا أو أُصيب الظفر بسواد، فإنه يخفيه عن الناس، ولو فقد بعض شعره الظاهر، كشعر حاجبه أو لحيته، أو فقد بعض أصابعه، أو تغيَّرت صورة جلدِه، لشعر بحرج من نقصها، وحاول إخفاءها، على أن حسن التقويم باقٍ حتى مع وجود نقصٍ جانبي.

ومن الخَلْق في أحسن تقويم ما رُكِّب فيه من الأجهزة الباطنة، كالجهاز التنفسي والهضمي والعصبي..

وكذا العقل الذي ميَّز الله به الإنسان، وأقدره على الفَهم والإدراك، ومعرفة المقدِّمات والأسباب والنتائج، والاستفادة من التجارب والخبرات، ولذا جعل تعالى الإنسان إنسانًا بالعقل والروح لا بالجسد فحسب، وإلا فقد تجد من الحيوانات ما هو أجمل منه كالطاووس، وما هو أقوى منه كالفيل أو الأسد، ومن الجبال ما هو أغلى من الإنسان؛ بما تحتويه من معادن الذهب والفضة.

إن إنسانية الإنسان بالعقل والإدراك، وبالمسؤولية والتكليف الشرعي المبني على العقل، وبالنفس التي كُرِّمت بالخطاب والتكليف، فهو إنسان باستقرار نفسه وسعادته وطِيب عيشه وسروره، وفرحه ورضاه واغتباطه.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 510)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 152)، و«زاد المسير» (4/ 464)، و«تفسير القرطبي» (20/ 114)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 435).

فخلقه في أحسن تقويم، لا يتمثل بالجمال والكمال في الجسد فقط، بل هي في الجسد والعقل والروح والنفس، وفي المواهب والقدرات والملكات، والأعطيات التي لا تنتهي ولا يحيط بها عد: ﴿فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ﴾ [النحل: 18].

والتوازن في خلقة الإنسان بين الروح والجسد، حيث يتقاصر عن درجة المَلَك الكريم، ويتعالى على درجة الشيطان المريد، ويجعل الروح والجسد والعقل تعمل بانسجام، هو من حسن التقويم.

* ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ۝١٩﴾:

وهذا جزء من المقسَم عليه، أن الإنسان الحسن في شكله وهيئته وتقويمه يُرَدُّ أسفل سافلين، عند ما ترى الشاب في توقُّده وحيويته وقوته وعنفوانه واندفاعه، ترى مظهرًا من مظاهر الجمال والقوة والنشاط، وقد يخيَّل للشاب أنه سيستمر شابًّا، ولا يتصور أنه سيصبح يومًا شيخًا هَرِمًا، تتحول نضارة وجهه إلى غضون وتجاعيد، ويتساقط شعر حاجبيه على عينيه، وتذهب الأسنان، ويُصاب بثقل الكلام وبطء الحركة، ويَحْدَوْدِب الظهر، وتغزوه الأمراض، ويبدأ الارتعاش، وتظهر مقدمات (الزهايمر)! هل في هذا الوجه الضعيف الذابل أثر من ذلك الوجه الصبوح النضير؟!

**ومن معاني رده أسفل سافلين**: رده في حياته العقلية إلى أرذل العمر، فترى هذا الإنسان العاقل الخبير الذي يتقد ذكاءً وفطنةً، في آخر عمره خَرِفًا هَرِمًا كالطفل، بل الطفل أفضل حالًا منه!

**ومن معانيها:** ذهاب الشهوة، فترى الذي قضى شبابه بالأمس يَعُبُّ الشهوات عبًّا، دون تقوى أو ازدجار، قد كبر وشاخ وعجز، ولم يبق له إلَّا الذكريات السيئة المؤلمة والحرمان[1].

يأسفُ المرءُ على ما فاتَه *** من لُبانات[2] إذا لم يقضِها

وتراهُ فَرِحًا مستبشرًا *** للتي أمضَى كأن لم يُمْضِها

إنها عندي كأحلامِ الكَرَى *** لقريبٌ بعضُها من بعضِها[3]

**وقيل:** معنى ﴿يُوحَىٰ ٤﴾: **السافلون** هم: سفلة الاعتقاد، والإشراك أسفل الاعتقاد، فيكون ﴿يُوحَىٰ ٤﴾ أن يأخذ في تغيير ما فُطر عليه من التقويم والإيمان بإله واحد، وتوجه الفطرة إليه بالعبادة والتعظيم، فيصير مشركًا أو كافرًا.

وهل أسفل ممن يعتقد ألوهية الحجارة أو الأشجار أو الحيوانات، أو ممن يجحد وجود الخالق وهو يشاهد مخلوقاته ويتلقَّى إنعامه؟!

**ومن السُّفول الذي يرد له مَن تجاوز تقويم الفطرة:** السُّفول في الأخلاق من طمع وجشع وجزع وهلع وجبن وفحش، فهل بعد هذا من تسفل في الأخلاق!**[4].

**وقيل معناه:** أن الصورة القويمة ترد إلى صورة قبيحة مشوَّهة حينما تُلقى في أسفل دركات النار، موضع العصاة المتمردين على ربهم[5].

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 302)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 409- 410)، و«فتح القدير» (5/ 567)، والمصادر السابقة والآتية.

(2) جمع: لُبانة، وهي الحاجة النفسية.

(3) تقدم تخريجه في «سورة القيامة»: ﴿زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ لَقَدْ﴾.

(4) ينظر: «التحرير والتنوير» (30/ 427- 428).

(5) ينظر: «الكشاف» (4/ 773)، و«تفسير السعدي» (ص929).

* ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ۝٢٠﴾:

﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ﴾: وفي هذا الاستثناء أسرار، فإن الله تعالى استثنى المؤمنين، والسؤال: أليس يمر عليهم الهَرَم والكبر والشيخوخة كغيرهم؟

بلى.. ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ﴾ [النحل: 70]، والسنن لا تحابي أحدًا، والمؤمن قد يصيبه الخرف في عقله، وبعضهم يقول: إن الذي يحفظ القرآن لا يصيبه الخَرَف. ويُروى مرفوعًا(1)، وهذا لم يثبت في القرآن، ولا في السنة، ولا في التاريخ، ولا يدل عليه الواقع؛ فإننا نجد من الناس مَن يكون عالـِمًا وحافظًا ثم يتغيَّر، والمحدِّثون كانوا يحجرون على الشيخ إذا كبر سنه وتغير حفظه، ويمنعون الناس من الأخذ عنه والتلقِّي منه، ويقولون: فلان اختلط. وقد يُمنع من التحديث؛ لئلا يختلط حديثه الصحيح بغيره فيُرَد، مع أنه كان مُحَدِّثًا قضى عمره كله في: «قال»، «حدَّثنا»، «أنبأنا»، «أخبرنا».

**وقد نقول**: إن ذلك فيهم أقل منه في غيرهم؛ لأن الإنسان إذا نقص عقله يظل يردِّد الأشياء المألوفة فيما مضى من عمره، فيقرأ القرآن ويسبِّح ويسوق الحديث النبوي.

أو يردِّد ما ألفه واستقر في ذاكرته من أمور رديئة أو فاسدة، فتسمع منها ما يعيبه ويُعَدُّ منقصة فيه.

**وثَمَّ وجه آخر**: أن الإنسان في كبره يبقى في وجهه نور وإشراق من أثر الطاعة والعبادة، وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «إن للحسنة لنورًا في القلب،

---

وينظر: «تفسير الطبري» (24/ 509، 513)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (2/ 321)، و«تفسير البغوي» (8/ 472)، و«تفسير الرازي» (32/ 12)، والمصادر السابقة.

(1) ينظر: «السلسلة الضعيفة» (269- 271).

وضياءً في الوجه، وسَعةً في الرزق، وقوةً في البدن، ومحبةً في قلوب الخلق، وإن للسيئة لسوادًا في الوجه، وظلمةً في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبُغضًا في قلوب الخلق»[1].

وقد ذكر أنس رضي الله عنه أنهم نظروا إلى وجه النبي صلى الله عليه وسلم، فكأنه ورقة مصحف[2]، وذلك في آخر عمره[3].

وقد استشهدت عائشة رضي الله عنها في وصفه صلى الله عليه وسلم بقول أبي كَبِير الهُذَلي[4]:

ومُبَرَّأً من كلِّ غُبَّرِ حَيْـضَـةٍ *** وفساد مرضعةٍ وداءٍ مُـغْـيـلِ

وإذا نظرتَ إلى أَسِرَّةِ وَجْهِه *** بَرَقَتْ كبَرْقِ العارضِ المُتَهَلِّلِ

**ومعنى ثالث**: أن الإنسان الذي يحتقب ذكريات اللهو والمعاصي، يتمنى المعصية حين يعجز عنها، وربما يُكتب عليه وزرها، أما المؤمن فإنه يُكتب له الأجر، وفي «الصحيح» مرفوعًا: «**إذا مرضَ العبدُ أو سافرَ، كُتب له ما كان يعملُ مقيمًا صحيحًا**»[5].

فإذا عجز عن صلاة الليل أو الصيام أو الذكر أو التعليم أو الجهاد، لعارض من كبر السن أو المرض؛ فإن أجره يدرُّ عليه، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦

---

(1) ينظر: «مجموع الفتاوى» (10/ 630)، و«منهاج السنة النبوية» (3/ 27)، و«روضة المحبين» (ص441)، و«الوابل الصيب» (ص30)، و«مدارج السالكين» (1/ 423).

(2) إنما شبَّهه بورقة المصحف؛ لذهاب اللحم ورِقَّة الجلد وصفاء الجسم من الدم. ينظر: «كشف المشكل» (3/ 195)، و«إرشاد الساري» (2/ 44).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (680)، و«صحيح مسلم» (419).

(4) ينظر: «حلية الأولياء» (2/ 45)، و«سنن البيهقي» (7/ 422).

(5) أخرجه البخاري (2996) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ﴾ أي: غير مقطوع، حتى وإن كبروا وعجزوا، فالأجر لا يقطع، بل هو مستمر لهم على ما كانوا يعملون، بخلاف أولئك الذين لم يكونوا من الأخيار ولا من الصالحين[1].

﴿فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ﴾ أي: لا يَمُنُّ به عليهم، بل يتفضَّل الله به، من غير أن يَمُنَّ عليهم به أحد؛ لأنه من الله تعالى المعطي المتفضِّل، بخلاف عطاء الناس، فإنه قد يلحقه مَنٌّ أو أذى، ولذلك مدح الله الذين ﴿لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى﴾ [البقرة: 262][2].

فهناك رابط بين القَسَم الذي أقسم الله به: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾، وبين الأمر المقسَم عليه، وهو خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم إرجاعه إلى أسفل سافلين ﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ﴾.

وهذا القَسَم إشارة- والله أعلم- إلى القيمة الحقيقية للإنسان، وأنها الإيمان، فهو الذي يصحِّح عقل الإنسان، ويحفظ عمل جسده فلا ينقطع أجره، ويحفظ نفسه وروحه وماله، ودنياه وآخرته[3].

* ﴿۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص737)، و«تفسير الطبري» (24/ 521)، و«تفسير الماوردي» (6/ 302)، و«تفسير الرازي» (32/ 213).

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (8/ 286)، و«تفسير البغوي» (4/ 125)، و«الكشاف» (4/ 187)، و«المحرر الوجيز» (5/ 5)، و«زاد المسير» (4/ 465)، و«تفسير الرازي» (27/ 543)، و«اللباب في علوم الكتاب» (17/ 103)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (22/ 146).

(3) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص737)، و«تفسير الطبري» (24/ 517، 519، 521)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 573)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 241)، و«روح المعاني» (15/ 396).

وهذا خطاب للإنسان المكذِّب بالدين، والدين هنا: الجزاء والحساب في الآخرة، حيث يُدان الإنسان بما عمل، أي: يُجزى به[1].

**والمعنى**: ما الذي جعلك تكذب بالدار الآخرة، وأنت تَرَى الإنسان يُخْلَقُ في أحسن تقويم، ثم يُرَدُّ إلى أسفل سافلين؛ في جسده ونفسه وعقله؟

وهل تظن أن الذي خلق الإنسان بهذه الحكمة والعظمة والإبداع، وأرسل إليه الرسالات، وكلَّفه بالتكاليف، يترك الإنسانَ سُدًى، ولا يبعثه، ولا يدينه ويجازيه؟

ما الذي يجعلك تكذِّب بعد هذا كله بالدين؟

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ﴾: أَلَا تدري أن الله تعالى هو أحكم الحاكمين، أي: صاحب الحكمة، والحكمة تقتضي أن لا يُخْلَق الإنسان سُدًى.

وفي حكم البشر أنه لو عمل أحد شيئًا بغير جدوى، لقال الناس: هذا ليس من مقتضى الحكمة، حتى النعل يلبسه الإنسان ليتقي الحر والبرد والأشواك، وغيرها مما يكون في طريقه، فكيف يُترك هذا الإنسان بكلِّيته سُدًى؟! ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة: 36– 37].

أفمن الحكمة أن يُخلق الإنسان بهذه القوة والكثرة، والامتداد التاريخي والجغرافي والإبداعي، ثم يُترك ويُهمل، فيذهب الظالم والمظلوم، والمخطئ والمصيب، والمؤمن والكافر، والبر والفاجر، ويأكلهم التراب والدود، فلا يُبعثون ولا يُسألون ولا يُحاسبون ولا يُجازون ولا يُقتص للمظلوم من الظالم؛ هل يتوافق هذا مع الحكمة؟! كلا؛ ولهذا قال: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ﴾؟ بلى، ونحن على ذلك من الشاهدين.

---

(1) كما تقدم في «سورة المعارج»: ﴿ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا﴾، و«سورة الانفطار»: ﴿أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ ﴿٢٢﴾﴾.

وقد يكون معنى الآيات: يا رسولَ الله، ما الذي يجعلهم يكذِّبونك بعد هذا؟ والمعنى متقارب[1].

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيه: «**مَن قرأَ** «**سورة** ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا﴾»، فقرأ: ﴿**فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ**﴾، **فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين**»[2]. والحديث فيه ضعف، ورجَّح أبو زرعة الرازي وقفه[3].



(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 523)، و«زاد المسير» (4/ 465)، و«تفسير القرطبي» (20/ 116)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 435)، و«فتح القدير» (5/ 568)، و«روح المعاني» (15/ 297).

(2) أخرجه الحميدي (1025)، وأحمد (7391)، وأبو داود (887)، والترمذي (3347)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (436)، والبيهقي (2/ 310)، وفي «شعب الإيمان» (1929).

(3) ينظر: «علل ابن أبي حاتم» (1763)، و«علل الدارقطني» (11/ 246- 248)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (4/ 243- 244)، و«نتائج الأفكار» (2/ 41)، و«تمام المنة» (ص185- 186).

## سورة العلق

*** تسمية السورة:**

اسمها في معظم المصاحف، وعند جمهور المفسرين: «**سورة العَلَق**»[1].

وتسمَّى: «**سورة ﴿٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ﴾**»، أو: «**سورة ﴿٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ﴾**»، وبعضهم يختصرها: «**سورة ﴿٩﴾**»[2].

وسماها بعضهم- كابن العربي، وابن الجوزي، وابن القيم، وغيرهم-: «**سورة القلم**»[3].

و«سورة ﴿عَلَىٰمَا﴾» تسمَّى بـ«القلم»، فالأَوْلَى أن تسمَّى هذه السورة بـ«العلق»، أو ﴿٩﴾.

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 759)، و«سنن النسائي الكبرى» (10/ 339)، و«تفسير الطبري» (24/ 527)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 242)، و«تفسير السمعاني» (6/ 255)، و«تفسير البغوي» (5/ 279)، و«الكشاف» (4/ 775)، و«المحرر الوجيز» (5/ 501)، و«زاد المسير» (4/ 466)، و«تفسير القرطبي» (20/ 117)، و«التحرير والتنوير» (30/ 433).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص739)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 443)، و«صحيح البخاري» (6/ 173)، و«جامع الترمذي» (5/ 300)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 575)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (1/ 201)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 436)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (3/ 212)، و«روح المعاني» (15/ 399)، و«التحرير والتنوير» (30/ 433).

(3) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (5/ 162)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (2/ 342)، و«زاد المسير» (4/ 466)، و«مفتاح دار السعادة» (1/ 58)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (1/ 201)، و«ملاك التأويل» (2/ 509)، و«الإكليل في استنباط التنزيل» (ص295)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (15/ 307)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (2/ 647)، والمصادر السابقة.

* **عدد آياتها:** تسع عشرة آية، **وقيل**: ثماني عشرة، **وقيل**: عشرون[1].

* **وهي مكية** بالإجماع، وأول ما نزل عند جماهير المفسرين، خصوصًا صدرها، وكان نزولها في رمضان ليلة السابع عشر منه[2].

* **قصة نزول السورة:**

هذه السورة على وجازة ألفاظها، وقصر آياتها، بديعة المعاني، رائعة الألفاظ، دقيقة الإعجاز، تُبهر العقول وتأخذ بالألباب، وهي أول سورة طرقت سمع النبي صلى الله عليه وسلم.

نزلت بدايات هذه السورة في غار بعيد يصعب الوصول إليه: (غار حراء)، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم يعبد ربه فيه، في ظل جاهلية جَهْلاء غطَّت عقول الناس وحياتهم، ومكة تضج بالأوثان، إذ كان في الكعبة ثلاثمئة وستون صنمًا، والناس كما قال الشاعر[3]:

أتيتَ والناسُ فوضى لا تمرُّ بهم *** إلا على صنمٍ، قد هام في صنمِ
والأرضُ مملوءةٌ جَوْرًا، مسخَّرةٌ *** لكلِّ طاغية في الخَلْق محتكمِ
مسيطرُ الفرس يبغى في رعيته *** وقيصرُ الروم من كِبْرٍ أصمُّ عَمِ

كانت الحياة ملأى بالضَّلالات والظُّلمات والجَهَالات في جزيرة العرب خاصة، لا دين ولا دنيا، ولا حضارة ولا علم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتعبَّد كل سنة في

---

(1) فقد اختلفوا في قوله تعالى: ﴿ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾، وقوله: ﴿ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى﴾ [العلق: 15]. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص280)، و«فتح القدير» (5/ 570)، و«روح المعاني» (15/ 399)، و«التحرير والتنوير» (30/ 434).

(2) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 474)، و«زاد المسير» (4/ 466)، و«تفسير الخازن» (7/ 267)، و«بصائر ذوي التمييز» (1/ 381)، و«التحرير والتنوير» (30/ 433).

(3) ينظر: «الشوقيات» (1/ 197).

غار حراء الشهر الذي يوافق شهر رمضان، فإذا بالمَلَك يأتيه، وكان أول ما يخاطبه به ويقرَع سمعَه هذه الكلمات.

وقد ذُكرت قصة نزول الوحي في «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها، وكيف أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم في أول الأمر قال: «**ما أنا بقارئٍ.. ما أنا بقارئ.. ما أنا بقارئ**». ثم المَلَك يأخذه ويغطُّه ويضغطه، حتى يبلغ منه الجَهد، حتى خشي على نفسه صلى الله عليه وسلم، ثم قال له هذه الآيات.

والظاهر - والله أعلم - أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قرأها في الموقف، ثم رجع إلى خديجة رضي الله عنها ترجف بوادره، وهو يقول: «**زمِّلوني زمِّلوني**». فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْع، ثم قال لخديجة رضي الله عنها: «**أي خَدِيجَةُ، ما لي؟**». وأخبرها الخبر، وقال: «**لقد خشيتُ على نفسي**». قالت له رضي الله عنها: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، والله إنك لتَصلُ الرحمَ، وتَصْدُقُ الحديثَ، وتحمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدومَ، وتَقْرِي الضيفَ، وتُعِينُ على نوائب الحقِّ. ثم انطلقت به خديجة إلى ورقة بن نَوْفَل بن أسد بن عبد العُزَّى، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتُبُ الكتابَ العربيَّ، ويكتُبُ من الإنجيلِ ما شاء اللهُ أن يكتُبَ، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِي، فقالت له خَدِيجَةُ رضي الله عنها: يا ابنَ عمٍّ، اسمعْ من ابنِ أخيكَ. قال ورقةُ: يا ابنَ أخي، ماذا تَرى؟ فأخبره رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رآه. فقال له ورقةُ: هذا النَّاموسُ الذي أُنزل على موسى صلى الله عليه وسلم، يا ليتني فيها جَذَعًا، يا ليتني أكون حيًّا حين يخرِجُكَ قومُكَ. قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟**». قال ورقةُ: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بما جئتَ به إلَّا عُودِيَ، وإن يُدركْنِي يومُك أنصرْكَ نصرًا مؤزَّرًا[1].

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (3)، و«صحيح مسلم» (160).

والحديث يدل على أن هذه الآيات هي أول ما نزل من القرآن على الإطلاق، وبها نُبِّئ النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد جاء في «الصحيحين» ما يدل على أن أول ما نزل من القرآن: ﴿١٨ أَفَرَءَيْتُمُ﴾، فروى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال- وهو يحدِّث عن فترة الوحي-: «**بينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتًا من السماء، فرفعتُ بصري، فإذا المَلَك الذي جاءني بحِراءٍ جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض، فرُعِبْتُ منه، فرجعتُ فقلتُ: زمِّلوني زمِّلوني**». فأنزل الله تعالى: ﴿١٨ أَفَرَءَيْتُمُ...﴾، فحمي الوحي وتتابع[1].

ولكن في هذه الرواية ما يؤكِّد الأمر الأول، وهو أن «سورة ﴿٩﴾» هي أول ما نزل؛ لأن حديث جابر فيه ذكر المَلَك الذي جاءه بحراء، وقد جاءه بـ«سورة ﴿٩﴾»، وفيه أنه قد عرفه، وأنه طلب من خديجة أن تزمِّله، ثم حمي الوحي بعد ذلك.

فعلى هذا يكون معنى أول ما نزل «سورة المدثر»؛ أي: أول ما نزل بعد ما فَتَرَ الوحي، فقد جاء الوحي أول ما جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بـ﴿٩﴾، ثم فَتَرَ- كما في حديث عائشة رضي الله عنها- ثم عاوده الوحي بـ«سورة المدثر»، فهذا هو الجمع بين الأقوال، وهو الصحيح، كما رجَّحه عامة علماء التفسير والسير[2].

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (4، 4925)، و«صحيح مسلم» (161).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 527- 532)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 242)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (1/ 79)، و«تفسير الماوردي» (6/ 309)، و«المحرر الوجيز» (5/ 501)، و«تفسير الرازي» (30/ 600)، (32/ 215)، و«تفسير القرطبي» (1/ 116)، (20/ 117)، و«تفسير ابن كثير» (1/ 103)، (8/ 261، 436)، و«فتح القدير» (5/ 394، 570)، و«روح المعاني» (15/ 399، 400)، و«التحرير والتنوير» (29/ 58)، (30/ 433)، و«مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن» (ص176- 180)، والمصادر السابقة والآتية، وما تقدم في أول «سورة المدثر».

وهو ما يقتضيه النظر؛ فإنه صلى الله عليه وسلم نُبِّئ بـ﴿ ﴾، وأُرسل بـ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ﴾، فكانت ﴿ ﴾ نبوءة له، وكانت ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ﴾ رسالة، فقيل له: ﴿ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ رَأَىٰ ﴾.

كان التعبد الذي يعمله النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء على ملة الحنيفية في عبادة الله تعالى، وفي العبادة أُنس للقلب، وراحة للنفس، وقرب من الله، فكان صلى الله عليه وسلم يأنس بالمناجاة، وسُمِّيت: عبادة؛ لأنها تذلّل النفس لطاعة الله تعالى، و«أقربُ ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»، وأفضل ما يكون العبد حينما يقترب من ربه.

ثم أراد تعالى بسابق حكمته وبالغ رحمته أن يواجه الرسول صلى الله عليه وسلم أمر الدعوة إلى الله، وتوجيه الناس، وهذا فيه العناء والجهد والمشقة، وفيه الجرح والقتل والطرد والتكذيب والتعذيب؛ ولذلك لما جاء جبريل عليه السلام كان أول ما فعله مع النبي صلى الله عليه وسلم أن أخذه وغطَّه، يعني: ضمَّه وضغطه وهزَّه، حتى بلغ منه الجَهد، ثم أرسله، وقال له: «**اقرأ**». فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «**ما أنا بقارئ**». أي: أنني لا أحسن القراءة؛ فأنا أُمِّيٌّ لا أقرأ ولا أكتب.

وقد جاء في بعض الروايات من المراسيل، أن جبريل عليه السلام جاء النبي صلى الله عليه وسلم بديباجة فيها هذه السورة، فكان يقول له: «**اقرأ ما هو مكتوبٌ**»[1].

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 444)، و«أخبار مكة» للفاكهي (4/ 54)، و«المستدرك» (2/ 529)، و«فتح الباري» (8/ 718)، (12/ 357)، و«إتحاف المهرة» (3/ 299)، و«الدر المنثور» (15/ 523)، و«روح المعاني» (15/ 401).

ولا يلزم هذا التقدير، بل إن جبريل عليه السلام لما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: «**اقرأ**». كان المفترض أن يكون مع النبي صلى الله عليه وسلم شيء يقرأ منه، أو يكون في صدره ما يقرؤه؛ فإن القراءة تُطلق على ما يُقرأ من الورق، أو ما يقرؤه الإنسان من صدره، فلو قلت لرجل: اقرأ. فقرأ من حفظه، لكان امتثل.

والله تعالى أمر المؤمنين بقراءة القرآن، فقال: ﴿**وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ**﴾ [المزمل: 20]، وإنما سُمي قرآنًا؛ لأنه يُقرأ.

فجبريل عليه السلام كان يريد من النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرأ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول: لا أحسن القراءة؛ كما قال تعالى عنه: ﴿**ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ**﴾ [العنكبوت: 48].

فهذا معنى قوله: «**ما أنا بقارئ**»، والبعض قد يظنها تأبيًا من النبي صلى الله عليه وسلم، وكأنه يقول: لا، لن أقرأ. وليس هذا المعنى، إنما هو: أنا أميٌّ، ولم يسبق لي تعليم.

وفي الغَطِّ والضغط إشارة إلى أن مرحلة التعبد الناعمة التي تخلو بها بربك وتناجيه وتدعوه وتسأله دون تحمل مسؤولية تقلق مضجعك وتثقل ظهرك قد انتهت، وجاءت مرحلة تتحمل فيها ثقل الدعوة، وبلاغ الرسالة، وما يترتب على ذلك؛ ولذلك كانت هذه هي البداية، ثم جاءت بعدها: ﴿﴿١٨﴾ **أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ رَأَىٰ**﴾ [المدثر: 1- 2]، والأمر بالقيام أمر بالنهوض والإنذار والبيان، ثم جاءت الآية الثالثة: ﴿**وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ رَأَىٰ**﴾ [المزمل: 1- 2]، فعرف النبي صلى الله عليه وسلم أنه دخل عهدًا فيه المشقة والتعب والعناء، ولكن في ذات الله عز وجل.

وفي قوله صلى الله عليه وسلم: «**ما أنا بقارئ**» أنه كان خلوًّا من الترقب والتطلع والانتظار، خلافًا لما كان عليه كثير من الحنفاء وأهل الكتاب، كأُميَّة بن أبي الصَّلت؛ فإنه كان ينتظر الرسالة، فلما كانت إلى النبي صلى الله عليه وسلم حسده وكفر، مع أنه مؤمن في قرارة نفسه؛ ولذلك لما قُرئ شعره على النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**آمنَ شِعْرُه، وكفرَ قلبُه**»(1).

فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يترقَّب شيئًا من ذلك؛ ولذلك قال الله عز وجل له: ﴿**عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ**﴾ [القصص: 86]، وقال: ﴿**وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ**﴾ [الشورى: 52].

ولم يكن العرب يعرفون أخبار النبوة والوحي، ولذا استغرب النبيُّ صلى الله عليه وسلم مجيء المَلَك، بينما لم يفاجأ موسى عليه السلام بنداء الله له مباشرة؛ لأن الملائكة كانت تغشى بيوتهم، والأنبياء فيهم كثير(2).

* ﴿ ۝٩ **فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ** ﴾:

لم يحدِّد المقروء؛ إما للعلم به، وهو القرآن، أي: اقرأ القرآن، أو اقرأ القدر الذي أعلِّمك إيَّاه الآن.

**أو المقصود**: اقرأ كل ما يُحتاج إليه من علم نافع(1)، فيكون أمرًا لأمته من بعده، ودعوة إلى طلب العلم النافع في أمر الدين أو الدنيا، فتكون الآية دليلًا على إيجاب

---

(1) ينظر: «أخبار مكة» للفاكهي (1973)، و«التمهيد» (4/ 7)، و«تفسير البغوي» (2/ 250)، و«تاريخ دمشق» (9/ 272)، و«تفسير الرازي» (15/ 403)، و«البداية والنهاية» (3/ 294)، و«تفسير ابن كثير» (6/ 592)، و«فتح الباري» (7/ 154).

(2) ينظر ما تقدم في «سورة القمر»: ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥ ﴾، و«سورة المزمل»: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾.

طلب العلم المحتاج إليه، فمنه ما يجب على الأعيان، ومنه ما يجب على الكفاية، كما في حديث: «**طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم**»[2].

نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم وهو من أمة أمِّية يغلب عليها الجهل، وما كانوا يعرفون القراءة إلا نادرًا، فقد كانت تُعرَف في اليمن والشام والعراق، أما عرب مكة والجزيرة فما كانوا يعرفون الكتابة، وكانوا يرونها من خصائص اليهود والنصارى؛ لأنهم أهلُ كِتاب.

وكانوا على ضلال مبين من عبادة الأوثان، والواحد منهم إذا نزل في مكان بحث عن أربعة أَثَافٍ[3]، وجعل منها ثلاثًا لِقَدْرِه، واتخذ الرابع صنمًا يعبده، وإذا لم يجد أحجارًا يحثو بشيء من التراب يجمعه، ثم يحلب عليه الشاة- كما قال أبو رجاء العُطاردي- ثم يعبده[4]. وأما الكعبة فقد كان فيها ثلاثمئة وستون صنمًا.

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 597)، و«تفسير الرازي» (32/ 215)، و«تفسير القرطبي» (20/ 119)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 506)، و«فتح القدير» (5/ 570)، و«التحرير والتنوير» (30/ 435).

(2) أخرجه ابن ماجه (224)، والبزار (94، 6746)، وأبو يعلى (2837)، وابن عدي (3/ 273)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (1543- 1544)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (15) من حديث أنس رضي الله عنه.

ورُوي من غير وجه، وضعفَّه غير واحد. ينظر: «مسائل الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه» (9/ 4654)، و«الضعفاء» للعقيلي (2/ 58، 230)، (4/ 249)، و«جامع بيان العلم وفضله» (1/ 52)، و«العلل المتناهية» (1/ 54- 66)، و«مقدمة ابن الصلاح» (ص265)، و«المجموع» (1/ 24)، و«تفسير القرطبي» (8/ 295)، و«جزء فيه طرق حديث: طلب العلم فريضة على كل مسلم» للسيوطي، و«جنة المرتاب» (ص83- 104).

(3) الأَثَافي: حجارة تُنصب، ويُجعل القِدْر عليها.

(4) أخرجه البخاري (4377).

أما الطب والصناعة والزراعة، فقد كانوا فيها على الفطرة، والمعلومات البدائية، وأما التجارة فكانت محدودة.

كانت الجزيرة معزولة بصحرائها، ممتنعة عن أن تُفرض عليها سلطة عالمية، مما جعلها معزولة عن الحضارة التي كانت عند غيرها، ولذلك تجد عجبًا أن يكون أول خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ﴾.

يقول ابن تيمية: «إن أول واجب على المكلَّف هو العلم؛ لهذه الآية، لأنها أول ما خاطب الله بها رسولَه صلى الله عليه وسلم»[1].

والناظر إلى أحوال الأمة العربية والإسلامية في عهد النبوة وما بعده يلحظ أنها حصَّلت علومًا كثيرة، واستطاعت أن تهضمها ثم تصلحها إصلاحًا شرعيًّا وتنشرُها بين الناس، ثم حصل التراجع المحزن للأمة، حتى آلت الأمور إلى ما هي عليه الآن!

والمتأمِّل في القرآن الكريم يجد آيات كثيرة تدعو إلى العلم والتفكير، حتى في مصالح الحياة الدنيا، فقوله تعالى: ﴿يَغْشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ﴾ [الأنعام: 141]، آيات تتحدَّث عن الزراعة والنبات، ومراحل تكوينه وأطواره، تلقتها الأمة من ربها، وليس من شيء يتعاطونه، بل بوحي القرآن الذي يعظمونه، وعلى ضوئه يتوقع أن تكون الأمة خطت خُطوات كبيرة في العلم بحرث الأرض والزرع وألوانه وأنواعه وتكوينه وتنميته، وبناء الأرض واستعمارها، كما قال سبحانه: ﴿٢٣ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ٢٤﴾ [هود: 61]، مما يثير الاستغراب لهذا التخلف والتأخر العظيم عند المسلمين، وغالب بلادهم زراعية!

---

(1) ينظر: «مجموع الفتاوى» (23/ 54)، و«الفتاوى الكبرى» (2/ 234)، و«درء تعارض العقل والنقل» (4/ 116).

ومن السنة: الحديث الصحيح: **«ما أنزلَ اللهُ من داء إلَّا وأنزلَ له دواءً، علمه مَن علمَهُ، وجهلَه مَن جهلَهُ»**[1].

وهنا سَمَّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم العلمَ بالأدوية علمًا، وسَمَّى عدم المعرفة به جهلًا، كما لقَّنه صلى الله عليه وسلم لأمته؛ أنه ليس من داء أو مرض إلا وله دواء، إلا الموت، وهذا مما يدفع الأمة للبحث والنظر والتجربة والتعليم، فهو كقول مَن يقول لك: إن ما تطلبه موجود في هذا المكان. ومن ثَمَّ يتوفر دافع البحث؛ ليُصاب دواء الداء، فيبرأ بإذن الله تعالى، ولكن الأمةَ عِيالٌ على أمم الشرق والغرب في الطب منذ قديم، حتى قال الشافعي: «ذاك عِلمٌ غلبنا عليه أهل الكتاب»[2]!

ومع أنه تعالى جعل أصولًا تنطلق الأمة منها إلى المعرفة والتعليم والاشتقاق والوصول، إلا أن الانقطاع عن ميراث النبوة، وعن الالتزام بهدي الله سبحانه، والانشغال بفروع بالَغْنا فيها، وأعطيناها أكثر مما ينبغي أخَّر المسيرة، وما وُجد سرفٌ إلا ومعه حقٌّ مضيَّعٌ.

إن العبادة بدون علم ضلالٌ، والدعوةَ بدون علم دعوةٌ إلى جهل، والجهاد بدون علم انتهاكٌ للحرمات وتطويحٌ للعدل والإحسان، وهكذا كل الأعمال المشروعة، إذا

(1) أخرجه أحمد (3922، 4267)، وابن ماجه (3438)، والنسائي في «الكبرى» (6834)، وابن حبان (6062)، والحاكم (4/ 196) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وأخرج البخاري (5671) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (2204) من حديث جابر رضي الله عنه نحوه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (451، 517، 1650، 2873).

(2) ينظر: «مناقب الشافعي» للبيهقي (2/ 116)، و«سير أعلام النبلاء» (10/ 57)، و«طبقات الشافعيين» (ص32)، و«توالي التأسيس» (ص18)، و«الطب النبوي» لابن طولون (ص17).

لم تكن مستنيرة بنور العلم والبصيرة، فإنها لا تعطي نتيجتها وثمرتها، ولذلك يقول الشاعر[1]:

يا طالبي علـــمَ النبيِّ محمدٍ *** ما أنتمُ وسـواكـمُ بســـواءِ

فمدادُ ما تجري به أقلامُكم *** أزكى وأفضلُ من دمِ الشهداءِ

البداءة بالعلم بداءة منطقية وضرورية؛ لأن كل المطالب: من عبادة ومخالطة ودعوة وجهاد ومصالح دنيوية، كالتجارات والصناعات والزراعات، مفتَقِرة إلى العلم في ثمرتها الأخروية، وفي حصيلتها العاجلة.

تشير الآية إلى الترابط المطلوب بين العلم والدين، وإذا انفصل العلم عن الدين، فإنه يُنذِر بوجود كارثة كبيرة، كما في قضية الاستنساخ والخلايا الجذعية والتعديل الوراثي والجيني للإنسان والحيوان والنبات، والذي يوشك أن ينفلت دون رقابة أو مسؤولية، فيكون عبثًا بالفطرة الإنسانية.

ومثله سباق الأسلحة النووية والكيماوية والبيولوجية والجرثومية، والتي من الممكن أن تدمِّر البشر على وجه الأرض.

إن العلم الذي حضنه الإسلام، وتربَّى في المجتمع الإسلامي، كان له أثره على البشرية في تقدمها ورُقِيِّها وقربها من الله تعالى، وفي المحافظة على القيم والأخلاق والمبادئ، وحتى الذين لم يستنيروا بنور الإسلام استفادوا من هذه العلوم في تسهيل أمور دنياهم.

---

(1) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» (1/151) منسوبًا إلى ابن دُريد، و«الأربعين الطائية» (ص129)، و«معجم السفر» (ص213) منسوبًا إلى ابن الأنباري.

فربط القراءة باسم الله تأكيد على أن المعرفة منحة من الله للإنسان، وليست ظفرًا إنسانيًّا ينتهبه الناس من الآلهة كما تزعم الأساطير اليونانية، وهو دعوة إلى تكريس المبدأ الأخلاقي للعلم، والذي غايته نفع البشرية وخدمتها وليس تدميرها.

لقد بدئت السورة بالأمر بالقراءة: ﴿٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ طَغَىٰ﴾، وخُتمت بالأمر بالسجود: ﴿ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ ٥﴾، وتوسَّطت بذكر الصلاة: ﴿ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ أَنتُمۡ﴾؛ وذلك أن أعظم أقوال الصلاة ذكر الله تعالى وقراءة القرآن، وهو ما بُدئت به السورة، وأعظم أفعالها هو السجود، وهو ما خُتمت به.

والعبد يبدأ صلاته قائمًا، ثم يركع، ثم يسجد، ثم يقعد، ثم يسجد، فكان السجود هو آخر ما يُراد في الصلاة، وهو أكمل ما يكون من العبودية لله سبحانه؛ حيث يعفِّر العبدُ جبهته ذلًّا لربه؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «**أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربه وهو ساجدٌ**»[1].

كرَّر لفظ ﴿٩﴾ في السورة مرتين: ﴿٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ طَغَىٰ﴾، ﴿رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ رَبِّهِۦ﴾، والتكرار للتوكيد وترسيخ المعلومة، والأمر الأول بطلب الامتثال، والثاني لتوكيد حصول العلم بالقراءة، وأن هذا فضل من الله الأكرم، فمَن قرأ عرف[2]!

وهو دعوة للمداومة وعدم الانقطاع، والمحاولة وعدم اليأس، والقراءة الأولى للتعلم والفقه، والثانية للتعليم والدعوة ونفع الناس.

---

(1) أخرجه مسلم (482) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) ينظر: «غرائب التفسير وعجائب التأويل» (2/ 1361)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 496)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (7/ 328)، و«فتح القدير» (5/ 571)، و«روح المعاني» (15/ 402)، و«تفسير جزء عم» لابن عثيمين (ص259- 260).

وتكررت كلمة ﴿إِلَىٰ﴾ ثلاث مرات: ﴿٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ طَغَىٰ﴾، ثم ﴿رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ رَبِّهِۦ﴾، ثم ﴿مَا يَغْشَىٰ ١٦ مَا إِذًا﴾. وكلها تأكيد للُّطف والرحمة، وأنها بداية الرسالة، ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين.

أما كلمة ﴿مَآ﴾ فهي مكررة مرتين: ﴿عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ رَأَىٰٓ﴾؛ فالخلق الأول خلق مطلق، يشمل خلق السماوات والأرض والملائكة والجن والإنس والدنيا والآخرة، وما نعلم وما لا نعلم، والثاني خاص بخلق الإنسان.

وكلمة ﴿مَا﴾ تكررت ثلاث مرات: ﴿١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ رَأَىٰٓ﴾، ثم ﴿رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ١٣ عِندَ ١٩﴾، ثم ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٢٠﴾.

فالأولى لذكر الخلق والفطر، والثانية للتعليم وقابلية المعرفة لدى الإنسان، والثالثة للتحذير من الطغيان بالعلم، وبيان أن العلم إذا انفصل عن القيم والأخلاق والفضائل صار طغيانًا.

أما كلمة ﴿يَرَىٰ﴾ فكررت مرتين: ﴿مَا يَرَىٰ ١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ١٣ عِندَ ١٩﴾.

وهذا يسمى عند أهل القراءات بالترديد، وهو وجود كلمة تتكرر في القرآن مرتين متجاورتين بلفظها، وكثير من الناس لجمال القرآن وبلاغته وإعجازه لا يفطنون لهذا إلا إذا نُبِّهوا عليه.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَحْيٌ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٍ﴾ [الطارق: 5- 6]، وقوله تعالى: ﴿٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ١٠﴾ [التوبة: 108]، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: 6- 7]، وقوله: ﴿وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا

تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ﴾ [الأنعام: 124]، وهذا هو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي ذكر فيه لفظ الجلالة مرتين متجاورتين.

والتكرار يدخل في باب التثنية أو المثاني؛ فإن الله تعالى وصف القرآن بأنه مثاني فقال: ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ [الحجر: 87][1].

والتثنية ليس المقصود بها أن يكون العدد اثنين، بل هي بداية العدد مطلقًا، أي: تكرار العدد، كما في قوله عز وجل: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [الملك: 3- 4]، فليس المقصود مرتين، وإنما المعنى: كرِّر النظر إلى السماء، وتأمَّل النظر في ملكوت الله تعالى مرة بعد مرة حتى تعتبر وتؤمن.

وفي هذا إشارة إلى ثنائية الخلق ووحدانية الخالق تعالى، والله تعالى يأمر وينهى، والإنسان عبد مربوب يُؤمر فيطيع.

والله سبحانه كريم ذو فضل عظيم وعطاء جزيل، وكل خير فمنه وإليه، والإنسان فقير بطبعه، منتظر متطلع إلى عطاء الله وتعليمه.

ويدل على ذلك قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ﴾؛ فإنه اختار من أسماء الله تعالى لفظ «الرب» الدال على الملكية والخلق والتدبير، كما يقال: رب الأسرة، أو رب المنزل، أو رب الإبل، أي: مدبِّرها ومتولِّي شؤونها ومصرِّف أمورها، فالله تعالى هو الرب المدبِّر، **وقد ناسب اختيار هذا المعنى باعتبارين:**

- الإشارة للنبي صلى الله عليه وسلم ولكل مخاطب إلى أن الطريق طويل وشاق، وفيه عناء وأشواك، والاستعانة بالله تذلِّل الصعاب.

يقول كثير من العلماء: إن الباء في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ﴾ للاستعانة، يعني: اقرأ مستعينًا بالله، كما أنك حينما تعاني أمرًا تقول: بسم الله. يعني: أستعين بالله على هذا

---

(1) ينظر ما تقدم في أول «سورة الفاتحة».

العمل، وقال عز وجل في «سورة الفاتحة»: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝﴾، وفيه إشارة إلى أن العبد لا يستطيع أن يقوم بالتبعات ومسؤوليات الحياة إلا بالاستعانة بالله؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا به.

- ثم إن كلمة «الرب» تشير إلى القرب والعناية والمعيَّة والرأفة.

و«**الرب**» هو الاسم المناسب للمقام؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان مرعوبًا من المَلَك الذي طَرَقه وهو في الغار، يقول له: ﴿۝﴾؛ ولذلك فزع صلى الله عليه وسلم؛ فلما قال: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ﴾ كان هذا مشعرًا باللُّطف، وأنه هو الذي ربَّاك وتعهدك، وحَمَاك في الجاهلية مما كان يفعله أهل الجاهلية، وحفِظَك وتولَّاك، وأعانك حتى كنتَ تتعبَّد في مثل هذه الأوقات، فضلًا عن الإشعار بالحفظ في المستقبل.

فهو ربك الذي سيتعاهدك ويحميك في إقامتك وسفرك، وحِلِّك وظعنك، وحربك وسِلْمك، وليلك ونهارك، فهي تذكير بالماضي، وتطمين للمستقبل.

لقد كان ورقة بن نوفل يقول للنبي صلى الله عليه وسلم: «لم يأت رجلٌ قطُّ بمثل ما جئتَ به إِلَّا عُودي»؛ لأنه يدري بعلمه بالكتاب والنبوات السابقة أن مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم تغييرية؛ وأنه جاء ليغيِّر عقول الناس وسلوكهم وأخلاقهم وعقائدهم وعباداتهم، وأن هذه المهمة الشاقة لا تتم إلا بالاستعانة بالله.

اقرأ باسم ربك، فهو الذي يمدك بعطاءات ربوبيته، ويمنحك فيوض معرفته كلما ازددت من القراءة طلبًا للعلم النافع، وهو الذي يفتح لك من الأبواب والمسالك لاكتساب المعارف مما يجر إليه تسلسل الفكر، وترابط الذهن ما لا يمكن أن تجده إلا بعونه.

﴿عَبۡدِهِۦ مَآ﴾ فربك هو الخالق المعبود[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (18/ 590).

وهنا يظهر زيف الأصنام، ويتجلَّى الإقرار المطلق بالوحدانية التامة؛ لأنه ما من أحد ادَّعى الخلق مع الله سبحانه.

* ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١٠﴾:

فيه إشادة بالإنسان، فبعد أن ذكر المخلوقات كلها كرَّمه وخصَّصه، وأي تكريم أعظم من أن يختار الله تعالى من جنس الإنسان نبيًّا يوحي إليه، كما قال: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [آل عمران: 164]، وهذا من الاحتفاء والتكريم، نقيض ما كان المشركون يقولون: كيف يكون نبيًّا وهو بشر؟

**وثَمَّ معنى آخر**، وهو أن كون الإنسان محلًّا للابتلاء، هو في حقيقته تكريم؛ لأن الحيوانات والطيور والجمادات ليست مخاطبة، أما الإنسان فقد كرمه الله واصطفاه، وخاطبه وكلَّفه وميَّزه بالعقل[1].

﴿كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ﴾: قد يكون «العَلَق» اسم جمع لـ«عَلَقة»[2]، ولم يقل سبحانه: «خلق الإنسان من علقة»؛ لأن المقصود بالإنسان الجنس، وليس الفرد، كما في قوله: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ﴾ [العصر: 1- 2]، يعني: خلق الناس.

**والعَلَقة**: مرحلة من تكوين الجنين، والإنسان يُخلَقُ من الحيوان المنوي، وهو من الأحياء الدقيقة التي لا يمكن مشاهدتها إلا بمكبرات ضخمة، وعند ما يُلَقِّح البُويضة يبدأ وجود الإنسان، وقد تكون العَلَقة هي هذا الحيوان المنوي، **والأقرب** أن المقصود مرحلة متقدِّمة؛ لأن الإنسان لم يُخلق من الحيوان المنوي وحده، وإنما مع بُويضة المرأة، فالأنسب أن تكون العَلَقة بعد التلقيح، ولهذا قال: ﴿خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٍ

---

(1) ينظر: «أضواء البيان» (9/ 15)، و«التفسير البياني للقرآن الكريم» (2/ 23).

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (30/ 438)، و«تفسير جزء عم» لابن عثيمين (ص257).

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾، والنُّطفة: ماء الرجل، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: 5] وهي تشبه العَلَقة الموجودة في الماء، حيث تعلق في رحم المرأة[1].

وفيه إشارة إلى الفرق بين الإنسان وبين العلق، بين هذه المادة التي تخلق منها وبين كونه بشرًا كرَّمه ربه وسوَّاه وعدَّله، ورزقه العقل، وفرض عليه التكليف، فثَمَّ نقلة بعيدة بين هذا وذاك، وسرعان ما يسرح الخيال مقارنًا بين عَلَقة لا تُرى إلا بالمجهر وبين إنسان سوي قائم عاقل قارئ مكرَّم، ولهذا قال تعالى عن الكفار: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ﴾. ثم رد بقوله: ﴿أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [المعارج: 38- 39]، فهم يعرفون مِمَّ خُلِقوا؟

وكأن المعنى أن المادة التي خُلِقْتَ منها لا تؤهِّلُكَ للمطالب العالية بمجردها إذا لم تستخدم الوظائف التي أَقْدرك الله عليها.

* ﴿رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾:

﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾: التفضيل هنا ليس بقياس الله تعالى لأحد من خلقه، فله من الكرم والجود والفضل ما لا يقاس به أحد؛ لأن كرمَ المخلوقين كلَّه في بعض ما أنعم الله تعالى به عليهم، فكرَمُه في خلقه للعباد، ومنحهم العقول والأفهام، ووضع الكون الفسيح الممتد المحكم المنضبط، وتمكينهم من قراءة نواميسه وتسخيره لهم، ثم بإنزال الرسالة إليهم، ولم يكِلْهم إلى أنفسهم[2].

* ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن ﴿٧﴾﴾:

---

(1) ينظر: «نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة المسنين»، و«علم نفس النمو من الجنين إلى الشيخوخة».

(2) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص50)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص176)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص175).

والتعليم من أعظم الكرم الرباني، والكرم يشمل الحياة والصحة والعافية، والجوارح والسمع والبصر، والعقل واللسان، وكل الفضائل والنعم، ولكنه نصَّ هنا على نوع خاص منه، وهو التعليم بالقلم.

وهو المعلِّم سبحانه، ولم يبيِّن مَن هو المعلَّم، فدخل في ذلك الإنسان والملائكة، وكل مَن يصلح للخطاب.

وفي الآية لفتة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن كاتبًا، وأنه لا يزال أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، فلم تُشر الآية إلى تعليم النبي صلى الله عليه وسلم نفسه بالقلم، وفيه إلماح إلى عدم زوال الأمِّيَّة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فهي بالنسبة له كمال، وهي بالنسبة لغيره نقص، ولهذا يقول عزيز أباظة:

إن أُمِّيَّةَ الرسولِ قضَاها الـ *** ـله عن حكمــةٍ لها بينــاتُ

كلُّ أميةٍ سواها يسيـحُ الـ *** ـجهلُ فيها وتسبحُ الظلماتُ

ففي أميته الدلالة على مصدر تعليمه، وهو الوحي، ومع أميته فهو سيد العلماء، وإمام الفقهاء ودليل العارفين، وقائد الدعاة، وهو الذي قال: «**نَضَّرَ اللهُ امرأً سمعَ مقالتي، فوعاها فبلَّغها، فرُبَّ حامل فقه ليس بفقيه، ورُبَّ حاملِ فقه إلى مَن هو أفقَهُ منه**»[1].

وفيها إشادة بالقلم، حتى في عصر ثورة المعلومات والاتصالات، فإن جميع وسائل الحفظ لا تخرج عن مفهوم القلم والكتابة، ويظل القلم سيد الأدوات والآلات، ويظل للكتاب مقامه ومكانته، ولا تجد بيتًا إلا وفيه مكتبة، وثقة الناس بالكتاب لا زالت أكثر من ثقتهم بأي وسيلة إعلامية أخرى[2].

---

(1) تقدم تخريجه في «سورة القيامة»: ﴿غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ﴾.

(2) ينظر ما تقدم في «سورة الطور»: ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾.

وقد ذُكر القلم في مواضع، منها هذا الموضع، ومنها قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢ وَلَقَدْ﴾ [القلم: 1]، ومنها قوله تعالى: ﴿٢٢ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ﴾ [آل عمران: 44].

وإذا كانت ﴿رَأَىٰٓ﴾ هي أول الأوامر، فإن القلم هو أول المخلوقات، كما في «سنن أبي داود»: «**إن أولَ ما خلقَ اللهُ القلمُ، فقال له: اكتبْ. فجرى بما هو كائنٌ إلى الأبد**»[1].

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن القلم أول المخلوقات، وذهب آخرون إلى أن العرش قبله.

ومعنى الحديث السابق: أن الله أول ما خلق القلم قال له ذلك، وليس المعنى أن القلم هو أول مخلوق.

**والراجح** أن العرش متقدِّم على القلم، وأن القلم خُلق بعده، ولهذا معناه ودلالته[2].

إن أُميَّةَ الرسول صلى الله عليه وسلم أمر خاص به، حتى لا يظن أحد أنه تلقن القرآن من بشر أو تعلَّمه من كتاب، ولذلك ظل صلى الله عليه وسلم أميًّا حتى مات، على القول الصحيح، ولم يكن يقرأ ولا يكتب.

---

(1) أخرجه الطيالسي (578)، وأحمد (22705)، وأبو داود (4700)، والترمذي (2155، 3319)، وابن أبي عاصم في «السنة» (103، 107)، وفي «الأوائل» (1، 2) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وينظر: «شرح المشكاة» للطيبي (2/ 554)، و«قوت المغتذي على جامع الترمذي» (1/ 516)، و«مرقاة المفاتيح» (2/ 522)، و«السلسلة الصحيحة» (133).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص668)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 329)، و«تفسير الطبري» (20/ 546)، (23/ 140- 147)، و«تاريخ الطبري» (1/ 35)، و«تفسير القرطبي» (20/ 121)، و«مجموع الفتاوى» (2/ 275)، (18/ 213)، و«التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم (ص206- 212)، و«شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (ص265).

وأما ما ورد في صلح الحُدَيْبِيَة من أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كتب: «محمد» بدل: «رسول الله»، كما في بعض الألفاظ في «صحيح البخاري»، **فقيل**: المعنى: أنه أمر مَن يكتب، وقال بعضهم: إنه لا مانع أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم تعلَّم هذه الكلمة فقط؛ لأنها اسمه الكريم، ومن السهل على كثير من الناس حتى لو كانوا أميين أن يعرف الواحد منهم كيف يرسم اسمه دون أن يكون قادرًا على الخط والكتابة، وهذا ذكره الذهبي وغيره.

وقد تحمَّل الإمام الباجي عناءً كبيرًا حينما تبنَّى القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكتب، وقال به، ورد عليه كثير من الناس، وشنَّعوا عليه، وبالغوا في ذلك، كما هي عادة الأقران بعضهم مع بعض[1].

فالإشارة إلى القراءة بالأمر الإلهي، ثم إلى الكتابة بذكر القلم هي دعوة لهذه الأمة أن يقرؤوا ويتعلَّموا، ويفتحوا كنوز العلم، ويتخلَّصوا من أميتهم، ويبدأوا مسيرتهم العلمية المترقية في مجالات العلوم، فليست الأمية فضيلة لأحد بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، فالأمة مأمورة بالقراءة والكتابة والتعلم والتعقل والتفكير.

وفي ذكر الكرم الإلهي وَعْدٌ لطالب العلم إذا صدق وبدأ عمله باسم الله تعالى، مستعينًا به، صادقًا في نيته، مفوِّضًا إليه، باذلًا للأسباب؛ أن يعينه الله ويساعده، ويذلِّل له العقبات؛ ولهذا قال: ﴿رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ﴾، يعني: علم الإنسان الأشياء التي لم يكن يعلمها من قبل، ولذا قال سبحانه: ﴿مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (4251)، و«تاريخ دمشق» (22/ 227)، و«تفسير القرطبي» (13/ 352)، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي (2/ 220)، و«تاريخ الإسلام» (32/ 120)، و«تفسير ابن كثير» (6/ 286)، و«تاريخ ابن خلدون» (2/ 448)، و«فتح الباري» (7/ 503)، (8/ 290)، و«التلخيص الحبير» (3/ 270)، و«مرقاة المفاتيح» (6/ 2615- 2616)، و«التحرير والتنوير» (1/ 574)، (21/ 10).

﴿أَمَّلِلْإِنسَٰنِ﴾ [النساء: 113]، فهو علَّم نبيه من الوحي ما لم يكن يعلم، وعلم الإنسان- جنس الإنسان- ما لم يكن يعلم[1].

* ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ﴿٢٠﴾﴾:

وهذا أول موضع ترد فيه كلمة ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ من حيث النزول، وقد وردت في القرآن الكريم في ثلاثة وثلاثين موضعًا، منها ثلاثة مواضع في هذه السورة، ومواضعها مكية في الغالب؛ لأن فيها معنى الزجر والتوبيخ والتهديد والوعيد، وهو مناسب لعناد الكفار وتكذيبهم وإيذائهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإلى هذا المعنى ذهب فقهاء البصرة، وسيبويه والخليل والمُبَرِّد والزَّجَّاج وجماعة[2].

وذهب آخرون إلى أن ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ تأتي بمعنى «حقًّا»، وقد تكون حرف جواب، بمعنى: «إي»، أو «نعم»، وقد تكون حرف استفتاح، بمعنى: «أَلَا»[3].

وهذه الآيات الكريمة المبدوءة بـ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ متراخية في النزول عن أول السورة؛ فإن الآيات الخمس الأولى هي أول ما نزل في غار حراء، ثم جاءت فترة الوحي، فتأخر الوحي عن النبي صلى الله عليه وسلم مدة[4].

واستفتح السياق الجديد بـ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾؛ لأن الحديث انتقل إلى المكذِّبين المعارضين، فناسب أن يبدأه بالزجر والتعنيف والتهديد.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (7/ 480)، (24/ 532)، و«الكشاف» (1/ 564)، و«زاد المسير» (1/ 470)، و«تفسير القرطبي» (5/ 382)، و«التحرير والتنوير» (30/ 441).

(2) ينظر: «مغني اللبيب» (ص249)، و«اللامات» للزجاجي (ص36)، والمصادر الآتية.

(3) ينظر: «مغني اللبيب» (ص250)، و«بصائر ذوي التمييز» (4/ 381)، و«تاج العروس» (40/ 446- 447).

(4) ينظر: «فتح الباري» (1/ 27).

لقد سبق ذكر خلق الإنسان من عَلَق، وهنا يظهر التناسب اللطيف بين الموضعين، بين إنسان مخلوق من ماء مهين، ثم من نطفة، ثم من علقة، وبين هذا الإنسان المكتمل النمو؛ فهو يزهو بنفسه ويطغى بما أوتي من غنى ومال وولد وقوة وجاه.

و﴿عِندَهَا﴾ **هنا يحتمل:**

- عموم الناس.

- أو المراد شخص معين، وهو: أبو جهل[1]؛ وقد جاء في الحديث الصحيح أن أبا جهل لما رأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم يركع ويسجد ويعفِّر وجهه، قال: واللَّات والعُزَّى، لئن رأيتُه يفعل ذلك، لأَطَأَنَّ على رقبته، أو لأُعَفِّرَنَّ وجهَهُ في التراب. قال: فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلِّي، زَعَمَ ليَطأ على رقبته. قال: فما فَجِئَهم منه إلَّا وهو ينكُصُ على عَقِبَيْهِ ويتَّقِي بيديه. فقيل له: مَا لَكَ؟ فقال: إن بيني وبينه لخَنْدَقًا من نار وهَوْلًا وأجنحةً[2]. فتراجع ولم يتعرَّض للنبي صلى الله عليه وسلم.

ونلحظ أن الله تعالى لم يذكر اسم أبي جهل في الآية، مع أنه «فرعون هذه الأمة»، وقد سبق في علم الله أنه يموت كافرًا؛ لنتعلَّم من هذا أنه ينبغي الحرص على عفة اللفظ والقول، وأَلَّا يُسمَّى إلا إذا كان ثمَّة حاجة إلى التسمية؛ لأن أولئك الناس هم محل دعوة، وقد يؤمنون وقد يسلمون، وقد يستقيمون، فأَبْقِ لهم فرصة، وابنِ لهم جسرًا يعبرون به إلى الخير، ولا تحاول أن تحاصرهم بأخطاء أو بأسماء، أو بأغلاط، وكأنك لا تريد أن يخرجوا من أخطائهم، أو كأنك ترى الخير والإسلام خصوصية

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 538)، و«زاد المسير» (4/ 467)، و«تفسير الرازي» (32/ 219)، و«فتح القدير» (5/ 571)، و«التحرير والتنوير» (30/ 443).

(2) أخرجه مسلم (2797) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وملكية شخصية لك، فكلما كثر الناس عليها قلَّ نصيبك منها، وكأنك تقول: ماذا بقي لي إذا كان كل الناس أخيارًا وصلحاء ومستقيمين؟! وهل المطلوب أنك تتميَّز؟

يحسن أن نتعلم من القرآن الكريم أن نوصل الرسالة بدون أن نجعل فلانًا وفلانًا وسيلة إيضاح، ومَن سبَّ الناس سبوه، كما قيل[1]:

ومَن هاب الرجالَ تهيَّبُوه *** ومَن حَقَرَ الرجالَ فلن يُهَابا

ولو مت وأنت لم تلعن فرعون ولا أبا جهل، فلن يحاسبك الله على ذلك يوم القيامة، فكيف بأخيك المسلم؟ فلماذا لا تعوِّد لسانك العفة في اللفظ، وتصريف القول في معالي الأمور: في بناء النفس، والعلم، والعمل، والإخلاص، ومصالح الدنيا، وبناء الخير، وصناعة الحياة!

وهنا عبَّر بـ«يطغى»، وفي «سورة طه» كان الحديث عن فرعون، فعبَّر بلفظ: ﴿٢٠﴾، والتعبير هنا أشد من التعبير عن فرعون؛ والسبب- والله أعلم- أن الآية نزلت وأبو جهل حيٌّ يرزَق، يمارسُ طغيانَه ويفعلُه، فهي تتكلم عن أمر يقع الآن ويقع في المستقبل، وليس عن أمر مضى، وإن كان قوله: ﴿١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ٢٠ فَأَوْحَىٰٓ﴾ خطاب لموسى عليه السلام، لكنه نزل في القرآن الكريم حكايةً عمَّا كان[2].

ولا يبعد أن يقال: إن طغيان أبي جهل أشدُّ من طغيان فرعون؛ لأنه حتى قبل النبوة لم يُعرف عنه حسن المعاملة مع النبي صلى الله عليه وسلم، بخلاف فرعون، فإن موسى عليه السلام قد تربَّى في قصره: ﴿٢٣ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ [الشعراء: 18]، ثم لما

---

(1) ينظر: «العقد الفريد» (2/ 142)، و«البصائر والذخائر» (2/ 148)، و«حلية الأولياء» (9/ 83)، و«أدب الدنيا والدين» (ص252)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» (4/ 1052)، و«شعب الإيمان» (8051، 8090).

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (32/ 220).

أدركه الغرق قال: ﴿ۚ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ﴾ [يونس: 90]، بخلاف أبي جهل فرعون هذه الأمة لما ضُرب في معركة بدر وخَرَّ صَرِيعًا كان يقول: لَمَن الدائرةُ اليوم؟ ولما رقي ابنُ مسعود رضي الله عنه على صدره قال: لقد ارتقيتَ مرتقًى صعبًا يا رُوَيعِيَ الغنم(1). فكانت بدايته ونهايته الطغيان، ولا يبعد أن يكون في قلب أبي جهل من العتوِّ والتمرُّدِ والطُّغيان أشدَّ مما في قلب فرعون!

* ﴿﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَىٰ وَلَهُۥ﴾:

يعني: أن رأى نفسه غنيًّا(2)؛ فالغنى في حد ذاته ليس المشكلة، وإنما المشكلة هي رؤية الإنسان ذاته مستغنيًا مغرورًا.

وهنا نلحظ الفرق اللطيف بين قوله: ﴿﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَىٰ﴾، وبين قوله في «سورة الليل»: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ إِذًا﴾، لم يقل: «ورآه استغنى»، لأنه هنا يبيِّن سبب الطغيان، وسبب الطغيان ليس هو الغنى، وإنما هو شعور الإنسان بالاستغناء عن الله تعالى.

وفي الآية دلالات نفسية عميقة؛ فالإنسان إذا تُرِك وشأنه كبرت عليه نفسه، وإذا شعر بالاستغناء في العلم حمله ذلك على الطغيان والكِبر والعُجْب، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: 78].

وكذلك الاستغناء بالعلم على مستوى الأمم؛ فالغرب لديهم حضارة وعلم دنيوي، ولكن شعورهم بالاستغناء، وافتقادهم للقيم الإيمانية الربانية، أوجد عندهم طغيانًا ونسيانًا لحق الله.

---

(1) ينظر: «مغازي الواقدي» (1/ 89- 90)، و«سيرة ابن هشام» (3/ 148)، و«تاريخ الطبري» (2/ 455)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (5970)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم (ص477)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (3/ 85- 86)، و«تاريخ الإسلام» (2/ 62)، و«البداية والنهاية» (5/ 137، 159).

(2) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (24/ 173)، و«تفسير السمعاني» (6/ 257)، و«تفسير البغوي» (5/ 281).

والطغيان يمنع الإنسان من قبول الحق، ولذلك من فضل الله تعالى على العبد أن يرزقه التواضع، وكثرة مراقبة النفس، وبقدر ما تراقب الآخرين راقب نفسَك ولاحظْها، وتعاهدها، وانتبه إلى أنه تعالى قد يسخِّرُ لك حتى من خصومِك وأعدائك مَن يعينك على نفسك؛ حتى لا تكبُر نفسُك وتؤذيك.

والذي تعوَّد أن لا يسمع إلا المدح، تطرُب أذنُه للمديح، ويستلذُّ به، فإذا سمع صوتًا ينتقد، أو يصحِّح، أو يستدرك، أو يقتصد في الثناء؛ أصبح نشازًا في أذنه، وقد يكره صاحبه أو يظنه متحاملًا.

ولو أن أحدنا سمع النقد والذم والتوجيه والملاحظة لمدة عشر سنوات بلا انقطاع، ثم توقف عنه ذلك أسبوعًا لا يسمع فيه إلا الثناء والمدح، فإن طبعَه يفسد أثناء الأسبوع، حتى لو جاءه في اليوم الثامن مَن ينتقده، لما وجد الأريحِيَّة والتقبل الذي كان يجده من قبل.

فمن رحمة الله وحكمته أن يقع للبشر نوع اختلاف، وعلى المرء أن لا ينظر للأمور نظرة محدودة، فلله سبحانه في خلقه شؤون، وهذا يعوِّد الإنسان أن لا يرى نفسه، ولا يستغني بعلم أو مال أو سلطان، أو خبرة، أو جاه.

ولذلك كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «مَنهومان[1] لا يشبَعان: صاحبُ العلمِ وصاحبُ الدُّنيا، ولا يَستويان، أمَّا صاحِبُ العلمِ، فيزدادُ رضًا للرحمنِ، وأمَّا صاحبُ الدُّنيا، فيتَمادى في الطُّغيانِ»[2].

---

(1) أي: حريصان على تحصيل أقصى غايات مطلوبيهما، والنَّهْمة: بلوغ الهمة في الشيء.

(2) أخرجه الدارمي (344)، وابن الأعرابي في «معجمه» (1009)، والآجري في «أخلاق العلماء» (1/ 68)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (449).

وفي القرآن الكريم ذم الأَثَرة أو الأنانية؛ كقوله سبحانه إخبارًا عن فرعون: ﴿قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ [النازعات: 24]، وقال: ﴿﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف: 52].

وقد علَّم النبيُّ صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه أن يقول: «**اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، وإنه لا يغفرُ الذنوبَ إلَّا أنت، فاغفرْ لي مغفرةً من عندك وارحمني، إنك أنت الغفورُ الرحيمُ**»[1].

حدث مرة في بلاد الأندلس أن أُصيبت بقحط وجَدْب، فجاع الناسُ وهلكت المواشي، وتواعد الناسُ للخروج لصلاة الاستسقاء، وأرسل الأميرُ عبدُ الرحمن الناصر إلى الفقيه المنذر بن سعيد البلُّوطي القاضي يأمره بالخروج، فقال القاضي للرسول: يا ليتَ شعري، ما الذي يصنعه الأميرُ يومنا هذا؟ فقال: ما رأيتُهُ قَطُّ أخشعَ منه الآن، قد لبس خشنَ الثياب، وافترَشَ الترابَ، وجعله على رأسه ولحيته، وبكى، واعترفَ بذنوبه، ويقول: هذه ناصيتي بيديكَ، أَتُرَاكَ تُعَذِّبُ هذا الخلقَ لأجلي؟ فقال القاضي: يا غلامُ، احمل المِمْطَرَ[2] معك؛ فقد أَذِنَ الله بسقْيانا؛ إذا خَشَعَ جَبَّارُ الأرض رَحِمَ جَبَّارُ السماء. فاستسقى، وسُقِي الناس[3].

* ﴿مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا إِذَا﴾:

﴿مَا﴾: الرجوع، وأول مراحل الرجوع: الموت، ثم الدار الآخرة.

---

(1) أخرجه البخاري (834)، ومسلم (2705).

(2) هو ما يُلبس في المطر يُتَوقَّى به.

(3) ينظر: «مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس» (ص251- 252)، و«الكامل» لابن الأثير (7/ 347)، و«تاريخ الإسلام» (25/ 444)، و«سير أعلام النبلاء» (15/ 563)، (16/ 177)، و«البداية والنهاية» (15/ 380)، و«نفح الطيب» (1/ 573).

وفي هذا تذكير لذلك الإنسان الذي «طغى» وكبرت عليه نفسه، فقد ذكَّره أولًا أنه «خُلق من عَلَق»، ثم ذكَّره آخرًا أن «إلى الله الرُّجْعى»، فكأنها تقول: إن الإنسان محصور بين بدايةٍ من عَلَق، ونهاية إلى تراب، ثم رجوع إلى رب الأرباب، فكيف له أن يتمرَّد أو يتكبَّر أو يطغى[1]؟

**وهي دعوة للإنسان أن يتواضع لربه ويعرف قدره، فالغنى وتملُّكُ المال لا يكون مذمومًا إذا راعى فيه ثلاثة أمور:**

1- أن يكون طلبُ المال من حلال، لا عدوان فيه ولا ظلم.

2- أَلَّا ينفقه فيما حرَّم الله.

3- أَلَّا يَحجزَه عما أوجبه الله عليه فيه؛ من زكاة وإطعام الفقراء والمساكين والمحاويج، ومَن تجب عليه نفقتهم.

* ﴿ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ أَنتُمۡ﴾:

تعجيب من حال هذا الذي لم يكتف بالإعراض عن الصلاة، بل نهى المصلِّين عن صلاتهم، واستعمل الزجر والتهديد والوعيد لَمن فعل، وهو أبو جهل الذي نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة، وكان يؤذيه بقبيح الكلام.

**والعبد هنا** هو: الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو ليس أي عبد، وإنما هو سيِّد العابدين، ومع ذلك فإن الله تعالى أتى بهذا اللفظ ﴿لَقَدۡ﴾ نكرة، **وفي هذا معان**[2]:

---

(1) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (24/ 173)، و«تفسير السمعاني» (6/ 257)، و«الكشاف» (4/ 777)، و«تفسير القرطبي» (20/ 124)، و«روح المعاني» (15/ 404).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص739)، و«تفسير الطبري» (24/ 533)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 508)، والمصادر السابقة، وما تقدم في «سورة النجم»: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾﴾، و«سورة القمر»: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ﴿٩﴾﴾، و«سورة الجن»: ﴿أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا﴾.

1- افترِضْ أن أي إنسان نهى أي عبد، وليكن هذا العبد من ضعفاء الناس أو من أطرافهم، المهم أنه عبدٌ يصلِّي، ويأتي آخر ينهاه عن طاعة الله، فهذا تشنيع لهذه الجريمة، أيًّا كان الشخص الذي وقعت عليه، أو وقعت منه.

2- وفي ذلك تشريف لمقام النبي صلى الله عليه وسلم وثناءٌ عليه بالعبودية، وتعريض بخصمه المتجرِّد من الفضيلة.

وهذا شيء مثير للغرابة؛ فهو ينهاه عن الصلاة التي هي عبودية لله تعالى، والله تعالى وصف محمدًا صلى الله عليه وسلم بالعبودية في مواطن كثيرة، كما قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: 1]، وقال: ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [الفرقان: 1]، وقال: ﴿أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ﴾ [الجن: 19]، يقول القاضي عِياض رحمه الله(1):

ومـمـا زادني شَـــرَفًـــا وتِـيـــهًا *** وكِدْتُ بأَخْمَـصي أَطَأُ الثُّرَيَّا

دخولي تحتَ قولك: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ *** وأنْ صيَّرتَ أحمدَ لي نبيَّـــا

نسبته صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى هي أشرف نسبة، ولما خُيِّر بين أن يكون مَلِكًا رسولًا أو عبدًا رسولًا، اختار أن يكون عبدًا رسولًا(2)، فمقام العبودية أشرف المقامات التي وصف الله تعالى بها نبيَّه محمدًا صلى الله عليه وسلم.

---

(1) ونُسب أيضًا إلى الشافعي، وتقدم تخريجه في «سورة الجن»: ﴿أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا﴾.

(2) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه أحمد (7160)، وأبو يعلى (6105)، وابن حبان (6365)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (1002).

3- وفي ذلك إشارة إلى تناقض ذلك الناهي؛ لأن من شأن العبد أن يصلِّي لمولاه وسيده، فكيف يتجرَّأ على نهيه وتهديده؟ وربما كان من إيحاءاتها أن الناس ليسوا عبيدًا لك يا أبا جهل لتنهاهم كما يفعل السادة مع عبيدهم، بل هم عبيد لله وحده.

4- وفيها تبشيع الفعل؛ لأن السامع إذا سمع ﴿طَغَىٰ﴾ تبادر إلى ذهنه تساؤل: ينهى عن ماذا؟ وقد يتخيَّل قائمة طويلة من المنهيات، ثم يفاجئه السياق بأن النهي ليس عن شيء منها، بل عن الصلاة التي هي سرور النفس وقرة العين ومعراج الروح وسلوة الفؤاد.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي إلى الكعبة يصلِّي ويعبد ربه، فأتاه أبو جهل فنهاه، وهذا غاية ما يكون من الوقاحة والاستهانة بقيمة الإنسان، الذي خلقه ربه وعلَّمه ما لم يكن يعلم، واستعبده في الأرض، فتسلط من الطغاة من يمنع هذا الإنسان من أن يؤدِّي شيئًا من العبادة، ولو مجرد الصلاة، وهي سلوك شخصي صرف.

* ﴿رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ١٨ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ إِلَّا﴾:

**الراجح** أن المقصود هو النبي صلى الله عليه وسلم، وليس أبا جهل[1].

وفي الآية تنزُّل للخصم أيًّا كان المقصود بذلك، فهي تقول: هب أنه على الهدى، يأمر بالتقوى احتمالًا، فلماذا تنهاه؟

والمؤمن مطمئِنٌّ قلبه بالإيمان، وعلى بينة من ربه، لكن في مقام المخاطبة والدعوة يأتي مثل هذا الأسلوب الذي يستمِيلُ القلوب، ويحرِّك العقول.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 534)، و«تفسير البغوي» (5/ 282)، و«زاد المسير» (4/ 467)، و«تفسير الرازي» (32/ 222)، و«تفسير القرطبي» (20/ 124)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 438).

فمن أساليب الدعوة التنـزّل في الخطاب على أسلوب: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [سبأ: 24]، ثم قال بعدها: ﴿أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ [سبأ: 24-25].

ففيما يتعلق بفعلنا أنتم لا تسألون عما تعدونه منا جُرمًا: ﴿مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ [سبأ: 25]، ولم يقل: «عما تجرمون»، وهذا لم يغير من الحقيقة شيئًا، لكنه جاء بصياغةٍ تستمِيلُ القلوب.

﴿رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ﴾: قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ يدل على التمكن، كما قال تعالى: ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ﴾ [البقرة: 5]، يعني: أنهم على هذا الهدى مستقِرُّون متمكِّنون، وقال: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ [الأنعام: 57].

﴿۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ﴾ أي: أمر غيره، فهذا مقام دعوة وبيان، فلماذا يتم الاعتداء عليه ومصادرة حقه في الدعوة إلى الله، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «**يا ويحَ قريش! قد أكلَتْهُم الحربُ، ماذا عليهم لو خلُّوا بيني وبين سائرِ الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادُوا، وإن أظهرَني اللهُ تعالى دَخلُوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفْعلُوا قاتلوا وبهم قُوَّة، فماذا تظنُّ قريشٌ، فوالله لا أزالُ أجاهدُهم على الذي بعثني اللهُ تعالى به حتى يُظهرَني اللهُ** عز وجل، **أو تنفردَ هذه السَّالفةُ**»[1].

* ﴿۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾:

أي: أبو جهل، وكل مَن يصلح له الخطاب ممن عمل عمله وكان على شاكلته، والضمائر في الآيات وإن كانت غير مرتبة، إلا أن السِّياق لا لبسَ فيه؛ فإن الذي على الهُدى آمر بالتقوى هو: النبي صلى الله عليه وسلم، والذي كذَّب وتولَّى هو أبو جهل.

---

(1) أخرجه أحمد (18910)، والبخاري (2732) من حديث المِسْور بن مَخْرمة ومَرْوان بن الحكم، وينظر ما سيأتي في آخر «سورة الكافرون».

وقوله: ﴿ٱلذَّكَرُ وَلَهُ﴾ أي: كذَّب في نفسه، وتولَّى في حقِّ غيره، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: 205]، فهو قد كذَّب في نفسه، وتولَّى للصد عن دين الله؛ ليمنع النبي صلى الله عليه وسلم من الدعوة، ويحُول بين الناس وبينه[1].

* ﴿(٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ رَبِّهِمْ﴾:

وهنا نلاحظ أن الله لم يبادئه بالتهديد بالعقوبة الأخروية، وإنما ذكَّره باطلاع الله عليه، وفي هذا رادع لمَن كان له قلب.

كما قيل[2]:

وإذا خلوتَ بـريـبـةٍ في ظـلـمـةٍ *** والنفسُ داعيةٌ إلى الطُّغيـانِ
فاستَحْيِ من نَظَرِ الإلهِ وقُلْ لها: *** إنَّ الذي خَلَقَ الظَّلامَ يراني

وفيه طُمأنينة كبيرة للمؤمنين، فهذه دعوةُ الله، وهذا دينُه، والله تعالى حافظٌ دينَه، ومظهر دعوته.

* ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ مَا﴾:

﴿إِنْ﴾ تهديد يناسب ما صدر من أبي جهل، إن لم ينته عما هو عليه من التكذيب والتولِّي والإيذاء، ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ﴾: هذه نون التوكيد الخفيفة، وإن كانت تُكْتَب في القرآن ألفًا، **والناصية**: مقدَّمُ الرأس[3].

**ومن معاني السَّفع**[1]:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 535)، و«تفسير السمعاني» (6/ 258)، و«زاد المسير» (4/ 467)، و«تفسير القرطبي» (19/ 114).

(2) تقدم تخريجه في «سورة الطارق»: ﴿يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ (٣) إِنْ هُوَ أَفَرَءَيْتُمُ﴾.

(3) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص810) «ن ص ا».

1- **الأخذ بالناصية**؛ أي: يجر برأسه على وجهه، وهذا إذلال يقابل كبرياءه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ﴾ [الرحمن: 41]، أي: يُؤخذ بناصية هذا الرجل ومَن كان على شاكلته ويُسحب إلى نار جهنم: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: 13- 14].

وهو معنى مرعب مخيف، وتهديد يزلزل قلوب مَن ليسوا مقصودين بهذا التهديد، فكيف بالمخاطِب لو كان له قلب؟!

2- **الصَّفع**، أي: الضرب على وجهه، والناصية قد تُطلق على مقدم الشعر باعتبار القرب، أي: إذا لم يكف فسوف يضرب على وجهه، وضرب الوجه إهانة وإذلال.

3- **السَّفع** هو: السواد، يقال: فلان فيه سَفْعة، أي: ضَرْبٌ من السواد، ومنه المِسْفَع، وهو: الغطاء الأسود الذي تلبسه المرأة، والمقصود: الوجه، وأطلق الناصية عليه من باب المجاورة، أو إطلاق الجزء والمراد الكل، فالمقصود: تسويد وجهه.

وهذا يشمل سواد الوجه الحقيقي بالمعصية، والسواد بالهزيمة، كما حصل لهم في بدر؛ فإنهم اسودت وجوههم، وعاينوا سوء المصير، وقد يقال للإنسان الذي نزلت به نازلة أو مصيبة: إنه مسود الوجه.

ومنه تسويد الوجوه يوم القيامة، **والمقصود**: ناصية أبي جهل، أي: الناصيةُ المعروفة المعهودة، التي استقرت في الأذهان، ناصية هذا الطاغية المتمرد.

* ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ صَاحِبُكُمْ﴾:

وَصَف الناصية بأنها كاذبة خاطئة، أي: كاذبة في أقوالها، خاطئة في أفعالها.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 536)، و«تفسير الماوردي» (6/ 308)، و«زاد المسير» (4/ 467)، و«تفسير الرازي» (32/ 224)، و«تفسير القرطبي» (20/ 125)، و«التحرير والتنوير» (30/ 450).

**والخاطئ** هنا: من فِعل الخطيئة، وليس من الخطأ، والفرق بينهما واضح، كما قال: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ﴾ [الحاقة: 35-37].

والسياق وإن كان سبَبُه أبو جهل، إلا أن تقييده بالوصف يدل على أن كلَّ ناصية تفعل مثل ذلك، ويتوفر فيها هذا الوصف، فهي حقيقة بهذا التهديد؛ لأن الله سبحانه ما عرَّض بهذا الرجل إلا لأنه صاحبُ كذبٍ وخطيئةٍ.

وجاء الوعيد مخصَّصًا لأبي جهل من بين سائر المجرمين، بأن يُؤخذ بناصيته إن لم ينته، فلما كانت معركة بدر، وأُصيب أبو جهل، جاء إليه ابن مسعود رضي الله عنه، فارتقى على صدره، حتى قال له أبو جهل: لقد ارتقيتَ مرتقًى صعبًا يا رُوَيْعِيَ الغنم. وسأله: لَمَن الدائرة؟ قال: لله ولرسوله وللمؤمنين. ثم سُحب أبو جهل بناصيته وأُلقي في القليب(1)!

وكانت معركة بدر في السنة الثانية، فكان بين الوعيد وبين إنفاذه نحو من أربع عشرة سنة!

* ﴿مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ يُوحَىٰ﴾:

**والنادي** هو: المنتدى الذي يجتمع فيه القوم ويتنادون إليه، ومنه: دار الندوة؛ التي كانوا يجتمعون فيها في مكة ويتشاورون في شؤونهم.

---

(1) تقدم قريبًا.

و«النادي» غالبًا ما يكون في النهار، وأما المجتمع في الليل فيسمَّى: السامر، كما قال تعالى: ﴿يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ﴾ [المؤمنون: 67]، من السمر، وهو: ضوء القمر الذي يأنَسُ به السُّمَّار، فيسهرون إلى غياب القمر[1].

إن كان يهدِّد بجماعة النادي فليدعهم، فهو كقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَىٰ﴾ [يوسف: 82]!

والفعل ﴿إِن﴾ الراجح أن فيه واوًا؛ لأنه فعل مضارع ليس منصوبًا ولا مجزومًا، وإن كانت غير مكتوبة في المصحف لاعتبارات ذكرها أهل الرسم، وبعضهم يقول: إن «ندع» هنا مجزومة، ولكن هذا ليس بقوي؛ لأنه مسبوق بالسين[2].

**والزَّبانية:** جمع ليس له مفرد من لفظه، وبعضهم يقول: مفرده: زَباني، أو زَبْنِيَة، أو زابن، **والمقصود:** الأقوياء الأشدَّاء، وإنما سموا: الزَّبانية، من: الزَّبْن، وهو الدَّفْع[3]، **والمراد بهم:** الملائكة المكلَّفون، من خَزَنة جهنم أو غيرهم ممن يكلفون بعذاب مَن أراد الله تعالى تعذيبه.

والسين للاستقبال، ولكن فيها نوعٌ من التأخير، أو التنفس بعض الشيء، ولذا أمهله الله إلى يوم بدر[4].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (19/ 53)، و«معاني القرآن» للزجاج (4/ 18)، و«التفسير البسيط» للواحدي (16/ 24).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (2/ 125، 256)، و«روح المعاني» (30/ 188)، و«التحرير والتنوير» (30/ 452).

(3) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص534)، و«غريب القرآن» للسجستاني (ص254)، و«إعراب القرآن» لِقِوام السُّنَّة (ص535)، والمصادر الآتية.

(4) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص739)، و«تفسير الطبري» (24/ 540)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 346)، و«تفسير البغوي» (5/ 282)، و«الكشاف» (4/ 779)، و«زاد المسير» (4/ 468)، و«تفسير القرطبي» (20/ 126)، و«التحرير والتنوير» (30/ 452).

* ﴿ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ ﴿٥﴾﴾:

خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أن لا يطيع أبا جهل، كما قال: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم: 8]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: 1].

والسجود قُرْبٌ إلى الله تعالى، وهو الذي كان ينهى عنه أبو جهل، أمر تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بالإمعان في ذلك، والإصرار عليه والصبر، وأن يسجد لربه ويقترب منه؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم استنباطًا من هذه الآية: «**أقرَبُ ما يكونُ العبدُ من ربه وهو ساجدٌ**»[1].

فالقرب والاقتراب من الله تعالى يكون بالسجود؛ لأن أشرفَ ما في الإنسان هي جبهته وأنفه.

فإذا سجدَ لربه، وعفَّر وجهَه بالتراب، تخلَّص من كبرياء الأنانية، وكان في غاية العزة، وفيه دليل على أن صلاة النبي صلى الله عليه وسلم التي كان يصلِّيها في أول الإسلام كانت قيامًا وركوعًا وسجودًا، وإنما كانت ركعتين في أول النهار، وركعتين في آخره.

لقد علِم تعالى أنَّ هذا الرجل يموت كافرًا، ولهذا تهدَّده وتوعَّده وبيَّن جرمه وغلظه، وسوء مصيره.

وذكر تعالى أبا جهل بما لم يذكر به غيره من رؤوس الكفر، وظهر بعد حينٍ أن كثيرًا من شيوخ الضلالة أسلموا وحسن إسلامهم، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يستأني بهم، حتى حدثت غزوة بدر وأَسَرَ منهم مَن أَسَرَ، وكان رأي النبي صلى الله عليه وسلم ورأي أبي بكر رضي الله عنه إطلاق الأسرى مقابل الفِداء، وكان أبو

(1) أخرجه مسلم (482) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بكر رضي الله عنه يقول: يا رسولَ الله، أرى أن تستأني بهم؛ لعل الله تعالى أن يهديهم[1].

إن مسألة وجود أعداء للرسالات وللدعوات وللمصلحين، أمر لا بد منه، والذي يحاول غير ذلك يرجو محالًا، ولكن ينبغي أَلَّا يُفهم من هذا افتعال العداوات أو صناعة الأعداء، أو توسيع العداوات، ولكن الأصل في المعاملة أن مَن لم تستطع أن تتخذه صديقًا، فحاول أن لا تتخذه عدوًّا، ومَن لم تستفد منه فلتحاول السلامة من شرِّهِ، والقرآن جاء بمصانعة العدو بالتي هي أحسن والإعراض عنه، ودفع السيئة بالحسنة حتى يصبح العدو وليًّا حميمًا.

وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم طافحة بهذا المعنى، كما في قصته مع ثُمامة بن أُثال، ومع غَوْرَث بن الحارث، ومع أبي سفيان، ومع هند بنت عُتبة، ومع عبدِ الله بنِ أُبيٍّ ابن سَلُولَ، ومع أهل الطائف ومكة ومع المنافقين.. وغير ذلك.

**وإذا تأملت «سورة العلق» وجدتها متضمنة معاني الدين:** كأمر الربوبية: ﴿ ﴿١٦﴾ ﴾، وأمر الألوهية: ﴿ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ أَنتُمْ﴾، وأمر الأسماء والصفات: ﴿ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ رَبِّهِ﴾.

وأمر البعث: ﴿مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا إِذًا﴾.

وأمر النبوة في قوله: ﴿ ﴿٩﴾ ﴾، وأمر الرسالة في قوله: ﴿ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ إِلَّا ﴾، وأمر الكتب في قوله: ﴿مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ أَفَرَءَيْتُمُ﴾.

وأمر القدر؛ فإن الخلق هو أول مراتب القدر، وبعده الكتابة في اللوح المحفوظ، وهذا في قوله: ﴿مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ أَفَرَءَيْتُمُ﴾.

---

(1) ينظر: «صحيح مسلم» (1763).

وفي السورة تضمين لنظرية المعرفة وفلسفتها، أو ما يُسمى: «الأبستمولوجيا»، فهي تأكيد على أهمية المعرفة ونظام تحقيقها، والغيب والشهادة، **وإشارة إلى وسائل المعرفة، وهي:**

1- **الوحي**، وهو طريق معرفة الغيب وما لا يحيط به البشر، ولأنها أول سورة جاء بها الوحي كان مناسبًا أن تكون مؤسسة لنظرية المعرفة الإسلامية.

لقد استطاع العلم أن يكشف الكون ويحيط بنواميسه، ولكن الإنسان وتشريح دماغه ونفسيته لا يزال لغزًا تحيط به الكثير من الحواجز، وكلما اتسعت دائرة العلم تضاءل العقل البشري وتأكدت حاجته لمصدر آخر، هو الوحي.

ولا تزال علوم النفس والاجتماع أقرب إلى الملاحظات والمجملات منها إلى العلم.

2- **العقل**، وهو وسيلة لاكتشاف الحياة والكون، ولفهم الوحي والشرع، وليس هو ندًّا للوحي ولا ندًّا للكون؛ لأنه أداة، أما هي فموضوع.

والإنسان مخلوق عاقل، ولذا علَّم الله آدم الأسماء كلها: الأرض، والسماء، والجبال، والبحار، والأنهار، والدواب، والحيوانات.. وإذا علم الأسماء فقد علم الصفات، فعرف أن هذا حيوان متميِّز بشيء، علمه مباشرة أو ألهمه ذلك، أو منحه آلة التعقل والاستخراج، وكل ذلك من تعليم الله تعالى.

3- **الكون الذي أمرنا أن ننظر فيه**، كما قال عز وجل: ﴿**يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ**﴾ [الملك: 15]، وقال سبحانه: ﴿**سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ**﴾ [الحج: 46]، فهو مصدر معرفة تنجم عن جولة العقل والتجربة لاكتشافه ومعرفة مجاهله وأسراره ونواميسه.

4- **الحواس**، ولذلك قال سبحانه: ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى﴾ [النحل: 78]، فالأفئدة تعي وتستوعب ما تستقبله الحواس من سمع وبصر وغيرها، والله أعلم.



## سورة القدر

*** تسمية السورة:**

**لها أسماء عدة:**

أشهرها: «**سورة القَدْر**»، وهو الغالب في المصاحف، وكتب التفسير[1].

وسُمِّيت: «**سورة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾**»[2]، من باب حكاية الآية الأولى على أنها اسم للسورة.

و«**سورة ليلة القَدْر**»[3].

*** عدد آياتها:** خمس آيات، وعدَّها بعضهم ستًّا؛ باعتبار قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ الثالث آية[4].

*** وقد اختلف هل هي مكية أو مدنية؟**

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص740)، و«سنن النسائي الكبرى» (10/ 340)، و«تفسير الطبري» (24/ 542)، و«تفسير السمعاني» (6/ 260)، و«الكشاف» (4/ 780)، و«المحرر الوجيز» (5/ 504)، و«تفسير الرازي» (32/ 228)، و«تفسير القرطبي» (20/ 129)، و«التحرير والتنوير» (30/ 455).

(2) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 445)، و«صحيح البخاري» (6/ 175)، و«المستدرك» (2/ 530).

(3) ينظر: «جامع الترمذي» (5/ 301)، و«أحكام القرآن» للجصاص (5/ 373)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 453)، و«التحرير والتنوير» (30/ 455).

(4) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص281)، و«الكشاف» (4/ 780)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص324)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (2/ 558)، و«التحرير والتنوير» (30/ 455).

وحكى بعضهم- كالثعلبي- عن الجمهور أنها مدنية، وحُكِي عن الجمهور كذلك أنها مكية.

وقال بعضهم: إنها أول سورة نزلت بالمدينة(1).

وظاهر سياق السورة- والله أعلم- أشبه بالسور المكية، في موضوعها وطبيعتها، وقصر آياتها ووجازتها.

* ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا طَغَىٰ﴾:

هذا الضمير العظيم ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ يدل على التفخيم والتعظيم لله الواحد الأحد، وعادة ما يستعمل في سياق المنة والنعمة، أو في سياق الأخذ والانتقام، وهو مشعر غالبًا بأنه تعالى يمضي ما أراد بواسطة ملائكته المسخَّرين لذلك، فثَمَّ ملائكة للوحي، وآخرون للعذاب، وغيرهم لتدوين الأعمال..

تبدأ السورة بتحديد مصدر هذا القرآن، وأنه من عند الله تعالى.

ولو قال: «نحن أنزلناه»، لكان هذا خبرًا مجرَّدًا أن الله سبحانه أنزله، لكن لما قال: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا﴾ جعل مع الضمير التوكيد بـ«إنَّ»، وفيه تعظيم المُنزِل، وهو الله تعالى، فيدرك القارئ أن الشيء الذي من عند الله لا بد أن يكون في غاية الصدق والقوة والكمال والرحمة والفضل.

وهي مشعرة بالعلو والعظمة والفوقية لله تعالى؛ لأن الإنزال إنما يكون من الأعلى إلى الأسفل، ففيها إثبات العلو له سبحانه، علو الذات وعلو القدر وعلو القهر، فهو العلي الأعلى.

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 247)، و«تفسير الماوردي» (6/ 38)، و«المحرر الوجيز» (5/ 504)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (1/ 147)، و«تفسير القرطبي» (20/ 129)، و«البحر المحيط في التفسير» (8/ 492)، و«بصائر ذوي التمييز» (1/ 358)، و«روح المعاني» (15/ 411)، و«التحرير والتنوير» (30/ 455).

**والضمير يعود إلى القرآن**، وهو وإن كان غير مذكورٍ في السورة، إلا أن اللَّبْسَ مأمون، فالذي يصدق عليه أنه أُنزِل في ليلة القدر هو القرآن.

وفي ذلك إشادة وتعظيم وتفخيم لشأنه بأنه حاضر في الأذهان، فهذا أفخم وأعظم من أن يُنطق باسمه.

ويفهم من الإنزال تلقائيًّا وجود وسيط، وهو جبريل عليه السلام: ﴿ٱلْمَأْوَىٰٓ ١٥ إِذْ يَغْشَى﴾ [الشعراء: 193]. وهو أفضل الملائكة وسيدهم، ولذلك كان له اسم خاص، وهو ﴿إِذْ﴾، وسيأتي ذكره في السورة.

والقارئ عند ما يتلو هذه الآية يتذكر مَن أُنْزِل عليه القرآن وهو محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الله تعالى اختاره، وجعل في قلبه من العلم والبصيرة والقوة لتلقِّي الوحي والدعوة إليه والعمل به، ما صار به سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم.

والآية إشادة بالوقت الذي نزل فيه القرآن، فاجتمعت العظمة في المُنْزِل، وهو الله سبحانه وتعالى، وفي المُنْزَل، وهو القرآن الكريم، وفي الوسيط، وهو جبريل عليه السلام، وفي المُنْزَل إليه، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ثم في الزمان الذي نزل فيه القرآن، وهو ليلة القدر.

وسُمِّيت كذلك لعظم قدرها، وهذا يتناسب مع جو الآية الذي يدل على التفخيم، ويكفي في فضلها أنها خير من ألف شهر.

وسُمِّيت بهذا؛ لأن الأمور تُقدَّر وتُكتب فيها، فآجال السنَةِ كلِّها تنقل من اللوح المحفوظ في هذه الليلة[1].

---

(1) ينظر: «زاد المسير» (4/ 87)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 266)، و«تفسير الخازن» (4/ 116)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 397).

**ومما يعزِّز هذا المعنى**: قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: 3- 4]، فيكون ﴿مَا﴾ هو: الفَرْق والتقدير[1].

ولأنها ليلة فاضلة عظيمة القدر سامية المنزلة.

**وما معنى إنزال القرآن في ليلة القَدْر، مع أنه نزل مفرَّقًا بحسب الأحوال والوقائع والأسباب خلال ثلاثة وعشرين سنة؟**

**والجواب:**

1- يحتمل أن المقصود إنزاله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، وقد نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره[2]، وهو مما لا يُقال بالرأي.

2- أو يكون ابتداء إنزاله في ليلة القدر، وعلى هذا فأول ما نزل من «سورة العلق» نزل في ليلة توافق ليلة القدر من رمضان.

وهذان المعنيان لا تعارض بينهما، وكلاهما صحيح[3].

3- ويحتمل ما ذكره بعض المفسرين، كالرازي وغيره، وهو إنزال قرآن يُتلى في فضل ليلة القدر وفي أجرها وما يتعلق بها[4]، وهذا ضعيف.

---

(1) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (24/ 190)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (4/ 427)، و«تفسير الرازي» (32/ 229)، و«تفسير القرطبي» (20/ 130)، و«روح المعاني» (15/ 414)، والمصادر السابقة والآتية.

(2) أخرجه ابن أبي شيبة (30191)، وابن الضُّريس في «فضائل القرآن» (119)، والنسائي في «الكبرى» (7991)، والطبري في «تفسيره» (3/ 445)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (1/ 310)، (8/ 2690)، والطبراني (12381، 12382)، والحاكم (2/ 223، 611)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (496).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 543)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 347)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7855)، و«الكشاف» (1/ 227)، و«زاد المسير» (1/ 12)، و«تفسير القرطبي» (20/ 120)، و«تفسير ابن كثير» (1/ 501).

(4) ينظر: «تفسير الرازي» (32/ 28).

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا﴾: احتفاء بهذه الليلة، وبما أُنزل فيها وهو القرآن، واحتفاء برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، والقرآن هو الكتاب الأخير، والنبي هو الخاتم، وقد أذن سبحانه أن لا تتفتح السماء بوحي بعد ذلك الحين، وأن لا يُبْعَثَ إلى البشر رسولٌ بعد محمد صلى الله عليه وسلم.

ولذلك جعل ليلة القدر تعويضًا للمؤمنين؛ لأن الأمم السابقة كان يبعث فيهم أنبياء كثيرون، وكانت أعمارهم طويلة.

ولذا يوجد اختيار اصطفائي من عند الله سبحانه، ويوجد تشريف اختياري من عند الإنسان، بأن يجعل العمل الفاضل للوقت الفاضل فيُؤجر على ذلك، وربما يضيِّع المرء ليله في لهو محرم، فيكون وبالًا عليه، وقد يبذل وقته في عمل فاضل فيكون مأجورًا، وهنا سر تلاحظه في فضل ليلة القدر؛ حيث ثبت فضل إحياء تلك الليلة والدعاء بها، حتى ورد أن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسولَ الله، ما أقول فيها؟ قال: «**قُولي: اللهمَّ إنك عَفُوٌّ تحبُّ العفوَ، فاعفُ عنِّي**»[1].

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**مَن قامَ ليلةَ القدر إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه**»[2].

فأفضل ما يبذل الإنسان من الوقت ما يبذله لحفظ القرآن وتلاوته والعمل به، وهذا سر من أسرار الإشادة بتلك الليلة، وأن أعظم فضيلة تُنسب إليها أن الله تعالى أنزل فيها القرآن.

* ﴿صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا رَأَىٰ﴾:

---

(1) أخرجه أحمد (25384)، والترمذي (3513)، وابن ماجه (3850)، والنسائي في «الكبرى» (7665، 10643)، والحاكم (1/ 530). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (3337).

(2) أخرجه البخاري (2014)، ومسلم (760) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال سُفيان بن عُيينة رحمه الله: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿رَأَىٰ مِنۡ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر[1].

وهذا التركيب: ﴿صَاحِبُكُمۡ وَمَا﴾ يستخدم في الأشياء العظيمة التي لا يحيط بها عقل الإنسان، ولكن الله أطلَعَ نبيه صلى الله عليه وسلم على شيء من فضلها، وهنا تُسْتَحْضرُ شخصية النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله خاطبه وقال له: ﴿صَاحِبُكُمۡ وَمَا﴾.

**ولذلك كثر اختلاف العلماء في ليلة القدر**، حتى ذكر ابن حجر في «فتح الباري» قرابة الخمسين قولًا في ليلة القدر، وذكر أن من العلماء مَن قال: إنها كانت عند الأنبياء السابقين، وعند النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا هو الصحيح.

**ومنهم مَن قال**: إنها رُفعت بموت النبي صلى الله عليه وسلم، ومنهم مَن قال: إنها باقية.

**ثم الذين قالوا**: إنها باقية، منهم مَن قال: إنها تكون في السنة كلِّها، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «مَن يقم الحول يُصِبْ ليلة القدر»[2]. ففهم بعضُهم من قول ابن مسعود هذا أنه يرى أن ليلة القدر تكون في أي ليلة في السنة، وهذا ليس بلازم، بل قصد ابن مسعود رضي الله عنه من هذا أن يعمل الناس وأن لا يقصُروا عملَهم على ليلة معينة في السنة، وكأن مَن يقوم الحول يتهيأ لإدراك ليلة القدر، وكان

(1) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ۝٢١﴾.

(2) أخرجه مسلم (762).

أُبَيٌّ بن كعب رضي الله عنه يحلف ولا يستثني أنها في رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين، وأن ابن مسعود يعلم ذلك[1].

**ومنهم مَن يقول:** إنها تكون في رمضان، حتى ورد عن الحسن البصري أنها تكون ليلة السابع عشر التي كانت ليلة بدر، وهو يوم الفرقان يوم التقى الجمعان.

**ومنهم مَن يقول:** تكون في العشر الأواخر.

**ومنهم مَن يقول:** تكون ليلة ثلاث وعشرين، أو إحدى وعشرين، أو خمس وعشرين، أو سبع وعشرين، وأرجى ما يمكن أن يقال: إنها ليلة سبع وعشرين.

**ومنهم مَن يقول:** إنها تتنقل، وهذا هو الراجح، فلا يلزم أن تكون ثابتة في كل سنة؛ فقد تكون هذا العام في ليلة إحدى وعشرين، وتكون في عام آخر ليلة سبع وعشرين، ولكنها تكون في الدنيا كلها في ليلة واحدة، وإن لم يعرفها الناس[2].

وجزء من الاختلاف في ليلة القدر سببه عظمتها، وجزء من الاختلاف فيها هو إخفاء الله تعالى لأسرارها حتى يتطلَّع الناس إليها ويجتهدوا فيها، كما أخفى تعالى عن الناس أشياء كثيرة، منها إخفاء الآجال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 34]؛ حتى يجتهد الناس في العمل والعبادة.

*** ﴿عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا رَبِّهِ﴾:**

وفي الآيات الثلاث يذكرها باسمها؛ لأنها المقصودة بالسورة، وليس المقصود الأصلي الكلام عن القرآن، وإن كان قد ذكر إنزاله؛ ولذلك لم يذكر القرآن صريحًا.

---

(1) ينظر: «صحيح مسلم» (762).

(2) ينظر: «التمهيد» (2/ 306)، (23/ 63)، و«زاد المسير» (4/ 469- 473)، و«تفسير الرازي» (32/ 230)، و«تفسير القرطبي» (20/ 134- 135)، و«فتح الباري» (4/ 262- 266)، و«مع الصيام» للمؤلِّف (ص233- 241).

وقد حسب العلماء ألف شهر، فوجدوها ثلاثًا وثمانين سنة وأربعة أشهر، وهذا كعمر رجل من المعمِّرين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه ورد أن أعمار هذه الأمة ما بين الستين إلى السبعين[1]. فجعل تعالى هذه الليلة الواحدة تقوم بعمر إنسان، بل هي أفضل من عمر إنسان.

* ﴿يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ أَفَرَءَيْتُمُ﴾:

في هذه الليلة تتنزل الملائكة، ويتنزل معهم الرُّوح، وهو جبريل عليه السلام على المشهور عند المفسرين، وهو من باب عطف الخاص على العام.

**وقال بعضهم**: الرُّوح: صنف من أشراف الملائكة.

وهذا لا يعارض المعنى الأول، ويكون سيِّدهم جبريل عليه السلام.

**وقال بعضهم**: الرُّوح: خَلْق آخر غير الملائكة[2]. والله أعلم.

فالملائكة تنزل في هذه الليلة الفاضلة، وتكون أبواب السماوات مفتحة، والأرض ملأى بالملائكة، يجوبون جنباتها يقِفون عند المصلِّين، ينزلون بالبِرِّ وبالرحمة، وينزلون بالأقدار.

﴿ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ فليس لأحد غير الله قدر ولا أمر ولا نهي، بل الأمر كله لله، فله الخلق والأمر، وهو الذي يفضِّل مَن يشاء، ويقدِّر الأقدار التي تكون في تلك الليلة من حياة أو موت، أو ذل أو عز، أو غنى أو فقر، أو علم أو جهل، أو هدى أو ضلال، أو ما شاء تعالى من الأحوال للأفراد والجماعات والأمم وغيرها.

---

(1) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه الترمذي (3550)، وابن ماجه (4236)، وأبو يعلى (5990)، وابن حبان (2980). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (757).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 585)، و«تفسير الماوردي» (6/ 313)، و«المحرر الوجيز» (5/ 505)، و«زاد المسير» (4/ 473)، و«تفسير القرطبي» (20/ 133)، و«التحرير والتنوير» (29/ 157).

وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ أي: كل ما يأمر الله تبارك وتعالى به مما ذكرناه؛ فإنهم يتنزلون به في تلك الليلة.

* ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ ۝١٩﴾:

فهي ليلة سلَام، فيها السلامة للناس، وفيها الرحمة والقبول، ويكفي أن مَن قامها إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدَّمَ من ذنبه[1].

وأن الله تعالى وصفها بأنها ﴿لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: 3].

ولو ربطنا هذا بالتحية والشِّعار الذي يتداوله المسلمون: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، لوجدنا أن الله تعالى جعل من الأعمال والشرائع ما يتحقَّق به للمسلم في كل وقت المعنى الموجود بقدر أو بآخر، فالسلام موجود يتبادله المسلمون فيما بينهم، وقد ذكر فيه الرحمة والبركة، والملائكة تنزل بالرحمة، ويفرح الناس بهذه الليلة لما فيها من تنزل الرحمة والدعاء بها وبالمغفرة لأهلها، وكذلك البركة؛ فإنها ليلة مباركة، وبركتها تشمل السَّنَة كلَّها.

وليلة القدر تستمر من غروب الشمس، إلى مطلع الفجر، ولذا سمَّاها ليلة، والليل يبدأ بمغيب الشمس، وفيه نوع من التقليل لوقتها، ولذلك قال بعضهم: إن تسميتها بـ«ليلة القدر» مأخوذ من الضيق، فقد يكون من ضيق الأرض لكثرة الملائكة الذين ينزلون، وقد يكون إشارة إلى قصرها.

كما تجد ذلك في ساعة الجمعة؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر يوم الجمعة قال: «**فيه ساعةٌ لا يوافِقُها عبدٌ مسلمٌ وهو قائمٌ يصلِّي، يسألُ الله تعالى شيئًا إِلَّا أعطاه إِيَّاهُ**». وأشار بيده يُقَلِّلُها[2].

(1) تقدم قريبًا.

(2) أخرجه البخاري (935)، ومسلم (852) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

**وقد يقول قائل: هذا عطاء من الغني الجَوَاد الكريم المتفضِّل، فلماذا التقليل لوقت الليلة؟**

**والجواب:** إنه- وإن كان الوقت قليلًا- فالفضل عظيم، وفيه حثٌّ العبد على أن يستثمرها ويستغلها في الطاعة والعبادة؛ لأن من طبيعة الإنسان أن يمل، فجعل الله تعالى بعض الأيام أفضل من بعض، وبعض الساعات وبعض العبادات وبعض الليالي، فشهر رمضان ثم العشر الأواخر ثم الأوتار ثم ليلة سبع وعشرين.

وحتى ليلة القدر بعضها أفضل من بعض؛ فالثلث الأخير منها أفضل، وذلك كما في الأحاديث المتواترة[1]: «**ينزلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلة إلى السماء الدُّنيا، حين يبقى ثلثُ اللَّيلِ الآخر، فيقولُ: مَن يدعُوني فأستَجِيبَ له، ومَن يسألُني فأُعطِيَه، ومَن يستغفرُني فأغفرَ له**»[2].

فالتقليل فيه دعوة إلى استثمار هذه الليلة بالذكر والعبادة، فهي ليلة في السنة، وهي بضع ساعات، ويمكن أن تعوِّض شيئًا لا يُقدَّر بثمن.

وقد تكلم العلماء وصنَّفوا في ليلة القدر، وصفاتها، وعلاماتها، وأسرارها، ومقاصدها[3].



---

(1) ينظر: «نظم المتناثر من الحديث المتواتر» (ص178- 179).

(2) أخرجه البخاري (1145)، ومسلم (758) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وينظر ما تقدم في «سورة الفجر»: ﴿وَٱلنَّجۡمِ طَغَىٰ﴾.

(3) كـ«شرح الصدر بذكر ليلية القدر» لأبي زرعة ابن العراقي، و«شرف البدر بضياء ليلة القدر» لبدر الدين القرافي، و«إسفار البدر عن ليلية القدر» للمناوي، وغيرها. ينظر: «معجم الكتب» (ص64)، و«كشف الظنون» (2/ 1042، 1046، 1088)، و«معجم المطبوعات العربية» (2/ 1031)، و«إيضاح المكنون» (3/ 79)، (4/ 44، 50، 546)، و«هدية العارفين» (1/ 42، 123، 223، 289، 339، 493، 510)، (2/ 449، 498).

## سورة البينة

*** تسمية السورة:**

**لها أسماء كثيرة:**

**منها:** «**سورة ﴿فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ﴾**»، كما في حديث أنس رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال لأُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه: «**إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ: ﴿فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ﴾**». فقال أُبَيٌّ: وسَمَّانِي لَكَ؟ قال: «**نَعَمْ**». فبكى أُبَيٌّ[1].

وفي المصاحف، وبعض كتب التفسير، والحديث يختصرونها إلى: «**سورة ﴿فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾**»[2].

و«**سورة البينة**»: وهذا موجود في بعض المصاحف، ومعظم كتب التفسير[3]؛ لأن الله سبحانه ذكر فيها «**البينة**» مرتين.

و«**سورة القيِّمة**»[4]؛ لقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ۝١٩﴾.

---

(1) أخرجه البخاري (3809)، ومسلم (799).

(2) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (2/ 387)، و«صحيح البخاري» (6/ 175)، و«تفسير الطبري» (24/ 537)، و«تفسير السمعاني» (6/ 263)، و«تفسير القرطبي» (20/ 138)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 454).

(3) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 493)، و«المحرر الوجيز» (5/ 478)، و«زاد المسير» (4/ 475)، و«تفسير الرازي» (32/ 37)، و«تفسير القرطبي» (20/ 138)، و«الدر المنثور» (15/ 570)، و«التحرير والتنوير» (30/ 467).

(4) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص374)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص282)، و«بصائر ذوي التمييز» (1/ 359)، و«التحرير والتنوير» (30/ 467).

و«**سورة أهل الكتاب**»[1]؛ لأن الله تعالى ذكر فيها أهل الكتاب غير مرة.

و«**سورة البريَّة**»[2]؛ لقوله فيها: ﴿وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ ۝٢٠﴾، ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَلَهُ﴾.

و«**سورة المنفكِّين**»[3]، أو: «**سورة الانفكاك**»[4]؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ﴾.

وفي بعض الكتب: «**سورة القيامة**»[5]، والذي يظهر لي أن هذا تصحيف من «**القيِّمة**»؛ لأنه ليس للقيامة ذكر مباشر في السورة.

* **عدد آياتها:** ثمان آيات عند الجمهور، وعدَّها البصريون والشاميون تسعًا[6].

* **وهي مدنية** على قول الجمهور، ذكر ذلك القرطبي وابن الجوزي وغيرهما من المفسرين[7].

---

(1) ينظر: «الإتقان» (1/ 155)، و«التحرير والتنوير» (1/ 91)، (30/ 467).

(2) ينظر: «إملاء ما من به الرحمن» (2/ 291)، و«الإتقان» (1/ 155)، و«روح المعاني» (30/ 200)، و«التحرير والتنوير» (30/ 367).

(3) ينظر: «تفسير الثعلبي» (8/ 307)، و«تفسير البغوي» (7/ 187)، و«تفسير القرطبي» (16/ 12)، و«روح المعاني» (30/ 200)، و«أضواء البيان» (9/ 39).

(4) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» لابن سلامة (ص28)، و«الإتقان» (1/ 155)، و«التحرير والتنوير» (30/ 467).

(5) ينظر: «الإتقان» (1/ 155)، و«روح المعاني» (30/ 200)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (4/ 418)، والمصادر السابقة.

(6) وقد اختلف في قوله: ﴿مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ [البينة: 5]. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص282)، و«تفسير القرطبي» (20/ 138)، و«روح المعاني» (15/ 424)، و«التحرير والتنوير» (30/ 468).

(7) ينظر: «تفسير القرطبي» (20/ 138)، و«زاد المسير» (4/ 475)، و«فتح القدير» (5/ 673).

ويُنسب القول بأنها مكية إلى يحيى بن سلَّام صاحب «التفسير»، ووهم ابن عطية، فجعل قول الجمهور أنها مكية، ونسب إلى ابن الزُّبير وعطاء بن يسار أنها مدنية[1].

وكثيرًا ما يقع اللَّبْس والوهم في حكاية قول الجمهور، حتى في المسائل الفقهية؛ فإن البعض قد يقول: هذا قول الجمهور، وبعد التحقيق يتبين أنه ليس قول الجمهور، وقد يكون مَن يحكي هذا القول يميل إليه، فيبحث عمَّن قال به، فيجدهم كثرة ويخيَّل إليه أنهم الجمهور، ولو بحث في أنصار القول الآخر لوجدهم أكثر.

**ومن أقوى الأدلة على مدنيتها:** حديث أبي بن كعب رضي الله عنه الذي ذُكر آنفًا: «**إنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عليك سورة ﴿فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ﴾**».

نعم، هذا ليس نصًّا في كونها مدنية؛ لأنه قد يقرأ عليه سورة مكية، ولكن يعزِّز القول بأنها مدنية أن فيها جدلًا مع أهل الكتاب ومحاجة لهم، والغالب أن مخاطبة أهل الكتاب كانت في المدينة بعدما نزل النبي صلى الله عليه وسلم إلى جوار اليهود، وخالطهم المسلمون، واحتاجوا إلى مجادلتهم ومُحَاجَّتهم.

وقد ذُكر فيها إيتاء الزكاة، وهي إنما فُرضت في المدينة، وليس هذا بقوي؛ لأن إيتاء الزكاة ذُكر في سور مكية، كـ«سورة فصلت»[2].

* **﴿فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾**:

**والمنفكُّون** جمع: مُنفَكٍّ، من الانفكاك، وهو الانفصال[3].

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 315)، و«المحرر الوجيز» (5/ 478)، و«تفسير الثعالبي» (4/ 432)، و«البحر المحيط في التفسير» (8/ 494)، و«روح المعاني» (30/ 200).

(2) ينظر: «كتاب الزكاة من شرح بلوغ المرام» (ص17- 21)، وما تقدم في أول «سورة الأعلى».

(3) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 507)، و«زاد المسير» (4/ 475).

**والجمهور على أن المعنى**: لم يكونوا منفصلين عن الضلال والشرك والكفر الذي هم فيه ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ﴾، **والبينة هي**: ﴿١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا رَبِّهِ﴾.

وذكر الفخر الرازي وغيره أن في السورة إشكالًا، غلط فيه بعض أكابر أهل العلم، وهو جدير بالتأمل حتى ننطلق منه إلى فهم السورة:

ذلك أنه في أول آية ذكر تعالى أن أهل الكتاب والمشركين لن ينفكوا عن كفرهم وشركهم إلى وقت معلوم، وهو أن تأتيهم البينة، ثم في الآية التي بعدها قال: ﴿١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا أَفَرَءَيْتُمُ﴾؛ فهل البينة سبب في أن ينفكوا عن شركهم وكفرهم ويكونوا مؤمنين، أم هي سبب في أن يتفرقوا ويختلفوا؟[1].

وقد ذكر المفسرون- كالقرطبي والآلوسي والطاهر ابن عاشور- أكثر من تسعة عشر قولًا في حل هذا الإشكال[2]، **وترجع إلى جملة أقوال:**

1- أن الآية الأولى: ﴿فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ﴾، حكاية عما يدَّعونه من أنه لو جاءهم رسولٌ بالبينة لآمنوا، فكأن الله تعالى حكى هذا عنهم.

2- أن كلمة ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ لا تعني أنهم ينفكُّون عن الضلال ويتركون الشرك، وإنما المقصود أنهم لم يكونوا منفكِّين عن انتظار النبي ومدحه صلى الله عليه وسلم، وذكر فضائله إلى أن بُعث إليهم.

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (32/ 37).

(2) ينظر: «تفسير القرطبي» (20/ 141)، و«روح المعاني» (30/ 202)، و«التحرير والتنوير» (30/ 469).

فاليهود كانوا يذكرون في كتبهم أن نبيًّا أطلَّ وأقبَلَ زمانه سيُبعث، وأنهم سيتبعونه ويقتلون العرب به قتل عاد وإِرَم، ﴿هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ﴾ [البقرة: 89]، وكذا المشركون كانوا في الجاهلية يسمونه: الأمين، فلما بُعث كفروا به وكذَّبوه وخوَّنوه، فانفكُّوا عن مدحه بعدما جاءتهم البينة ببعثته إليهم(1).

3- أنهم ليسوا منفكِّين حتى ولو جاءتهم البينة، فإنهم سيظلون على ما هم عليه، وعلى هذا يكون معنى الآية أنه لا يزيدهم إلا نفورًا، كقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 124- 125].

4- أنهم ليسوا بميتين حتى تأتيهم البينة، وتقوم عليهم الحجة قبل موتهم، كما في قوله تعالى: ﴿عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ [فاطر: 24].

5- وقريب منه ما ذكره ابن عطية من أنهم ليسوا متروكين سُدَى(2): ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [القيامة: 36].

6- أنهم لن ينفكُّوا حتى يأتيهم مَلَك من السماء، ويكون هذا نوعًا من السخرية منهم أنهم لن يؤمنوا حتى يروا مَلَكًا معه كتاب، كما كان المشركون يقولون: ﴿أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ

(1) ينظر ما تقدم في «سورة الحديد»: ﴿أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾.

(2) أي: هَمَلًا، لا يُؤمر ولا يُنهى.

سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ﴾ [الإسراء: 90-92][1].

**والذي يظهر أن الآية لا تحتاج إلى تأويل، وليس فيها إشكال.**

**وبيان ذلك**: أن الله تعالى ذكر أن الكفار من أهل الكتاب والمشركين ليسوا تاركين كفرهم، حتى تقوم عليهم الحجة، وحتى يبعث فيهم الرسول، وتنزل إليهم الكتب؛ وذلك لأنه لا يستطيع أحد أن يهتدي بغير صراط الله وطريقه.

فالآية تنفي أن يكونوا منفكِّين عن الضلال إلى الهدى إلا ببينة، ولكن الآية لم تقل: إن أهل الكتاب والمشركين إذا جاءتهم البينة سوف ينفكون جميعًا عن الضلال ويهتدون حتمًا، ولكن سيكون منهم مَن يهتدي ومنهم مَن لا يهتدي.

وهذا معنى واضح، ومعه لا يبقى في السورة إشكال؛ لأن الآية الأولى تقرِّر أن أهل الكتاب والمشركين لا يمكن أن يهتدوا من ضلالهم إلا ببينة من عند الله تعالى، ولذلك بعث الله إليهم الرسول وأنزل إليهم الكتاب ليبين لهم الذي يختلفون فيه.

**وأما** هل نفعتهم هذه البينة وآمنوا بها، أو أنهم استكبروا وأصرُّوا على كفرهم؟ فهذا موضوع آخر لم تتعرض له الآية.

وهذا الكلام وإن لم أجده منصوصًا، إلا أنه يبدو مقصود كثير من المفسرين، وكثير ممن يقرأ القرآن يتبادر إلى ذهنه هذا المعنى، ولا يجد في السورة إشكالًا.

**ثم الذين كفروا قسَّمهم الله تعالى في هذه الآية إلى فئتين: أهل الكتاب، والمشركين.**

---

(1) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 479)، و«تفسير الرازي» (32/ 240)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 437)، و«فتح القدير» (5/ 579).

**أما أهل الكتاب**، فهم: اليهودُ والنصارى، وفي دخول المجوس فيهم خلاف، والأقرب أنهم لا يدخلون؛ لقول الله تعالى: ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ﴾ [الأنعام: 156]. وإنما أُلحق المجوس بأهل الكتاب في بعض الأحكام، كالجزية، ولذلك لا تُنْكَح نساؤهم كنساء أهل الكتاب[1].

**فالمقصود**: اليهود والنصارى، واليهود كانوا موجودين في المدينة، والنصارى كانوا في نَجْران.

**وأما المشركون**، فهم الوثنيون من أهل مكة وغيرِها.

وقد قدَّم الله تعالى ذكر أهل الكتاب على المشركين؛ لأن أهل الكتاب بُعِث فيهم رسلٌ، وأنزلت كتب، فالعَتَبُ عليهم في الضلال أشد، ولهذا عاتبهم الله تعالى ووبَّخهم لما جاء المشركون إليهم يسألونهم: نحن أهدى أم محمد؟ فقالوا: أنتم أهدى. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣ أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ٢٤ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ٢٥ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ﴾ [النساء: 51].

والجاهل ربما وقع في الخطأ بغير قصد، أما العالم فالحجة عليه قائمة، فإذا أخطأ كانت المؤاخذة عليه أكثر؛ ولهذا بدأ الله تعالى بهم في السورة.

وعلى اعتبار أن السورة مدنية، فقد كان الخطاب فيها عتابًا لهم قبل غيرهم، ولذلك ناسب أن يقدِّمهم.

وهنا وصمهم الله تعالى بالكفر؛ لتكذيبهم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم مع معرفتهم به.

---

(1) ينظر: «فتح الباري» (6/ 261)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (1/ 77).

و﴿مَآ﴾ هي: الحجة الواضحة[1]، وجمعها: بينات، وقد وصف الله القرآن بأنه «بينات»، فقال: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [البقرة: 185].

فالقرآن بيِّنة في إعجازه اللُّغوي، والعلمي، والتشريعي، والتاريخي، وفي أخباره وقصصه وآياته.

وكذلك الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه هو «بينة» في الحجج التي جاء بها، وفي الوحي، وفي أنه رجل أُمِّيٌّ، ومع ذلك ألهمه الله تعالى البلاغة والإعجاز، وهو «بينة» بما جعل الله تعالى على يديه من الآيات التي آمن بها مَن آمن من الناس، سواءً الآيات التي حصلت في عصره ورآها الناس، أو الآيات الباقية والتي منها القرآن وما يخبر به صلى الله عليه وسلم من أحوال الزمان.

* فـ﴿مَآ﴾ هنا معنى مشترك، يدخل فيه القرآن، ويدخل فيه النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولهذا قال في الآية الثانية: ﴿١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ رَأَىٰ﴾:

وهذا تفسير ﴿مَآ﴾، فسَّرها بالنبي صلى الله عليه وسلم، وما يتلوه من الصحف، **والصُّحف** جمع: صحيفة، **والمقصود بها**: الورق[2]، **وهي مطهَّرة تطهيرًا حسيًّا ومعنويًّا:**

**أما التطهير الحسِّي**: فلأن لها قداسة وحرمة وأحكامًا، بحيث لا يمس القرآن إلا طاهر: ﴿غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنطِقُ﴾ [الواقعة: 79]، ولهذا ذهب جمهور الفقهاء والأئمة

---

(1) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (24/ 207)، و«تفسير البغوي» (5/ 290)، و«الكشاف» (4/ 782)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 519)، و«التحرير والتنوير» (30/ 474).

(2) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص476) «ص ح ف»، و«بصائر ذوي التمييز» (3/ 388)، و«معجم اللغة العربية المعاصرة» (2/ 1272).

الأربعة إلى أنه لا يجوز أن يمس المصحف إلا متوضئ، وقد جاء في حديث عَمرو بن حَزْم في وصية النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا يمسُّ القرآنَ إلَّا طَاهِرٌ**»[1].

**وأما الطهارة المعنوية**: فلأنها ليس فيها شك ولا ريب: ﴿**هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا**﴾ [البقرة: 2]، ولا خطأ ولا ظلم، بل هي حق محض.

* ﴿ **أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ** ﴾:

أي: جعل الله تعالى في تلك الصحف كتبًا قيمة.

**والكتب القيمة** هي: الآيات والسور، وأحكام الحلال والحرام؛ لأن **الكتب** جمع: كتاب، وهو المكتوب[2].

و﴿**مَا**﴾ قد يُفهم منها أنها ذات قيمة، يقال: هذا شيء قيم، أي: غالي القيمة، **لكن المقصود بـ**﴿**مَا**﴾: مستقيمة، معتدلة، ليس فيها عوج ولا خلل[3].

وكان يمكن أن يقال في تفسير الآية: إن قوله: ﴿**⑩ مَا كَذَبَ**﴾ اسم جنس، فيشمل الرُّسلَ كلَّهم، ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم، ويدخل في ذلك الحجج التي جاء بها الأنبياء السابقون والكتب التي بُعثوا بها.

---

(1) أخرجه الدارمي (1621، 1628، 1635)، وأبو داود في «المراسيل» (259)، والنسائي (8/ 57، 60)، وابن حبان (6559)، والدارقطني (1/ 122)، والحاكم (1/ 552).

واختلف في وصله وإرساله، والصواب المرسل، إلا أنه قد تلقاه العلماء بالقبول، واشتهر شهرة تغني عن إسناده، كما قال ابن عبد البر في «الاستذكار» (2/ 471)، و«التمهيد» (17/ 396)، وينظر: «نصب الراية» (1/ 196- 199)، و«البدر المنير» (2/ 499- 505)، و«إرواء الغليل» (122)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (1/ 399- 401).

(2) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص699) «ك ت ب».

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 552)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 590)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 211)، و«زاد المسير» (4/ 475)، و«تفسير الرازي» (32/ 240)، و«تفسير القرطبي» (20/ 143)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 456).

ولكن القول بأن المقصود: محمد صلى الله عليه وسلم أقوى، من جهة ملاحظة سبب النزول.

* ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا أَفَرَءَيْتُمُ﴾:

هذه الآية هي التي وقع فيها مع الآية الأولى إشكالٌ عند بعض المفسرين، فهنا قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، ولم يذكر المشركين، وقوله: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا﴾ أي: بعد أن قامت عليهم الحجة، وهي رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن الذي معه، **فمعناه** أن المقصود بتفرق أهل الكتاب هنا هو تفرقهم بين الإيمان والكفر؛ فمنهم مَن آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ومنهم مَن كفر، فتفرقوا على هذا، **وهذا المعنى يذكره جمهور المفسرين**[1].

**وثَمَّ معنى آخر**، وهو أن المقصود بتفرُّقِهم: إعراضهم عن النبي صلى الله عليه وسلم، وتفرُّقهم في كيفية الرد، فبعضهم قال: دَعِيٌّ. وقيل: شاعر. وقيل: ساحر. وقيل: مجنون. لكن لا يدخل في ذلك الذين آمنوا منهم؛ لأنهم لا يُوصفون بأنهم من أهل الكتاب بعد أن دخلوا في دين الإسلام، فعلى هذا المعنى الثاني يكون المقصود بتفرُّقِهم: إعراضَهم عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعدم إيمانِهم به.

**وثَمَّ معنى ثالث جيد وغير مشتهر**، وهو أن المقصود اختلافهم على أنبيائهم قبل النبي صلى الله عليه وسلم؛ كما في حديث: «**إنما هلكَ الذين كانوا من قبلكم بتفرقهم**

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 540)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 261)، و«تفسير السمعاني» (6/ 264)، و«تفسير البغوي» (8/ 496)، و«التحرير والتنوير» (30/ 479).

**واختلافهم على أنبيائهم**»(1). وكما في قوله سبحانه: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ [مريم: 37].

واختلافهم على أنبيائهم إنما حدث بعد ما جاءتهم البينة، أي: من بعد ما قامت عليهم حجج أنبيائهم، ومن ذلك اختلافُهم بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم.

فيكون الاختلاف المذموم هنا اختلافًا آخر، وهذا يبعد الإشكال الذي نقلناه عن الواحدي والرازي وغيرهما بين الآية الأولى والآية الرابعة، ويبيِّن أن الآية الأولى في معنى والآية الرابعة في معنى آخر؛ فالآية الأولى تتكلم عن الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، وأن انفكاكَهم وإيمانَهم كان من بعد ما جاءتهم البينة، أما هذه الآية، فهي تتكلم عن الكافرين الباقين على كفرهم أنهم اختلفوا وتفرقوا من بعد ما جاءتهم البينات.

وهذا ينسجم مع آية آل عمران: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠﴾ [آل عمران: 105].

وفي هذه السورة تكرار كلمة ﴿مَآ﴾، فقد يكون ذلك؛ لأنها موجودة في كتب أهل الكتاب، فناسب أن تُذكر؛ لأن الجدل والحديث معهم، أو يكون ذلك أن القوم أهل علم واطلاع ومعرفة، فالمقام معهم ليس مقام وعظ مجرد، وإنما هو مقام حجة.

**والبينة** هي: الحجة التي تُفحِم المخاصمين والمعاندين(2).

---

(1) أخرجه أحمد (7367، 8144)، وابن خزيمة (2508)، وابن حبان (3704)، والبيهقي (1/ 388)، (4/ 253) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأصله في «صحيح البخاري» (7288)، و«صحيح مسلم» (1337)، بلفظ: «**ذرُوني ما تركتُكم؛ فإنما هلكَ مَن كان قبلَكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم...**».

(2) ينظر: «تاج العروس» (34/ 310) «ب ي ن»، و«القاموس الفقهي» (ص47)، و«معجم لغة الفقهاء» (ص115).

وفيه تحذير بالإيماء والإشارة للمؤمنين من الاختلاف والتفرق، وبخاصة الاختلاف والتفرق على الكتاب، وفيه ذمٌّ للعلم الذي يكون سببًا في الاختلاف؛ فإن كثيرًا من العلم الذي ينتظر أن يكون سببًا في سماحة المتعلِّمين ولطفهم مع الخلق وإيثارهم لهم، يكون سببًا في نشوء صراعات وخلافات وتحزُّبات، تفسد معها الأخلاق وتشتد المنافسة وتقسو القلوب.

وغالب طلبة العلم اليوم أكثر وَلَعًا بالخلاف فيما بينهم، وأكثر تحاسدًا وتنافسًا، حتى إنهم إذا كانوا في مؤسسة أو مدرسة أو جامعة وقع بينهم من التعاند والتغاير، ما لا يحسن ولا يحمد.

فسبحان الله! ما أكثر النصوص والآيات والأحاديث التي فيها النهي عن التفرُّق والاختلاف، ولكنها بمَعْزل عن واقعنا، وليس المقصود الاختلاف العلمي، فهذا طبيعي، بل هو محمود في كثير من الحالات، وإنما المقصود اختلاف التناحر والاقتتال والاحتراب، كما قال سبحانه: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: 53].

فأي ثمرة وأي قيمة لعلم لا يكون سببًا في صفاء قلبك، وسلامة نفسك، وعفاف لسانك، وحسن ظنك بالناس، ومحبتك الخير لهم[1]؟!

وأنا أتعمد أحيانًا أن أثني خيرًا على بعض مَن يستحقون الثناء، وأعرف أنهم ليسوا بحاجة إلى ثنائي؛ لكن أقصد أن أتربَّى على مراعاة الإيجابيات واعتبارها، وعدم الاعتياد على لحظ الأخطاء والمخالفات، وكأنها أول ما يطرق خيالك أو يخطر ببالك عند ذكر مَن ليس من أصحابك وجلسائك وخاصتك.

ومع وجود النقص والعيب، فإن الثناء على الناس بما هم عليه من خير هو فضل ومروءة، كما قيل[1]:

---

(1) ينظر: «كيف نختلف؟» للمؤلِّف.

مَن ذا الَّذِي ما ساء قطْ *** ومَن له الحُسْنَى فقطْ
سامِحْ أخاكَ إذا خَلَـطْ *** منه الإصابَةَ بالغلـطْ
وتَجافَ عن تَـعْنِـيـفِـهِ *** إِنْ زاغ يَومًا أو قَسَطْ

وقيل[2]:

ومَنْ ذَا الَّذِي تُرضَى سَجايَاهُ كلُّها *** كَفَى المرءَ نُبْلًا أن تُعَدَّ مَعَايبُهْ

وقِسْ على نفسك، فإنك إذا عابك أحد بخطأ موجود فيك، تقول: لماذا عابوني بهذا الخطأ الذي يظنونه، وتجاهلوا ما كان لديَّ من صواب كثير؟ فكذلك الآخرون يقع مثل هذا في نفوسهم.

فأَوْلَى النَّاس بمعنى العدل هم مَن جاءتهم البينة.

* ﴿ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ﴿١٩﴾﴾:

في هذا مزيد عتبٍ على تفرقهم وضلالهم، مع أنهم لم يؤمروا إلا بما بُعث به الرسل جميعًا، وهو أن يعبدوا الله مخلصين له الدين.

**والعبادة**: اسم جامع لكل ما يحِبُّه اللهُ ويرضاه، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة[3]، وهو فعل القربات والطاعات المحضة بنية التقرب إلى الله.

وقوله: ﴿مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ حال من فاعل «يعبدوا»، أي: فلا يعبدون مع الله تعالى غيره.

---

(1) ينظر: «مقامات الحريري» (ص229- 230).

(2) ينظر: «ديوان المعاني» (2/ 196)، و«الإعجاز والإيجاز» (ص214)، و«أدب الدنيا والدين» (ص173).

(3) ينظر: «العبودية» (ص44)، و«مجموع الفتاوى» (10/ 149)، و«الفتاوى الكبرى» (5/ 155).

و﴿ مَا ﴾: حال ثانية، **والحنيف** هو: المائل عن الشرك إلى التوحيد، وهذا قول أكثر أهل اللغة[1].

**والأجود أن نقول**: إن الحنيف هو: المعتدل عن الشرك إلى التوحيد، فالحنيفية هي الاعتدال، وأصل الحنف يكون في الرِّجْل، يقال: فلان أحنف، ومنه الأحنف بن قيس الذي كانت أمه ترقِّصه وهو صغير وتقول[2]:

والله لولا حَنَفٌ في رِجْلِهِ *** وقلةٌ في ساقه من هُزْلِهِ

وقِلَّةٌ أَخَافُهَا من نَسْلِهِ *** مَا كَان في فِتْيانِكُمْ مِنْ مِثْلِهِ

**ومعنى الحَنْف في الرِّجْل هو**: اعوجاجها عن المعهود، لكن إذا كانت مائلة نحو الأخرى كانت مستقيمة، وفي نفس الوقت سُمِّي هذا حَنَفًا.

**فالحَنِيف** هو: المستقيم على التوحيد.

**وقيل**: معنى الحنيف: المختون[3]، **وقيل**: الحاج[4]، **والمقصود**- والله أعلم-: أنه أَمرَهُم أوَّلًا بالإخلاص في أعمالهم، ثم أمرهم بأن يكونوا حنفاء، أي: على ملة الأنبياء.

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ﴾ أي: ذلك دين الملة القيِّمة، أو دين الأمة القيِّمة، فالقيِّمة وصف لشيء محذوف تقديره: الأمة، أو الملة، وهذه الأمة هي التي جعلها الله تعالى شاهدة على الناس: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ [البقرة: 143].

---

(1) ينظر: «لسان العرب» (9/ 56)، و«تاج العروس» (23/ 170).

(2) ينظر: «طبقات ابن سعد» (9/ 92)، و«معاني القرآن» للزجاج (1/ 214)، و«المستدرك» (3/ 614)، و«المخصص» لابن سيده (1/ 177)، و«تاريخ دمشق» (24/ 305)، و«فتح القدير» (1/ 170)، و«تاج العروس» (36/ 215).

(3) ينظر: «مقاييس اللغة» (2/ 111).

(4) ينظر: «الكليات» للكَفَوي (1/ 553)، و«المحكم والمحيط الأعظم» (1/ 232).

* ﴿رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ ٢٠﴾:

هنا أعاد وصف أهل الكتاب بالكفر، والفرق بين وصفهم بذلك في هذه الآية وبين وصفهم بذلك في الآية الأولى: أن الآية الأولى وصفتهم بذلك قبل أن تأتيهم البينة، أما الآن فانتقل الأمر إلى وصف أولئك الذين أصرُّوا على الكفر من أهل الكتاب والمشركين، ولذلك ناسب أن يتوعدهم لإصرارهم.

وجمع أهل الكتاب مع المشركين هو غاية التأنيب والتوبيخ، فقد كانوا يرون لأنفسهم فضلًا ومكانة ويعيِّرون أهل الشرك ويزدرونهم، فلما حصحص الحق كفروا مثلهم، فأُلحقوا بهم وحُشروا معهم، فلم ينفعهم ما عندهم من العلم بالكتاب.

﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ﴾ أي: إنهم موعودون بنار جهنم في الآخرة، وهذا لا يمنع أن يأتيَهم شيء من العذاب في قبورهم أو في دنياهم.

﴿وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ﴾ هم شر البرية على الإطلاق، أو شر البرية في زمانهم، وقد يأتي بعدهم مَن هو شر منهم.

و﴿تِلۡكَ﴾ هي: المبرية، أي: المخلوقة[1]، وهم البشر- ومن ذلك اسم الله: «الباري»- وأصلها البريئة بالهمز، ولكنه خُفِّفَ، أو من البراء وهو التراب، فيكون المقصود شر البشر وشر الناس[2].

* ﴿قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ٢٢ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَلَهُ﴾:

---

(1) ينظر: «غريب الحديث» للخطابي (3/ 34)، والمصادر الآتية.

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 781)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 604)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 219)، و«تفسير القرطبي» (20/ 145)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 457).

بدأ بذكر الأشرار؛ لأن السورة تتحدَّث عن أهل الكتاب الذين كفر غالبهم بالنبي صلى الله عليه وسلم، أما الذين أسلموا فهم قليل، فلما كان السياق من أهل الكتاب والمشركين الكافرين بالله وبرسوله، ناسب أن يبدأ بالوعيد، بخلاف «سورة الزلزلة» مثلًا؛ فإن الوعظ فيها كان عامًّا، فبدأ الله تعالى فيها بالخير، فقال: ﴿ (١١) أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ (١٣) عِندَ سِدۡرَةِ إِذَا﴾.

**وأيضًا**: فإن الله تعالى جمع ما يتعلق بالكفار في آية واحدة، في حين أنه ذكر جزاء المؤمنين في آيتين، وهذا فيه ثناء ومدح لهم وترضية.

﴿قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ (٢٢) إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ﴾، وهذا العموم يدخل فيه الذين آمنوا من أهل الكتاب، الذين انفكُّوا عن كفرهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم، ويدخل فيه الذين آمنوا من المشركين، ومن غيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ (٣) إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ [البقرة: 62].

**وقد يحتج بهذه الآية مَن يقول**: إن صالحي البشر أفضل من الملائكة، وذلك إذا اعتبرنا أن ﴿تِلۡكَ﴾ هي المبروءة، أي: المخلوقة.

**أما إذا قلنا**: إن ﴿تِلۡكَ﴾ هم: البشر، فسيكون المقصود أنهم أفضل الناس[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (3/ 428- 430)، و«التفسير البسيط» للواحدي (13/ 404- 405)، و«تفسير الرازي» (8/ 199)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (1/ 425)، و«مجموع الفتاوى» (4/ 350)، و«بدائع الفوائد» (1/ 66)، و«مختصر الصواعق المرسلة» (ص158)، و«البداية والنهاية» (1/ 126)، و«تفسير ابن كثير» (2/ 480)، (8/ 458)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (ص301)، و«فتح الباري» (13/ 386).

* ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾:

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ أي: على ما عملوا في الدنيا وما صبروا ﴿۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾، **والعَدْنُ** هو: الإقامة، يقال: عَدَنَ بالمكان، أي: أقام فيه، فهذه جنات خلود[1].

﴿ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ﴾، وهنا لم يذكر الله تعالى التأبيد للكفار، وذكر التأبيد للمؤمنين؛ وذلك لأن المقام مقام رحمة، ورحمته سبحانه تغلب غضبه.

ومن هذه الآية وأمثالها أخذ بعضُ أهلِ العلم القول بفناء النار، كما في «سورة النبأ»[2].

وقوله: ﴿ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ﴾ غاية ما يبحث عنه المؤمن أن يرضى الله تعالى عنه، ﴿هُوَ إِلَّا﴾ أي: بسبب ما أعطاهم من الفضل والنعيم، وهذا دليل على احتِفاء ربِّنا تبارك وتعالى بهم، حتى إنه يرضى عنهم ثم يرضيهم جل وتعالى.

وقد جاء هذا المعنى في الحديث الصحيح لما قال الله تعالى: «**تُريدون شيئًا أزيدكُم؟ فيقولون: أَلَمْ تُبيِّضْ وُجُوهَنا؟ ألم تُدْخِلْنا الجنة وتُنْجِنَا من النار؟ قال: فيُكشَفُ الحِجابُ فما أُعطوا شيئًا أحبَّ إليهم من النَّظَر إلى ربهم** عز وجل»[3].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 556)، و«معاني القرآن» للزجاج (3/ 147)، و«الفائق» للزمخشري (1/ 417)، و«مقاييس اللغة» (4/ 284)، و«المخصص» لابن سيده (2/ 176)، و«لسان العرب» (13/ 279) و«التحرير والتنوير» (30/ 485).

(2) ينظر ما تقدم في «سورة النبأ»: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ قَابَ﴾.

(3) أخرجه مسلم (181) من حديث صُهيب الرُّومي رضي الله عنه.

فيعطيهم سبحانه وتعالى النظر إلى وجهه الكريم، فلا يرون شيئًا أمتع ولا ألذَّ ولا أعظمَ من النظر إلى وجهه في جنة عَدْنٍ.

﴿يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ﴾، فجعل مدار القضية على أمر يتعلق بعمل القلب الذي هو أصل عمل الجوارح؛ لأن الخشية من عمل القلب، وهي أثر الإيمان، ونتاجها العمل الصالح ومجانبة السيئات؛ ولذا وصفهم بأنهم آمنوا وعملوا الصالحات.



## سورة الزلزلة

* تسمية السورة:

الذي في مصحف المدينة وغيره، وكثير من كتب التفسير: «**سورة الزَّلْزَلة**»[1]، وهو اسم رُوعِيَ فيه المعنى، دون اللفظ؛ فإن الآية ليس فيها «الزَّلْزَلة»، وإنما فيها «الزِّلزال».

وسُمِّيت في بعض المصاحف وكتب التفسير: «**سورة الزِّلْزَال**»[2].

ومن أسمائها: «**سورة ﴿ذُو ۝٥﴾**»، وهو الوارد عن بعض الصحابة رضي الله عنهم، وثبتت تسميتها في «صحيح البخاري»، وغيره: «**سورة ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾**»[3].

* **عدد آياتها:** ثمان آيات، كما في غالب المصاحف، وفي بعضها: تسع؛ وذلك باحتساب قوله تعالى: ﴿أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا ۝٢٠﴾ آيتين، وليست آية واحدة[4].

---

(1) ينظر: «سنن النسائي الكبرى» (10/ 342)، و«تفسير الطبري» (24/ 558)، و«المستدرك» (2/ 532)، و«تفسير القرطبي» (20/ 146)، و«التحرير والتنوير» (30/ 489).

(2) ينظر: «إعراب القرآن» لابن سيده (8/ 212)، و«تفسير الإيجي» (4/ 519)، و«الفواتح الإلهية» (2/ 524)، و«التحرير والتنوير» (30/ 489).

(3) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص742)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 448)، و«صحيح البخاري» (6/ 175)، و«جامع الترمذي» (5/ 303)، و«صحيح ابن خزيمة» (1079)، و«تهذيب الآثار» (2649)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 459)، و«التحرير والتنوير» (30/ 489).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 558)، و«البيان في عَدِّ آي القرآن» (ص283)، و«تفسير البغوي» (5/ 292)، و«تفسير القرطبي» (20/ 146)، و«التحرير والتنوير» (30/ 490).

❋ **والسورة مكية** على قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وجماعة، واختاره كثير من المفسرين؛ كابن كثير، والنيسابوري، وابن عاشور، وغيرهم[1].

**وقيل**: مدنية. وهو مروي عن ابن مسعود رضي الله عنه وغيره[2].

والذين قالوا: إنها مدنية. لاحظوا سبب النزول؛ فقد جاء عن مقاتل أنها نزلت في رجلين من أهل المدينة كان أحدهما يتقالُّ الشيء أن يتصدَّق به، وكان الآخر لا يبالي أن يعمل الذنوب الصغيرة، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿﴿١١﴾ **أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ**﴾، لكن هذا لا يثبت[3].

وموضوع السورة قريب الشبه بموضوع «سورة القارعة»، وهو الحديث عن بعض حوادث الدار الآخرة، وهذا يقوِّي القول بأنها مكية.

وهو موضوع مهم؛ لأن وازع السلطة والرقابة ليس كافيًا ولا ضامنًا، فلا بد من التعويل على وازع الإيمان في النفوس، حتى ينكف الناس عن المعاصي[4]، ويقبلوا على الطاعات؛ رجاء ثواب الله تعالى والدار الآخرة، وهذا من مقاصد الخطاب الإسلامي التي ينبغي أن تؤصل وتنشر.

---

(1) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 266)، و«تفسير البغوي» (8/ 498)، و«تفسير الرازي» (32/ 54)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 459)، و«التحرير والتنوير» (30/ 489)، والمصادر الآتية.

(2) ونُقل أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما. ينظر: «الكشاف» (4/ 790)، و«تفسير القرطبي» (20/ 146)، و«البحر المحيط في التفسير» (8/ 496)، و«الدر المنثور» (15/ 579)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 266)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 422)، و«أسباب النـزول» للواحدي (ص304)، و«فتح القدير» (5/ 681).

(4) أي: يعدل الناس عن المعاصي.

* **ولم يصح في فضلها شيء**، وأما ما ورد من كونها تعدل نصف القرآن، فلا يثبت[1].

وكذلك ما ورد من أن «**مَن قرأها فله من الأجر مثلُ أجر داود، وكان في الجنة رَفِيق داودَ، وفُتح له بكل آية قرأها في قبره بابٌ من الجنة**». لا يصح[2].

وورد في «سنن أبي داود»، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قرأها في الركعة الأولى والثانية من صلاة الفجر[3]، وفيه نظر.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال عن الخيل: «**الخيلُ لثلاثة: لرجل أجرٌ، ولرجلٍ سترٌ، وعلى رجل وزرٌ...**». ثم سُئل صلى الله عليه وسلم عن الـحُمُر، أي: عن زكاتها، فقال: «**ما أُنزل عليَّ في الحُمُر شيءٌ، إلا هذه الآية الفاذَّة الجامعة:** ﴿ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ﴾»[4].

* ﴿ ﴾ ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ طَغَىٰ﴾:

بدأها تعالى بالشرط المستقبلي: ﴿ ﴾.

---

(1) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص262)، والترمذي (2893، 2894)، وابن الضُّريس في «فضائل القرآن» (298)، والحاكم (1/ 566) من حديث أنس وابن عباس رضي الله عنهما، وينظر: «ميزان الاعتدال» (1/ 493)، و«زاد المعاد» (1/ 317- 318)، و«المنار المنيف» (ص114)، و«فتح الباري» (9/ 61- 62)، و«نتائج الأفكار» (3/ 268)، و«السلسلة الضعيفة» (1342).

(2) ينظر: «بصائر ذوي التمييز» (1/ 536)، وقال: «منكر».

(3) أخرجه أبو داود (816)، والبيهقي (2/ 546) من حديث رجل من جهينة رضي الله عنه. وينظر: «المجموع» (3/ 384)، و«فتح الباري» لابن رجب (7/ 56)، و«نتائج الأفكار» (1/ 435)، و«أصل صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم» (2/ 435).

(4) ينظر: «صحيح البخاري» (2860)، و«صحيح مسلم» (987).

**والزلزال** هو: الحركة الشديدة المعروفة(1)، لكنه هنا زلزال فريد في قوته وشدته ووقته.

ويشهد لهذا قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: 1]، فهي زلزلة لا تخطر على البال؛ ولهذا قال: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾. يعني: زلزالها المتفرد، الذي لا يشابهه شيء، ولا يدانيه، ولا يقاس إليه.

**واختلف العلماء في ميقات هذا الزلزال:**

**فقيل**: يكون عند النفخة الأولى التي يموت بها كل شيء. وقالوا: إنه قد يكون بسبب النفخ.

**وقيل**: إنه عند النفخة الثانية التي يقوم بها الناس(2).

وعزَّزوا ذلك بأن الله تعالى أتبعه بقوله: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ رَأَىٰ﴾.

ولا مانع أن يكون المراد في الآية النفختين معًا؛ فزلزال يكون مع النفخة الأولى حينما يهلك الخلائق جميعًا، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، ثم يكون الزلزال الثاني عند النفخة الثانية، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وبين النفختين أربعون سنة، كما ورد(3)، وذلك شيء يسير بالنسبة ليوم مقداره خمسون ألف سنة، فإن وقع زلزالان بينهما أربعون سنة، يعتبر ما بينهما قليلًا، وكأنهما زلزال واحد.

❊ ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ رَأَىٰ﴾:

---

(1) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص382).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 789)، و«تفسير السمعاني» (6/ 267)، و«الكشاف» (4/ 783)، و«تفسير القرطبي» (20/ 147- 148)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 523).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (4935)، و«صحيح مسلم» (2955).

وهنا ذكرت ﴿بِٱلۡأُفُقِ﴾ مرة أخرى؛ لأن تكرارها يزيد من الحضور الذهني لها، وإخراج أثقالها حدث آخر بعد الزلزلة، أي: أخرجت ما في جوفها كما تضع الحاملُ حملَها.

وهذا كقوله سبحانه: ﴿يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٖ﴾ [الانشقاق: 3- 4]، أي: أخرجت ما في جوفها، **فما هذه الأثقال؟**

**الأقرب** أنها كل ما في جوف الأرض من معادن وكنوز، ويدخل فيه البشر الذين استودعوا باطن الأرض، فيخرجون إلى ظهرها[1].

وفي الحديث: «**تَقِيءُ الأرضُ أفلاذَ كبدِها، أمثالَ الأُسطوان من الذهب والفضة، فيجيءُ القاتِلُ فيقول: في هذا قَتلْتُ. ويجيءُ القاطِع فيقول: في هذا قَطَعْتُ رَحِمي. ويجيءُ السارق فيقول: في هذا قُطِعَت يدي. ثم يدعونَه فلا يأخذونَ منه شيئًا**»[2].

* ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ رَبِّهِۦ ﴾:

**والمقصود**: كل إنسان، **وقيل**: الكافر[3]؛ لأن المؤمن يكون آمنًا مطمئنًا، **والأول أقرب**؛ لأن المؤمن يصيبه شيء من الفزع، وكلام الرسل والأنبياء في عرصات القيامة: «**اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**»، «**نفسي نفسي**»[4].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 558)، و«تفسير الماوردي» (6/ 320)، و«زاد المسير» (4/ 477)، و«تفسير الرازي» (32/ 254)، و«تفسير القرطبي» (20/ 147)، و«روح المعاني» (15/ 434)، وما تقدم في «سورة الانشقاق»: ﴿ٱلۡقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٖ أَفَرَءَيۡتُمُ﴾.

(2) أخرجه مسلم (1013) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 790- 791)، و«تفسير الطبري» (24/ 559)، و«المحرر الوجيز» (5/ 510)، و«زاد المسير» (4/ 477)، و«تفسير القرطبي» (20/ 148).

(4) ينظر: «صحيح البخاري» (806، 3340)، و«صحيح مسلم» (182، 194).

فالأمر فيه هول وفزع، ولهذا عبَّر سبحانه بالإنسان، ولم يقل: «وقال الناس».

فكل إنسان مشغول بنفسه ونجاتها؛ لأنه يوم ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: 2]. وهو ﴿ٱلْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [عبس: 36]، فكل واحد مشغول بنفسه.

ولو قال: «وقال الناس». لربما فهم منه أن الحديث جماعي منهم أو فيما بينهم، في حين أن الأمر ليس كذلك، بل كل إنسان مشغول بفزع نفسه يتساءل: ما للأرض؟ وما الذي يجعلها تميد وتضطرب؟ ما الذي حصل لها؟! في حيرة وانبهار!

* ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَفَرَءَيْتُمُ﴾:

في الآيات الثلاث تسلسل؛ فالآية الأولى فيها الزلزلة، وفي الثانية إخراج الأثقال، وهو تابع من توابع الزلزلة، وفي الثالثة كلام الإنسان؛ فبعدما حصلت الزلزلة والرجفة وخرجت الأثقال ومن ضمنها الإنسان، خرج ورُدَّتْ إليه الروح وأصبح ناطقًا عاقلًا، فبدأ يتساءل: ﴿فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ ؛ فحينها يأتيه الجواب: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ﴾.

قال بعض المفسرين: أي تُخبر بما عمل الناس عليها من خير أو شر، وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قال: «**أَتدْرونَ ما أخبارُها؟**». قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «**فإن أخبارَها: أن تَشهدَ على كلِّ عبدٍ وأَمَةٍ بما عملَ على ظهرها، أن تقول: عَمِلْتَ عليَّ كذا وكذا، يومَ كذا وكذا**». قال: «**فهذه أخبارها**»[1].

(1) أخرجه أحمد (8867)، والترمذي (2429، 3353)، وابن حبان (7360)، والحاكم (2/ 256، 532) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والحديث قال عنه الترمذي: «حسن غريب صحيح». وقال مرة: «حسن صحيح غريب». وصحَّحه الحاكم على شرط الشيخين، وهو حديث ضعيف[1].

لكن لا مانع أن يكون من أخبارها أن تشهد على الإنسان بما عمل عليها، والله تعالى قال: ﴿سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ﴾ [الدخان: 29].

وقال بعضهم: إن المقصودَ بها ما يحصل من الزلزلة وما يتبعها، فيكون مجازًا، وهذا لا بأس به، فهو من أخبارها، وليس هذا من التأويل المردود، فإنه معروف في اللغة، كما أن العرب يتكلمون ويخاطبون الديار[2]:

عُوجُوا فحيُّوا لِنُعْمٍ دِمْنَـةَ الدَّارِ[3] *** ماذا تُحيُّونَ مِنْ نُؤْيٍ[4] وأحجارِ؟

فَاستعْجَمتْ دارُ نعمٍ ما تُكلِّمُنا *** والدَّارُ لو كلَّمَتْنا ذاتُ أَخْبـارِ

فهم يستنطقون البيوت والديار والآثار، فكأنها تحدِّثهم بما جرى فيها من أخبار وحوادث، وهو جار على لغتهم، فالآية تشمل أن تخبر بما أذن الله أن تخبر به عن الناس، ويجعل الله تعالى فيها هذه القدرة، وتشمل ما يقع للأرض من الأحوال والحوادث التي يراها الناس، وكأن الأرض تتحدَّث أو تخبر عنها، وقد ذكر هذا الطبري وغيره[5].

* ﴿﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴿١٩﴾﴾:

---

(1) ينظر: «السلسلة الضعيفة» (4834).

(2) ينظر: «ديوان النابغة الذُّبياني» (ص18).

(3) **عُوجوا**: قفوا. **والدِّمْنة**: آثار البلاد.

(4) **النُّؤي**: ما يُحفر حول الخباء لدفع المياه والأمطار.

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 560)، و«تفسير ابن فورك» (3/ 258- 259)، و«تفسير الماوردي» (6/ 319- 320)، و«المحرر الوجيز» (5/ 511)، والمصادر السابقة.

الباء هنا سببية، أي: بسبب أن ربك أوحى لها، **والوحي لغة**: الخبر الخفي غالبًا، وهو وحي أمر كوني قدري[1]. **والوحي على نوعين**[2]:

1- **وحي شرعي**، وهو الذي تنزل به الملائكة على الرسل والأنبياء عليهم السلام؛ كالقرآن: ﴿ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء: 193- 195].

2- **وحي تسخيري إلهامي، تكويني**، يخلق الله به، فهو مثل الأمر؛ **فالأمر أمران**: **أمر قدري** يخلق الله به ويرزق، **وأمر شرعي**، مثل إيجاب شيء أو تحريم شيء.

**فالمعنى**: أمرها أمرًا تسخيريًّا تكوينيًّا، لا تملك إلا أن تنفذه، كقوله تعالى: ﴿﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا﴾ [النحل: 68].

**فإن قيل**: لماذا قال في النحل: ﴿﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا﴾، في حين قال هنا: ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، ولم يقل: «أوحى إليها»؟

**فالجواب**:

1- أن قوله: ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ فيه تضمين، والتضمين هو أن يضمن الفعل «أوحى» معنى «أذن»، أي: أن ربك أذن لها، أو قال لها، كما في قوله: ﴿هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [فصلت: 11- 12].

ولرُؤبة بن العجَّاج[3]:

وَحَى لها القَرارَ فاستقرَّتِ *** وشدَّهَا بالرَّاسياتِ الثُّبَّتِ

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (4/ 133)، و«تاج العروس» (40/ 171) «و ح ي».

(2) ينظر: «دراسات في علوم القرآن» (ص175)، و«المحرر في علوم القرآن» (ص68).

(3) ينظر: «ديوان رُؤبة بن العجَّاج» (2/ 408).

2- أن هذا هو المناسب لفواصل الآيات، فهو أنسب مما لو قال: «أوحى إليها».

* ﴿أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا ﴿٢٠﴾﴾:

**صدورهم أشتاتًا يحتمل:**

- **صدورهم متفرقين:** بين مؤمن وكافر، أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، أصحاب الجنة وأصحاب النار.

وقريب منه أن يُحشر الناس كلٌّ مع نظيره، كما في قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: 22]، ﴿﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ﴾ [التكوير: 7]. أي: حُشر الإنسان مع نظيره؛ فالأخيار مع الأخيار، والفجار مع الفجار، واليهود مع اليهود، والنصارى مع النصارى، والمؤمنون مع المؤمنين، وأهل الضلالة مع أهل الضلالة، وهكذا كل فئة تُحشر مع فئتها، ولعل من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: 71].

- **ويحتمل أنهم** يصدُرون مجموعاتٍ على غير انتظام ولا اتفاق ولا انضباط فيما بينهم، فهذا من معاني التشتت[1].

﴿ٱلْفُؤَادُ مَا﴾ بضم الياء، ولم يذكر مَن الذي يريهم؛ للعلم به، فهو ربُّهم تعالى، **ولكن هل سيرون حقيقة هذه الأعمال؟**

**المشهور:** يرون جزاءها، وقد يرونها في موازينهم، وقد يرونها في صحائف أعمالهم، ولا غرابة أن يرى الناس حقيقة أعمالهم في الدار الآخرة، فنحن نرى اليوم أن

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 562)، و«تفسير الماوردي» (3/ 320)، و«زاد المسير» (4/ 478)، و«تفسير الرازي» (32/ 256)، و«تفسير القرطبي» (20/ 149)، و«التحرير والتنوير» (30/ 494).

الإنسان بوسائله العادية البسيطة يحفظ الصوت والصورة، كما تفعل أجهزة التصوير التي تستخدم للتجسس أو للإثبات أو التوثيق.

في يوم القيامة تشهد على الإنسان جوارحه وحواسه وجلده بما عمل، فلا غرابة أن يرى صورة عمله؛ والمتقدمون يقولون: تصور لهم أعمالهم، وتحول إلى أشياء مرئية، والأولى أن تظل الآية على شمولها، ومن ذلك أن يروا أثر العمل، وأن يروا حساب العمل، وأن يروا العمل مكتوبًا في صحائفهم، وأن يروا العمل ذاته موثقًا مشهودًا.

* ﴿(١١) أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ إِذَا﴾:

هذا دليل على أن مرد الأمر إلى العمل، وأن الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة، وأن الأعمال السيئة سبب لدخول النار، وفي الآية تذكير بأهمية العمل وخطره، وأنه معدود على المرء حَقُرَ أم عَظُمَ، فللقلب أعمال وللجوارح أعمال وللسان أعمال؛ ولذلك قال عمر بن عبد العزيز: «مَن عَدَّ كلامَه مِن عملِه، قلَّ كلامه فيما لا ينفعه»[1].

وقد يقع من عمل الإنسان ما هو داخل في دائرة المباح، الذي لا يُوصف بأنه خير أو شر، إلا بموجب القصد والنية، فإن قصد به خيرًا أُجر عليه، وإن قصد به شرًّا أثم، وما لم يقصد بها هذا ولا ذاك، فهو من العفو الذي لا يحاسب عليه، ولذا لم يذكره في الآية.

---

(1) أخرجه معمر في «جامعه» (19795)، وابن المبارك في «الزهد» (383)، والدارمي (313)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (35)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (61)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (8/ 157).

وكثير من المسلمين يتساهلون فيها، وبعضهم يترك عمل الفرائض مدَّعيًا أن التقوى في القلب وحَسْب، أو يقصر الأعمال الخيرة في فعل العبادات دون السلوك والأخلاق!!

والله يحب عمل الدنيا النافع، ويثيب عليه، وقد يعاتب على تركه؛ لأنه يترتب عليه فوات مصالحه الخاصة، أو مَن يعول من زوجة أو أهل أو ولد أو نحو ذلك، أو يذل نفسه بالسؤال أو بالسرقة، وبهذا الفكر والإهمال لأهمية العمل تتحول الأمة في مجموعها إلى أمة متخلِّفة ضعيفة، مستهلِكة غير منتجة.

ومن الخلل البيِّن أن بعض الناس لما يقرؤون مثل هذه الآية ينقدح في أذهانهم أن الأعمال التي تُوزن هنا، هي العبادات المحضة من صلاة أو صدقة أو نُسك، وهذا جهل مفرط بالدين؛ لأن النص ما ترك شيئًا إلا انتظمه؛ مصالح الأفراد أو الأسر أو الجماعات والأمم، والإخلال بشيء من ذلك مظنة المحاسبة والمؤاخذة، والإنسان إذا أخلَّ بأمر يخصه في عبادته كان الحساب عليه فقط، وإذا أخلَّ بأمر يتعلق بمصلحة الأمة، كأن يقصِّر في وظيفته أو أمانته، أو لا يقوم بواجبه؛ كان ضرر ذلك على مَن تحت يده.

فينبغي أن نحرِّر هذا المعنى ونصحِّحه، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: 77].

و«**الذرة**» **فيها أقوال خمسة**، ذكرها ابن الجوزي وغيره، **وأشهرها**: أنها واحدة الذَّرِّ، وهو النمل الصغير. أو هي ذرة الهباء التي يراها الإنسان في الهواء تحت ضوء الشمس من كوة أو غيرها[1].

---

(1) ينظر: «زاد المسير» (1/ 406)، و«البحر المحيط في التفسير» (3/ 641)، و«الدر المنثور» (15/ 595)، و«روح المعاني» (15/ 437).

والعلماء المعاصرون يعنون بالذرة شيئًا آخر، وهو ذلك الجزيئ المتناهي في الصغر الذي تتكون منه المادة.

**والسياق يدل على أن المعنى**: مَن يعمل أقل مقدار من الخير يرَهُ، أو أقل مقدار من شرٍّ يرَهُ، وهذا لا يُستثنى فيه شيء، فكل ما يتصور من الصغر فهو مقصود في هذه الآية، والله تعالى أعلم، وقد قال سبحانه: ﴿مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ﴾ [الكهف: 49]، وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: 40]، فالله تعالى لا يظلم شيئًا، ولا يظلم أحدًا.

**والمثقال** هنا قدر من الوزن.

**وها هنا مسألة: هل ينفع الكافر ما يعمله من خير؟**

**والجواب**: أنه يُجازى عليه في الدنيا؛ لأن الله لا يظلم أحدًا شيئًا، فيُجازي في الدنيا بمقدار ما عمل من الخير والطاعات[1].

وأما المؤمن فما عمل من خير- وإن كان شيئًا يسيرًا- قد يُجازى عليه في الدنيا ويُدَّخر له في الآخرة ما هو أعظم، وما عمل من شر- وإن كان قليلًا- فقد يُعجَّل له عقوبته في الدنيا بما يُخفِّف عنه عقوبته في الآخرة، وقد تُؤخَّر عقوبته إلى يوم القيامة، وقد يغفر الله له ذنبه.

وأصحاب الكبائر تحت مشيئة الله تعالى، إن شاء عذَّبهم وإن شاء غفر لهم، كما في قصة الرجل الذي قال الله تعالى فيه: «**اعرِضُوا عليه صِغَارَ ذُنوبِه، وارفَعُوا عنه كِبَارهَا. فتُعرضُ عليه صغَارُ ذنوبِه، فيقال: عَمِلْتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، وعَمِلْتَ يوم كذا وكذا كذا وكذا. فيقول: نعم. لا يستطيعُ أن يُنكِرَ، وهو مشفِقٌ من كِبَارِ ذنوبِهِ**

(1) ينظر ما تقدم في «سورة الانشقاق»: ﴿﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴿٢٠﴾﴾.

**أَنْ تُعرَضَ عليهِ، فيقال له: فإنَّ لك مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً. فيقول: ربِّ! قد عملت أشياءَ لا أراها هاهنا»**[1].

**وفي الآية حث للإنسان على أمرين:**

1- ألَّا يستهيْن بخير يعمله كائنًا ما كان هذا الخير، ولو كان زهيدًا، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**لا تَحقِرَنَّ جارةٌ لجارتها، ولو فِرْسِنَ شاةٍ**»[2]. وقال: «**الكَلِمةُ الطيبة صَدَقةٌ**»[3]. وقال: «**وأَمْرٌ بالمعْروفِ صدقةٌ، ونهيٌ عن المنكَرِ صدقةٌ**»[4]. وقال: «**ولا يزالُ لِسَانُك رطبًا بذكرِ الله**»[5]. والخيرات كثيرة، كلٌّ مستطيع أن يأخذ منها بنصيب.

**ومن ذلك**: عملُ القلب، مثل: العفو عن المؤمنين والمؤمنات، ومسامحتهم إن أخطؤوا وظلموا، والتذكر والتفكر.

وهكذا الأعمال الصالحة المتعدِّية نفعها للناس، سواءً أكانت أعمالًا تعبُّدية شرعية؛ كالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أم أعمالًا دنيوية؛ كالبِرِّ والجود والإحسان والصِّلة ونفع الناس في دنياهم ومعاشهم، والتسلية عن همومهم.. إلى غير ذلك من المقاصد التي يحبها الله ويرضاها.

2- أَلَّا يستهين بمعصية ولو قلَّت؛ فإن المحقِّرات من الذنوب تجتمع على الرجل العظيم حتى تهلِكَه؛ فلا يستهين بكلمة غيبة، أو نميمة، أو نظرة حرام، أو سخرية، أو

---

(1) أخرجه مسلم (190) من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

(2) أخرجه البخاري (6017)، ومسلم (1030) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) أخرجه البخاري (2989)، ومسلم (1009) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) أخرجه مسلم (720) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(5) أخرجه أحمد (17698)، والترمذي (3375)، وابن ماجه (3793)، وابن حبان (815)، والحاكم (1/ 495) من حديث عبد الله بن بُسر رضي الله عنه.

غفلة، أو تأخر في صلاة، أو كلمة سيئة في حق الوالد، أو تقصير في واجب، أو غِشٍّ يسير، أو تجاوز.

فحريٌّ بمَن يقرأ هذه الآية أن يقف عندها؛ ولهذا ورد أن صَعْصَعة بن معاوية رضي الله عنه، عم الأَحنف جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فسمعه يقرأ هذه الآية، فقال: «حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها»[1].

وقرأ الحسن البصري هذه الآية عند أعرابي، فلما قال: ﴿رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ﴾. قال الرجل: انتهت الموعظة[2].



(1) أخرجه أحمد (20593)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (1198)، والنسائي في «السنن الكبرى» (11694)، والطبراني (7411)، والحاكم (3/ 613).

(2) ينظر: «الزهد» لابن المبارك (82)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 448)، و«تفسير البغوي» (5/ 294)، و«المحرر الوجيز» (5/ 512)، و«تفسير القرطبي» (20/ 153)، و«التحرير والتنوير» (30/ 495).

# سورة العاديات

*** تسمية السورة:**

اسمها: «**سورة العَاديات**» في معظم المصاحف وكتب التفسير.

وبعضهم يضيف الواو، فيسميها: «**سورة** ﴿ﭑ﴾»[1]. وهذا بالنظر إلى حكاية الآية وسياقها.

*** عدد آياتها:** إحدى عشرة آية باتفاقهم[2].

*** واختلف هل هي مكية أم مدنية؟ فقيل:** مكية، وهو قول ابن مسعود رضي الله عنه، وعطاء، والحسن، وعكرمة[3].

**وقيل:** مدنية، وهو قول ابن عباس، وأنس رضي الله عنهما، وقتادة، ورجَّحه الطاهر ابن عاشور[4].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص743)، و«تفسير مقاتل» (4/ 795)، و«تفسير عبد الرزاق» (2/ 390)، و«صحيح البخاري» (6/ 176)، و«تفسير الطبري» (24/ 570)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 423)، و«المستدرك» (2/ 533)، و«تفسير القرطبي» (20/ 153)، و«بصائر ذوي التمييز» (1/ 361)، و«التحرير والتنوير» (30/ 489).

(2) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص284)، و«روح المعاني» (15/ 441).

(3) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 270)، و«تفسير البغوي» (8/ 505)، و«زاد المسير» (4/ 480)، و«تفسير الرازي» (32/ 60)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 465).

(4) ينظر: «إعراب القرآن» لابن سيده (8/ 214)، و«البحر المحيط في التفسير» (8/ 499)، و«تفسير النيسابوري» (6/ 549)، و«الإتقان» (1/ 46، 57)، و«التحرير والتنوير» (30/ 497).

**واعتمد في الترجيح** على سبب النزول، وحاصله أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم بعث سريةً فأبطأت عليه شهرًا لا يأتيه خبرها، فاغتم لذلك صلى الله عليه وسلم، ثم نزلت هذه السورة[1].

وهذا ضعيف، شأنه شأن معظم أسباب النزول؛ فإنه يغلب عليها الضعف، ولم يصح في فضل هذه السورة حديث فيما أعلم، وذكر الفيروز آبادي في «بصائر ذوي التمييز» آثارًا لا تصح[2].

**اشتملت السورة على ثلاثة أقسام:**

**الأول**: يشمل خمس آيات، وهي قوله: ﴿ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾، وهي مقدِّمات تعتبر قَسَمًا أقسم الله تعالى به، وهو الثلث الأول من السورة.

**الثاني**: الحقيقة التي أقسم الله عليها: ﴿ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِذًا ﴾.

**الثالث**: وعظ وتذكير، وهو بقية السورة: ﴿ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ بِهَا ﴾:

* ﴿ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ﴾:

مأخوذة من العَدْو، وهو الرَّكض السريع، ولا يخص الحيوانات فحسب، بل هو شامل للإنسان.

---

(1) أخرجه البزار (2291- كشف)، والدارقطني في «الثاني من الأفراد» (5)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص463). وينظر: «علل ابن أبي حاتم» (1673)، و«تعليقات الدارقطني على المجروحين» (62)، و«تفسير ابن كثير» (4/ 543)، و«فتح الباري» (8/ 727)، و«الدر المنثور» (15/ 598)، و«روح المعاني» (30/ 217).

(2) ينظر: «بصائر ذوي التمييز» (1/ 538).

وهي هنا الحيوانات العادية، أقسم الله بها حال عَدْوها.

ويحتمل أن تكون هي الخيل بخاصة، وهذا قول أكثر المفسرين.

وخصُّوا الخيل؛ لقوله: ﴿عِندَهَا﴾؛ لأن الضَّبْح- وهو الحَمْحَمة- هو صوت الخيل إذا أسرعت وركضت، فيصير لها صوت قوي في داخلها لا يبين، هكذا: «أح أح أح»[1].

وقد نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أنه لا يَضْبَح إلا الثعلب والكلب والفرس[2].

**وقيل: هي الإبل**، وهو مروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[3]، فيكون على سبيل الاستعارة والنقل، فالإبل لا تَضْبَح كما تَضْبَح الخيل.

وقد روى الشَّعْبيُّ وغيره أن رجلًا سأل عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه: ما «العاديات ضبحًا»؟ فقال: هي الإبل. فكأن الرجل تعجَّب، فقال عليٌّ رضي الله عنه: هل سألتَ أحدًا قبلي؟ قال: نعم. قال: مَن؟ قال: سألتُ ابنَ عباس. قال: فما قال لك؟ قال: قال: إنها الخيل. قال: عليَّ به. فجاؤوا بابن عباس- وكان هذا في خلافة علي رضي الله عنه- فقال له: يا ابنَ عباس، أقلتَ في «العاديات ضبحًا»: إنها الخيل؟ أتفتي فيما لا علم لك، والله، لقد غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة بدر،

(1) ينظر: «الصحاح» (1/ 385)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص501)، و«تاج العروس» (6/ 561- 562) «ض ب ح».

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 268)، و«تفسير البغوي» (8/ 505)، و«تفسير القرطبي» (20/ 154، 156)، و«تفسير الخازن» (7/ 283)، و«البحر المحيط في التفسير» (8/ 499)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (8/ 509)، و«التحرير والتنوير» (30/ 498).

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 600)، و«تفسير الماوردي» (6/ 323)، والمصادر السابقة.

وما كان معنا إلا فَرَسان، وما كانت إلا الإبل، فالعاديات هي الإبل، وقد أقسم اللهُ بها وبغارتها[1].

وابن عباس رضي الله عنهما لم يقل: إنها كانت في بدر أو في غيرها، وكأن عليًّا رضي الله عنه يرى أن القَسَم هو بركائب المسلمين في بدر وغارتها، وظاهره أنه يرى أن السورة مدنية.

**والضَّبح، أو الضَّبْع** هو: الصوت مع مد العنق، وهو مفعول مطلق، أي: تضبحُ ضَبْحًا[2].

* ﴿ٱلۡمَأۡوَىٰ ١٥ رَأَىٰ﴾:

**أَوْرَى**: أوقد أو شبَّ، فالذي يُورِي هو الذي يقدح[3].

**والمقصود**: الخيل إذا جرت؛ لأنها تقدح النار إذا ضربت حوافرها في الصخر أو الحجارة التي في الأرض لسرعتها، فيقع من جراء ذلك الشَّرر، وهذا قول جمهور المفسرين[4].

---

(1) ينظر: «الأضداد» لابن الأنباري (ص364، 365)، و«تفسير الطبري» (24/ 570)، و«المستدرك» (2/ 115)، و«المحرر الوجيز» (5/ 513)، و«تفسير القرطبي» (20/ 155)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 465)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (4/ 267)، و«فتح الباري» (8/ 727).

(2) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص535)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 603)، و«الكشاف» (4/ 788)، و«تفسير القرطبي» (20/ 155- 156)، و«روح المعاني» (15/ 442)، و«التحرير والتنوير» (30/ 499).

(3) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (4/ 228)، و«تاج العروس» (7/ 40) «ق د ح»، و«معجم اللغة العربية المعاصرة» (3/ 2429) «وري».

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 575- 578)، و«تفسير الماوردي» (6/ 324)، و«المحرر الوجيز» (5/ 514)، و«زاد المسير» (4/ 481)، و«تفسير الرازي» (32/ 260)، و«تفسير القرطبي» (20/ 157)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 466)، و«التحرير والتنوير» (30/ 500).

وهذا يقوِّي القول بأن المقصود بها الخيل؛ لأن الإبل لا يقع لها ذلك بخفافها، إلا إذا قلنا بنوع من التكلف: إن الإبل إذا أسرعت تضرب الحجارة بعضها ببعض، ويقع من جراء ذلك قدح للنار.

**وقيل**: الموريات: نيران المجاهدين إذا أوقدوها؛ لأنهم غالبًا إذا هموا بالهجوم يوقدون النيران؛ حتى يظن أنهم كثير، ولو لم يكونوا كذلك.

**وبعضهم قال**: هي مكر الرجال، وتحريكهم لعقولهم في استنباط الحيل! أو هي ألسنتهم إذا كشفت الحجج وأبانت عنها.

**وقيل**: هي نيران الحجيج إذا أوقدوها بعرفة أو مزدلفة.

وعزَّزوا ذلك بأن مزدلفة تسمَّى: ﴿جَمْعًا﴾، وهذا على القول بأن «العاديات» هي الإبل إذا مضت بالـحُجَّاج.

**والأقرب أن المقصود**: الخيل؛ لأنها إذا ضربت بحوافرها في الأرض الصلبة أورت النار؛ ولذلك يقول النابغة[1]:

ولا عيبَ فيهم غَيرَ أن سُيوفَهم *** بِهِنَّ فُلولٌ من قِـراعِ الكتَائِـب[2]

تَقُدُّ السَّلُوقيَّ المُضاعَفَ نسجُـهُ *** وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُباحِبِ[3]

* ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾:

**الركائب** التي تُغِير على العدو في الصباح[1]؛ لأنهم أكثر ما يُغيرون في الصباح؛ لأن الأمور في النهار مكشوفة، والنور يفضح.

---

(1) ينظر: «ديوان النابغة الذُّبياني» (ص15).

(2) **الفُلول** جمع: فل، وهو تشقق حد السيف، **وقِراع الكتائب**: مجالدة الجيوش.

(3) **السَّلُوقي**: درع منسوبة إلى سَلوق؛ مدينة بالروم، **والمضاعف نسجه**: الذي نُسِج حلقتين حلقتين، **والصُّفاح**: حجارة عريضة، **والحُباحب**: ذُباب يطير بالليل في أذنابه كشرر النار، **وقيل**: ما اقتدح من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة.

وفي الحديث: «**إنا إذا نَزَلْنَا بساحة قومٍ، فسَاءَ صباحُ المُنْذَرينَ**»[2]. وهكذا في القرآن: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ [الصافات: 177].

وإذا كان المقصود بـ«العاديات»: الإبل، فتكون الغارة هنا هي الدفع من عرفة إلى مزدلفة، ثم الدفع من مزدلفة إلى منى.

وليست الغارة مقصورة على الحرب، بل دفع الإبل مجموعةً إلى مكانٍ ما يسمى غارة، ولو لم يغيروا على عدو، فهم كانوا يذهبون إلى منى بعد الإشراق، فيقولون: «أَشْرِقْ ثَبِيرُ، كَيْمَا نُغيرُ». فلا ينصرفون إلا إذا سطع عليه نور الصباح[3].

* ﴿يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا أَفَرَءَيْتُمُ﴾:

**الإثارة:** تحريك الشيء الساكن، **والنَّقْع** هو: الغبار، كما قال حسان رضي الله عنه[4]:

عَدِمنَا خَيْلَنـا إنْ لـمْ تَـرَوْهَا *** تُثيرُ النَّقْعَ موعِـدُهـا كَدَاء

وقال بَشَّار بن بُرْد[5]:

كَأَنَّ مثارَ النَّقْعِ فَوقَ رؤوسِنـا *** وأسيافَنا ليلٌ تهاوَى كواكِبُهُ

فالنَّقْع إذا جاء معه كلمة «أثار»، فالغالب أن المقصود به الغبار، وضمير الهاء في قوله تعالى: ﴿﴿١٦﴾﴾ يجوز أن يكون عائدًا إلى العَدْو المذكور في أول السورة، أو يعود إلى المكان الذي يُثار فيه الغبار[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 578)، و«تفسير الماوردي» (6/ 324)، و«زاد المسير» (4/ 481)، و«تفسير القرطبي» (20/ 158)، و«التحرير والتنوير» (30/ 501).

(2) أخرجه البخاري (371، 610)، ومسلم (1365) من حديث أنس رضي الله عنه.

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (1684). وثَبِير: جبل بمزدلفة.

(4) ينظر: «ديوان حسان بن ثابت» (ص73).

(5) ينظر: «ديوان بشار بن برد» (1/ 318).

* ﴿ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٩﴾:

يحتمل أن يكون الضمير كسابقه عائدًا للعَدْو، ويحتمل أن يكون عائدًا للمكان، أي: صرن في وسط هذا الجمع من الأعداء الذين استهدفتهم الغارة. وإذا قلنا: إن العاديات هي: الإبل، فقوله: ﴿ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: مزدلفة، وجَمْع: اسم من أسمائها، ومنه قولهم: ليلة جَمْع، أي: مزدلفة. فيكون المعنى: دخلت الإبل بمزدلفة، حتى صارت في وسط هذا المَشْعَر.

ومن الملاحظ أن السياق كان في البداية أسماء، ثم صار أفعالًا، أقسم الله تعالى بـ«العاديات».. فـ«الموريات».. فـ«المغيرات».. ثم انتقل السياق وتغير، بخلاف سور أخرى، مثل: ﴿ٱلْبَصَرُ وَمَا﴾، ومثل ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ﴾ والسياق هنا أبلغ مما لو ساق مجموعة من الأسماء المتسلسلة، كما قال الشاعر العربي، الذي يدَّعي أنه لقي الغُول[2]:

بأني قد لقيتُ الغُولَ تهوي *** بسَهْبٍ كالصَّحيفَةِ صَحْصَحانِ

فأضرِبُها بلا دهْشٍ فخرَّت *** صريعًا لليدَيْنِ وللجِرانِ

فغاير بين الفعل الماضي والمضارع ثم الماضي، فالتنويع يحدث عند الإنسان نوعًا من عدم الاسترسال، ويغيِّر النمط الذي سمعه.

* ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ ٢٠﴾:

هذا هو المقسَم عليه، وأكثر المفسرين على أن الإنسان هو: الكافر أو الفاجر. وهذا محتمل.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 580)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 8403)، و«الكشاف» (4/ 787)، و«تفسير الرازي» (32/ 260)، و«التحرير والتنوير» (30/ 501).

(2) ينظر: «ديوان تأبط شرًّا» (ص224- 225)، و«الكشاف» (3/ 601)، و«تفسير القرطبي» (14/ 327)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 16).

**ويمكن أن يكون المقصود:** جنس الإنسان من حيث هو؛ فأصله وطبعه كذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72]، فكل الناس حملوا الأمانة، والغالب في الإنسان أنه ظلوم جهول، إلا مَن حفظه الله ورحمه[1].

وقد ورد من حديث أبي أُمامة رضي الله عنه مرفوعًا وموقوفًا، والموقوف أصح: «الكَنُود: الذي يضرِب عبدَه، ويمنعُ رِفدَه، ويأكلُ وحدَه»[2].

وهذه صفات سيئة في الإنسان، وهي بعض صفات الكَنُود، وقد وُصف بصفات أخرى، **فقيل:** الكفور الذي يجحد النعمة، **وقيل:** الجحود الذي لا يعترف بالفضل والإحسان، وإنما يذكر السيئ، **وقيل:** الحقود، أو الحسود[3].

وبعضهم نظم هذا في أبيات فقال[4]:

يا أيُّها الظَالِـمُ في فِعْـلِـه *** والظُّلْمُ مردودٌ على مَنْ ظَـلَـمْ

إلى مَتى أنتَ وحتَّى متَى *** تَشْكُو المُصيباتِ وتَنْسَى النِّعَمْ

أقسم تعالى على هذا الوصف، وكأن في ذلك إشارة إلى ما شرعه الله تعالى لعباده وأوجبه عليهم، من الجهاد بالنفس والمال، فالذي يحول بين الإنسان وبين طاعة الله

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (3/ 261)، و«زاد المسير» (4/ 481)، و«تفسير القرطبي» (20/ 161)، و«التحرير والتنوير» (30/ 503).

(2) أخرجه مرفوعًا: ابن وهب في «تفسيره» (254)، والطبري في «تفسيره» (24/ 586)، وابن أبي حاتم في «تفسيره»- كما في «تفسير ابن كثير» (8/ 467)- والطبراني (7778، 7958)، والثعلبي في «تفسيره» (10/ 271).

وأخرجه موقوفًا: ابن معين في «تاريخه» (5407)، والبخاري في «الأدب المفرد» (160)، والطبري (24/ 587). وهو ضعيف موقوفًا ومرفوعًا، وينظر: «السلسلة الضعيفة» (5833).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 584)، و«زاد المسير» (4/ 481)، و«التحرير والتنوير» (30/ 502).

(4) ينظر: «الشكر» لابن أبي الدنيا (63)، و«شعب الإيمان» (4310) منسوبًا إلى محمود الورَّاق.

تعالى هو حظ النفس، وما يكون في الإنسان من الجحود والكنود والنكران والأَثَرة وحب المال والنفس.

* ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَلَهُۥ﴾:

﴿ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ أي: الإنسان.

والبعض يُرجع الضمير إلى «الله»؛ لأنه أقرب مذكور، وهذا ضعيف. **والراجح الأول**[1].

**وهل الإنسان يشهد على نفسه بأنه كنود؟**

هذا فيه إشكال، والذين قالوا: إن مرجع الضمير إلى «الله»، أرادوا الخروج من هذا الإشكال.

ولعل شهادته تكون بأنه يدرك ذلك من نفسه حال الهدوء والمراجعة والملاحظة والنظر في حال النفس، فإن الإنسان تمر به أحوال شتى، فربما غلب عليه الغضب أو الهوى أو الشهوة، ثم يفيق، ويشهد على نفسه بالخطأ، وتجد في القرآن قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: 23]، وقوله: ﴿أَدۡنَىٰ ٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا﴾ [النساء: 17].

ولذا كان من أعظم ما يربِّي النفس اعتياد المرء على مراقبتها ولحظ تصرفاتها ودوافعها وانفعالاتها، وذلك ينفع أكثر مما تنفع نصائح الآخرين؛ لأنك قد ترى أنهم ظلموك أو جاروا عليك؛ ولذا قال سبحانه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ﴾ [القيامة: 14- 15].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 587)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 272)، و«تفسير البغوي» (5/ 296)، و«المحرر الوجيز» (5/ 514)، و«زاد المسير» (4/ 481)، و«تفسير الرازي» (32/ 262)، و«تفسير القرطبي» (20/ 162)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 467)، و«التحرير والتنوير» (30/ 504).

**ويحتمل أن المعنى**: يشهد بعضُهم على بعض، كما يشهدون في مصالح الدنيا والحقوق وغيرها، فكذلك يشهد بعضهم على بعض في الآخرة وفي الدنيا، وهو اجتهاد في فهم الآية يخضع للأخذ والرد.

ونلحظ أن الإنسان يدرك من عيوب غيره ما لا يدركه من عيوب نفسه، فهذا من الشهادة على الآخرين، فيشهد على فلان بأنه جحود، أو كذَّاب، أو بخيل، وفي الحديث الصحيح: «**هذا أَثنَيْتُمْ عليه خيرًا؛ فوجَبَتْ له الجنةُ، وهذا أَثْنَيْتُمْ عليه شرًّا؛ فوجَبَتْ له النارُ، أنتُمْ شهداءُ الله في الأرض**»[1].

وهي شهادة على نفسه من وجه آخر؛ فكونه يبصر القَذَاة في عيون الآخرين، ولا يبصر الجَذْع في عينه، دليل على أنه يشكو المصيبات وينسى النعم، ويرى السيئات ويجحد الحسنات.

**ويحتمل أن المعنى** أنه يشهد على نفسه في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: 24]، فتشهد على الإنسان جوارحه بكل ما عمل[2].

**وثَمَّ معنًى خامس**، وهو أنه يشهد بلسان الحال، وإن لم يشهد بلسان المقال، فقد لا يعترف بأنه كَنُود وجحود، لكن حاله تشهد بذلك، وأنت إذا قرأت في كتب الأدب، كـ«العِقْد الفريد»، أو كتب ابن قُتيبة، كـ«عيون الأخبار» والكتب الجوامع؛ وجدتهم كثيرًا ما يذمون جنس الإنسان، ويقولون: الناس صاروا شوكًا لا ورق فيه، ومن ذلك ما قاله أبو الطيب المُتَنَبِّي[3]:

---

(1) أخرجه البخاري (1367)، ومسلم (949) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(2) ينظر ما تقدم في «سورة البروج»: ﴿وَمَا غَوَىٰ رَبِّهِ﴾.

(3) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص483)، و«شرحه» المنسوب إلى أبي البقاء العكبري (4/ 144).

ولـما صـار ودُّ الـنـاس خِـبًّـا *** جَزَيتُ على ابتسامٍ بابـتـسـامِ
وصِرتُ أَشكُّ فيمَنْ أصطفِـيـهِ *** لعِـلْـمِـي أَنَّـهُ بَـعضُ الأَنـامِ

وقال المعتصم بن صُمادح[1]:

وزهَّدني في الناسِ معرفتي بهم *** وطولُ اختباري صاحبًا بعد صاحبِ
فلم تُرني الأيامُ خِلًّا تسرُّني *** مباديه إلا ساءني في العواقبِ
ولا صرتُ أرجوه لكشفِ ملمَّةٍ *** من الدهرِ إلا صار إحدى المصائبِ

ولعل جميع هذه المعاني صحيحة.

**ويحتمل أن تكون** ﴿وَحْيٌ﴾ هنا بمعنى «مع»، كقوله: ﴿هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ﴾ [الإنسان: 8]. يعني: مع حبه، **فيكون المعنى:** وإنه مع ذلك لشهيد، يعني: شهيد على هذه الحقيقة[2].

* ﴿۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِذًا﴾:

**أكثر المفسرين على أن المقصود بالخير:** المال، وقد يكون المقصود جنس الخيـر، فيشمل المال وغيره، كما في قوله تعالى: ﴿أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [البقرة: 180]، والغالب أن المال محبوب، وأن الناس يعدُّونه خيرًا، وأنه سبيل إلى الخير[3].

---

(1) ينظر: «البرق الشامي» (3/ 81)، و«المطرب من أشعار أهل المغرب» لابن دحية (ص173)، و«الحماسة البصرية» (2/ 51)، و«المغرب في حلي المغرب» (2/ 197).

(2) ينظر: «تفسير ابن عرفة» (4/ 338)، و«دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» (ص283)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 588)، و«تفسير الماوردي» (1/ 231)، (6/ 326)، و«زاد المسير» (4/ 482)، و«تفسير القرطبي» (20/ 262)، والمصادر الآتية.

وعلى هذا فقوله: ﴿١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ يعني: أنه يحب المال حبًّا شديدًا، كما قال الله تعالى: ﴿قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ٢٢ إِنۡ﴾ [الفجر: 20].

وبعضهم يقولون: ﴿ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ يعني: لبخيل بسبب حب المال[1]، فتكون اللام هنا سببية، والشديد تأتي بمعنى البخيل، كما قال الشاعر[2]:

أرى الموتَ يَعتامُ الكرامَ ويَصْطَفِي *** عَقيلةَ مالِ البَاخِلِ المَتَشدِّدِ

**المتشدِّد**: الممسك. **والمعنى متقارب.**

وهذا مُقْسَم عليه في السورة؛ فالله أقسم على أن الإنسان كَنُود، وأنه على هذا شهيد، وأنه لحب المال لشديد.

* ﴿ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ٢٢﴾:

هنا بدأ الوعظ والتخويف والزجر والتهديد، **والمعنى**: أفلا يعلم هذا الإنسان إذا بُعثر ما في القبور؟

**والبعثرة** كلمة تدل على شيء غير منظم، يقال: أشياء مبعثرة: مرمية على غير انتظام، فما أثير وأُخرج وفُرِّق ورُمي على غير انتظام يقال له: مبعثر.

ولم يقل: «مَن في القبور»، مع أن المقصود هو الإنسان، للإشارة إلى أنه يبعث كل ما في القبور، حتى الحيوانات تُحشر.

ولأن الإنسان حينما يُبعثر من قبره ليس عاقلًا ولا مكلَّفًا، ولم تعد إليه روحه، فكان كما لو كان غير عاقل، وعومل معاملة غير العاقل، وفي ذلك إشارة أيضًا إلى أن

(1) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (24/ 255)، و«تفسير البغوي» (5/ 296)، و«الكشاف» (4/ 788)، و«تفسير الرازي» (32/ 262)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 467)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «ديوان طرفة بن العبد» (ص26)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 354)، و«مقاييس اللغة» (3/ 179)، و«زاد المسير» (4/ 482).

الناس يوم القيامة يكونون كما قال عنهم ربهم: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: 2].

* ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ أَنتُمْ﴾:

أي: أُبرز وأُظهر وبُيِّن ومُيِّز، كما قال لَبِيد[1]:

وكُلُّ امْرِئٍ يومًا سَيعلمُ سَعْيَهُ *** إذا كُشِّفَتْ عِندَ الإلهِ الحَصَائِلُ

**وهذا يعني**: إظهار الصحف التي تتطاير يوم القيامة وفيها كل شيء.

أو يعني أن يظهر الإنسان يوم القيامة على حقيقته، كما قال تعالى: ﴿قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [الطارق: 9][2].

* ﴿ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ بِهَا﴾:

وربهم سبحانه وتعالى خبير بهم في كل حال وفي كل حين، ولكن يومئذ: ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا﴾ [الحاقة: 18]، ولا يجادل أحد في علمه سبحانه كما كان يجادل في الدنيا؛ فالخبرة تظهر ظهورًا ضروريًّا لا يجادل فيه أحد.

**الترابط الموضوعي في السورة:**

لما أقسم تعالى بـ«العاديات وضبحها»، ثم بـ«النار التي تُورى وتُقدح»، ثم بـ«الغارة التي تشنها هذه الخيل أو الإبل»، نلاحظ تسلسلًا متَّسقًا:

**فالآية الأولى**: ﴿۝١٤ عِندَهَا﴾ تتعلق باحتدامٍ واندفاع من داخل النفس، وذلك هو الضَّبْح.

---

(1) ينظر: «ديوان لبيد» (ص85)، و«تاج العروس» (28/ 302) «ح ص ل».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 590)، و«تفسير الماوردي» (6/ 326)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 256)، و«زاد المسير» (4/ 482)، و«تفسير القرطبي» (20/ 163)، وما تقدم في «سورة الطارق».

**ثم في الآية الثانية:** ﴿ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ تأخذ الخيل في سرعة شديدة حتى إذا ضربت بحوافرها الحجارة الصلبة أورت النار قدحًا، وهو أمر عَرَضي، لكنه مشهد واقع لتلك الخيل المغيرة.

**ثم في الآية الثالثة:** ﴿يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ﴾ والغارة مقصودة يقينًا، وهي الغاية.

وهكذا لو تأملت لوجدت أن الأشياء كلها- والله أعلم- تمر بهذه الدرجات الثلاث، تبدأ من داخل النفس حركة شعورًا وإرادة ورغبة وهمة؛ ولذلك جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**أحبُّ الأسماء إلى الله** عز وجل: **عبدُ الله وعبدُ الرحمن، وأصدَقُها: حارثٌ وهمَّامٌ**»[1]؛ وهي تتطلَّب نقل ذلك إلى الواقع بعمل دؤوب وجهد متواصل، ويمكن تشبيه هذا بـ«الموريات قدحًا»، وهذه هي **الدرجة الثانية** التي هي الانطلاق والسير والمواصلة والوسيلة.

**ثم الثالثة:** هي ثمرة العمل والجهد الذي كان همًّا بادئ الأمر، فمَن هَمَّ بتجارة أو بزواج أو ببناء أو بوظيفة أو بتخصُّص؛ فإنه يكون في أول الأمر همًّا يختلج في داخل النفس، ثم ينتقل إلى جهد وعمل ميسر، وينتهي إلى الهدف المقصود.

---

(1) أخرجه أحمد (19032)، والبخاري في «الأدب المفرد» (814)، وأبو داود (4950)، والنسائي (6/ 218)، والطبراني في «المعجم الكبير» (22/ 380) (949)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (6/ 3042) (7045)، والبيهقي (9/ 514)، وغيرهم.

وله علَّة بيَّنها أبو حاتم الرازي، كما في «العلل» لابنه (2451، 2525)، وقبله غيره. وينظر: «الجرح والتعديل» (5/ 326)، و«المراسيل» لابن أبي حاتم (ص117- 118)، و«الاستيعاب» (4/ 1775)، و«بيان الوهم والإيهام» (4/ 379- 384)، و«النكت على كتاب ابن الصلاح» لابن حجر (2/ 788- 790)، و«تهذيب التهذيب» (12/ 274- 275)، و«الإصابة» (13/ 86- 87)، و«إرواء الغليل» (1176، 1178)، و«السلسلة الصحيحة» (904، 1040).

وأول الحديث في «صحيح مسلم» (2132) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وبدأ الله سبحانه بالأسماء، فقال: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ﴾، ثم انتقل إلى الفعل، فقال: ﴿يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾؛ لأن المقصود الأعظم والأسمى هو الفعل الذي يراد من الإنسان أن يصل إليه.

وخذ على سبيل المثال: الحرب، حيث يقول الشاعر[1]:

أرى خَللَ الرَّمادِ وميضَ نارٍ *** ويوشِكُ أن يكونَ لها ضِرامُ[2]

فإنَّ النَّارَ بالعودَين تُذْكَى *** وإنَّ الحَربَ أوَّلُها كَلامُ

إذا لم يُطْفِها عُقَلاءُ قومٍ *** يكونُ وقودُها جُثَثٌ وهَامُ

والله تعالى أقسم بالخيل، بالنظر إلى أن الإنسان هو سائسها ومالكها، وفضلها من فضل مستعملها؛ ولهذا جاء في «الصحيح» أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال عن الخيل: «**الخيلُ لثلاثة: لرجل أَجْرٌ، ولرجلٍ سِترٌ، وعلى رجل وزرٌ**»[3].

**ومن هنا كان القَسَم بها في هذه السورة.**

والإنسان نفسه جسد وروح، وشرف الإنسان ليس ببدنه ولا بقوته، ولا بجماله أو بكبريائه، وإنما جسم الإنسان حامل للروح والعقل والنفس، فإذا كانت النفس شريفة بتقوى الله تعالى وطاعته، وبالعلم النافع وبالعمل الصالح وبالهمم الكبار، كان شرف الجسم تبعًا لذلك، وإذا صار مدار أمره على الدنيا من المال والشهوة والمنظر الجميل؛ فإنه يفقد بذلك معناه وقيمته.

وفي السورة معنًى آخرُ يتعلق بالزمن؛ فقد بدأ تعالى بـ«العاديات»، وهذا يصدق على «العاديات» في كل ساعة من ليل أو نهار، ثم انتقل إلى معنًى أخص، وهو

---

(1) ينظر: «البيان والتبيين» (1/ 146)، و«عيون الأخبار» (1/ 210)، و«تهذيب اللغة» (6/ 63)، و«وفيات الأعيان» (3/ 150) منسوبًا إلى نصر بن سيَّار.

(2) أي: اشتعال.

(3) أخرجه البخاري (2860)، ومسلم (987) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

«الموريات»، وهذا إنما يكون في الليل، ثم انتقل إلى معنًى أخص منه، وهي «المغيرات»، وهذا غالبًا يكون في الصباح، ولذلك قيَّده في الآية بقوله: ﴿يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ رَبِّهِۦ﴾.

وفي ذلك إشارة إلى شرف الوقت وأهميته، وأن مدار الجزاء الموعود في آخر السورة هو على استثمار هذا الوقت الذي يتناقص، فيكون عندك واسعًا في أول الأمر، ثم يضيق عليك شيئًا فشيئًا.

والتسلسل الزمني في «العاديات».. فـ«الموريات».. فـ«المغيرات».. يتناسب مع المقسَم عليه؛ **فإن الله تعالى أَقْسَم على ثلاثة أشياء:**

**الأول:** ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ ﴿٢٠﴾﴾، **والكَنُود** هو: الجحود[1]، فهذا يتعلق بالأرض السَّبِخة اليابسة التي لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأً، وهذا من معاني الكَنُود.

**الثاني:** ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَلَهُ﴾، فتنتقل من مقام الجحود إلى مقام الاعتراف، فهو يعترف على نفسه، سواءً اعترف بلسانه على نفسه أو اعترف على غيره، في الدنيا أو في الآخرة.

**الثالث:** ثم انتقل إلى مقام البخل والإمساك، والعمل، وحب الخير الذي من معانيه: حب المال، فقال سبحانه: ﴿﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِذًا﴾.

**ويقابل ذلك ثلاثة أشياء**، ذكرها الله تعالى في السورة نفسها؛ فقوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ ﴿٢٠﴾﴾، يقابله قوله: ﴿ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ﴿٢٢﴾﴾. فهذا الإنسان الكَنُود الجحود هو كالأرض السَّبِخة، ويوم القيامة تقع البعثرة، فتحفر القبور، ويخرج مَن فيها من الناس.

---

(1) ينظر: «تفسير الخازن» (4/ 461)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (11/ 89).

وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَلَهُ﴾، هذا الاعتراف يقابله: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ أَنتُمۡ﴾، وقد يكون هذا من معاني قوله: ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ﴾، وسبق احتمال أن المقصود شهادته في الدار الآخرة على نفسه، باعتراف جوارحه، أو بشهادة غيره عليه، أو بشهادة الكرام الكاتبين، كما قال سبحانه: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: 14]، وكما في الحديث: «**أوَ لَيْسَ كَفَى بي شهيدًا، وبالملائكة الكرام الكاتِبينَ؟!**»[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢ بِهَا﴾. هذا قد يناسب قوله: ﴿١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِذٗا﴾، فهو الآن يحب ما يعتقد أنه خير، وهو المال، ولا ينفقه، وقد يكون هذا المال شرًّا له، فإذا قيل له: أنفق. تمنَّع ورفض، وقال: ﴿رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ [البلد: 6]، وهذا في الناس كثير، فالله تعالى يقول: ﴿ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢ بِهَا﴾، فهو خبير بما أنفقوا، وبما لم ينفقوا، خبير بما عرفوا من عيوبهم وأخطائهم، وما تجاوزوا، وهكذا يتبين خيط دقيق بين الأشياء التي أقسم الله بها وبين الأشياء التي أقسم عليها، وبين الآيات الثلاث التي فيها الوعظ والتذكير بالدار الآخرة، فالإنسان يخرج من القبر بعد أن كان فيه، ثم يخرج منه ما كان في صدره، أو قلبه.

وفي ختام السورة إشعار بأن الجحود والإنكار لن يجديهم شيئًا، فالله عليم خبير لا تخفى عليه خافية.

وهذه السورة تجعل المؤمن في حالة رقابة للنفس، وهي من المقامات العظيمة التي يغفلها الكثير من الناس، وقد رأيتُ من المربِّين والدُّعاة مَن يحاسب الآخرين

---

(1) أخرجه البزار (7476)، وأبو يعلى (3975)، والطبري في «تفسيره» (20/ 407)، وابن أبي حاتم في «تفسيره»- كما في «تفسير ابن كثير» (7/ 170)- والحاكم (4/ 601)، والثعلبي في «تفسيره» (8/ 291) من حديث أنس رضي الله عنه.

وينتقدهم أكثر مما يحاسب نفسه وينتقدها؛ لأن الآخرين بمرأى عينه، فهو نَقَّاد دقيق الملاحظة؛ لكنه عن نقد نفسه في غفلة.

وفي بعض الناس خصلتان، إحداهما شرٌّ من الأخرى: **الأولى**: غفلته عن عيوبه؛ لأنه مشغول بالآخرين.

قَبِيحٌ مِنَ الإنسانِ ينْسَى عيوبَهُ *** ويذكُرُ عَيْبًا في أَخِيهِ قَدِ اخْتَفَى[1]

**والثانية**: كثرة النقد للآخرين مما يولِّد لديه احتقارًا وازدراءً لهم، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناس**»[2]. فبَطْرُ الحقِّ هو: جحده، بحيث لا يرى في نفسه عيبًا.

وقد يُبتلى بالكِبر طالب العلم أو الداعية أو الواعظ أو غيرهم، فيكون كبيرًا في عين نفسه، ويرى من نفسه ما لا يراه الناس، ولذلك يقول الشاعر[3]:

تَواضَعْ تَكُنْ كالنَّجْمِ لاحَ لنَاظرٍ *** على صَفَحاتِ الماءِ وَهوَ رفيعُ
ولا تَكُ كالدُّخَانِ يعلُو مُحَلِّقًا *** على طَبقَاتِ الجوِّ وَهو وَضِيـعُ

فالإنسان المتكبِّر مثل الدخان في سرعته وخفته، والإنسان المتواضع مثل النَّجْم، يُرَى في الماء وهو في مكانه، **فهما أمران متلازمان**: الكبر الذي هو بطر الحق وجحده، ورؤية الإنسان نفسه بمنظار الكمال.



(1) ينظر: «نفح الأزهار في منتخبات الأشعار» (ص60).

(2) أخرجه مسلم (91).

(3) ينظر: «أعيان العصر» للصفدي (5/ 479) منسوبًا إلى موسى بن علي الزَّرزاري. وينظر أيضًا: «جواهر الأدب» لأحمد الهاشمي (2/ 61)، و«غرر الخصائص الواضحة» (1/ 20).

## سورة القارعة

*** تسمية السورة:**

لا يُعرف لها اسم إلا: «**سورة القارعة**»، وهذا ما ورد في المصاحف، وكتب التفسير، وغيرها، ولم يُنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم، أو الأئمة تسميتها بغير هذا الاسم[1].

*** عدد آياتها:** إحدى عشرة آية في المصحف الكوفي، وعشر آيات في مصحف مكة والمدينة، وثمان في مصحف البصرة والشام[2]؛ وذلك بحسب تقسيم الوقفات، فـ﴿يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ رَأَىٰ﴾ بعضهم يعدها آيتين، وبعضهم يعدها آية واحدة... وهكذا.

*** وهي مكية** بإجماع العلماء، وممن حكى ذلك: ابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، وغيرهم[3].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص745)، و«تفسير مقاتل» (4/ 805)، و«صحيح البخاري» (6/ 176)، و«تفسير الطبري» (24/ 592)، و«المستدرك» (2/ 533)، و«المحرر الوجيز» (5/ 516)، و«التحرير والتنوير» (30/ 509).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 809)، و«تفسير الطبري» (24/ 592)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص285)، و«تفسير القرطبي» (20/ 164)، و«روح المعاني» (15/ 447)، و«التحرير والتنوير» (30/ 509).

(3) ينظر: «تفسير الثعالبي» (4/ 437)، و«تفسير الماوردي» (6/ 327)، و«المحرر الوجيز» (5/ 486)، و«زاد المسير» (4/ 483)، و«تفسير القرطبي» (20/ 164)، و«روح المعاني» (30/ 220)، و«فتح القدير» (5/ 690)، و«التحرير والتنوير» (30/ 509).

* **وقد ورد في فضلها حديث ضعيف**، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم دخل على أبي بكر وعمر، فرَأَوْا في وجهه ولحيته الشَّيْبَ، فحزنوا وقالوا: شِبْتَ يا رسولَ الله! فقال صلى الله عليه وسلم: «**شيَّبَتْني هودٌ وأخواتُها، وآلُ حامِيم، والمرسلاتُ، و﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾**»[1].

وفي الحديث اضطراب، وفي معظم رواياته لم يرد ذكر «القارعة».

* ﴿ٱلۡقَارِعَةُ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾:

﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾: مأخوذة من القَرْع، وهو: الطَّرْق أو الضرب بشدة[2].

وسُمِّيت: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾؛ لأنها تقرع الآذان بجلجلتها وزلزلتها، وتقرع القلوب بمخاوفها ووجلها وتساؤلاتها؛ وتقرع العقول بغرائبها، حتى تدع الحليم حيرانًا.

«**القارعة**» هي: الحادثة العظيمة الجليلة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمۡ﴾ [الرعد: 31]، والمقصود: ما يصيبهم في الدنيا من نكبة أو عذاب.

وجمهور المفسرين على أن ﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾ هي: القيامة، فتكون اسمًا من أسمائها.

ويرى بعضهم أن «**القارعة**» هي: النفخة الأولى.

وذهب آخرون إلى أنها: النار، **والأرجح** أن ﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾ هي: القيامة[1]، **ولها أسماء أخرى، مثل:**

---

(1) أخرجه ابن سعد (1/ 375)، ومحمد بن نصر المروزي في«قيام الليل» (ص144- مختصره للمقريزي)، وابن عساكر (4/ 173- 174) من حديث أنس رضي الله عنه، وإسناده ضعيف جدًّا. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (1931). وله طرق أخرى، كما تقدم في أول «سورة الواقعة»، و«سورة المرسلات»، و«سورة النبأ»، و«سورة التكوير».

(2) ينظر: «تفسير ابن فورك» (3/ 263)، و«تفسير الرازي» (32/ 265)، و«فتح القدير» (3/ 101)، و«روح المعاني» (15/ 447)، والمصادر السابقة.

- «**الحاقَّة**»، كما في قول الله تعالى: ﴿**وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ**﴾ [الحاقة: 1- 3].

- «**الطَّامَّة**»، كما في قوله تعالى: ﴿**﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ**﴾ [النازعات: 34].

- «**الصَّاخَّة**»، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن**﴾ [عبس: 33].

- «**التغابن**»، كما في قوله تعالى: ﴿**إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم**﴾ [التغابن: 9].

- «**يوم الدين**»، كما في قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: 4].

- «**الغاشية**»، كما في قوله تعالى: ﴿**يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ**﴾ [الغاشية: 1].

- «**السَّاعة**»، كما في قوله تعالى: ﴿ **فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا**﴾ [محمد: 18].

- «**يوم التَّناد**»، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾**﴾ [غافر: 32].

- «**الجاثية**»، كما في قوله تعالى: ﴿**ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ**﴾ [الجاثية: 28].

- «**الواقعة**»، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً** ﴾ [الواقعة: 1].

- «**الزَّلْزَلة**»، كما في قوله تعالى: ﴿**﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ** ﴾ [الزلزلة: 1].

❊ ولما ذكر ﴿﴿٣﴾﴾ قال: ﴿**ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ رَأَىٰٓ**﴾، ويكثر في القرآن استخدام أسلوب الاستفهام؛ لأن كثيرًا من الحقائق والمعاني الكبيرة تمر على الناس دون أن يتفطَّنوا لها، **والأسئلة في القرآن على نوعين:**

**الأول:** أن يرد ذكر السؤال ومعه الجواب، ويكون المقصود لفت النظر للجواب.

---

(1) ينظر ما تقدم أول «سورة التكوير».

**والثاني**: أن يرد ذكر السؤال وليس معه جواب، وحينئذ يكون المقصود إعمال الذهن وتحريك الفكر بحثًا عن الجواب.

فهنا ليس المقصود السؤال عن اللفظ اللُّغوي؛ لأن كل واحد يعرف أن القارعة هي الشيء الذي يقرع، بل السؤال عما جاء في السورة نفسها، فهو استفهام تعظيم وتهويل لا ينتظر له جواب.

* ثم كرر السؤال بصيغة أخرى: ﴿**هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ رَبِّهِ**﴾:

قال سُفيان بن عُيينة رحمه الله: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿**رَأَىٰ مِنْ**﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿**وَمَا يُدْرِيكَ**﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر[1].

**والمعنى**: ما أعلمك؟ يشير إلى أن ﴿**يَنطِقُ**﴾ فوق مستوى إدراك الإنسان وعقله وفهمه، فالبشر لا يستطيعون أن يستقلوا بمعرفتها، ولا أن يتصوروها، وأن المصدر الذي يمكن أن يعلِّمهم بها هو القرآن، والله تعالى وحده الذي يعلم حقيقتها ويطلع عباده منها على ما يشاء، ولهذا خوَّفنا الله تعالى من النار ورغَّبنا في الجنة، ومع ذلك أخبر النبيُّ صلى الله عليه وسلم أن في الجنة: «**ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذنٌ سَمِعَتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشَرٍ**»[2].

لو حرَّكت خيالك للتعرف على نعيم الجنة ما استطعت، ولو حرَّكت خيالك للتعرف على عذاب النار ما استطعت؛ فالعقل محدود الإدراك، ولا يعرف الكثير عن الماضي أو المستقبل، ولا عن الأشياء التي لم يسبق له أن رآها أو رأى نظائرها، وهو ينفع في مجاله وميدانه، ويتوقف حين يوضع أمام قضايا غيبية لا يعرف نواميسها.

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾.

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (3244، 4780)، و«صحيح مسلم» (2824، 2825).

* ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو﴾ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾:

قد يُظن أن هذا الجواب للاستفهام السابق، والذي يظهر أن هذا ليس جوابًا؛ لأن السؤال كان عن ماهية ﴿يُوحَىٰ﴾، أي: حقيقتها[1].

أما الآية فهي وصف لبعض حوادث ذلك اليوم، ومع هذا لم يحدِّد زمنًا؛ لأن الساعة من الأمور التي لا يَعلم ميقاتها إلا الله، كما قال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: 187].

فلا مجال للسؤال عن تحديد اليوم هنا؛ ولذا انتقل إلى وصف مشهد من مشاهده، كأنما يشهده الإنسان، ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ۝١٩﴾، ذكر تعالى تغييرين، أحدهما يتعلق بالناس.

**والفَراش** هي: الدواب التي تتطاير حول النار، وكثيرًا ما تقع فيها، كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**إنما مَثَلي ومثلُ النَّاس كمَثَل رجل استوقدَ نارًا، فلما أضاءتْ ما حولَهُ جعَلَ الفَراشُ وهذه الدَّوابُّ التي تقعُ في النار يقعنَ فيها، فجعل ينزعُهُنَّ ويغلبْنَهُ فيَقْتَحِمْنَ فيها، فأنا آخُذُ بحُجَزِكُمْ عن النار، وهم يَقْتَحِمُونَ فيها**»[2]. وكثيرًا ما يضرب بها المثل بالجهل والطيش وسوء المعرفة بالعواقب.

وقد وصفهم بوصف آخر: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: 7].

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (30/ 511).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (6483)، و«صحيح مسلم» (2284).

وثَمَّ فرق بين الفراش والجراد، فهم يشبهون الفراش في تفرقه، وكل واحد يَهِيم على وجهه على غير هدى، ويشبهون الجراد في خروجهم من الأَجْداث- أي: القبور- في كثرة واضطراب يكاد يركب بعضه بعضًا.

وما بالك بموقف يُحشر فيه الناس كلهم أولهم وآخرهم من لدن آدم عليه السلام إلى آخر الناس، على صعيد واحد، فهاهنا الاضطراب والتداخل.

* ﴿فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ ۝١٩﴾:

ثنَّى الله تعالى بالجبال التي تصبح كالعِهْن المنفوش، وهو الصوف عند جمهور المفسرين[1].

**والمنفوش**: المنتفش المتطاير الخفيف، فهذه الجبال القوية المتينة تضعف، حتى تصبح كالصوف المنتفش المتطاير.

وفي آيات أخرى أخبار عن الجبال في يوم القيامة بأوصاف أخرى تحمل على التنوع في العبارة، والتنوع في أحوال الجبال[2].

فإذا كانت الجبال يقع لها مثل هذا، فما بالك بالإنسان وما يقع له من الرَّوْع والخوف والقلق؟ ولذا يقول أبو العلاء الـمَعَرِّي[3] لما رثى والده:

فيا ليتَ شِعرِي هل يَخِفُّ وقارُه *** إذا صارَ أُحْدٌ في القيامةِ كالعِـهْـنِ؟

وهل يَرِدُ الحوضَ الرَّوِيَّ مُبادرًا *** مع الناسِ أم يأبى الزِّحامَ فيستأني؟

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 454)، و«صحيح البخاري» (6/ 176)، و«تفسير الطبري» (24/ 594)، و«المحرر الوجيز» (5/ 516)، و«تفسير الرازي» (32/ 267)، و«تفسير القرطبي» (20/ 165)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 468)، و«التحرير والتنوير» (30/ 512).

(2) ينظر ما تقدم في «سورة المعارج»: ﴿۝٢٤ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾، و«سورة التكوير»: ﴿غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ﴾.

(3) ينظر: «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» (15/ 444).

* ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾:

هذه الآيات هي مقصود السورة؛ فالنهاية جنة أو نار، والميزان هو الحكم العدل.

بدأ الله سبحانه بمَن ثقلت موازينهم؛ تقديمًا لجانب الرضا والرحمة؛ لأن الناس في حال رعب وخوف، والسورة ذكرت وصف الناس والجبال، والصوت المرعب، فهو تعالى أسرع بالرحمة والرضا، ولذلك قدم من ثقلت موازينه من أهل الجنة؛ لأن رحمته تسبق غضبه.

والجمع هنا قد يدل على وجود أكثر من ميزان، وقد يكون الميزان واحدًا، وإنما تعدَّد بحسب الأعمال، وقد يكون الأمر شيئًا آخر مما يعلمه ربنا ولا نعلمه، لكننا نؤمن بأن عند الله تعالى موازين، وهذا في القرآن واضح، كما يقول سبحانه: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا﴾[الأنبياء: 47].

والسياق يوحي بأن لكل مكلَّف موازين تطيش أو تثقل، موازين عدل تُوزن بها الأعمال، أما كيفية الوزن، فأنت لا تعرف ما هو أهم من هذا وهو حقيقة يوم القيامة، ولا تستطيع أن تتخيَّل على وجه الصحة ما يجري فيه، إلا أن الله تعالى قرَّبه إليك بهذه المعاني التي يدركها عقلك.

وجمهور أهل السنة يؤمنون بالموازين ويثبتونها، سواءً كانت ميزانًا واحدًا أو موازين، وبعضهم يقولون: توزن الأعمال ويوزن الأشخاص وتوزن السِّجِلات والصحائف[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 594)، و«تفسير الماوردي» (6/ 328- 329)، و«التفسير البسيط» للواحدي (9/ 23)، (15/ 94)، و«الكشاف» (2/ 89)، (4/ 790)، و«تفسير الرازي» (32/ 267)، و«تفسير القرطبي» (20/ 166)، و«روح المعاني» (15/ 448).

والمهم النظر فيما تثقل به الموازين، وربما يطيل بعضهم الجدل حول الموازين، وتكون موازينه مملوءة بالغيبة والنميمة، والقيل والقال، والغل والحسد، والحقد والكذب، والشحناء.. ففقه اللسان لا يغني عن فقه القلب.

**والعيشة الراضية**: عيشة ذات رضا، اندمج فيها الرضا، فأصبحت راضية، فضلًا عن صاحبها الذي يتمتع بها، فهو في عيش ناعم منعم.

* ﴿(٩) فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ (١٠) (٢٢)﴾:

**يعني**: من الكفار أو من المسلمين المسرفين على أنفسهم بالذنوب والمعاصي الذين كانت سيئاتهم أكثر من حسناتهم.

**والحق ثقيل**، كما قال أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه[1]، فثقل الميزان يكون بعمل الصالحات والاجتهاد في الطاعات، واستجماع الإرادة والعزيمة، ومدافعة للنفس، أما الباطل فخفيف، لا يحتاج إلى عناء واجتهاد ذي بال.

**وهذه الآية تحتمل ثلاثة معانٍ:**

1- أن المقصود بـ«الأم»: جهنم؛ لأنه يأوي إليها، فهي مثل الأم، وهو معروف عند العرب، يقول أُمَيَّة بن أبي الصَّلت[2]:

الأرضُ معْقِلُنا وكانَتْ أمَّنا *** فيها مقابِرُنا وفِيها نولَدُ

---

(1) ينظر: «قوت القلوب» (1/ 137)، (2/ 84)، و«إحياء علوم الدين» (4/ 330)، و«الآداب الشرعية» (1/ 41).

ورُوي من قول ابن مسعود وحذيفة رضي الله عنهما وغيرهما. ينظر: «الزهد» لابن المبارك (290، 850، 1330)، و«الزهد» لهنَّاد (499)، و«حلية الأولياء» (1/ 134)، (4/ 365)، (8/ 145)، و«الفقيه والمتفقه» (2/ 428).

(2) ينظر: «الحيوان» للجاحظ (3/ 173)، (5/ 233).

فشبَّه الأرض بالأم؛ لأنه: ﴿عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا﴾ [طه: 55]، ويقول أبو القاسم الشَّابي[1] من المعاصرين:

وقالتْ لِيَ الأرضُ لَمَّا سَأَلْتُ: *** أَيَا أُمُّ هل تكرَهِينَ البَشَـرْ؟!

2- أن المقصود بـ«الأم»: الرأس، يقولون: أم رأسه. يعني: رأسه. فالتقدير: فأم رأسه هاوية. كأنه يقول: رأسُه تَهوِي وتتردَّى في جهنمَ.

3- يعني: أمه ثاكلة حزينة، أو في مقام الحزينة، وكأنه مثلٌ يضرب، ولذلك يقول كعب بن سعد الغنوي في رثاء أخيه[2]:

هَوَتْ أُمُّهُ ما يبعثُ الصبحُ غاديًا *** وماذا يؤدِّي الليلُ حين يؤوبُ

**هَوَتْ أُمُّهُ**: على سبيل التوجع له، كما يقولون: فلان ثكلته أمه، ولا يراد به حقيقة معناه.

**والأول أرجح** أن ﴿١٠﴾ صفة لجهنم، يعني: فأمه نارٌ هاوية[3].

* ﴿كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ أَنتُمۡ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ بِهَا﴾:

أي: الهاوية، والهاء في: ﴿مَا رَأَىٰٓ﴾ هاء السكت، وهي تنطق وقفًا ووصلًا عند جمهور القراء[4]، أي: هي نار حامية، وكل نار فهي حامية، فالوصف توكيد لفظي، كما في قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ﴾ [الهمزة: 6-

---

(1) ينظر: «ديوان أبي القاسم الشابي» (ص91).

(2) ينظر: «الأصمعيات» (ص95)، و«الأمثال» للقاسم بن سلَّام (ص70)، و«لسان العرب» (12/ 30).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 595)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 157)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 266)، و«تفسير القرطبي» (20/ 167)، و«فتح القدير» (5/ 595).

(4) ينظر: «المحرر الوجيز» (1/ 349)، و«التبيان في إعراب القرآن» (2/ 1301)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 534)، و«التحرير والتنوير» (30/ 515).

7]، والناس تعوَّدوا أن يجمعوا حطبًا؛ حتى يوقدوا النار، فتشتعل مرة وتنطفئ مرة أخرى، أما نار الآخرة فشيء آخر، وقد أُوقد عليها ألف عام، ثم ألف عام، ثم ألف عام[1]، وفُضِّلَت على نار الدنيا بسبعين ضعفًا[2]، كلهن مثل حرِّها، فكأن النيران الأخرى لا تعد شيئًا بالقياس إلى نار الآخرة.



(1) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه الترمذي (2591)، وينظر: «السلسلة الضعيفة» (910، 1305، 1306، 5401)

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (3265)، و«صحيح مسلم» (2843).

## سورة ﴿ ١٢ ﴾

*** تسمية السورة:**

اسمها المشهور: «**سورة ﴿ ١٢ ﴾**»، وهذا المُثْبت في معظم المصاحف، وكتب التفسير، والحديث[1].

وتسمَّى: «**سورة ﴿يَرَىٰ ١٢ ﴾**»[2]. أو «**سورة ﴿يَرَىٰ﴾**»، وهذا ذكره البخاري في «صحيحه» في كتاب التفسير، وساق فيه حديثًا سيأتي قريبًا.

وكان بعض الصحابة رضي الله عنهم يسمونها: «**سورة المَقْبَرة**»[3].

*** عدد آياتها:** ثمان آيات بلا خلاف[4].

*** وهي مكية،** على قول جمهور المفسرين[5]، وحكى ابن عطية الإجماع على ذلك[1]، والصحيح أن في ذلك خلافًا، وإنما هو قول الجمهور.

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 813)، و«سنن النسائي الكبرى» (10/ 343)، و«تفسير الطبري» (24/ 598)، و«المحرر الوجيز» (5/ 518)، و«تفسير القرطبي» (20/ 168).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص746)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 456)، و«صحيح البخاري» (6/ 176)، و«جامع الترمذي» (5/ 304)، و«المستدرك» (2/ 533)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «فتح الباري» (8/ 728)، و«روح المعاني» (30/ 223)، و«التحرير والتنوير» (30/ 517).

(4) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص286).

(5) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 275)، و«تفسير البغوي» (8/ 515)، و«تفسير الرازي» (32/ 72)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 472)، و«التحرير والتنوير» (30/ 517).

**والقول الآخر: أنها مدنية،** وقد يعزِّز هذا ما في «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لو أن لابن آدمَ واديًا من ذهبٍ، أَحبَّ أن يكونَ له واديان، ولن يملأَ فاهُ إلَّا الترابُ**»(2).

وقال البخاري: «وقال لنا أبو الوليد- أي: الطيالسي-: حدَّثنا حماد بنُ سلمة، عن ثابت، عن أنس، عن أُبَيٍّ قال: كنا نَرَى هذا من القرآن، **حتى نزلت:** ﴿يَرَىٰ ۝١٢ طَغَىٰ﴾»(3).

وهذا يدل بظاهره على أن السورة مدنية؛ لأن أبي بن كعب وأنس بن مالك رضي الله عنهما من الأنصار(4).

**لكن في الاستدلال بالحديث نظر؛ لأمور:**

1- سنده ليس على شرط الصحيح؛ لأن البخاري لم يقل: «حدَّثنا أبو الوليد». بل قال: «وقال لنا أبو الوليد». وفي الغالب أنه لا يقول هذا إلا لشيء في الإسناد(5).

2- أن قول أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه: «كنا نرى»، لا يلزم أنه يتكلم عن نفسه، بل يحتمل أنه يتكلم عن جماعة الصحابة رضي الله عنهم، وعلى هذا الاحتمال فلا يكون الكلام خاصًّا بأُبَيٍّ، وإنما بالمسلمين، ولا يلزم أن يكون بالمدينة.

---

(1) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 488)، و«تفسير القرطبي» (20/ 168)، و«فتح القدير» (5/ 693)، و«البحر المحيط في التفسير» (8/ 505).

(2) أخرجه البخاري (6439)، ومسلم (1048).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (6440).

(4) ورجَّح ابن العربي في «أحكام القرآن» (4/ 442)، والسيوطي في «الإتقان» (1/ 46) أنها مدنية.

(5) ينظر: «مقدمة ابن الصلاح» (ص283)، و«المنهل الرَّوي» (ص50)، و«فتح الباري» (2/ 335، 513)، (11/ 256)، و«تدريب الراوي» (1/ 253).

3- قوله: «كنا نرى هذا من القرآن». الغالب أن المقصود أنهم كانوا يظنونه من القرآن، والذي يغلب على ظني- والله أعلم-: أنه لا يعني أنهم كانوا يحسبونه من المصحف؛ لأن بلاغة القرآن وتميزه عن سائر الكلام لا يخفى، وحديث: «**لو أن لابن آدمَ واديًا من ذهب، أحبَّ أن يكون له واديان**» ليس له إعجاز الأسلوب القرآني، وإن كان كلامًا فصيحًا، فلعلهم كانوا يظنونه من الأحاديث القدسية؛ لأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم ربما يقول لهم في أوله أحيانًا: «قال الله تعالى». والحديث القدسي يشترك مع القرآن الكريم في كونه منسوبًا إلى الله تعالى، لكن القرآن مُعْجِز متعبَّد بتلاوته متحدًّى به، بخلاف الحديث القدسي، مثل قول الله تعالى: «**إني حَرمتُ الظلمَ على نفسِي، وجعلتُه بينكُم محرَّمًا، فلا تَظَالموا**»[1]. ومثل قوله تعالى: «**إنَّا أنزلنا المالَ لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة**»[2]. فهذه أحاديث قدسية ألهمها أو ألقاها جبريل عليه السلام إليه، لكن ليس في لفظها إعجاز ولا تحدٍّ.

وقد يكون حصل ذلك لبعض المؤمنين في أول عهدهم بالإسلام قبل أن يتمكَّنوا من إدراك جوانب البلاغة والعظمة في القرآن الكريم، فوقع عندهم شيء من عدم التمييز بينه وبين سائر الكلام.

كما استدل القائلون بأنها مدنية بما ورد أنها نزلت في مفاخرةٍ بين بعض قبائل المدينة أو اليهود، فهذه القبيلة فاخرت تلك القبيلة، وقالوا: نحن أكثر منكم، ومنا السادة، ومنا، ومنا، ومنا... فلما انتهوا من الأحياء، قالت إحدى القبائل: هلم نذهب

(1) أخرجه مسلم (2577) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(2) أخرجه أحمد (21906) من حديث أبي واقد اللَّيْثي رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (1639).

إلى القبور حتى نتفاخر بالأموات؛ فسيدنا فلان الذي مات منذ كذا وكذا، فصاروا يتفاخرون بهم، فذهبوا إلى المقابر يتفاخرون بالموتى[1].

ولو صح هذا الوجه في سبب النزول لكان دليلًا على أن السورة مدنية.

لكن ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أن قبائل من العرب من بني عبد مناف وبني سَهْم وغيرهما من القبائل المكية، تفاخروا حتى وصلوا إلى القبور فتفاخروا بها[2].

**والأقرب** أن السورة خطاب مَكِّيٌّ؛ لأنه وعيد للكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة، والذين لَهَوْا بأموالهم وبأولادهم، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ [المدثر: 11- 16].

في حين أن خطاب الله تعالى للمؤمنين في الغالب خطاب عطف ولُطف وحماية، وتناسب بين الخوف والرجاء، وغالبًا يُذكر الوعد والوعيد، ولم يكن المسلمون في مطلع العهد المدني أهل مال وثراء وجاه، ومَن كان كذلك لم يكن هذا يلهيه عن آخرته.

**فالراجح** أن السورة نزلت بمكة قبل الهجرة.

* ﴿يَرَىٰ ﴿١٢﴾ طَغَىٰ﴾:

أي: شغلكم، وجعلكم تلهون به عما هو خير منه وأبقى.

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 276)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص464)، و«زاد المسير» (4/ 485)، و«تفسير القرطبي» (20/ 168)، و«فتح القدير» (5/ 694).

(2) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (20/ 476)، و«الدر المنثور» (15/ 615)، و«فتح القدير» (5/ 693)، و«التحرير والتنوير» (30/ 517، 518)، والمصادر السابقة.

و﴿١٢﴾ تفاعل من الكثرة، **ولها ثلاثة معانٍ**[1]:

1- الاستكثار من شيء وطلب الزيادة منه، كإنسان عنده مال فيطلب المزيد، وآخر عنده أولاد، وهو يريد المزيد.

2- مسابقة الآخرين ومغالبتهم، فيما يتنافس الناس فيه من جاه أو علم أو مال أو ولد، وقد لا يكون له رغبة في الشيء ذاته بقدر الرغبة في الغلبة والسبق، ولذلك قال تعالى: ﴿ٱلۡقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [الحديد: 20]، فالتفاخر يكون مع الآخرين؛ لأن الإنسان لا يتفاخر مع نفسه.

وهذا هو الموضع الثاني الذي ذُكر فيه لفظ ﴿١٢﴾ في القرآن.

3- المفاخرة بالكلام دون الفعل، وهو مقصور على المفاخرة بما مضى من أفعالهم أو أفعال آبائهم.

والآية عتاب ولوم على التكاثر في أمر الدنيا والغفلة عن الآخرة، وأن العبرة بالكيف لا بالكم، أما الاهتمام بالكم فهو التكاثر.

وغالب الناس مشغوفون بالكم أكثر من الكيف، فتجد أحدهم حريصًا على جمع المال ورصده، لا يبالي أمن الحلال أم من الحرام؟ وقد يكون بخيلًا، فلا يرى عليه أثر النعمة والغنى، فيعيش عيشة الفقراء، محرومًا من طيب اللباس والطعام والسكن، وما هو إلا وبال عليه، كما قال علي رضي الله عنه: «عجبتُ للبخيل؛ يستعجل الفقر

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 598)، و«تفسير الماوردي» (6/ 330)، و«زاد المسير» (4/ 485)، و«تفسير الرازي» (32/ 270)، و«روح المعاني» (15/ 452).

الذي منه هرب، ويفوته الغنى الذي إياه طلب، فيعيشُ في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء!»[1].

ومثله: التكاثر في عدد الأولاد، دون اهتمام بالتعليم والتربية والأدب، وكأنه في زمن الجاهلية، يريد أولادًا يخوِّف بهم أعداءه أو يحمي بهم ذِماره[2]، وقد يعجز عن الإنفاق عليهم، أو منحهم العاطفة والحب، أو مساعدتهم على النجاح والتفوق.

وفي العبادات، صارت عناية الناس بالمبنى دون المعنى، وبشكل العبادة دون حقيقتها وروحها، ويتحدَّثون: فلان كم صلَّى، وكم صام، وكم ختم المصحف، وكم حفظ من فنون العلم ونصوصه، دون أن يتساءلوا عن أثر ذلك على سلوكه وخلقه وسمته.

وغالب ثقافة الناس عددية: كم عدد المسلمين، كم أتباع هذه الجماعة أو الحزب، وكم عدد قراء هذا الكتاب، أو مشاهدي هذا المقطع، أو متابعي هذه القناة أو البرنامج، أو مشتري هذه المطبوعة، أو متصفحي هذا الموقع؟

أما السؤال عن التأثير والتغيير، فقلما نعيره الأهمية اللازمة.

وفي غزوة حُنين أعجبت المسلمين كثرتهم، فحاقت بهم الهزيمة، فقال سبحانه: ﴿﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ...﴾ [التوبة: 25].

ومطلق التكاثر لا يذم، بل المذموم هو التكاثر الملهي، كما تنصُّ الآية.

(1) ينظر: «نثر الدر» لأبي سعد الآبي (1/ 222)، و«الإعجاز والإيجاز» للثعالبي (ص39)، و«الشكوى والعتاب» للثعالبي (ص158)، و«ربيع الأبرار» (3/ 422)، و«الصواعق المحرقة» لابن حجر الهيتمي (2/ 380)، و«أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب» (ص362).

(2) أي: أهله وكل ما يلزم المرء حفظه وحمايته والدفاع عنه.

ولذلك قال الله سبحانه: ﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ﴾ [المطففين: 26]، وقال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١﴾ [الواقعة: 10- 11]. فإذا كان هذا عنده أعمال، وهذا عنده أعمال، وأعمالهم متكافئة طمأنينة وإتقانًا وإخلاص نية، وعلى وفق السنة، فإنهم يتفاضلون بعد ذلك بالكثرة، أي: بما استغرق من أوقاتهم وجهدهم من تلك الأعمال.

وسواءً حملناه على طلب المزيد، كما هو المعنى الأول، أو على منافسة الآخرين، كما قد يقع في الجهاد أحيانًا؛ فقد تجد قومًا يكون لهم بلاء، فالآخرون يريدون أن يكون لهم بلاء أعظم، أو هؤلاء لهم دعوة، فالآخرون يحاولون أن يحقِّقوا نجاحًا في الدعوة يسبقون به هؤلاء، أو كان نوعًا من التكاثر بالقول الذي لا يقصد به الاغترار بالعمل، وإنما يقصد به المنافسة في الخير، أو إثبات الحق، فليس مذمومًا بإطلاق، وإنما المذموم منه ما كان ملهيًا عن طاعة الله تعالى، ولهذا يقول النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**سبق درهمٌ مئةَ ألفِ درهم**»[1]. وذلك لأن الدرهم هو كل ما يقدر عليه، وتوفر فيه الصدق والإخلاص، وتجرد من المن والأذى.

* ﴿رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ رَأَىٰ﴾:

﴿رَءَاهُ﴾ حرف غاية عند أهل اللغة، يعني: ألهاكم إلى غاية معينة، والمعنى: استغرقتم في ملذات الدنيا، فلم تفيقوا إلا وأنتم في القبور؛ ألهاكم حتى مُتم ودفنتم.

وعبَّر عن ذلك بالزيارة؛ لأنهم سوف يرتحلون منها إلى الدار الآخرة، فهي إقامة مؤقتة، وقد جاء في «الصحيح» أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم زار أعرابيًّا مريضًا، وكان فيه حمَّى شديدة، فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**لا بأسَ طَهورٌ إنْ شاءَ**

---

(1) أخرجه أحمد (8916)، والنسائي (5/ 59)، وابن خزيمة (2443)، وابن حبان (3347)، والحاكم (1/ 416) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

**الله**». فقال الأعرابيُّ: كلا، بل حمى تفورُ، على شيخ كبير، تُزِيرُه القبورَ. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**فنعم إذًا**»[1].

**وتُزِيرُه القبور**، أي: توصله إلى الموت.

**وقد يتساءل البعض:** كيف ماتوا فعلًا وهم ما زالوا أحياء يسمعون الخطاب، ويردون الجواب، ويتقلبون في الأرض، ويتكاثرون بالأموال والأولاد، ويسعون سعيًا كادحًا حثيثًا؟

**الجواب:** أن هذا باعتبار ما سيكون، ويقول العلماء: هذا لتحقق الوقوع، وقد يعبر بالفعل الماضي لتحقّق الوقوع، وهذا أمر مقطوع به، ولا أحد يشك في أنه سوف يزور المقابر.

وعبَّر هنا بالفعل الماضي ﴿زُرۡتُمُ﴾، ولم يقل: «تزوروا»؛ لتحقّق الوقوع، فهو أمر مقطوع به، متعلِّق بالتكاثر، والمعنى: إن حبكم للتكاثر والتهاءكم به حملكم على التفاخر بالأموات، فكأنكم ذهبتم إلى القبور لتستنطقوا منها مآثر آبائكم.

﴿زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ إشارة إلى أنهم حُرِموا من المحاسبة والمراجعة والنظر والتأمل في أحوالهم؛ ولذلك يموتون ولديهم حاجات وأمنيات معلَّقة، وكانوا يتوهمون أنهم سيحققونها، وكانوا يعوِّلون على شيء اسمه: المستقبل، وهذا المستقبل لما صار حاضرًا، تجدَّدت لهم الآمال والأطماع، حتى زاروا المقابر دون أن يشعروا.

فصاحب المال زار القبر، ولم يتمكَّن من كتابة الوصية!!

وصاحب الذنب زار القبر، ولم يتمكَّن من التوبة!!

ها هم يموتون، وتموت بموتهم آمالهم وأحلامهم، وفي الآية حث على استثمار الحياة، والتحذير من التسويف وطول الأمل.

---

(1) أخرجه البخاري (3616) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

والله سبحانه لم يذكر ما هو الشيء الذي لَهَوْا عنه، أما الذي لَهَوْا فيه فهو ظاهر، ولم يذكره لظهوره ولهوانه، وأما الذي لَهَوْا عنه، فلم يذكره لعظمته؛ فالإنسان ربما لَهَى بأمورٍ دنيئةٍ خسيسةٍ حقيرة عن أمور عظيمة، وعن جنة عرضها السماوات والأرض، وعن رضا الله تبارك وتعالى، وعن معالي الأمور ومكارم الأخلاق، وعن أجمل لذات الحياة ومتعها.

ربما يُشْغَلُ كثيرون بلذة الجسد الحسية والمتاع العابر، ويقعون في حبائله بالحلال أو بالتأويل أو بالحرام، ويرونه غاية اللذة، فيلهيهم عن كسب المعارف والعلوم، وما فيه من المتعة والبهجة، وعن العبادة وما فيها من الطمأنينة وقرة العين، وربما شغلهم عن تذوق حلاوة الأخلاق والعقل والروح.

* ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥ أَفَرَءَيۡتُمُ﴾:

الآية مكررة مرتين، و﴿عِندَ﴾ حرف زجر ووعيد وتهديد، في غالب سياقات القرآن، ولا يوجد في القرآن تكرار من غير معنًى مضاف، وقد صنَّف بعض أهل العلم كتبًا في أسرار التكرار في القرآن العظيم، سواءً تكرار القصص، أو المعاني، أو الألفاظ، وهو ما يسمى بالتكرار اللفظي، أو التوكيد اللفظي[1].

و﴿عِندَهَا﴾ حرف عطف يفيد التراخي، والتكرار لا يعني مرتين فقط، بل هو إلى ما لا نهاية؛ فالعرب عادة يستخدمون المرتين تعبيرًا عن مطلق العدد، فهو تحذير

(1) ينظر: «متشابه القرآن» للكسائي، و«أسرار التكرار في القرآن»، أو «البرهان في توجيه متشابه القرآن» للكرماني، و«هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب في تبيين متشابه الكتاب» لأبي الحسن السخاوي.

وإنذار وتوبيخ وتقريع مستمر مرة بعد مرة، وهو حجة بالغة عليهم أن الله أمهلهم ومدّ لهم وحذَّرهم المرة تلو الأخرى[1].

ويحتمل أن التحذير الأول: ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ أي: في الدنيا، وذلك بما سوف ترون من المصائب، وذهاب القوة وورود المرض، والهزيمة والخذلان، وظهور الحجج والآيات، ونصر الله تعالى لأوليائه ورسله عليهم السلام، ورفعةِ شأن هذا الدين.. سوف تعلمون هذا في الدنيا، وعند الموت يؤمن الكافر، ويبر الفاجر، ولاتَ ساعة مَنْدَم.

والدنيا فيها من العبر الشيء الكثير، والذين يرحلون عنها سوف يجدون شيئًا آخر مختلفًا عما كانوا يعيشونه في الدنيا ويتمتعون به.

أما الثاني فهو وعيد يتعلَّق بالبرزخ، ولذلك كان بعض الصحابة- كعلي وابن عباس رضي الله عنهم- يرون في هذه الآية دليلًا على إثبات عذاب القبر[2]؛ لأن قوله سبحانه: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥﴾ دليل على ما سوف يرونه ويعلمونه بعد الدنيا، وذلك حينما يكونون في قبورهم. وقد تكون الأولى للدنيا، والثانية للآخرة مطلقًا، وليس للقبر فقط، وإنما للقبر وللنشر وللحساب وللجزاء وللنار إذا دخلوها.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 601)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 279)، و«تفسير البغوي» (5/ 299)، و«المحرر الوجيز» (5/ 518)، و«تفسير الرازي» (32/ 272)، و«تفسير القرطبي» (20/ 107).

(2) ينظر: «جامع الترمذي» (3355)، و«تفسير الطبري» (24/ 580)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 426)، و«تفسير القرطبي» (20/ 172)، و«التذكرة» للقرطبي (1/ 163)، و«البحر المحيط في التفسير» (8/ 506)، و«تفسير الثعالبي» (4/ 439).

ويحتمل أن قوله: ﴿جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥﴾ للكفار، وقوله: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥﴾ للمؤمنين[1].

وهذا معنًى لا بأس به، وإن لم يكن في قوة ما قبله؛ فالمؤمنون سوف يعلمون، وسيرون فضل الله تعالى ورحمته وآياته في الأنفس وفي الآفاق، كما قال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ [فصلت: 53]، والكفار سوف يعلمون وعيد الله تعالى وصدق ما أخبر به الرسل.

ولم يبيِّن ماذا سوف يعلمون؛ ليكون التهديد غامضًا مبهمًا ضخمًا، فقد يكون المراد: سوف تعلمون العذاب، أو الوعيد، أو النار، أو السخط، أو الخوف والرعب الذي يداخلكم وقت حلول الوعيد.

**ومن معاني الإبهام وعدم تحديد المعلوم:** الإشارة إلى أن السبب في لهوهم وانشغالهم بالتكاثر هو نقص علمهم أو عدم علمهم، فعدم العلم هو سبب اللهو، وسبب التكاثر، ولو عرفوا المعرفة الصحيحة لعقلوا.

وفي ذلك إشادة بالعلم، وأنه أول درجات الاستقامة؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: 19].

* ﴿يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ١٦ ١٩﴾:

لم يذكر جواب: ﴿ٱلسِّدۡرَةَ مَا﴾، فإن ﴿ٱلسِّدۡرَةَ﴾ أداة شرط، وفي العادة أنه يُذكر جوابُها، كما يقال: لو جاء صالح لأوسعنا له في المجلس، لو شرب الإنسان هذا الماء لرَوِيَ، لو حضر الدرس فلان لأفاد. فـ﴿ٱلسِّدۡرَةَ﴾ لا بد لها من جواب.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 601)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 277)، و«تفسير البغوي» (5/ 299)، و«تفسير الرازي» (32/ 272)، و«تفسير القرطبي» (20/ 173)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 474).

والمستقر في أذهاننا أن قوله: ﴿زَاغَ ٱلْبَصَرُ ۝٢٠﴾ هو الجواب؛ لأن فيها اللام؛ والعادة أن جواب ﴿ٱلسِّدْرَةَ﴾ يكون مصحوبًا باللام، ولو تأملت لوجدت أن التركيب لا يستقيم على هذا المفهوم، وإنما الصواب أن قول الله تعالى: ﴿ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ شرط ليس له جواب، وهو مثل قول الله تعالى: ﴿۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [الأنبياء: 39]، فإنه ليس لها جواب؛ لأن الجواب مفهوم من سياق الشرط.

**فالجواب** مستبطن في الشرط نفسه، وهو مفهوم ظاهر؛ فإنه لما ألهاكم التكاثر، حتى زرتم المقابر بالطريقة المذمومة، ولما قصَّرتم في الواجبات، ولما ارتكبتم المحرمات، وعصيتم الله تعالى، فسوف تعلمون العاقبة(1).

وهذا من عظمة ترك الجواب، ولذلك نلاحظ أن في السورة محذوفات كثيرة من أجل لفت الأنظار وتحريك الفكر، وهذا من أقوى صور الإيجاز والبلاغة والتأثير، ومَنْ عنده معرفة باللغة العربية، وحِسٌّ بلاغي، يجد من ذلك أشياء كثيرة تأخذ بلُبِّه وتهزه هزًّا!

**وعلم اليقين** إشارة إلى أن عندهم معلومات كثيرة مما يظنونه علمًا وليس بعلم، وهذه مشكلة، فهناك ألوان من العلوم مضلة، وقد تَـحْجِب عن الله تعالى، أو تكون غير مطابقة للواقع، أو تكون مما يختلط فيها الحق بالباطل، أو تكون علومًا ظاهرية، كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: 7].

---

(1) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (5/ 77)، و«المحرر الوجيز» (5/ 519)، و«تفسير الرازي» (32/ 272)، و«تفسير القرطبي» (20/ 173)، و«فتح القدير» (5/ 597)، و«روح المعاني» (15/ 453)، و«التحرير والتنوير» (30/ 521).

حتى من العلوم الشرعية؛ فقد ينشغل الإنسان وينهَمُك في علم المسائل والأحكام والأقوال والمذاهب والترجيح، ويكون العلم في لسانه لم يصل إلى قلبه، **والمقصود بالعلم**: علم اليقين الذي يلامس القلب؛ فيتحول إلى حقيقة عملية في حياة الإنسان.

**والعلم الحقيقي اليقيني يطلق على ثلاثة أشياء:**

1- **المحسوس**، فأنت ترى أمامك الإناء، وهو محسوس يقينًا، ولا يجادل في هذا إلا أهل الأوهام، ومن اليقين طلوع الشمس وغروبها، والأشياء التي يراها الإنسان بعينه أو يحسها بحواسه.

2- **المعقول من مصادر العلم اليقيني**، وبعض الناس عنده وحشة من العقل، وكأنه استقر في أذهان البعض أن العقل نقيض للشرع، وهذا خطأ؛ فالله تعالى أحالنا على العقول في القرآن الكريم كثيرًا، فقال: ﴿مَا زَاغَ﴾، ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ﴾، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ﴾.. بل حتى في أمر الدين والوحي والرسالة، قال: ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [سبأ: 46]. ولا يحيلنا اللهُ على شيء يحتَمِل الحقَّ والباطلَ والخطأَ والصوابَ.

إن الوهم في العقول يأتي مما يظنه الناس معقولًا وليس بمعقول، مما يكون تلبيسًا أو تدليسًا أو وهمًا أو تضليلًا، وقد يتكلم الناس عنه ويظنونه من المعقولات، ويقول بعضهم: هذا يُدرك بالعقل، وهذا شيء معقول، وهذا مستحيل عقلًا، مع أنه في واقع الأمر ليس كذلك؛ لأنه جعل تصوره الشخصي للأشياء هو معيار العقل.

3- **النقل المصدَّق**، أو الوحي من القرآن وصحيح السنة المتواتر أو المستفيض.

❊ ﴿زَاغَ ٱلْبَصَرُ ﴿٢٠﴾﴾:

هذا خبر جديد، فقوله: ﴿زَاغَ ٱلۡبَصَرُ﴾ جملة مستأنفة، وهذه صيغة قَسَم على الأغلب، فاللام لام القسم، وهي مؤكّدة، ومثلها النون في آخر الفعل[1].

* ﴿طَغَىٰ ١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ وَلَهُ﴾:

أقسم تعالى للمخاطبين بأنهم سوف يرون الجحيم، ثم يرونها عين اليقين، والفرق بين «عين اليقين» و«علم اليقين» هو أن «علم اليقين» علم في القلب والصدر، أما «عين اليقين» فشيء محسوس مشاهد؛ ولهذا قال: ﴿١٧﴾.

**وفي السورة وجوه من الإنذار:**

1- حرف الردع ﴿يَغۡشَىٰ﴾، وقد تكرر في السورة ثلاث مرات، وغالبًا أن أقصى ما ينتهي إليه التهديد هو أن يكون ثلاث مرات، وقد أنذر الله تعالى في هذه السورة ثلاث مرات.

2- كلمة: ﴿عِندَهَا﴾ للدلالة على أن الإنذار الثاني، أبلغ وأقوى من الإنذار الأول.

3- حذف جواب: ﴿ٱلسِّدۡرَةَ مَا﴾ وهو يفيد الإثارة والتخويف.

4- لام القسم في قوله: ﴿زَاغَ ٱلۡبَصَرُ﴾.

5- نون التوكيد في قوله: ﴿زَاغَ ٱلۡبَصَرُ﴾.

6- تكرار القسم مرة أخرى في قوله: ﴿طَغَىٰ ١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ﴾.

7- التحذير بقوله: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ﴾ إشارة إلى أن ما تخبرون عنه الآن خبرًا سوف ترونه رؤية، وسيصبح عين اليقين بعد أن كان علم اليقين.

---

(1) ينظر: «تفسير التستري» (ص203)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 609)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 549)، و«تفسير البغوي» (5/ 299)، و«زاد المسير» (4/ 486)، و«تفسير القرطبي» (20/ 174)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 481)، و«فتح القدير» (5/ 598).

* ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ١٨ أَفَرَءَيْتُمُ إِذًا﴾:

والنَّعيم هو ما ينعم به الإنسان من خارج جسده، كما يقول بعض المفسِّرين؛ فالصحة- مثلًا- لا تسمَّى نَعِيمًا، وإنما النَّعيم هو: المال والجاه والرزق، والمأكل، والمشرب، والملبس، والأشياء المحيطة بالإنسان، أما الأشياء التي في ذات الإنسان، فهي تسمى نعمة.

وهذا ذكره الطاهر ابن عاشور رحمه الله في «التحرير والتنوير»[1]، وهو محتمل، وأغلب المفسرين لا يفرِّقون بين هذا وهذا، فيعدُّون النَّعيم والنِّعمة مترادفين في المعنى، فالناس جميعًا يُسألون عن النَّعيم، سواء كان نعيمًا في ذواتهم من الصحة والعافية والشباب وحسن الهيئة وجمال الصورة، أو كان في خارجهم من الغنى والمال والجاه وغير ذلك.

**وهل السؤال خاص بالكفار، أو عام للناس كلهم؟**

**الصحيح** أنه عام للناس كلهم، **وقيل**: خاص بالكفار؛ لأن السورة خطاب للكافرين[2].

وقد جاء في حديث ضعيف، أن أبا بكر رضي الله عنه خرج لم يخرجه إِلَّا الجوعُ، وأن عمرَ رضي الله عنه خرج لم يخرجه إِلَّا الجوعُ، وأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم خرج عليهما، وأنهما أخبراه أنه لم يخرجهما إلا الجوعُ، فقال: انطلقوا بنا إلى منزل رجل من الأنصار، يُقالُ له: أبو الهيثم بن التَّيِّهان، فإذا هو ليس في المنزل، ذهب يستسقي، قال: فرحَّبت المرأةُ برسول الله صلى الله عليه وسلم وبصاحبيه، وبسطتْ لهم شيئًا فجلسوا عليه، فسألها النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**أين انطلقَ أبو الهيثم؟**». قالت: ذهب

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (30/ 524).

(2) ينظر: «تفسير البغوي» (5/ 299)، و«تفسير الرازي» (32/ 274)، و«تفسير القرطبي» (20/ 174- 177)، و«روح البيان» (10/ 504)، و«روح المعاني» (15/ 454).

يستعذبُ لنا. فلم يلبث أن جاء بقربة فيها ماءٌ فعلَّقها، وأراد أن يذبحَ لهم شاةً، فكأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كره ذاك لهم، قال: فذبحَ لهم عَناقًا، ثم انطلقَ فجاء بكبائسَ من النخل[1]، فأكلوا من ذلك اللَّحم والبُسر والرُّطَب، وشربوا من الماء، فقال أحدهما- إما أبو بكر وإما عمر-: هذا من النَّعيم الذي نُسأل عنه. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**المؤمنُ لا يُثرَّبُ على شيء أصابه في الدنيا، إنما يُثرَّبُ على الكافرين**»[2].

وأصل القصة في «صحيح مسلم»، وفيها: «خرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال: «**ما أخرجكُما من بيوتِكُما هذه السَّاعةَ؟**». قالا: الجوعُ يا رسولَ الله. قال: «**وأنا والذي نفسي بيدِه، لأخرجَني الذي أخرجَكما، قوموا**». فقاموا معه، فأتى رجلًا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأةُ قالت: مرحبًا وأهلًا. فقال لها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**أين فلانٌ؟**». قالت: ذهبَ يستعذبُ لنا من الماء. إذ جاء الأنصاريُّ، فنظرَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه، ثم قال: الحمدُ لله، ما أحدٌ اليومَ أكرمَ أضيافًا مني! قال: فانطلقَ فجاءهم بعِذْقٍ فيه بُسرٌ وتمرٌ ورُطَبٌ. فقال: كلوا من هذه. وأخذ المُدْيَةَ، فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**إياك والحَلوبَ**». يعني: إذا كنتَ ولا بد ستذبح، فلا تذبح الحَلوبَ، فذبحَ لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العِذْق وشربُوا، فلما أن شبعوا ورَوُوا قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: «**والذي نفسي بيدِه، لتُسألُنَّ عن هذا النَّعيمِ يومَ القيامة، أخرجَكُم من بيوتِكم الجوعُ، ثم لم ترجعوا حتى أصابَكُم هذا النَّعيمُ**»[3].

---

(1) الكبائس جمع: كِبَاسة، وهو: العِذْق التام، وهو من التمر بمنزلة العنقود من العنب.

(2) أخرجه الطبراني في «الكبير» (10496)- ومن طريقه الشجري في «الأمالي» (2474)- من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (4672).

(3) أخرجه مسلم (2038) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا الرجل **قيل**: هو: أبو الهيثم بن التَّيِّهان رضي الله عنه، **وقيل**: أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه[1].

يُسأل الكفار إذًا سؤال توبيخ وتقريع وتقرير على عدم شكرهم لله عز وجل، وعقوبة لهم على سوء استخدامهم وتصرفهم في تلك النعم، وعدم شكرهم لمسديها ومولِيها.

ويُسأل المؤمنون سؤال تشريف وتكريم ورفعة لهم عند الله تعالى يوم القيامة.

ولعل مَن قال: إن السؤال خاص بالكافرين، أراد سؤال التوبيخ والتقريع، ولا مانع أن يُسأل المؤمن عن مدى شكره لنعمة الله تعالى؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**إن اللهَ ليرضى عن العبدِ أن يأكلَ الأَكْلَةَ فيحمدَه عليها، أو يشربَ الشَّربةَ فيحمدَه عليها**»[2].



(1) ينظر: «التمهيد» (24/ 341)، و«الأسماء المبهمة» للخطيب (ص282- 284)، و«غوامض الأسماء المبهمة» لابن شكوال (2/ 628- 630)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (13/ 213).

(2) أخرجه مسلم» (2734) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

# سورة العصر

*** تسمية السورة:**

اسمها: «**سورة العصر**»، وهو المثبت في معظم التفاسير.

وفي «صحيح البخاري»: «**سورة ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾**» بإثبات الواو على الحكاية[1].

وفي حديث أبي مَدِينة الدَّارمي قال: «كان الرجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا التقيا، لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر: ﴿**وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ**﴾. ثم يسلِّم أحدهما على الآخر»[2]. وصحَّح إسناده غير واحد[3].

*** عدد آياتها:** ثلاث آيات[4]، وهي إحدى أقصر ثلاث سور في القرآن الكريم، مع «الكوثر» و«النصر».

*** وهي مكية** عند أكثر المفسرين، ورُوي عن قتادة ومجاهد أنها مدنية[5].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص747)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 458)، و«صحيح البخاري» (6/ 177)، و«تفسير الطبري» (24/ 612)، و«المستدرك» (2/ 534)، و«المحرر الوجيز» (5/ 520)، و«تفسير القرطبي» (20/ 178)، و«التحرير والتنوير» (30/ 527).

(2) أخرجه أبو داود في «الزهد» (402)، والطبراني في «الأوسط» (5124)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (8639).

(3) وأشار البيهقي إلى الاختلاف في إسناده، وقال الذهبي: «حديث غريب جدًّا، ورواته مشهورون». ينظر: «تاريخ الإسلام» (6/ 539- 540)، و«السلسلة الصحيحة» (2648).

(4) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص287)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص325)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (2/ 559).

(5) ينظر: «تفسير البغوي» (8/ 522)، و«المحرر الوجيز» (5/ 490)، و«تفسير القرطبي» (20/ 178)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 479)، و«الدر المنثور» (15/ 640)، والمصادر السابقة.

واختيار الصحابة رضي الله عنهم هذه السورة لقراءتها عند لقياهم، لم يكن على سبيل التبرُّك؛ فإن القرآن كله فيه البركة والخير، وبكل حرف عشر حسنات[1]، ولا مراعاة لفضيلة السورة فحسب، وإلا لاختاروا «سورة الإخلاص» التي تعدل ثلث القرآن[2]، وإنما اختاروا «سورة العصر»؛ لمعانٍ تضمنتها السورة، فهي شاملة لمعاني الكمال العلمي والعملي في النفس وفي الغير، ومؤسِّسة للعلاقة الإيجابية الفعَّالة بين المؤمنين بما تضمنته من التواصي بالحق والصبر المبني على الإيمان والعمل الصالح.

قال الإمام الشافعي: «لو تدبر الناسُ هذه السورة لكفتهم، أو لوسعتهم»[3].

* ﴿وَٱلنَّجْمِ طَغَىٰ﴾:

القَسَم دليل على عظمة وأهمية الـمُقْسَم عليه.

أكَّد الـمُقْسَم عليه بالقَسَم، و«إن»، وهي حرف توكيد، وباللام، وهي حرف توكيد أيضًا، **فما هو العصر؟ في تأويل ذلك أقوال**[4]:

1- هو الدَّهر أو الزمن، ونسبه ابن القيم للجمهور[5].

2- وقت العصر، الذي هو آخر النهار.

3- فترة من الزمن.

---

(1) ينظر: «جامع الترمذي» (2910)، و«المستدرك» (1/ 554).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (5013- 5015)، و«صحيح مسلم» (811، 812).

(3) ينظر: «مفتاح دار السعادة» (1/ 56)، و«تفسير ابن كثير» (1/ 203)، (8/ 479)، و«التحرير والتنوير» (30/ 528).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 612)، و«تفسير الماوردي» (6/ 333)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 294)، و«المحرر الوجيز» (5/ 520)، و«زاد المسير» (4/ 487)، و«تفسير القرطبي» (20/ 178)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 538)، و«فتح القدير» (5/ 600)، و«روح المعاني» (15/ 457- 458)، و«التحرير والتنوير» (30/ 528- 530).

(5) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» (ص54).

4- صلاة العصر.

ولعل هذه المعاني كلها داخلة في المعنى؛ لأن اللفظ عام، ولم يأت ما يخصِّص بعضها.

وقد كان الناس ينسبون ما يصيبهم إلى الزمن، كما في الحديث القدسي: «**يؤذيني ابنُ آدم! يسبُّ الدهرَ، وأنا الدهرُ، بيدي الأمرُ، أقلِّب الليلَ والنهارَ**». وفي لفظ: «**لا تَسبُّوا الدهرَ**»[1].

ويريدون بذلك أن ينفصلوا من التبعة والمسؤولية فيما يقعون فيه من أخطاء.

والأمر كما قال الشافعي[2]:

نعيبُ زمانَنَا والعيبُ فِيـنَـا *** وما لزمانِنا عيـبٌ سِـوانـا

وقد نَهْجُو الزمانَ بغيرِ جُرْم *** ولو نطقَ الزمانُ بنا هَجانا

والقَسَم به يبرز أن ظرف الزمان محايد، والعبرة بما يصنعه الناس فيه، ولذا فالتعبير بفساد الزمان ليس جيدًا، إلا باعتبار أن المقصود أهل الزمان، وحتى على هذا فهو نوع من عيب الناس على سبيل التعميم وفي باطنه استثناء النفس.

فأقسم الله بالعصر تشريفًا وتعظيمًا لشأنه، فهو ظرف لأعمال الإنسان، وهذه مناسبة القسم به، وقد ذكر الله سبحانه الزمان والمكان، فقال: ﴿**فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا**﴾، فذكر ما في السماوات وما في الأرض، وهو المكان، وفي الآية بعدها قال: ﴿**سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ**﴾ [الأنعام: 12- 13]، فالليل والنهار زمان، والمكان والزمان ظرفان للحوادث، ولا يمكن أن ينفك الإنسان في دنياه عن هذين الظرفين.

---

(1) أخرجه البخاري (4826)، ومسلم (2246).

(2) ينظر: «ديوان الشافعي» (ص100).

وعلى أن المقصود بالعصر آخر النهار، فما وجه مناسبته للقَسَم على أن الإنسان في خُسر؟

ثَمَّة مناسبة لطيفة، وهي أنَّ عادة الناس في السعي إلى مكاسبهم أنها تكون من الصباح، كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**كلُّ النَّاسِ يغدُو، فبائعٌ نفسه فمعتقُها أو موبِقُها**»(1).

فالغُدو يكون أول النهار، ومنهم مَن يغدُو إلى خير وبِر، ومنهم مَن يغدُو إلى إثم وقطيعة رحم وشر.

فالقَسَم بالعصر إشارة إلى نهاية المطاف، ووقت الحصاد، حيث يكون الناس في نهاية أعمالهم، فالموظَّف يرجع إلى بيته، والطالب يرجع إلى أسرته، والعامل يرجع إلى أهله.

وبعضهم استخرج معنى لطيفًا في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ ﴾ [الضحى: 1- 3]، حيث أقسم سبحانه بالضُّحى على أن النبي صلى الله عليه وسلم محفوظ بحفظ الله، وأن الله ما تركه ولا قَلَاه ولا أبغضه، فكان القَسَم بالضُّحى الذي هو بداية العمل والنشاط والانطلاق.

وأقسم بالعصر على الخسارة لأولئك الذين تجافوا عن سواء السبيل، وحاربوا رسول الله وآذوا أتباعه.

ويحتمل أن يكون العصر هو الزمن الذي تعيشه الآن، والمعاصرة هي العيش في العصر، ومنه سُمِّيت العصور السياسية والأدبية، ويكون في القسم بهذا الجزء من الزمن تنبيه على أهمية فهم العصر وما يجري فيه والقيام بأمر الشريعة وفق مقتضيات الواقع المعاش، وليس التنظير المحض.

---

(1) أخرجه مسلم (223) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

وقد جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**إنما أجلُكم في أجل مَن خَلَا من الأمم كما بين صلاة العصر ومغرب الشمس، ومثلُكم ومثلُ اليهود والنصارى، كمثلِ رجلٍ استعمل عمَّالًا، فقال: مَن يعملُ لي إلى نصف النهار على قيراطٍ؟ فعملت اليهودُ، فقال: مَن يعملُ لي من نصفِ النهار إلى العصر على قيراط؟ فعملت النصارى، ثم أنتم تعملون من العصر إلى المغرب بقيراطين قيراطين. قالوا: نحن أكثرُ عملًا وأقلُّ عطاءً؟ قال: هل ظلمتُكم من حقِّكم؟ قالوا: لا. قال: فذاك فضلي أُوتيه من شِئْتُ**»[1].

وعلى أن المقصود بالعصر: صلاة العصر، يكون تعالى أقسم بها، وهي ذات علاقة بما قبلها؛ لأنها تقع في آخر النهار، وهي صلاة فاضلة، بل هي الصلاة الوسطى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: 238]، وصحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**مَن تركَ صلاةَ العصرِ، فقد حَبِط عملُه**»[2]. وحبوط العمل: خسارته، وقال: «**الذي تفوته صلاةُ العصر، كأنما وُتِر أهلَه ومالَه**»[3].

وأشد الخسارة: أن يخسر الإنسان نفسه وأهله وماله، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم جعل مَن فاتته صلاة العصر كأنما وُتر أهله وماله، وهذا يدل على أهمية صلاة العصر، والمحافظة عليها مع الجماعة، وأدائها في وقتها.

* ﴿هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ رَأَىٰ﴾:

(1) أخرجه البخاري (5021).

(2) أخرجه البخاري (553) من حديث بُريدة بن الحُصيب رضي الله عنه.

(3) أخرجه البخاري» (552)، ومسلم (626) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الإنسان جنس، و«ال» للاستغراق، **وقيل**: المقصود: جماعة من المشركين، **وقيل**: أبو جهل، **وقيل**: أبو لهب[1].

**والصواب** أن المقصود جنس الإنسان؛ ولذلك قال تعالى بعدها: ﴿وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ فدل على أن المقصود الجنس، وليس شخصًا بعينه؛ فإن الشخص لا يُستثنى منه.

الغالب على الناس إذًا هو الخسار؛ ولهذا يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: 103]، ويقول: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 116].

وعبَّر بأن الإنسان في خُسر، ولم يقل: «إن الإنسان لخاسر». فحرف الجر «في» يدل على الظرفية، وكأن الخسر وعاء أو ظرف؛ والإنسان مغموس فيه.

أما قولك: «إن الإنسان لخاسر». لا يعدو أن يكون وصفًا مجردًا، والظرفية أدل على المقصود من جهة الإشارة إلى أن الخسارة محيطة بالإنسان من كل وجه؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ﴾ [البقرة: 81].

والتنكير في كلمة ﴿ضَلَّ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى تنوع الخسارة، بمعنى أن الخاسرين درجات، وهذا واضح من السياق، فإن الله لم يستثن من الـخُسر ﴿وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾. فمَن نقص شيئًا من الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر؛ تكون خسارته جزئية، بخلاف مَن ترك هذه الصفات كلها، فإن خسارته تكون مُطبِقة.

---

(1) ينظر: «تفسير السمعاني» (6/ 278)، و«تفسير الرازي» (32/ 279)، و«تفسير القرطبي» (20/ 180)، و«بصائر ذوي التمييز» (1/ 364)، و«الدر المنثور» (15/ 644)، و«روح المعاني» (15/ 458).

فالتنكير دليل على تنوع الخسر ودرجاته، وأنه ليس بمنزلة واحدة، بل منه خسر تام مطبق، ومنه دون ذلك.

وبعضهم قال: إن التنكير للتهويل، ولتعظيم الخسر، وأن الإنسان خسر كل شيء، وليس كالذين خسروا بعض الشيء، مثل مَن نزلت مراتبهم في الجنة، فما فاتهم شيء عظيم بالقياس إلى ما أدركه السابقون، وإن كانوا بالقياس إلى مَن دونهم على خير كثير[1].

والتعبير بالخسارة صيغة قرآنية دارجة، يعبِّر الله بها عن أهل النار، مثل قوله: ﴿فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ﴾ [هود: 21].

وعند ما نقول: خسر التاجر. معناه: أنه ضاع عليه رأس المال، أو جزء من رأس المال، ورأس المال بالنسبة للمكلَّف هو الوقت، هو العصر، هو العمر؛ ولذا قال بعض السلف: «تعلَّمتُ معنى هذه الآية من بائع الثلج، كان يصيحُ ويقولُ: ارحموا مَن يذوبُ رأسُ ماله!»[2].

والوقتُ أَنفَسُ ما عُنِيتَ بحفظِهِ *** وأَراهُ أسهلَ ما عليكَ يَضِيعُ[3]

والأخسرون أعظم خُسرًا، كما في قوله: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النمل: 5]، وكيف يكونون أكثر خسارة؟

يكون ذلك باستئصال رأس المال كله، والوقت الذي يضيع بغير خير خسارة؛ لأنه كان ممكنًا أن يُملأ بطاعة، والوقت الذي يضيع عليك بمعصية أكثر خسارة؛ لأنه

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (32/ 279)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 336).

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (32/ 278).

(3) ينظر: «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» (ص353)، و«الآداب الشرعية» (2/ 246)، و«ذيل طبقات الحنابلة» (2/ 167).

محسوب، وكان جديرًا أن يُعمر بطاعة أو بمباح لا إثم فيه، فهو خسارة مركَّبة مضاعفة.

* ﴿وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنَّ رَبِّهِ﴾:

لم يذكر تعالى سبب الخسار، وذكر سبب الربح، مع أن السورة بدأت الكلام عن الخُسر؟

**الجواب:** لأن طريق الربح واحد، لكن طرق الخسار كثيرة لا تنتهي، منها: الفعل، ومنها: الترك، بخلاف الربح: فالمنهج فيه واضح منضبط محصور، وهو المذكور في هذه الآية.

يقول ابن القيم: «جعل الله تعالى في هذه الآية نهاية الكمال العلمي والعملي، والكمال اللازم والمتعدِّي»[1].

**فالكمال العلمي للإنسان بالإيمان:** ﴿وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾، والمقصود صدق تصورات الإنسان، فيؤمن بالله تعالى وملائكته والقدر والآخرة.

**والكمال العملي:** ﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ أي: من الصلاة والزكاة والصوم والحج وصلة الأرحام والأخلاق الفاضلة وغيرها.

**والكمال اللازم،** أي: الكمال الشخصي في الإنسان، والكمال المتعدِّي هو ما يفيض من الإنسان إلى الآخرين بالنفع أو التواصي أو التعليم أو الأمر أو النهي.

**وفي هذه السورة الكريمة أربع دوائر متداخلة:**

1- دائرة ﴿غَوَىٰ ۝٢﴾، وهي الدائرة الأوسع، ولو اقتصرنا على لفظ الإيمان لدخل فيه العمل الصالح وما بعده، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾

(1) ينظر: «مفتاح دار السعادة» (1/ 56- 57).

[البقرة: 143]، أي: صلاتكم إلى بيت المقدس[1]، فأداء الزكاة من الإيمان، وأداء الصلوات وبر الوالدين والحج والصوم من الإيمان.

ولهذا إذا ذكر الإيمان مجرَّدًا، ولم يذكر معه غيره يدخل في الإسلام.

2- دائرة أضيق، وهي: ﴿ وَمَا يَنطِقُ ﴾، ولو لم يذكر إلا العمل الصالح لدخل فيه الإيمان، ولكن من باب التخصيص والتنصيص، ولهذا رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**الإسلامُ علانيةٌ، والإيمانُ في القلبِ**»[2]، ولا يصح[3].

3- دائرة ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾، والتواصي بالحق من الإيمان ومن الأعمال الصالحة، لكن ذكَرَه إشادةً بأهله وبيانًا لمزيتهم عن غيرهم.

4- دائرة ﴿عَنِ إِنّ﴾، والصبر من الإيمان، ومن العمل الصالح، ومن الحق الذي يُتواصى به، وقد ذكره على سبيل التخصيص، فكأنه ذكره أربع مرات.

ولم يذكر بماذا آمنوا وبمَن آمنوا، وقد صرَّح بذلك في «سورة النساء»: ﴿ ٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾.

الواو هنا واو الجماعة، فالله تكلم عن جماعة، وهذا غالب ما تجده في القرآن الكريم، وهو يدل على أهمية الاجتماع والتآلف، وأن الله تعالى يحب اجتماع المؤمنين

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (2/ 651)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (1/ 251)، و«تفسير القرطبي» (16/ 59)، و«تفسير ابن كثير» (1/ 458).

(2) أخرجه ابن أبي شيبة (30319)، وأحمد (12381)، وأبو يعلى (2923)، والعقيلي (3/ 250)، وابن حبان في «المجروحين» (2/ 111)، وابن عدي (5/ 207)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (1076) من حديث أنس رضي الله عنه.

(3) ينظر: «ميزان الاعتدال» (3/ 156)، و«طبقات الشافعية الكبرى» (1/ 121)، و«السلسلة الضعيفة» (6906).

ويكره فرقتهم، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ [الصف: 4]، ﴿٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ﴾ [آل عمران: 103].

فأين هدي القرآن؟ وأين هي تعاليمه من واقع الناس اليوم؟!

لقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ وأبي موسى رضي الله عنهما: «**تطاوَعا ولا تختَلِفا**»[1]. وهو دليل على وجود اختلاف بينهما في الرأي؛ لكنه أرشدهما إلى الحلول العملية، وهي أن يكونوا ميسِّرين سهلين لينين بأيدي إخوانهم، وألَّا تكون سهامُ بعضهم مصوَّبة إلى بعض، أو جهود بعضهم تجهض بعضًا، وأن يتوجهوا إلى الهم الواحد، ويجتهدوا في التعليم والدعوة والإصلاح دون أن يفترضوا أنه لا يمكن أن يقوموا بعمل ناجح إلا أن يكون عملهم متقاطعًا مع جهود الآخرين.

أليس بمقدور المسلم اليوم أن يوجِّه همَّه نحو الأمر المثمر الفعَّال، وأن يشتغل في أي خير: دعوة، وإغاثة، وعلم، وفق الشروط التي يراها، وليس لأحد عليه سبيل، ولا يمنع هذا من النصيحة، ولا من النقد باللغة الراقية المناسبة، وفق الضوابط الشرعية، إنما الخطر في الانشقاق الذي دمَّر الطاقات، وقضى على الجهود، واستغرق الأوقات.

ثَمَّ مشكلة أخرى، وهي قضية التجمعات الإسلامية، وهي أفضل من التفرُّق، فالاجتماع والتقارب والتفاهم وحسن التعامل والمودة بين المسلمين أمر مطلوب، والاجتماع على الخير والبر والطاعة والتقوى من الأصول الثابتة.

لكن ينبغي أَلَّا يتحول الاجتماع إلى تعصب لجماعة أو حزب، فنكون قد خرجنا من ورطة إلى أخرى؛ خرجنا من ورطة الفردية والذاتية والأنانية للشخص، ودخلنا في ورطة الأنانية والذاتية والفردية للمجموعة، وعند ما يجتمع الناس على خير

---

(1) أخرجه البخاري» (3038)، ومسلم (1733) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

يلزمهم تعاهد دائم أَلَّا يكون الولاء الديني فيما بينهم يعني نبذ مَن سواهم، وإنما لُحْمة الولاء لهذه الأمة أشمل وأبقى، وينبغي أن تكون هي الأصل، وإنما هم أشبه بشركة أو جامعة التقت على عمل خاص تتعاون عليه، دون أن تقيم حدودًا أو سدودًا مع الآخرين.

إن كثيرًا من الأعمال الصالحة شُرعت جماعة، كالصلاة، والصوم، والحج، وغيرها.

والعجب ممن يجمعهم كل ذلك من الأصول العلمية والأركان العملية، ثم يتجاهلون الأصل العظيم المحكم الذي هو حسن الخلق، فيهجر بعضهم بعضًا بسبب اختلاف في موقف، أو مسألة علمية أو سياسية، أو تأويل أو لنقل بسبب خطأ صدر من بعضهم بغير قصد أو بقصد.

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**لا يحِلُّ لمسلمٍ أن يهجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاثٍ**»[1]. فهم يلتقون في المسجد، ورِجْل هذا إلى رِجْل الآخر، فإذا سلَّم لم يلتفت إليه بوجهه، بل يغمض عينيه لئلا يراه، أو لا يبالغ في الالتفات لما يجده في قلبه! فانظر كيف عمل الشيطان في الإغراء بالفرقة والخلاف والتناقض، وأضعف ذلك أثر ما نمارسه من عبادات وأعمال جماعية في نفوسنا، وصار الإنسان يمارس العبادة ويمارس نقيضها في الوقت نفسه!

ذكر أبو بكر بن العربي أن شيخه أبا بكر الطُّرْطُوشي زار المغرب، فصلَّى في مسجد للمالكية، فرفع الطُّرْطُوشي يديه عند الركوع وعند الرفع منه، فرآه رئيس البحر فانزعج من ذلك وأمر بقتله!

(1) أخرجه البخاري» (6075)، ومسلم (2560) من حديث أبي أيوب رضي الله عنه.

قال ابن العربي: فطار قلبي من بين جوانحي، وقلتُ: سبحان الله! هذا الطُّرْطُوشي فقيه الوقت! فقال لي: لماذا يرفع يديه؟ قال ابن العربي: فما زلتُ أبيِّن له أن هذه سنة النبي صلى الله عليه وسلم حتى سكن غضبه[1].

وأول ما يُوصي الإنسان نفسه، وأصل الوصية تكون للناس، لكن لما قال تعالى: ﴿﴿٣﴾﴾ دل على أن المقصود التواصي بين العديد من الناس، وهو ترسيخ لقضية الاجتماع على الخير والبر والتقوى.

وعبَّر في الآية بـ«تَوَاصَوْا»؛ لأن فيها معنى الاستمرار، بخلاف «أَوْصَوْا»، فقد يكون مرة ثم ينتهي.

كذلك التواصي فيه معنى التفاعل بين الطرفين، فأنا أوصيك وأنت توصيني، فلا تجد في الإسلام فئة فقط هي التي توصي الناس، والبقية يكون دورهم مجرد الاستماع، وإنما كل مسلم يوصي أخاه بالحق، فهي عملية تبادلية بين جميع المؤمنين، **وقد قيل**: لا أحد أقل من أن يفيد، ولا أحد أكبر من أن يستفيد، فلا يقال: هذا العالم جاوز القنطرة، فلا ينصح. ولا أحد يقول: هذا حقير لا يوجد عنده شيء.

وهذا يشمل التواصي، ويشمل التواصي بالتواصي، فعند ما نقول: يا إخوان، علينا أن يُوصي بعضُنا بعضًا، فنحن نوصي بعضنا بالوصية، تقول: أوصيك أن توصي الآخرين بالصبر، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول: «**استَوصُوا بالنساءِ خيرًا**»[2]. يعني: ليُوصي بعضُكم بعضًا بالنساء خيرًا[3].

---

(1) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (4/ 370)، و«تفسير القرطبي» (19/ 281)، و«الاعتصام» (1/ 274).

(2) أخرجه البخاري (3331، 5186)، ومسلم (1468) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) ينظر: «كشف المشكل من حديث الصحيحين» (3/ 477- 478)، و«عمدة القاري» (20/ 166)، و«فيض القدير» (1/ 503)، و«حاشية السندي على سنن ابن ماجه» (1/ 568).

والحق يُعرف بأدلة الشريعة، وهي مسألة مهمة، وهي: أن علينا أن نتواصى بالحق الذي هو الشرع، فإذا كانت القضية مجرد اجتهادات وآراء فلا يشملها الأمر؛ لأن الرأي يخطئ ويصيب، ولا حظر أن يتناقش المختلفون ويتحاوروا حول الرأي الأصوب والأَسَدِّ؛ لكن دون تعصب أو توهُّم أن الرأي دين لا يسع أحدًا مخالفته.

﴿(٣) إِنَّ﴾ والصبر من الحق، وهو رأس الفضائل؛ ولذلك قال عليٌّ رضي الله عنه: «الصبرُ مَطِيَّةٌ لا تَكْبُو»[1].

ولو تأملت وصايا الله تعالى لعباده بالصبر لوجدت شيئًا كثيرًا مذهِلًا، والحقيقة أنه لا دين ولا دنيا إلا بالصبر، حتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «وجدنا خيرَ عيشنا بالصبر»[2].

فالإيمان يحتاج إلى صبر، بل الإيمان نصفه الصبر.

ومثله العمل الصالح، وقد يستقيم المرء شهرًا أو سنة، لكن إذا لم يكن عنده صبر، فإنه ينقطع.

وهكذا التواصي بالحق، قد نتواصى بالحق مرة أو مرتين، لكن إذا لم يكن عندنا صبر، فإننا نتوقف أو نمل.

والإنسان قد يصبر سنة أو سنتين، لكن إذا لم يكن عنده صبر على الصبر فإنه ينقطع.

---

(1) ينظر: «الرسالة القشيرية» (ص85)، و«أدب الدنيا والدين» (ص359)، و«بصائر ذوي التمييز» (3/ 378)، و«سراج الملوك» (ص79)، و«شرح نهج البلاغة» (1/ 319)، (11/ 203)، و«مدارج السالكين» (2/ 158)، و«عدة الصابرين» (1/ 9، 77)، و«التحرير والتنوير» (30/ 534).

(2) تقدم تخريجه في «سورة البلد»: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ عَنِ﴾.

والصبر يكون في الصحبة بين الزوجين، أو في التجارة، أو في طلب العلم، أو في الدعوة، أو في الجهاد؛ لأنه ما من عمل إلا والإنسان يقوم به مع غيره، والإنسان محتاج فيه إلى غيره.

ولا يمكن أن توجد صحبة بين اثنين إلا بصبر وتسامح؛ ولما ذهب موسى مع الخضر عليهما السلام قال له: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، وهما اثنان، وهذا نبيٌّ وهذا نبيٌّ[1]، قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف: 67- 68].

إن الذين يذهبون إلى طلب العلم كثير، والذين يتعبَّدون الله كثير، والذين يتجهون إلى الخير كثير، ولكن الذين يصلون إلى الغاية، ويقطعون المشوار إلى نهايته قليل!

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلًا *** فَقدْ صارُوا أَقلَّ مِنَ القليلِ[2]

وهؤلاء هم الصابرون، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم بمنه وكرمه!!



(1) والخضر عليه السلام نبيٌّ على قول الجمهور، وهو الصحيح. ينظر: «تفسير الطبري» (17/ 377)، و«تفسير القرطبي» (11/ 16)، و«البحر المحيط في التفسير» (6/ 139)، و«تفسير النسفي» (3/ 27)، و«فتح الباري» (1/ 222)، (6/ 434).

(2) ينظر: «العقد الفريد» (2/ 106)، و«الصداقة والصديق» لأبي حيان التوحيدي (ص95)، و«معجم الأدباء» (3/ 1265)، و«غرر الخصائص الواضحة» (ص163).

## سورة الهمزة

*** تسمية السورة:**

أشهر أسمائها: «**سورة الهمزة**»[1].

وسماها البخاري، وغيره: «**سورة ﴿إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾**»[2]، بأول آياتها.

وذكر الفيروز آبادي في «بصائر ذوي التمييز» أن من أسمائها: «**الحُطَمة**»[3]؛ لورود اسم الحُطَمة فيها.

*** عدد آياتها:** تسع آيات بالاتفاق[4].

*** وهي مكية** باتفاق العلماء[5].

وذكر بعض المفسرين أنها نزلت في جماعة من صناديد كفار مكة، الذين كانوا ينالون من المسلمين ويهمزونهم ويلمزونهم، ويسبونهم ويعيبونهم، وينسبون إليهم الأباطيل، يحاولون بها تشويه صورتهم.

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 831)، و«تفسير الطبري» (24/ 616)، و«المحرر الوجيز» (5/ 521)، و«تفسير القرطبي» (20/ 181)، و«التحرير والتنوير» (30/ 535).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص748)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 459)، و«صحيح البخاري» (6/ 177)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 481)، و«التحرير والتنوير» (30/ 535).

(3) ينظر: «بصائر ذوي التمييز» (1/ 543)، و«إملاء ما من به الرحمن» (2/ 294)، و«التحرير والتنوير» (30/ 535).

(4) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص288)، و«التحرير والتنوير» (30/ 535).

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 616)، و«المحرر الوجيز» (5/ 521)، و«زاد المسير» (4/ 488)، و«تفسير القرطبي» (20/ 181)، والمصادر السابقة.

**وممن قيل إن السورة نزلت فيه:** الوليد بن المغيرة، والأَخْنس بن شَرِيق، وأُمَيَّة بن خلف، وأُبيّ بن خلف، وجَـمِيل بن مَعْمر الجُمَحي، والعاص بن وائل السَّهْمي، والأسود بن عبد يَغُوث، وغيرهم.

**ومن المفسرين مَن قال:** إنها لم تنزل في أحد بعينه[1].

والملاحظ أن القرآن لا يذكر أسماء الذين نزلت فيهم الآيات، **وهذا فيه دروس وفوائد، منها:**

1- أن المقصود الفعل، وليس الشخص؛ فالأشخاص يذهبون ويُنْسَوْنَ، لكن العبرة بالأفعال الطيبة التي يُراد من الناس أن ينتهجوها، والأفعال السيئة التي يُراد أن يجتنبوها.

2- في الإبهام فسح مجال للتوبة، بخلاف ما لو ذُكر اسمه مذمومًا في آية تُتلى، فربما عزَّ عليه الرجوع، وقد تأخذه العزة بالإثم.

ومن هؤلاء الذين قيل إن السورة نزلت فيهم: جَـمِيل بن مَعْمر، وقد أسلم وحسن إسلامه، وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم غزوة حُنين[2].

وفي المثل: «للعدو الهارب ابنِ جسرًا». والنبي صلى الله عليه وسلم كان يبني لهم جسورًا، وقد علَّمه ربُّه هذا، والشرع لا يأمر بتعيير الناس بأخطائهم ولا تيئيسهم من التوبة، والمؤمن المشفق على العصاة حريص على أن ينهضوا من عثرتهم، وعلى أن يستقيموا، ولذا فهو يجتهد في هدايتهم، لا يضع شروطًا تعجيزية أمام توبة التائبين، ولا يطلب من التائب أن يقوم على الملأ ويعدِّد أخطاءه السابقة، ويعلن الرجوع عنها، وفي هذا إطاحة بإنسانيته وتعويق له، وقد لا يجد شجاعة ليخطِّئ نفسه، وربما لا يرى

---

(1) ينظر: «زاد المسير» (4/ 488)، و«تفسير الرازي» (32/ 283)، و«تفسير القرطبي» (20/ 183)، و«التحرير والتنوير» (30/ 535).

(2) ينظر: «الإصابة» (1/ 500).

ذلك من المصلحة، أو كان تدرَّج في طريق الهداية شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى ما وصل إليه.

ومن علامات التوفيق للداعية أن يفرح بما يراه من الناس من بوادر الخير، وكل خطوة يتقدَّم بها هؤلاء إلى الصراط المستقيم يبش لها ويتفاءل ويفرح، ولعل الخطوة تمهِّد لما بعدها، وليس الدين ملكية لأشخاص، وإنما هو دين الله، والناس فيه سواسية، لا فضل بينهم إلا بالتقوى.

3- أن في ذكرهم بأسمائهم تعييرًا لذريتهم من بعدهم؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم عن أبي جهل: «**لا تسبُّوا الأمواتَ؛ فتؤذوا الأحياءَ**»[1].

وقد يكون في هؤلاء المؤمن والتقي والصالح والعالم، فيكون في ذكر اسم أبيه مذمومًا في القرآن تعييرٌ له وسبٌّ وإيذاء، وهذا أمر مشاهد؛ فالإنسان لا يستطيع أن يتخلَّى عن قراباته، وقد ورد في السيرة أن عبدَ الله بنَ عبد الله بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلُولَ لما بلغه في غزوة المُرَيْسِيع[2] أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يريد أن يقتل أباه، قال: يا رسولَ الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبَيٍّ فيما بلغك عنه، فإن كنتَ لا بد فاعلًا، فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل

(1) أخرجه أحمد (18210)، والترمذي (1982)، وابن حبان (3022) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (2397)، وما سيأتي في أول «سورة الكوثر».

(2) هي غزوة بني المصطلق، والمريسيع: ماء لخزاعة، وهو من قولهم: رسعت عين الرجل. إذا دمعت من فساد. ينظر: «الروض الأنف» (4/ 13).

عبد الله بن أُبَيٍّ يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمنًا بكافر، وأدخل النارَ. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**بل نترفَّقُ بهِ ونحسِنُ صحبَتَهُ ما بَقِي معنَا**»[1].

ففي عدم ذكر أسماء مَن نزلت فيهم الآيات حفاظ على مشاعر أقاربهم وأسرهم ومَن له بهم علاقة.

وعند عامة الأصوليين: «العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب»، والمدار على هذه الأوصاف المرذولة والتحذير منها ووعيد أهلها.

* ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ طَغَىٰ﴾:

﴿إِلَّا﴾ التي افتتحت بها السورة تكررت في القرآن الكريم؛ **ومن ذلك:**

1- وردت في شأن اليهود، قال تعالى: ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ﴾ [البقرة: 79].

2- وعلى لسان مَن يخالل الأشرار، فيصدونه عن سبيل الله، كما في قوله تعالى: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: 28].

3- وفي الذين ينقصون المكيال، قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ﴾ [المطففين: 1].

4- في الأفَّاك الأثيم، وهو الكذَّاب المفتري الذي يسمع آيات الله ثم يصر على كفره وضلاله مستكبرًا، قال تعالى: ﴿رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: 7].

5- في المكذِّبين، قال تعالى: ﴿وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ﴾ [المرسلات: 15].

6- في القاسية قلوبهم، قال تعالى: ﴿يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ﴾ [الزمر: 22].

---

(1) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (4/ 256)، و«تفسير الطبري» (12/ 105)، و«تاريخ الطبري» (2/ 110)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (4/ 61)، و«كشف المشكل من حديث الصحيحين» (2/ 532)، و«أسد الغابة» (2/ 133)، و«البداية والنهاية» (4/ 158)، و«الإصابة» (4/ 155)، و«السيرة الحلبية» (2/ 599)، و«هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم» (166- 169)، وما تقدم في «سورة المنافقون».

7- وفي الظالمين، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: 65].

8- في الذين يغفلون عن صلاتهم ويقصِّرون في أدائها، قال تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ﴾ [الماعون: 4- 5].

وفي هذه السورة وعيد لكل هُمزة لُمزة غَيَّاب عَيَّاب.

في الويل معنى التهديد والوعيد، وبكل حال فالغالب على هذه المواضع أنها في شأن أولئك الذين يؤذون عباد الله، كما في الأَفَّاك الأثيم، والمطفِّفين، وفي الـهُمزة اللُّمزة، والظالمين، الذين آذوا الناس وظلموهم.

وكلمة ﴿إِلَّآ﴾ قد تكون دعاءً على الإنسان، وقد تكون خبرًا، وأيًّا ما كانت، فهي بيان عن سوء حال هذا الإنسان الذي جاءه الوعيد.

وكأن أصل الكلمة- والله أعلم- أن الإنسان إذا نزلت به نازلة أو مصيبة يقول: «وي». وهذه كلمة توجعٍ وتحزُّنٍ وتخوفٍ وقلقٍ، ثم يقول: «لي»، فلكثرة استعمالها صارت: «ويلي»، وقد تأتي معرفة، كما قال سبحانه: ﴿ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ [الأنبياء: 18].

**وثَمَّ فرق بين «ويح» و«ويل»**، فـ«ويح» فيها الرحمة والترحم، أما «ويل» ففيها التوعُّد[1].

**وقال بعض المفسرين:** ﴿إِلَّآ﴾: واد في جهنم. وهذا لم يصح فيه شيء، كما سبق في «سورة المطففين»[2].

---

(1) ينظر: «الصحاح» (5/ 1846) «و ي ل»، و«معجم الفروق اللغوية» (ص579)، و«تفسير غريب ما في الصحيحين» (ص564)، و«الفائق» للزمخشري (4/ 85)، و«تاج العروس» (7/ 220) «و ي ح».

(2) تقدم في «سورة المطففين»: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ﴾.

والتعميم في «كل» يدل على أن السورة لم تنـزل في شخص بعينه، بل هي لكل همَّاز لـمَّاز.

**والهُمَزَةَ**: من الهَمْز، **واللُّمَزة**: من اللَّمز، وهما على وزن: فُعَلَةَ، **والمقصود بالهُمَزَة اللُّمَزة**: كثير الهمز واللَّمز[1].

ولهذا نظائر، كما يقال: فلان ضُحكة، أي: كثير الضحك، وفلان لُعَنَة، أي: كثير اللَّعن، وهو يدل على أن الصفات المذكورة تلبَّست بالإنسان، وصارت جزءًا من شخصيته، بل لعلها أبرز معالم شخصيته، فلو قيل: ما الصفة المميزة له؟ لقلت: فلان همزة. أي: كثير الهمز في كل مجلس، وهكذا إن كان ضحَّاكًا أو لعَّانًا، فهي عادة أدمنها، وغرم بها، حتى صارت الغالب من فعله.

**وهل الهمزة هو اللمزة، أم أن بينهما فرقا؟**

قال ابنُ قُتيبة والزَّجَّاج: لا فرق بينهما، فهما بمعنى واحد، وكأنه من باب مترادف الألفاظ، وهو: العيَّاب الطعَّان الذي إذا لقيك أحسن إليك وضحك، وإذا انصرفت عنه سبَّك وعيَّرك[2]، كما قال القائل[3]:

إذا لقيتُكَ عن كُرهٍ تُكاشِرُني *** وإن تغيَّبتُ كنتَ الهامِزَ اللُّمَزَهْ

وقد يعيِّر بظاهر من القول تارة، أو بغمز أو همز تارة أخرى، وهذا معنى جيد؛ لأن المعاني في القرآن لا يلزم معها الانشغال بحقيقة الفروق الدقيقة بين لفظ ولفظ عن

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 159)، (24/ 617)، و«تفسير الماوردي» (6/ 335)، و«زاد المسير» (4/ 488)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 488)، و«التحرير والتنوير» (29/ 72)، و«أضواء البيان» (7/ 413).

(2) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص539)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 361)، و«تهذيب اللغة» (4/ 367)، و«لسان العرب» (5/ 397)، و«تاج العروس» (15/ 322).

(3) ينظر: «زاد المسير» (4/ 488- 489)، و«تذكرة الأريب في تفسير الغريب» (ص312)، و«تفسير الرازي» (16/ 78)، و«تفسير القرطبي» (20/ 183)، والمصادر السابقة.

المعنى المراد، ولكن ثَمَّ أقوال تفرِّق بين اللفظين، وهي كثيرة أوصلها ابن الجوزي في «زاد المسير» إلى سبعة[1].

**منها**: أن الهمز في اللغة أصله الكسر، يقولون: همزت الخشبة، إذا وضعتها على كتفيك ثم كسرتها، ويوجد كلمة أخرى قريبة من الهمز إذا قلبنا الزاي سينًا، وهي: الهمس، الذي يكاد لا يُسمع[2].

**وهل بين الهمز والهمس تقارب؟**

بينهما تقاربٌ في المَخْرج، وتقارب في المعنى[3]؛ لأن الهمس هو الصوت الخفي، فقد يكون المقصود بالهمز: تنقص الناس وازدراؤهم واحتقارهم من خلال حركات الجوارح الخفية التي ربما لا يكاد الناس يتفطنون لها، يغمز بطرف عينه مثلًا، أو بشدقيه، أو بوجهه، أو بحركة يده.

فهذا هو الهمز، وقد يدخل فيه مَن يحاكي الناس في حركاتهم، أو أصواتهم وأقوالهم، من أجل أن يُضْحِك الآخرين على سبيل التعيير أو الازدراء.

ولو قلَّد صوت الآخر على سبيل الإعجاب بصوته واستحسانه، فليس فيه بأس، لأن بعض الصحابة حاكوا صوت النبي صلى الله عليه وسلم في قراءته: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: 1][4].

(1) ينظر: «زاد المسير» (4/ 488).

(2) ينظر: «لسان العرب» (5/ 326)، و«تاج العروس» (15/ 388) «هـ م ز».

(3) ينظر: «لسان العرب» (6/ 250)، و«تاج العروس» (17/ 40) «هـ م ز»، «هـ م س».

(4) أخرجه الطيالسي (957)، وأحمد (16789، 20542)، والبخاري (4281، 7540)، ومسلم (794)، والروياني (879)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (4057)، وابن حبان (748)، والبيهقي (10/ 229) من حديث عبد الله بن مُغَفَّل رضي الله عنه.

والعبرة هنا بدافع الفعل، فإذا قلَّد إنسان صوت قارئ أو متحدِّث أو محاضر أو خطيب؛ لأنه معجب بصوته، ولم يقصد ذمًّا، فهذا لا بأس به.

**أما اللَّمز**؛ فالغالب أن يكون باللسان، وقوعًا وولوغًا في أعراض الناس، تعييرًا وتعييبًا وازدراءً، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة، وغيرهما[1].

**والكلام في الناس بالجرح والتعديل أنواع:**

1- **ما لا يدخل في الوعيد**، كأن يتكلم في الناس بحق واعتدال، ويكون أهلًا لذلك، والناس بحاجة إليه.

- أن يكون باعتدال؛ فلا يبخس الناس أشياءهم ولا يظلمهم، ولا يحط من أقدارهم.

- أن يكون أهلًا لذلك؛ فلا يهجم على الكلام في الناس مَن لم يتأهَّل للجرح، ولا يجرِّح أو يعدِّل في الناس مَن هو بحاجة إلى مَن يعدِّله.

ولذلك صنَّف علماء الجرح والتعديل فيمَن يُعتمد قوله في الجرح والتعديل، فلا يُقبل الجرح ولا التعديل من كل أحد، بل لا بد أن يكون الجارح أو المعدِّل إمامًا مشهورًا معروفًا بالإمامة والحفظ والعلم، ومعرفة درجات العدالة.

- أن يكون ثَمَّة حاجة إلى ذلك؛ كحاجة علماء الحديث السابقين إلى معرفة صحيح حديث النبي صلى الله عليه وسلم من ضعيفه، وكالحاجة إلى بيان أحوال مَن قد يلتبس أمره، فتكون الأمة بحاجة إلى بيان حاله، مع أن الذي عليه عامة أهل العلم وأهل السنة، أنه إذا أمكن بيان الحق من غير ذكر الشخص فهو أولى، وأما إذا احتيج إلى ذكر شخص بعينه فلا بأس بذلك.

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (2/ 395)، و«تفسير الطبري» (24/ 596)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 306)، والمصادر السابقة والآتية.

وقد ابُتلي كثير من الناس اليوم بالتلذُّذ بالولوغ في أعراض الناس، والجراءة على ذلك يخشى أن تدفع بصاحبها إلى الوقوع فيما حذر الله تعالى منه.

2- **المكروه**؛ وهو ما يكون فيه استرسال واستطراد، ونوع من الحظوظ النفسية، مع وجود الحاجة فيه.

3- **المحرَّم**؛ وهو أن يكون من غير المتأهِّل، أو يكون فيه ظلم وعدوان، أو يكون على سبيل البغي على الناس، وهذا قلَّ مَن يسلم منه، حتى من أهل الصلاح.

وقد يتطور إلى ما يُخشى على دين صاحبه، وهو ما يكون فيه همز ولمز للشريعة، كما قال تعالى: ﴿كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ﴾ [التوبة: 65- 66].

والاشتغال بالناس في الأصل مَذمَّة، ولو أن إنسانًا صرف عمره كله للعن فرعون وهامان وقارون وأبي جهل وأُبِيِّ بن خلف، لم يكن رشيدًا مصيبًا في ذلك.

ويُروى أن الخوارج دخلوا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فلم يدع لهم حجة إلا كسرها، فقالوا: لسنا نجيبك حتى تكفِّرَ أهلَ بيتك وتلعنَهم وتتبرَّأَ منهم. فقال لهم عمر: «إن الله لم يجعلني لَعَّانًا، ولكن إن أبقى أنا وأنتم فسوف أحملكم وإياهم على المحجَّة البيضاء». فأَبَوْا أن يقبلوا ذلك منه. فقال لهم: «إنه لا يسعكم في دينكم إلا الصدق، منذ كم دنتم الله بهذا الدين؟». قالوا: منذ كذا وكذا سنة. قال: «فهل لعنتم فرعونَ وتبرأتم منه؟». قالوا: لا. قال: «فكيف وسعكم تركه، أَلَا يسعني ترك أهل بيتي، وقد كان فيهم المحسن والمسيء، والمصيب والمخطئ؟»[1].

❁ ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ﴾:

(1) ينظر: «حلية الأولياء» (5/ 309)، و«سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي (ص94- 95).

اختلف القراء فيها، فقراءة عاصم: ﴿ٱلۡقُوَىٰ﴾ بالتخفيف، وقرأ حمزة والكِسائي وابن عامر بتشديد الميم: ﴿جَمَّعَ﴾[1]، وهو أبلغ من ﴿ٱلۡقُوَىٰ﴾، وتدل على الجهد الذي بذله في تجميع المال، فهو قد أخذ وقتًا طويلًا في تجميعه، وبذل فيه كثيرًا من الأسباب والحيل[2].

وجاء المال نكرة: ﴿۝٥﴾؛ لأن المال في ذاته ليس هو الذي ينفع الإنسان، وإنما الذي ينفعه عمله الصالح، وجمع المال بحد ذاته ليس مذمة، وإنما المذمة ما وراء ذلك من سوء التصرف فيه.

وفيها معنى أنه لم يكن يهتم بنوع المال وسلامة مصدره، بقدر ما يهتم بجمعه، حتى لو كان من حرام أو غش أو سرقة.

ولقوله: ﴿ذُو﴾ **أكثر من معنى**[3]:

1- جعله عُدَّة، بمعنى أنه أَعَدَّه، وادَّخره لنوائب الدهر وصروف الزمان، ونسي أن هذا المال قد يخذله أحوج ما يكون إليه.

2- عدَّده، أي: أحصاه مرة بعد مرة، وهذا ينبئ عن الحرص والنهم الشديد والخوف على زواله، وليس المذموم هو الغنى أو كثرة المال، وإنما الحرص والانشغال به عن طاعة الله أو تصريفه في الحرام.

---

(1) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص697)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص225)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 403)، و«معجم القراءات» (10/ 575- 576).

(2) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص375)، و«الحجة للقراء السبعة» (3/ 352)، و«حجة القراءات» (ص772).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 620)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 616)، و«تفسير الماوردي» (6/ 336)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 309)، و«زاد المسير» (4/ 489)، و«تفسير الرازي» (32/ 284)، و«تفسير القرطبي» (20/ 183).

3- عدَّده، أي: نوَّعه، يعني: عنده أنواع وألوان من الأموال أرصدة، وسبائك ذهب، وعقار، وماشية... إلخ.

إن كل ما كان سببًا في احتقار الناس وازدرائهم فهو معيب، حتى لو كان ذلك بعبادة أو علم أو جاه أو نسب أو حسب أو جمال أو مال، على أن كسب المال ليس عيبًا بذاته.

ذَرِيني للغِنَى أسعَى فإِنـي *** رأيتُ الناسَ شرُّهمُ الفقيرُ
وأحقرُهم وأهونُهم لدْيهِم *** وإن أمسَى لهُ نسـبٌ وخيرُ
ويُهمِلُه النـديُّ وتـزدريـهِ *** عقيلتُه ويهمـلُـه الصـغـيرُ

إلى قوله:

قليلٌ ذنبـهُ والذنـبُ جـمٌّ *** ولكِـنْ للغِنَى ربٌّ غَـفـورُ[1]

فالغنى منه ما يكون سببًا في رفعة الإنسان في الدنيا، واحترام الناس له، ومنه ما يكون سببًا في رفعته في الآخرة، ووصوله إلى أعلى الدرجات.

* ﴿فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ رَبِّهِ﴾:

أي: أخلده في الدنيا[2]، وأتى بالفعل الماضي: ﴿بِٱلۡأُفُقِ﴾، ولم يقل: «يخلده»، على سبيل التهكُّم بهذا الذي يحسب أن القضية مفروغ منها، فما دام عنده مال، فهو قد أخلده، والأمر قد حُسم وانتهى، فيقال له: رويدك، وهَوِّن عليك! ليس الأمر كما تظن.

(1) ينظر: «البيان والتبيين» (ص130)، و«البخلاء» للجاحظ (2/ 135- 136)، و«عيون الأخبار» (1/ 103)، و«إصلاح المال» لابن أبي الدنيا (479)، و«العقد الفريد» (1/ 261)، و«الأمتاع والمؤانسة» (ص61)، و«أخلاق الوزيرين» لأبي حيان التوحيدي (ص60).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 621)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 616)، و«تفسير البغوي» (5/ 304)، و«تفسير الرازي» (32/ 285)، و«التحرير والتنوير» (30/ 539).

**وكيف يحسب أن ماله أخلده؟ هذا له عدة احتمالات:**

1- يحسب أن المال أطال عمره، ومن الناس مَن يظن أنه بالمال، يتداوى من الأمراض، ويأكل أطيب الطعام، وأن المال يكون سببًا في طول عمره، والواقع أن الإنسان قد يموت بسبب ماله، وإن كان من المعلوم بالحساب والإحصاء أن معدل أعمار الأفراد في الدول المتقدِّمة أطول منه في الدول النامية، بسبب الخدمات الصحية، والغذائية، والوقائية، وهذه من الأسباب الشرعية، وليس سببًا خارقًا أو خارجًا عن القضاء والقدر، فالبلاد التي تشيع فيها الأمراض والمخاطر البيئية، وتكثر فيها حالات المصادرة والقهر والحرمان والأذى للناس؛ يكون الفرد فيها أقصر عمرًا.

لكن هل الأغنياء والمشاهير في البلاد المتقدِّمة أو غيرها هم أطول أعمارًا من غيرهم؟

إن من أكثر أسباب مرض الضغط والسكر والقلق والجلطات الدماغية، الانشغال بالمال والإفراط فيه.

2- أنه نسي الموت بانهماكه بالدنيا وانشغاله بها، فعمله على مَن يعتقد الخلود، كما يقول الحسن البصري: «ما رأيتُ يقينًا لا شكَّ فيه أشبه بشكٍّ لا يقين فيه من الموت»[1].

3- أنه يظن المال أخلده في الذكر، والذكر عُمْر، كما قال الشاعر[2]:

فارفعْ لنفسِكَ بعد موتِك ذكرَها *** فالذِّكرُ للإنسانِ عمرٌ ثانِي

---

(1) ينظر: «البديع في البديع» (ص125)، و«الصناعتين: الكتابة والشعر» (ص309)، و«التمثيل والمحاضرة» (ص404)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» (4/ 934)، و«دلائل الإعجاز» (ص604)، و«محاضرات الأدباء» (2/ 505)، و«الكشكول» (2/ 229).

(2) ينظر: «الموسوعة الشوقية» (5/ 355- 356).

فهو بنى المباني الفخمة، وشَيَّد وأَسَّس، فلذلك يحسب أن هذا المال خلَّده ببقاء ذكره بعد الموت، ومن الناس مَن يكون له شيء من الذكر بالمال إذا أحسن استخدامه، ومع هذا فالناس سَرَعان ما ينسون، وإن ذكروا فذكرهم لا ينفع الميت إِلَّا أن يكون دعاء وثناء بخير.

4- أن يكون المقصود خلود مَن بعده من الورثة والقرابة ونحوهم، فهو يظن أنه بنى لهم مجدًا لا يزول بهذا المال.

5- أنه يحسب المال أخلد طريقته ومنهجه، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ﴾ [إبراهيم: 44]. هم يعرفون أنهم يموتون، ولكن يقولون: يرثنا قوم آخرون، يكونون مثلَنا، على طريقتنا ومنهجنا. وفي كتاب: «نهاية التاريخ» أن الحضارة الأمريكية ونظام الحكم الديمقراطي الليبرالي هو نهاية التاريخ والتطور البشري.

وفي الآية الكريمة تعريض لطيف بأن المجد ليس بالمال، ولهذا قال بعده: ﴿۝٧﴾ وإنما سبب الخلود في الدنيا والآخرة هي الأعمال الصالحة، والفضائل المعنوية: فضيلة العلم، الخلق، الإحسان إلى الناس، والتعبد، والتواضع، فالفضائل المعنوية والعلوم والأخلاق، هي المجد الباقي لصاحبه في الدنيا والآخرة.

فبذلك يضمن الإنسان شيئًا من الخلود في الدنيا بالذكر الحسن، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء: 84]. وكذلك الخلود في الجنة.

* ﴿۝٧ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ أَفَرَءَيۡتُمُ﴾:

وهذا زجر وإنكار لهذا الحسبان، يعني: حسابه خطأ، ولا خلود له.

و﴿ ٨ ﴾: شديدة الحطم والتحطيم[1]، وجاء في «صحيح مسلم»، أن عائذَ بن عمرو صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على عُبيد الله بن زياد، وهو أمير بالكوفة، وكان بطَّاشًا ظلومًا، فقال له: أي بُنَيَّ، إني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ: «**إن شرَّ الرِّعاءِ الـحُطَمَةُ**». يعني: الذي يحطم رعيته حطمًا بقسوة وغلظة، لا يبالي بكبير ولا صغير ولا ضعيف ولا غيره، ثم قال: «فإياك أن تكون منهم». فقال له: اجلس، فإنما أنت من نُخالة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم. فقال: وهل كانت لهم نُخالة؟ إنما النُّخالة بعدهم وفي غيرهم[2].

وهذه من الأجوبة المفحمة المسكتة، يعني: أنت وأمثالك النُّخالة.

فالحُطَمة تحطم الإنسان، وتأتي عليه كله، والنَّبْذ هو الرمي والإلقاء، كما تُنبذ النواة أو الحصاة.

وفيه إشعار بالإهمال والنسيان، كما لو كان شيئًا حقيرًا مستكرهًا، فيُنبذ ويُلقى ويُهمل ويُنسى، فلا يتفطن له أحد، وسوف يُهمل ذكره، بخلاف ما كان يظن أن ماله أخلده، سوف لا يُذكر، ولا يخلد ولا يبقى، ولهذا قال تعالى عن فرعون الذي يحسب أن ماله وسلطانه أخلده: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [القصص: 40]، في احتقار وازدراء وتهوين.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 621)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 616)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 287)، و«تفسير السمعاني» (6/ 281)، و«تفسير الرازي» (32/ 285)، و«تفسير القرطبي» (20/ 184).

(2) ينظر: «صحيح مسلم» (1830).

**والحُطَمة**: اسم من أسماء جهنم، أو صفة لجهنم، أو إحدى دَرَكاتها أو أبوابها[1]، على وزن: فُعَلَة، كهُمزة ولُمزة؛ فـ«الجزاء من جنس العمل»، فهذا الإنسان هُمزة لُمزة، توعَّده الله سبحانه أن يُنبذ في الـحُطَمة، جزاءً وفاقًا لما كان عليه في الدنيا من تحطيم الناس باحتقارهم والاستهزاء بهم والتكبر عليهم.

* ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿١٩﴾﴾:

قال سُفيان بن عُيينة رحمه الله: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿رَأَىٰ مِنْ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر[2].

وهو سؤال تفخيم، كما في قوله: ﴿يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [القارعة: 1– 3].

وفي الآية الكريمة إشارة إلى خيبة طموح الإنسان في الخلود: ﴿فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ رَبِّهِ﴾؛ لأن الله قال له: ﴿﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾، ومتى يُنبذ في الحطمة؟ في الآخرة، يعني: بعد الموت.. فهو سوف يموت ولا يخلَّد.. ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: 80]، فآماله وطموحاته في الخلود والبقاء تبخرت وذهبت أدراج الرياح، فلا أهل ولا مال ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [الزمر: 15].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 621)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 8431)، و«تفسير السمعاني» (3/ 141)، و«تفسير الماوردي» (6/ 336)، و«زاد المسير» (4/ 489)، و«تفسير القرطبي» (20/ 184)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 481).

(2) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾.

و﴿ ٨ ﴾ ليست معروفة في لغة العرب، ولعل هذا من أسرار السؤال عنها كالقارعة والحاقة وغيرها؛ فالله تعالى يذكر هذه الأسماء التي لم يعرفها العرب من قبل، أو كانوا يستخدمونها في معنى ثم غيَّر القرآن استخدامها ووظَّفها في غيره.

* ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ ٢٠﴾:

فنسبها تعالى إليه، فهي ليست نار شيخ من شيوخ العرب، أو نار قبيلة من قبائلهم توقدها تفاخرًا أو تعاظمًا أو تهديدًا، وهي ليست كنار الدنيا التي تُوقَدُ ثم مآلها إلى أن تخبو وتنطفئ، وهذا الوقد وصف يصح أن يطلق عليها مطلقًا، فكل وقت هي موقدة؛ فالنار كانت موقدة، وهي الآن موقدة، وهي يوم القيامة موقدة.

* ﴿أَوْحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ وَلَهُ﴾:

﴿كَذَبَ﴾: القلوب، والمقصود أن النار تصل إلى قلوبهم[1]، فهذا القلب الرَّقيق الذي يتألم لأي شيء؛ تصل بحرِّها وسمومها إليه، فتؤلمه أشد الإيلام؛ وذلك لأن القلوب هي محل الكفر، ومحل الكبر، ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**لا يدخلُ الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبْرٍ**». قال رجلٌ: إن الرجلَ يحبُّ أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة؟ قال صلى الله عليه وسلم: «**إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ؛ الكبرُ بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناس**»[2].

ومن ذلك الهمز واللَّمز، وازدراء الناس، وبَطْر الحق.

* ﴿مَا رَأَىٰ ١١ إِذَا﴾:

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 622)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 387)، و«تفسير البغوي» (5/ 304)، والمصادر السابقة.

(2) أخرجه مسلم (91) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

أي: مغلقة[1]، كما قال تعالى: ﴿جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥ إِذۡ﴾ [الكهف: 18]، **والوَصِيد** هو: الباب، والنار لها سبعة أبواب، كما قال الله: ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾[الحجر: 44]، كما أن الجنة لها أبواب ثمانية، كما في الحديث: «**أدخله اللهُ من أيِّ أبواب الجنة الثمانية شاءَ**»[2].

وقرأ عاصم وجماعة: ﴿١١﴾ بالهمز، والجمهور يقرؤونها بالواو[3]، والمعنى واحد.

وهذا دليل على أنهم يدخلون النار، كما ورد في مواضع كثيرة في القرآن، ويخرج الله منها مَن شاء، كما في حديث الـجَهَنَّميين وغيرهم[4]، ممن يأذن الله تعالى في خروجهم منها من أهل الإسلام، ولكن بالنسبة للكافرين الذين هم أهل النار، فإن وجود الأبواب يزيد في تعذيبهم؛ لأنه كلما رأى الباب همَّ بالخروج وتمنَّاه وتطلَّع إليه، وكان حاله حال السَّجِين الذي كلما سمع قعقعة الباب عاودته الآمال، وظن هذا إيذانًا بفرجه، فهم في نار جهنم ينظرون إلى الأبواب، ويتطلعون إلى خروجهم منها، ولكن هيهات!

* ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ٢٢﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 623)، و«تفسير الماوردي» (6/ 337)، و«زاد المسير» (3/ 72)، و«تفسير القرطبي» (20/ 185).

(2) أخرجه البخاري (3435)، ومسلم (28) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.
وفي «صحيح مسلم» (234) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه نحوه.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 622)، و«السبعة في القراءات» (ص686)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص372)، و«حجة القراءات» (ص766)، و«النشر في القراءات العشر» (1/ 393- 394)، و«معجم القراءات» (10/ 580- 581).

(4) ينظر: «صحيح البخاري» (6559، 6566)، و«صحيح مسلم» (191).

قراءة الجمهور بفتحتين ﴿عَمَدٍ﴾، وقرأ حمزة والكِسائي: ﴿عُمُدٍ﴾ بضم العين والميم[1]. وكلاهما جمع، وقد يكون جمعًا لعمود[2].

و﴿مُّمَدَّدَةِۭ﴾ صفة لـ﴿عَمَدٍ﴾، وليست صفة لـ، خلافًا لما يظنه بعضهم من أن النار ممدَّدة في أعمدة، وقد تكون هذه العمد من نار، وقد تكون مما شاء الله تعالى، وهذا غيب لا يستطيع أحد أن يتكلم فيه، والكلام فيه رجم بالغيب، وإن ذكره بعض المفسرين[3].

هذه العمد الطويلة قد تكون عمدًا في النار يوثقون بها كما يوثق السِّجين في الغُلِّ، ويقيدون بها، وقد تكون عمدًا ممددة على الأبواب مبالغة في إحكامها، وعدم خروجهم منها.

❍ ❍ ❍

---

(1) ينظر: «السبعة في القراءات» (697)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص225)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 403)، و«معجم القراءات» (10/ 581 – 583).

(2) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص376)، و«حجة القراءات» (ص773).

(3) ينظر: «تفسير البغوي» (5/ 304)، و«زاد المسير» (4/ 489)، و«فتح القدير» (5/ 604)، و«روح المعاني» (15/ 462)، و«التحرير والتنوير» (30/ 541).

## سورة الفيل

*** تسمية السورة:**

أشهر أسمائها: «**سورة الفيل**»، كما في المصاحف وكتب التفسير[1].

ويسميها بعضهم: «**سورة ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ﴾**»، كما في «صحيح البخاري»، وهكذا في بعض الروايات عن أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه، وغيره[2].

*** عدد آياتها:** خمس آيات بلا خلاف[3].

*** وهي مكية** بإجماع أهل العلم، وهي والسورة التي تليها «سورة قريش» في مصحف أُبي بن كعب رضي الله عنه سورة واحدة، حتى إنه ورد أنه لم يفصل بينهما بالبسملة[4].

وقد ورد أن عمر رضي الله عنه قرأ بـ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ﴾ و﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا﴾ في الركعة الثانية من صلاة المغرب، وقد ذكر ذلك القرطبي وجماعة من أهل التفسير[1]، مما يدل على أنهما عنده كالسورة الواحدة، وأن معناهما مترابط.

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص749)، و«تفسير الطبري» (24/ 627)، و«المحرر الوجيز» (5/ 523)، و«تفسير القرطبي» (20/ 187)، و«التحرير والتنوير» (30/ 544).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (6/ 177)، و«تفسير ابن فورك» (3/ 275)، و«فضائل القرآن» للمستغفري (2/ 683)، و«التحرير والتنوير» (30/ 543).

(3) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص289)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (2/ 559)، و«روح المعاني» (15/ 387).

(4) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 300)، و«تفسير الرازي» (32/ 98)، و«تفسير القرطبي» (20/ 200)، و«روح المعاني» (3/ 238)، و«التحرير والتنوير» (30/ 543، 553).

**والقصة التي نزلت فيها السورة معروفة، وخلاصتها**: أن أَبْرَهَة الحبشي الأَشْرم كان ملك اليمن من قِبَلِ النجاشي في الحبشة، حيث كانت اليمن تابعة للحبشة الذين دخلوا اليمن بعد حادثة الأُخدود في نَجْران، وهي جغرافيًّا وتاريخيًّا من اليمن، والذين قُتلوا فيها كانوا من النصارى المؤمنين الموحِّدين، وحصل عليهم من التعذيب ما ذكره الله تعالى في «سورة البروج»، وبعدها غزا الأحباش اليمن، وحكموها رَدَحًا من الزمن، وكان مندوبهم في اليمن الذي يحكم باسمهم هو أَبْرَهة الأَشْرم، وكان قد بنى في صنعاء كنيسة سماها: القُلَّيْس[2]، وكان أَبْرَهة قد أخذ العمال بالعمل أخذًا شديدًا، وكلَّفهم فيها أنواعًا من السُّخْرة، وكان ينقل إليها الرخام المجزَّع، والحجارة المنقوشة بالذهب والفضة، فلم يُرَ مثلها في زمانها بشيء من الأرض، فأراد أَبْرَهة صرف قلوب الناس إليها بالتعبد والذكر، فَهَمَّ بغزو الكعبة؛ لئلا تنافس القُلَّيْس، أو لأن بعض العرب حاولوا هدم هذه الكنيسة أو تخريبها أو إهانتها، فجمع جيشًا كبيرًا، وجعل معهم أفيالًا، وقيل: فيلًا واحدًا؛ ولهذا سماهم: «أصحاب الفيل»، فغزا مكة، وجاء إليها؛ ليهدم الكعبة، ولما اقترب من مكة جاءه بعض وجوه العرب وعرضوا عليه الفدية والمال في مقابل أن يرجع عن مسيره، فأَبَى ورفض، وأخذ جيشه إبلًا لعبد المطَّلب، فجاءه عبد المطَّلب- وكان رجلًا عظيمًا وسيمًا جسيمًا- فقال له: إنكم قد أخذتم بعض إبلي. فقال له: قد كنتَ أعجبتني حين رأيتُك، ثم قد زهدتُ

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (20/ 200). والأثر أخرجه عبد الرزاق (2697)، وابن أبي شيبة (3593)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (1/ 348).

(2) بضم القاف وتشديد اللام مع الفتح، وقد تفتح اللام دون تشديد، وقيل: بفتح القاف وكسر اللام الخفيفة، وقيل غير ذلك. ينظر: «معجم البلدان» (4/ 394)، و«لسان العرب» (6/ 180)، و«مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» (3/ 1120)، و«حياة الحيوان الكبرى» (2/ 315)، و«حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي» (8/ 397)، و«التحرير والتنوير» (30/ 546)، و«معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية» (ص256)، و«المعالم الأثيرة في السنة والسيرة» (ص228).

فيك حين كلَّمتني، أتكلِّمُني في مئتي بعير، وتتركُ بيتًا هو دينُكَ ودينُ آبائك قد جئتُ لهدمه، لا تكلِّمني فيه! فقال له عبدُ المطَّلب: إني أنا ربُّ الإبل، وللبيت ربٌّ سيمنعُهُ منك. فقال أَبْرَهة: ما كان ليُمنعَ مني! فقال عبد المطَّلب: أنت وذاك. فردَّ أَبْرَهةُ على عبد المطَّلب إبلَه، ثم انصرف إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة إلى الجبال والشِّعاب[1].

ثم قام عبد المطَّلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ودعا الله تعالى، ثم قال:

لاهُمَّ[2] إن العبـدَ يَمْـ *** ـنَعُ رَحْلَهُ فامنعْ حِلَالَكْ[3]

لا يَغْلِبَـنَّ صـليبُـهـم *** ومِحَالُهم غَدْوًا مِحَالَك[4]

إن كنتَ تاركَهم وقِبْـ *** ـلتَنا فأَمْـرٌ مـا بَـدَا لـكْ

وخرجت قريش بنسائها وأطفالها؛ خشية أن يغشاهم الجيش أو ينتهك أعراضهم أو يعتدي عليهم، وتركوا الكعبة أيامًا، ثم إن الله سبحانه بعث عليهم طيرًا أبابيل، أي: جماعات معها حجارة، كل طير معه ثلاثة أحجار: واحد في فمه، واثنان في رجليه، ترمي هؤلاء القوم، حتى أهلكتهم جميعًا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «رأيتُ عند أم هانئ نحو قَفِيز من هذه الحجارة مخطَّطة كالجَزْع الظَّفاري»[5].

---

(1) ينظر: «سيرة ابن هشام» (1/ 49- 51)، و«المنمق في أخبار قريش» (ص74- 76)، و«تاريخ الطبري» (2/ 133- 135)، و«تفسير الطبري» (24/ 635- 640)، و«المنتظم» (2/ 124- 125)، و«الكامل في التاريخ» (1/ 403- 404)، و«البداية والنهاية» (3/ 144- 146)، والمصادر السابقة.

(2) لاهمَّ: أصلها: اللَّهمَّ، وهي بمعناها.

(3) الحِلال: القوم النُّزول، وجماعة بيوت الناس. وفي رواية: «رحالك».

(4) **المِحال**: الكيد والقوة، **والغَدو**: الغد.

(5) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 432)، و«الكشاف» (4/ 804)، و«تفسير الرازي» (32/ 92)، و«التحرير والتنوير» (30/ 551).

**والجَزْع الظَّفاري**: نوع من الخرز الصغار، دون حبات الحِمّص[1] وفوق العَدَسِ، فهي حجارة صغيرة مخطَّطة، وهذا يدل على بقاء آثار أصحاب الفيل.

وورد أن بعض رَوْثه كان موجودًا في مكة، وكأن العرب تركوه من باب الإبقاء على ما يدل على إهلاك القوم.

وورد عن عائشة رضي الله عنها أنها رأت سائس الفيل وقائده أعميين مقعدين يستطعمان الناس[2].

وهذا الأثر إن صحَّ فهو يدل على أنهم عُمِّروا، وهم من العرب الذين خانوا، وقد كان العرب يرجمون قبر أبي رِغَالٍ؛ لأنه دلَّهم على الطريق.

وقد ذكر تعالى هذه القصة تذكيرًا وتثبيتًا للنبي صلى الله عليه وسلم، بأن الله يدافع عنه وعن دينه، وإذا كان الله حمى الكعبة وهي حجارة، أفلا يحمي نبيه صلى الله عليه وسلم وأولياءه ودينه ووحيه؟!

كما أن في ذلك عَلَمًا من أعلام نبوة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أخبر بهذه القصة ولم يكن صلى الله عليه وسلم شهدها، وكان بعض الذين شهدوا القصة أحياء، فكان من المعمَّرين: حَكِيم بن حِزام[3]، ونَوْفَل بن عبد العُزَّى؛ فقد عمرا مئة وعشرين سنة، وهما ممن عاصروا الحادثة.

وقد ذُكرت قصة الفيل في القرآن مرة واحدة، وفي القصة فوائد عظيمة، **منها**:

---

(1) بكسر الحاء، وفتح وكسر الميم المشددة، والعامة تضمهما. ينظر: «تاج العروس» (17/ 532- 533)، و«معجم الصواب اللغوي» (1/ 333)، و«معجم اللغة العربية المعاصرة» (1/ 559).

(2) أخرجه ابن إسحاق (ص16)، والواقدي- كما في «تفسير ابن كثير» (8/ 489)- وخليفة بن خياط في «تاريخه» (ص53)، والأزرقي في «أخبار مكة» (1/ 148)، والبزار (300)، والدينوري في «المجالسة» (1254)، والبيهقي في «الدلائل» (1/ 125).

(3) ينظر: «المستدرك» (3/ 482)، و«مَن عاش مئة وعشرين سنة من الصحابة» لابن منده (ص21- 27)، و«أسد الغابة» (2/ 58)، و«الإصابة» (2/ 605).

إقامة الحجة على العرب، متقدِّميهم ومتأخِّريهم؛ وحماية النبي صلى الله عليه وسلم، وتثبيت قلوب المؤمنين.

وذُكرت حادثة الفيل في سُنَّة النبي صلى الله عليه وسلم في الحُدَيْبِيَة، لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة، حتى إذا كان بالثَّنِيَّة التي يُهبطُ عليهم منها بَرَكَتْ به راحلتُه، فقال الناسُ: خَلَأَتِ القَصْواءُ، خَلَأَتِ القَصْواءُ. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**ما خَلَأَتِ القَصْواءُ، وما ذاك لها بخُلُقٍ**[1]**، ولكن حبسَها حابِسُ الفِيل**».

وتأمَّل هنا أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم عبَّر عن حبس الفيل، وليس عن الكعبة فقط، فالله حمى الكعبة وحمى مكة المكرمة.

وفي هذا يظهر تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم للكعبة ولمكة، حتى وهو يقدمها لحج بيت الله الحرام وللعمرة، ومعه المؤمنون، ومع ذلك لما خَلَأَت تراجع وقال: «**والذي نفسي بيده، لا يسألوني خُطَّةً يعظِّمونَ فيها حُرمات الله، إلا أعطيتُهم إيَّاها**»[2].

وانظر إلى هذا الموقف النبوي، وإلى مواقف بعض المسلمين عبر التاريخ الذين انتهكوا حرمة البيت، فالباطنية القرامطة الملحدون انتهكوا حرمة البيت، وقتلوا الحُجَّاج، وألقوهم في بئر زمزم، وأخذوا الحجر الأسود، وهربوا به إلى مقر مملكتهم وحكومتهم في الأَحْساء، ومكث عندهم اثنتين وعشرين سنة[3]!!

---

(1) أي: ليس من عادتها.

(2) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (36855)، و«مسند أحمد» (18928)، و«صحيح البخاري» (2731)، و«تفسير الطبري» (21/ 296)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 490).

(3) ينظر: «أخبار ملوك بني عُبيد ومسيرتهم» (ص51)، و«غرر الخصائص الواضحة» (ص274)، و«تاريخ الإسلام» (25/ 44)، و«البداية والنهاية» (15/ 37- 38)، و«تاريخ الخميس» (2/ 250).

وأعجب من هذا، الحادثة الشهيرة التي انتهك فيها حرمة البيت الحرام عام (1400هـ)[1].

إن المؤمن بحاجة إلى مراقبة النفس بشكل دائم، وألَّا يسمح لنفسه أن تصول وتندفع؛ تأسِّيًا بموقف النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف جاء بأصحابه ورُدَّ عن البيت، ولم يعط لنفسه أي تأويل، ولما عرضوا عليه الصلح- مع ما فيه من مذلة في ظاهر الأمر- قبله النبي صلى الله عليه وسلم وأمضاه، **هذا موقف**.

**والموقف الثاني**: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة خطب الناس، وقال: «**إن الله حبسَ عن مكَّةَ الفيلَ، وسلَّطَ عليها رسولَه والمؤمنين، وإنها لم تحِلَّ لأحدٍ كان قبلي، وإنها أُحلَّت لي ساعةً من نهارٍ، وإنها لن تحلَّ لأحدٍ بعدي، فلا يُنفَّر صيدُها، ولا يُختلَى شوكُها، ولا تَحِلُّ ساقطتُها إلا لُمنشدٍ**»[2].

وحادثة الفيل وقعت في العام الذي وُلد فيه النبي صلى الله عليه وسلم بإجماع المؤرِّخين وعلماء السير، كما ذكره خليفة بن خَيَّاط، وأبو الخطاب بن دِحية، وذكره ابن كثير وابن القيم وابن حجر وغيرهم، ونقل غير واحد الإجماع عليه، سواءً من المفسرين أو من أهل السيرة[3].

ولكن كانت ولادة النبي صلى الله عليه وسلم بعد حادثة الفيل بخمسين يومًا، وحادثة الفيل كانت في شهر الله المحرم، وهو يوافق شهر شباط أو فبراير من الشهور

---

(1) ينظر: «طفولة قلب» للمؤلِّف (ص189- 196).

(2) أخرجه البخاري» (2434)، ومسلم (1355) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) ينظر: «تاريخ خليفة» (ص53)، و«العقد الفريد» (5/ 3)، و«شرف المصطفى» لأبي سعد الخركوشي (1/ 441)، و«تاريخ دمشق» (3/ 76)، و«تهذيب الأسماء واللغات» (1/ 22- 23)، و«تاريخ الإسلام» (1/ 25)، و«زاد المعاد» (1/ 74)، و«البداية والنهاية» (3/ 380).

الأعجمية، وذلك سنة (570) من ميلاد المسيح عليه السلام، وبعد ذلك اليوم بخمسين يومًا وُلِد النبي صلى الله عليه وسلم.

* ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾:

الاستفهام هنا تقريري، والمعنى: أنك قد رأيتَ، ولكنه غالبًا يأتي بصيغة النفي الذي ظاهره النفي وحقيقته الإثبات، ويفيد معنى التحدِّي، فلا المخاطب ولا غيره يستطيع أن ينفي هذه الحادثة، فهي في ثبوتها قضية يقينية لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يشكِّك فيها.

وهذا الاستفهام التقريري مثله كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: 243]، ﴿وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: 45]، ﴿﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ﴾ [الشرح: 1]، ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [الضحى: 6].

**والرؤية** هنا يحتمل أن تكون علمية، أي: علمتَ العلم اليقيني القطعي أن الله تعالى فعل بأصحاب الفيل ما فعل.

ويحتمل أن تكون بصرية، يعني: بعينك، وهل رأى النبي صلى الله عليه وسلم أصحاب الفيل وما جرى لهم بعينه؟ كلَّا.

فإما أن يحمل على مَن رأوا هذه الحادثة، وكان بعضهم أحياء كما تقدَّم، وهم مخاطبون بهذا القرآن ويسمعونه، أو أن يكون ذلك إشارة إلى ما رأوا من الآثار، مثل أثر ابن عباس رضي الله عنهما أنه رأى في بيت أم هانئ رضي الله عنها بعض الحجارة، ومثل ما ذكر بعضهم أن آثار الأفيال كانت موجودة في أنحاء مكة.

وفي التعبير بالرؤية دعوة إلى استحضار الصورة في الذهن؛ لأن الكيفية عبارة عن صورة تفصيلية، فإذا قيل لك: كيف فعل ربك؟ تخيَّلت الكيفية والجيش والأفيال، ثم الحجارة وهي تقصفهم قصفًا.

وفي قوله: ﴿نَزْلَةً﴾ لفت نظر المستمع إلى أن يعتني بالكيفية في الأشياء.

فالكيفيات مهمة للتخيّل والتصوّر، وحينما يذكر تعالى الأشياء بالكمية، فإنه يذكر معها ما يتعلق بشكلها وأهميتها وصفتها.

ففي قوله تعالى: ﴿أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا﴾ [الشعراء: 7]، عبَّر بـ﴿ٱلْفُؤَادُ﴾ وهذا من حيث كثرة أنواع النبات، لكن هذا غير خارج عما نقوله؛ فهو يلفت النظر إلى الصفة وهي تتعلق بالكيفية، فالزَّوج الكريم والبَهيج هي صفات تتعلق بالكيفية.

**فالكيفية مقصودة، وملاحظتها ضرورية، وعلى الإنسان أن يلاحظ في موضوع الكيفية شيئين:**

1- **ما يتعلق بالأشياء القَدَرِية المخلوقة من الله تعالى**، فإن مراعاة كيفيتها مما يقيم الحجة على الناس، وهو أبلغ في الاعتبار، فإذا فكَّر الإنسان: كيف يسمع؟ كيف يبصر؟ كيف يأكل؟ كيف يفكِّر ويعقل؟... إلخ، فإن التأمل يُحدث يقظة القلب والإيمان.

والتدبر شيء ضخم هائل، وجرب ذلك في الكلام، نحن نسمع الكلام ونقول الكلام، ولكن لا يفكِّر أحدنا في كيفيته، وكيف يخرج؟ وكيف تتكون الحروف؟ وكيف يسمع؟ وكيف يصل؟ وكيف يحلِّله الدماغ؟ وكيف تنقله الأعصاب؟ وكيف يستجيب له الجسم؟ وكيف تتكون اللغات وتكتمل وتتنوع؟ أو كيف يأكل؟ أو يشرب؟ أو ينام؟ وما الفرق بين النوم واليقظة؟ أو كيف يفكِّر؟ وكيف يستذكر؛ لكان التأمل في هذه الكيفيات من أعظم ما يعزِّز الإيمان.

2- **ما يتعلق بالأمر الاختياري**، فإن على الإنسان أن يضبطه بالمعيار الشرعي، ويصحِّحه ويلتزم فيه بالأدب والخلق والتهذيب، ويطوِّره شيئًا فشيئًا؛ لأن العبرة

بالكيفيات، وليس فقط بالكميات، يعني: ليس العبرة كم لك من صديق؛ لأن كثرة الأصدقاء ليست بحد ذاتها أمرًا محمودًا، ولهذا قال ابن الرُّومي[1]:

عدوُّك من صديقِك مستفادُ *** فلا تستكثرنَّ من الصِّحابِ

فإنَّ الداءَ أكثر ما تراه *** يكونُ من الطعامِ أو الشرابِ

العبرة بكيفية الصحبة، وحسن المعاشرة، وحسن الأدب، والتلطف، والصبر، والاستفادة منهم، ومثله العبادات والطاعات والمصالح، العبرة بكيفية إنجازها وأدائها، فليتأمل المؤمن كيف يصلِّي، وكيف يصوم، وكيف يحج، وكيف يعبد ربه، وكيف يطبق تعاليم الإسلام بالأخلاق والعلاقات وغيرها.

وهذا يبيِّن فضل معرفة الكيفيات المفصَّلة على الإجمال والإبهام.

فلو قيل لك: إن جيشًا غزا مكة وقُتلوا، ربما لا يلفت نظرك، لكن إذا فصَّل ذلك كما في السياق؛ لوجدت العجب في ترسيخ الإيمان وتدعيمه، حتى إن الأساطير المركبة المتداولة في ثقافات الشعوب ذات تأثير عظيم بسبب تفصيلها وتحديد مساقاتها.

وتأمَّل أنه قال هنا: ﴿أَخْرَىٰ﴾، ولم يقل: «صنع»، أو: «خلق»، أو: «أرسل»؛ لأن الأمر الذي جرى على أصحاب الفيل فيه خَلْقٌ، مِن خَلْقِ الطير والحجارة، وفيه إرسال، وفيه جعل، فاختار تعالى كلمة: ﴿أَخْرَىٰ﴾؛ حتى تشمل هذه الأشياء كلها.

وقال: ﴿ ١٣ ﴾، ولم يقل: «الله»؛ لما فيه من إشارة إلى ارتباط حادثة الفيل بمبعث الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن هذه الحادثة وإن كانت قبل البعثة، بل وقبل ميلاده صلى الله عليه وسلم، إلا أنها من إرهاصات بعثته صلى الله عليه وسلم؛ ولذلك استعمل لفظ «الرب»، المتضمِّن لمعنى الرحمة والرعاية، وفيها الملك والتدبير، وفيها التصريف والتربية.

---

(1) ينظر: «ديوان ابن الرومي» (1/ 108).

فـ﴿١٣﴾ هو الذي ربَّاك بنعمه، وتعاهدك بفضله وعطائه، فكأن في ذلك إشارة إلى أن حادثة الفيل هي من لُطف ربك، وحُسن تدبيره وتصريفه ورعايته لك، فقدَّم بين يدي بعثتك، بل بين يدي ميلادك هذه الحادثة العظيمة التي كان من آثارها حفظ الكعبة، وكون قبائل العرب في الجزيرة العربية يتجهون إلى الكعبة بالتعظيم، ويحبون الكعبة وأهلها، ويكون لقريش من المكانة ما يمهد ويهيئ لقبول رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وخروجه فيهم.

وفيه معنى الاختصاص؛ فالذي أَهْلَك أهل الفيل هو ﴿١٣﴾، وهو الذي سوف يهلك كلَّ عدو يقصدك بسوء؛ لأنك أنت وكل مؤمن أعظم حرمة من الكعبة، وقد ورد في الحديث أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم نظر إلى الكعبة وقال: «**ما أطيبَكِ وأطيبَ ريحَكِ! ما أعظمَكِ وأعظمَ حُرمتَكِ! والذي نفسُ محمد بيده، لَحُرْمةُ المؤمن أعظمُ عند الله حرمةً منك، مالِه ودمِه، وأن نظنَّ به إِلَّا خيرًا**»[1]. وقتل المؤمن أعظم عند الله تعالى من زوال الكعبة!

فهذا فيه ربط للنبي صلى الله عليه وسلم بحادثة الفيل، فهو مثل قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [البلد: 1 – 2]، فهذه هي مكة التي وُلدت فيها، وبُعثت فيها، وسوف تكون منطلقك ومردك: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا﴾ [القصص: 85].

وقوله: ﴿ عِندَ سِدْرَةِ ﴾ يرى جمهور المفسرين أن نسبتهم إلى الفيل هو مجرد تعريف، مثل قولك: أصحاب الجمل، وأصحاب الكهف، وأصحاب السجن، وأصحاب السَّبْت، وأصحاب الجنة، أي: البستان، فقد يُنسب الناس إلى أدنى ملابسة تتعلق بهم.

---

(1) أخرجه ابن ماجه (3932) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (3420).

أما العرب، فلم تكن تعرف الفيل أصلًا، بل كانوا يتخيلونه مجرد تخيل بأذهانهم، كما قال كعب بن زُهير[1]:

وقد أقومُ مقامًا لو يقومُ به *** أرى وأسمع ما لا يسمع الفيلُ

وكما قال لَبِيد[2]:

ومقام ضيق فرَّجته *** ببيانٍ ولسان وجدلْ
لو يقومُ الفيلُ أو فياله *** زلَّ عن مثل مقامي وزحلْ

والفيل أعظم من الجمل الذي تعرفه العرب، وله هذا الخرطوم الذي يلتف به على ما يريد، وكانوا في الحروب يعتبرونه محفة، ويركب عليه ستة أو سبعة من الجنود، وهو سلاح هائل يحطم ما أمامه.

فجيش أَبْرَهة جاؤوا إلى جزيرة العرب بشيء لم يكن معروفًا عند العرب، يشبه أسلحة العصر الحاضر من الطائرات الضخمة والبارجات الهائلة والدبابات العظيمة التي لا عهد للعرب بها، فوقع لهم من الدهشة والخوف والرُّعب ما لا يخطر على بال، وكان أَبْرَهة وجنده يظنون أنهم مانعتهم أفيالهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا؛ ولهذا ناسب أن ينسبهم إليه، وفي هذا نوع من التحقير المبطن لهم؛ لأن هذا الفيل- وهو حيوان- بَرَكَ، وحُبِس عن مكة، فكان إذا وُجِّه إلى الكعبة بَرَكَ، وإذا وُجِّه إلى أي جهة أخرى ثار وأسرع في المسير[3]، في حين يصرُّ هؤلاء على هدم بيت الله تعالى وأذية أهل بيته! فكان الفيل خيرًا منهم عملًا وأحسن مصيرًا.

* ﴿ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ رَأَىٰ ﴾:

---

(1) البيت من قصيدة اعتذاره للرسول صلى الله عليه وسلم، وهو في «ديوانه» (ص49).

(2) ينظر: «ديوان لبيد» (ص85).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 643)، و«الكشاف» (4/ 797)، و«الدر المنثور» (15/ 658).

وفي السياق دعوة إلى رؤية فعل الله، بدلًا من الوقوف الطويل على فعل العباد، فالسورة لم تستطرد في حكاية القصة ولا سرد المؤامرة، بل وجَّهت العناية إلى الفعل الإلهي تحذيرًا للمؤمنين من المبالغة في استحضار الكيد الفاجر، أو سيطرة الخوف المفرط على النفوس والغفلة عن الحكمة والتدبير الإلهي.

وهذا بيان للإجمال، والله تعالى سمَّى عملهم: كيدًا، والغالب أن الكَيْد هو: التدبير الخفي اللَّطيف، وما فعله أهل الفيل كان ظاهرًا مكشوفًا، فقد جاؤوا بالفيل مع جيش عَرَمْرَم، فهذا ليس خفيًّا، فلماذا سماه الله تعالى: كيدًا؟ **في هذا أكثر من احتمال**[1]:

1- لأن هؤلاء القوم وإن جاؤوا بحجة أنهم يثأرون لكنيستهم المهانة، أو بحجة هدم الكعبة، إلا أن حقيقة ما جاؤوا له كان أعظم مما أعلنوه، ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤﴾ [آل عمران: 118]، وكذلك يفعل الطُّغاة دومًا، فهم يتحدَّثون عن إسقاط حكومة أو إزالة نظام، لكن حقيقة مقاصدهم أعظم مما يبوحون به، وهكذا أصحاب الفيل، أعلنوا هدفًا محدَّدًا، وهو هدم الكعبة، أو الانتصار لكنيسة القُلَّيْس، لكن حقيقة ما يهدفون إليه أبعد من ذلك، فكان دافعهم الحسد للعرب، ومحاولة صرف الناس عن ملة الحنيفية بكل وسيلة، وعلى ما هو مقرَّر؛ فإن هدم رمز من رموز الدين هو هدم للدين نفسه.

2- أو لأن مثل هذه الحروب عادة ما تكون مصحوبة بعمل استخباراتي واسع قبلها ومعها وبعدها، ولولا هذا العمل الاستخباراتي ما تحقَّقت أهدافها، وهو عمل يقوم على استقراء الظروف، ومعرفة الطرق، والعدو والتخطيط له، والمكر والمباغتة،

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (32/ 291)، و«تفسير القاسمي» (9/ 542)، و«مفردات القرآن» للفراهي (ص374).

وغير ذلك من الأساليب والفنون الحربية، وهذا كله يدخل في باب الكيد؛ ولذلك ذكره تعالى عن فرعون: ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ﴾ [غافر: 37]؛ لأن جانب المؤامرة فيه ظاهر: ﴿تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣ أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا﴾ [الشعراء: 54- 56].

وكونهم حاذرين يقتضي منهم التحرز والاحتياط وعمل المكر والتجسس ورسم الخطط وتبييت الحيل... إلخ.

ولكن لم يغنهم حذرهم شيئًا، واستدرجهم الله إلى اليم ليغرقوا فيه، وهم ظانون أنهم مدركو موسى عليه السلام ومَن معه.

**والتضليل** هو: الضلال، فلم يصل هذا الكيد إلى أهدافه التي حدَّدوها، ولم يحقِّق القوم مقصودهم، فَضَلَّ هذا الكيدُ وذهب أدراجَ الرياح، وجعل الله كيدهم في تضليل.

* لقد انتهى كيد أصحاب الفيل وانهزموا سريعًا، وكان باستطاعتهم أن يعودوا إلى بلادهم سالمين، ويعيدوا الكَرَّة بعد حين، لكن الله تعالى باغتهم بجنود من عنده ﴿يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ رَبِّهِ﴾:

وهذا من ذكر الكيفية التي فعلها بهم ربنا تبارك وتعالى، فهو لم يقل: «أرسل إليهم»، وإنما قال: ﴿يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ﴾؛ ليدل على أن ما أُرسل إليهم واقع بهم لا يخطئهم.

ونكَّر ﴿مَا يَغۡشَىٰ﴾، ولم يقل: «الطير الأبابيل»؛ **لمقاصد منها:**

1- أن هذه الطيور ليست مما يُعرف، فهي طيور منكرة؛ ولهذا قال العلماء: ليست بنجدية ولا تهامية ولا مما يعرفه العرب، وإنما هي طير من عند الله تعالى، مخلوقة لهذا الغرض بخاصة.

2- أن في التنكير إشارة إلى غموض أمرها، والغموض في المعارك مما يزيد الأعداء خوفًا، وقد يقول القائل: كيف يزيد الأعداء خوفًا وقد ماتوا وفنوا؟

نقول: كذلك مَن بعدهم ممن خُوطبوا بهذا الوعيد من قريش، ومن أمم الكفر في غابر الزمان وحاضره ومستقبله، فيقال لهم: إن الله تعالى أرسل على قوم طيرًا أبابيل، وعنده من الجنود ما لا يعلمه إلا هو: ﴿ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ﴾ [المدثر: 31].

ولا غرابة أنها كانت غامضة حتى على مَن أرسلت إليهم، فهم لا يعلمون جهتها ولا طبيعتها، وكانت مفاجأة غير محسوبة عندهم.

3- أنها جاءت نكرة لعظم أثرها، فإنك إذا رأيتَ كيف صنعت بهؤلاء القوم الأشداء رأيتَ شيئًا عظيمًا، والتنكير يكون للتعظيم، كما هو معلوم عند العرب.

4- أن من معاني التنكير التصغير والتحقير، فهذه الطيور صغيرة حقيرة في نظر الإنسان، ولكنها على صغرها وهوانها عند مَن يراها، إلا أن الله تعالى أجرى بسببها هذا الأثر العظيم، وهذا من الإعجاز[1].

و﴿يَغۡشَىٰ﴾ ليس لها واحد من لفظها، مثل: ﴿﴿٢٣﴾﴾، وإن كان المتأخرون يقولون: أُسطورة. **وقيل**: إن لها مفردًا، واختلفوا هل هو: إِبِّيل، أو إِبَّوْل، أو إبال، أو إِبَّالة[2]؟

ومعنى ﴿يَغۡشَىٰ﴾: جماعات، قاله الأخفش والفرَّاء وجماعة من أهل اللغة[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (32/ 291)، و«تفسير القاسمي» (9/ 543).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 292)، و«مجاز القرآن» لمعمر بن المثنى (2/ 312)، و«معاني القرآن» للأخفش (1/ 296)، و«تفسير الطبري» (9/ 200)، (24/ 628)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 364)، و«غريب القرآن» للسجستاني (ص87)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص60)، و«الكشاف» (4/ 799).

وبعض المفسرين خاضوا في صفتها بما يثير العجب والاستغراب، فإن ربنا تعالى لم يذكر شيئًا من ذلك، وإنما وصفها بأنها «طير» وحسب، وأنها أتت جماعات جماعات، يعني: فرقًا من الطيور، تأتي هذه من هنا، وهذه من هنا، وهذه من هنا، وهذا هو محل الاعتبار، أما الخوض في شيء من صفاتها مما لم يذكره القرآن، فهو أمر لا ينبغي أن نتشاغل به عن محل العبرة والعظة ومقصود السياق، كما أن فيه تتبعًا لما لم يأتنا فيه خبر ولا علم، وإنما هي مجرد ظنون واجتهادات.

* ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا أَفَرَءَيْتُمُ﴾:

**ترمي**: فعل مضارع، والمضارع يدل على أن الفعل يحدث الآن، وإنما جاء التعبير بالمضارع من أجل استحضار الحال، كأنك تتخيَّل هؤلاء القوم والطير ترميهم، كما قال الله سبحانه: ﴿رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [فاطر: 9]، يعني: حالة إثارتها للسحاب؛ وقد جاء عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ذكر هذه الحجارة التي يرمون بها، وقال: «لما أرسل اللهُ الحجارة على أصحاب الفيل، جعل لا تقع منها حجر برجل منهم، إلا نفط مكانه». قال: «فذلك أول ما كان من الجُدَرِي»(2).

وهو مروي عن سَعيد بن جُبير وغيره، وذكره معظم المفسرين(3)، ولم يكن العرب يعرفون مرض الجُدَري قبل الحادثة.

---

(1) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (24/ 325)، و«زاد المسير» (4/ 492)، و«تفسير القرطبي» (20/ 197)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 487)، والمصادر السابقة.

(2) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (3/ 461).

(3) ينظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (1/ 123)، و«تفسير الرازي» (32/ 292)، و«الدر المنثور» (15/ 662)، والمصادر الآتية.

وهنا أود أن أشير إلى أن بعض المفسرين المعاصرين، كالشيخ المراغي، والشيخ محمد عبده، وجماعة قالوا: إن هذه الطير مثل الذباب أو البعوض التي تنقل الأمراض والأوبئة، وأنها نقلت مرض الجُدَري إلى هؤلاء، وقالوا: إن هذا فيه عبرة[1].

وفي كل صنع ربنا تبارك وتعالى عبرة وأُسوة، حتى خلق البعوض أو الذباب وما هو أحقر منهما، ففيه عبرة لـمَن اعتبر، لكن الله تعالى ذكر أنها ترميهم بحجارة، وتأويل الحجارة بالجراثيم أو الأوبئة بعيد لا يساعده السياق، وهذه الحجارة من جنس الحجارة التي عُوقب بها قوم لوط، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ﴾ [هود: 82]، والسِّجيل المنضود هو الحجارة من الطين، كما يدل لذلك قوله تعالى: ﴿۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٌ...﴾ [الذاريات: 33].

فتبيَّن من هذا أن ما أُرسل على أصحاب الفيل هو نظير ما أُرسل على قوم لوط؛ ولذا فإن تأويل ذلك بالجراثيم أو الجدري بعيد.

**والأقرب** أن الأمر كان آية ربانية خارقة للمألوف، وربنا تعالى على كل شيء قدير، والذي أنزل على قوم لوط هذه الحجارة قادر على أن ينزلها على هؤلاء، فهذا من حكمته وقدرته وانتقامه ممن عصوا أمره.

وبعض المفسرين المتقدِّمين يذكرون عن الحجارة من سجِّيل شيئًا آخر، فبعضهم يقول: إن السِّجِّيل هو: السِّجِّين المذكور في قوله: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ﴾ [المطففين: 7]، أي: فهي من النار، وبعضهم يقول: السِّجِّيل هي: السماء الدنيا.

وهذا لا يعرف في لغة العرب، وبعضهم يقول: السِّجِّيل هو: السِّجِل المذكور في قوله: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِ﴾ [الأنبياء: 104]، أي: أن هذه الحجارة مما كُتب في القدر واللوح المحفوظ أن يعاقبوا بها[1].

---

(1) ينظر: «تفسير المراغي» (30/ 243)، و«في ظلال القرآن» (6/ 3976).

وكل هذه الأقوال بعيدة، والقرآن يُفَسِّر بعضه بعضًا، فذكر الله تعالى عن قوم لوط أنهم عُوقبوا بحجارة من سِجِّيل، و﴿ ﴾ هنا بيانية، يعني: المادة التي تكونت منها هذه الحجارة هي السِّجِّيل، وهي الطين المتحجِّر، وليست الحجارة الصخرية[2].

* ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ ﴾:

**قيل**: إن العَصْف هو: الشيء الذي تعصف به الرِّياح، ولذلك قال بعضهم: العَصْف: ورق الحنطة، وقال بعضهم: التبن.

**والعَصْف** ورد في القرآن الكريم في موضع آخر: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: 12]، وهو: الورق أو التبن، **وقيل**: هو: القشر الذي يكون على حبة البُرِّ، فيزال عنها[3].

ومادة «عصف» هي ما يعصف أو يحطم من الزرع، مثل التبن، أو الورق اليابس[4].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 195)، و«تفسير البغوي» (2/ 461)، و«المحرر الوجيز» (3/ 197)، و«زاد المسير» (2/ 393)، (4/ 492)، و«تفسير القرطبي» (9/ 82)، (20/ 198)، و«فتح القدير» (5/ 606)، و«روح المعاني» (15/ 468)، و«التحرير والتنوير» (12/ 134).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (12/ 527)، و«تفسير الثعلبي» (5/ 184)، و«تفسير البغوي» (2/ 461)، و«تفسير الرازي» (18/ 383)، والمصادر السابقة والآتية.

(3) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص636، 750)، و«تفسير الطبري» (22/ 183- 185)، (24/ 643)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 298)، و«تفسير السمعاني» (5/ 324)، و«تفسير البغوي» (4/ 332)، (5/ 309)، و«المحرر الوجيز» (5/ 524- 525)، و«تفسير القرطبي» (17/ 156)، (20/ 199)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 490)، (8/ 488)، و«روح المعاني» (14/ 103).

(4) ينظر: «الصحاح» (4/ 1404)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص569)، و«تاج العروس» (24/ 161) «ع ص ف».

والله لم يجعلهم كعَصْف فقط، بل كعَصْف مأكول، **وكيف يكون العَصْف مأكولًا؟**

يحتمل أن يكون معنى مأكول، أي: أكله الدود، فالورق قد يصير ضعيفًا شديد الضعف واهيًا.

ويحتمل أن يكون المعنى كزرع أُكِل حبه وبقي العَصْف وهو القشر.

ويحتمل أن يكون المعنى أُكِلَ أكثرُه، وبقي بعضه، فإنه إذا أكلت البهائم التبن أو غيره، فإنها تأكل منه، ويبقى منه بقية مقطعة ممزقة منثورة ذات اليمين وذات الشمال، وهذا أحقر ما يكون، يعني: لم يجعلهم مثل التبن فقط، بل مثل التبن الذي أكلت منه الحيوانات وفرَّقته، فلم يعد له قيمة، حتى إن البهائم استنكفت عن ذلك لحقارته[1].

وفي هذه القصة آية وعبرة أجراها الله تعالى حماية لبيته العتيق، فإن الله امتن بحمايته يوم كان الناس في الجاهلية قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان هذا إرهاصًا للبعثة، وحماية للنبي صلى الله عليه وسلم، وإيذانًا بانتشار الرسالة، وقوتها وعظمتها.

ومع ذلك يذكر التاريخ أن الكعبة على مدى حكم الإسلام لها قد تضرَّرت أكثر من مرة، فالـحَجَّاج حاصر الكعبة في عهد عبد الملك بن مَرْوان، ورماها بالـمِنجنيق[2]، فتهدَّم بعضها، ومع ذلك لم يأت لجيشه ما جاء لأصحاب الفيل.

وهكذا النبي صلى الله عليه وسلم أَخْبر أنه في آخر الزمان «**يُخَرِّبُ الكعبةَ ذو السُّوَيْقَتَيْن من الحبشةِ**»[3]. تصغير ساق!

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 643)، و«تفسير القرطبي» (20/ 199)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «سير أعلام النبلاء» (4/ 343)، و«البداية والنهاية» (12/ 178).

(3) أخرجه البخاري (1591)، ومسلم (2909) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأصحاب الفيل هم من الحبشة، فربما يكون عندهم في بعض كتبهم أنهم هم الذين يُخرِّبون الكعبة، وهذا قد يكون موجودًا في الكتب السابقة، فلعلهم تلقَّوا في كتبهم التي يتوارثونها أن الحبشة يُخرِّبون الكعبة، فكل واحد منهم يستعجل أن يكون له هذا الذي يعتبره شرفًا، ويريد أن يتم هذا على يده، والله تعالى أعلم.

وهذا كثير ما يقع، كما تجده في هذه الأمة في الروايات والآثار الواردة في ظهور الـمَهْدي الذي يملأ الأرض قِسْطًا وعدلًا كما مُلئت جَوْرًا وظلمًا، فمنذ عهد بني أمية وكثير من الناس يدَّعون هذا، فقد يكون مجيء أصحاب الفيل إلى مكة؛ لأنهم يجدون في كتبهم مثلما نجد نحن في كتبنا أن الذي يهدم الكعبة هو ذو السُّوَيْقَتَيْن، فاستعجلوا ذلك وعاقبهم الله تعالى، وإنما يكون هدمها في آخر الزمان، وقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**كأني به أسودَ أَفْحَجَ، يقلعُها حجرًا حجرًا**»[1].

**والسؤال: لماذا أنزل الله تعالى ما أنزل على أصحاب الفيل، ولم يعاقب الـحَجَّاج ومَن معه، ولم يعاقب ذا السُّوَيْقَتَيْن؟**

**والجواب**- والله أعلم-: أن العقوبات كانت تأخذ الأمم قبل البعثة المحمدية، كما حكى الله عن أمم الأنبياء، فهكذا قصة أصحاب الفيل، وأن قصة أصحاب الفيل وما نزل بهم كان من نوع الإرهاص بميلاد النبي صلى الله عليه وسلم وبعثته، فهي حال خاصة تلفت أحياء العرب إلى هذا البيت وما سيكون حوله من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

وأما بعد ذلك فقد تحمَّلت الأمة مسؤولية الجهاد والدفاع والمدافعة عن البيت، ولا يلزم أن مَن قصده بسوء يُنتظر به ما نزل بأصحاب الفيل؛ فالحَجَّاج أصاب الكعبة بالمِنجنيق، والقرامطة قصدوا الكعبة بالعدوان، وانتزعوا أعظم أحجارها؛

---

(1) أخرجه البخاري (1595) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الحجر الأسود، ولم يصح حصول أمر استثنائي أو عقوبة سماوية بهم؛ ليتحمل المسلمون مسؤوليتهم، ويجري الله عقوبته على مَن ظلم بأيديهم: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ [التوبة: ١٤].

أما ما يتعلق بذي السُّوَيْقَتَيْن فإن الأمر مختلف؛ لأن الكعبة إنما تكون عظمتها بمَن يطوف بها ويصلِّي إليها، والله جعل الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس، فلما لم يبق في الأرض مَن يحج، ولا مَن يعتمر، ولا مَن يصلِّي إلى البيت الحرام، فقد تعطلت منافعها، فيأذن الله تبارك وتعالى بهدمها آخر الزمان حينما لا يبقى في الأرض مسلم يقول: «الله الله»، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم[1]، وقال أيضًا: «**وليُسْرَى على كتاب الله** عز وجل **في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية**»[2]. وذلك حينما يندرس الإسلام، وينتهي أمره قبيل قيام الساعة، والله تعالى أعلم.



(1) ينظر: «صحيح مسلم» (148).

(2) أخرجه ابن ماجه (4049)، والحاكم (4/ 473، 545) من حديث حذيفة رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (87).

## سورة قريش

*** تسمية السورة:**

**لها اسمان:**

«**سورة قريش**»، وهو ما ورد في المصاحف كلها، وغالب كتب التفسير[1].

و«**سورة ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا﴾**»، وجاءت هذه التسمية في رواية عَمرو بن ميمون الأَوْدي، لما ذكر صلاةَ عمر رضي الله عنه المغربَ، وقراءته بهاتين السورتين، وذكره البخاري في «صحيحه»[2].

* **عدد آياتها:** أربع آيات عند الجمهور، وعدَّها أهل المدينة خمس آيات[3].

* **وهي مكية** بإجماع أهل العلم، كما قال ابن عطية[4].

ورُوي عن الضحاك والكَلْبي أنها مدنية، وهو قول ضعيف، فالسورة ذات علاقة وثيقة- على الأرجح- بـ«سورة الفيل»[1].

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 855)، و«سنن النسائي الكبرى» (10/ 344)، و«تفسير الطبري» (24/ 646)، و«المستدرك» (2/ 536)، و«تفسير الرازي» (32/ 298)، و«تفسير القرطبي» (20/ 200).

(2) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (3593)، و«صحيح البخاري» (6/ 177)، و«تفسير القرطبي» (20/ 200)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 491)، و«روح المعاني» (15/ 470)، و«التحرير والتنوير» (30/ 553).

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 859)، و«تفسير الطبري» (24/ 646)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص290)، و«تفسير القرطبي» (20/ 200)، و«التحرير والتنوير» (30/ 553).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 646)، و«المحرر الوجيز» (5/ 525)، والمصادر السابقة.

وهي سورة منفصلة عن «سورة الفيل»، وجاءت في مصحف أُبي بن كعب رضي الله عنه بجوارها غير مفصول بينهما بالبسملة، ولعل أبيًّا كان يرى أن السورتين سورة واحدة، والله أعلم[2].

وهذا ليس نصًّا، فقد يكون الأمر فيها كالأمر في «سورة الأنفال» و«سورة براءة»، حيث لم يفصل بينهما بالبسملة، ومع ذلك فهما سورتان، وبعض المفسرين يحكي الإجماع على أنهما سورتان لا سورة واحدة[3].

والسورة على قصرها حوت فوائد وحِكَمًا عظيمة، وما أكثر الذين يقرؤونها ولا يدركون حِكَمها وفوائدها، أو لا يفهمون معناها.

* ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا طَغَىٰ﴾:

**الإيلاف**: مأخوذ من الإِلْف والأُلفة والتأليف، وهو أن يلزم الإنسان الشيء، ويعكف عليه، ويعتاده، حتى يصبح مألوفًا، فالمعنى: لإلف قريش، أي: لكي يألفوا ويعتادوا ويسهل عليهم أمر السفر[4].

**وفي اللام في أول السورة ثلاثة احتمالات:**

**الأول**: أن تكون متعلقة بما قبلها، في «سورة الفيل»، وعليه فالمعنى: أن الله تعالى يمتن بإهلاك أصحاب الفيل، وجعلهم كعَصْف مأكول، وحماية هذا البيت؛ من أجل «إيلاف قريش».

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (20/ 200)، و«اللباب في علوم الكتاب» (30/ 503)، و«التحرير والتنوير» (30/ 553).

(2) ينظر ما تقدم في «سورة الفيل».

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 650).

(4) ينظر: «العين» (8/ 336)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص81)، و«تفسير الرازي» (32/ 296).

وذلك أن الله أهلك أصحاب الفيل؛ من أجل بقاء قريش ومصالحهم، وفي ذلك كثير من الحِكَم والأسرار التي منها بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فيهم.

**ومنها**: بقاء أثرهم؛ فقريش هم سَدَنة البيت وحماته، واستمرت مكانتهم في الإسلام، حتى قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**لا يزالُ هذا الأمرُ في قريش**»[1]. يعني: أمر الخلافة والحكم والسلطان، وظلت قريش في عهد الخلفاء الراشدين، وبني أُمَيَّة، وبني العباس، محط أنظار المسلمين، وكانت فيهم السيادة والسلطان العام للأمة كلها.

ولأن لهذه القبيلة شأنًا عظيمًا في تاريخ الإسلام، فهي القبيلة الوحيدة التي ذُكر اسمها في القرآن الكريم.

والقول بترابط هاتين السورتين، وأن **اللام** فيها مرتبطة بما قبلها، قول ابن إسحاق في «السيرة»، وجماعة من أهل اللغة، كالفرَّاء والزجَّاج وأبي عُبيدة، وقال القرطبي: «هو معنى قول مجاهد».

وحسبك بمجاهد في التفسير؛ لأنه أخذه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا القول رواية عن سَعِيد بن جُبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الزمخشري: «وهذا بمنزلة التضمين في الشعر، وهو أن يتعلَّق معنى البيت بالذي قبله تعلُّقًا لا يصح إلا به».

---

(1) أخرجه البخاري (3501)، ومسلم (1820) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وقال الطاهر ابن عاشور: «يعنون أن هذه السورة وإن كانت سورةً مستقلةً، فهي ملحقة بـ«سورة الفيل»، فكما تُلحق الآية بآية نزلت قبلها، تُلحق آيات هي سورة فتتعلق بسورة نزلت قبلها»[1].

لكن استنكر ابن جرير وجماعة أن تكون اللام متصلة بقصة الفيل، وأن ما في «سورة قريش» اعتماد على معنى مفهوم في أذهان السامعين، ولا يصح عندهم أن يكون المعنى: أهلكنا أصحاب الفيل من أجل إيلاف قريش[2].

وذكر البيت موجود في السورة نفسها: ﴿غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ رَبِّهِ﴾. فحفظ الله تعالى الكعبة لإيلاف قريش، والمعنى تام وغير مرتبط بـ«سورة الفيل»، كما أن معنى «سورة الفيل» تام.

**وقريش**: اسم جد القبيلة، **وجدُّهم** عند جمهور أهل النسب: فِهر بن مالك بن النَّضْر بن كِنانة، وبالإجماع فإن قريشًا هم بنو النَّضْر بن كِنانة، وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**نحن بنو النَّضر بن كِنانة، لا نَقْفُو أُمَّنا، ولا نَنْتَفي من أَبِينا**»[3].

**وقريش** تصغير: قرش، وهو سمك ضخم مخيف، يأكل السمك، ويهاجم السفن، **قيل**: إن قريشًا سُمِّيت بذلك لضخامتها ومكانتها ومنزلتها؛ ولأن القبائل

---

(1) ينظر: «مجاز القرآن» لأبي عُبيدة (2/ 312)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 365)، «الكشاف» (4/ 801)، و«تفسير القرطبي» (20/ 201)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 547)، و«البرهان في علوم القرآن» (1/ 59)، و«التحرير والتنوير» (30/ 555).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 650)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (11/ 111)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 503)، والمصادر السابقة.

(3) أخرجه الطيالسي (1145)، وأحمد (21839)، وابن ماجه (2612) من حديث الأشعث بن قيس رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (2375). ومعنى: «**لا نقفوا أمنا**»: لا نتهمها ولا نقذفها.

كلها تذوب فيها، كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم في المدينة: «**أُمرت بقريةٍ تأكل القُرَى**»[1]. وليس المقصود حقيقة الأكل، وإنما المعنى: أنها تغلبها وتنتصر عليها، فسُمِّيت بهذا الاسم؛ لهيمنتها وقوتها.

**وقيل**: من القِرْش وهو المال؛ لأنهم أهل تجارة.

**وقيل**: من التَّقَرُّش، وهو الاجتماع؛ لأنهم تفرقوا ثم اجتمعوا[2].

وقد كانت مكة أرضًا جرداء، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿**إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ**﴾ [إبراهيم: 37]، فلما كان البيت بأرضهم؛ عظَّمهم العرب، ولما وقعت حادثة الفيل، وردَّ الله كيدهم، زاد قَدْر قريش، وارتفع شأنهم عند العرب، فكانوا يتسابقون إلى رضاهم وحمايتهم، ويسمونهم: جيران بيت الله، وأحيانًا يسمونهم: أهل الله.

ولو هدم البيت أو صار كغيره من البيوت بلا قدسية ولا مكانة؛ لزالت هذه المنزلة الرفيعة لقريش عند العرب، ولصاروا مثل القبائل الأخرى.

**فالاحتمال الأول**: أن يكون معنى: ﴿**وَٱلنَّجۡمِ إِذَا**﴾ أن الله تعالى حمى البيت، وأهلك مَن أراد به سوءًا، من أجل إيلاف قريش، وأن يألفوا رحلة الشتاء والصيف، وأن يتصرَّفوا في المعاش، وأن تكون لهم تلك المنزلة التي ستبقى في خدمة الدين والدعوة والرسالة.

---

(1) أخرجه البخاري (1871)، ومسلم (1382) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 301)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 342)، و«تفسير السمعاني» (6/ 387)، و«تفسير البغوي» (5/ 310)، و«الكشاف» (4/ 802)، و«تفسير الرازي» (32/ 297)، و«تفسير القرطبي» (20/ 203)، والمصادر الآتية.

**وثَمَّ احتمال آخر**، وهو أن يكون المعنى متعلِّقًا بآخر السورة في قوله تعالى: ﴿غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ رَبِّهِ﴾، أي: اعبدوا يا قريش ربَّ هذا البيت، الذي أنعم عليكم برحلة الشتاء والصيف، وغيرها من النعم، التي كان بها عزكم ومجدكم.

وإنما خص الله تعالى هذه النعمة بالذكر- وهي: رحلة الشتاء والصيف- لأنها سر تفوقهم، والبيت من ميراث الأنبياء عليهم السلام، وهو من الأماكن المعظَّمة عند الله تعالى، فكأنه يعاتب قريشًا ويقول: كيف يتحول بيت الله إلى معبد للأصنام؟! وقد كان فيه ثلاثمئة وستون صنمًا تُعْبَد من دون الله، فيكون في السورة تقديم وتأخير، يعني: اعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمكم من جوع، وآمنكم من خوف، وآلفكم برحلة الشتاء والصيف.

وذكر هنا فضيلة الشرف بوراثة النبوة والبيت، وفضيلة المجد والسعي في الكسب والتجارة.

**وفي السورة وجه ثالث**، لا يكون له تعلق لا بآخر السورة، ولا بـ«سورة الفيل»، وإنما يكون ذلك على سبيل التعجب، فيكون في الآية محذوف تقديره: اعجبوا لإيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، ومع ذلك فهم يَلِجُّون في شركهم ومعصيتهم، ولا يشكرون نعمة الله تعالى. **وهذا المعنى أقرب من الذي قبله**[1].

* ﴿۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ رَأَىٰ﴾:

**إيلاف** هنا مجرورة؛ لأنها عطف بيان على إيلاف الأولى، فـ«إيلاف» الثانية هي «إيلاف» الأولى، وهذا مثل قول الله تعالى: ﴿۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 649)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 365)، و«إعراب القرآن» للنحاس (5/ 184)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 339)، و«زاد المسير» (4/ 493)، و«تفسير القرطبي» (20/ 201)، و«بصائر ذوي التمييز» (2/ 4)، والمصادر السابقة.

ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ﴾. فـ«الأسباب» الأولى هي «الأسباب» الثانية، لكن استأنف بها آية أخرى فقال: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ﴾ [غافر: 36- 37].

**والرحلة** هي: الارتحال والمسير، ومنه نسمي الدابة: راحلة؛ لأن الإنسان يرتحلها؛ أي: يركبها إذا سافر، وقد كانت رحلة الشتاء إلى اليمن؛ لأن الجو فيها أدفأ، ورحلة الصيف إلى الشام؛ لأن الجو فيها أبرد، امتنَّ الله تعالى عليهم بذلك، وهذا من إضافة الفعل إلى زمانه.

وإذا أضيف الفعل إلى زمانه، فهل يلزم أن يستغرق الزمان كله؟

هل كل الشتاء وهم في اليمن؟ وكل الصيف وهم في الشام؟! كلا، فالرحلة تستغرق بعض الوقت، فعند ما نقول: صلاة الظهر؛ فإنها لا تأخذ إلا بعض الوقت.

والشتاء والصيف اسمان لفصلين من فصول السنة الشمسية، والشتاء يقدر فيها بحوالى (89) يومًا، والصيف يقدر فيها بـ(93) يومًا، والإمام مالك يقول: الشتاء نصف السنة، والصيف نصفها الآخر، والآية تصلح لهذا وهذا.

**والآية فيها إشارة إلى معان كثيرة، منها:**

1- أن الدعوة التي أذن الله أن تنطلق من جزيرة العرب ومن مكة، تحتاج إلى تواصل مع الأمم والشعوب الأخرى؛ ولهذا كانت الرحلة إلى اليمن وإلى الشام من إقامة العلاقة والتواصل والتعارف مع الناس، والاكتساب منهم؛ لأنه بالاتصال يتحقَّق التعارف، وهكذا الدعوة تحتاج إلى تواصل مع الأمم والشعوب الأخرى؛ ولذلك مهَّد تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بهذا الاتصال، الذي تمثل في رحلة الشتاء، ورحلة الصيف.

ولا يصح في الدعوة أن يعيش المسلمون في عزلة عن الناس، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يراسل الملوك، فأرسل إلى كِسْرى وإلى الـمُقَوقس وإلى

النَّجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى، ثم كان يستقبل الوفود، فاستقبل نصارى نَجْران، واستقبل قبائل العرب من الجزيرة، وخاطبهم ودعاهم إلى الله، وهذا التواصل يحتاج إلى فهم الطرف الآخر، سواءً كان فردًا أو جماعة أو شعبًا أو قبيلة، فتفهم لغته وثقافته وتاريخه.

2- أن المصالح الدنيوية التي بها قِوام حياة الناس- مثل الاقتصاد- تحتاج إلى الاتصال، فهي مصالح متشابكة متبادلة، وهذا يخفى- مع ظهوره- على كثير من الناس، الذين يرون أن مجرد استفادة العدو من الشيء الذي نستفيد نحن منه يحتم علينا تركه وحرمان أنفسنا منه.

وهذا من الغلط البيِّن؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم مات ودرعه مرهونةٌ عند يهودي[1]، وهذا اليهودي كان يستفيد من البيع، والنبي صلى الله عليه وسلم استفاد من الشراء، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم راعى مصلحته، فمن الفقه أن ندرك هذه المصلحة المشتركة بين بني الإنسان، وأن على المرء أن يتحرَّى مصلحته ولو وافقت مصالح خصومه أو مخالفيه، ولا يعد هذا من باب التعاون على الإثم والعدوان، أو الإعانة على الشر كما يتوهمه بعضهم!

فإذا كان للمسلمين عامة أو لطائفة منهم مصلحة في شيء، وهذه المصلحة قد يستفيد منها الكفار، فلا ينبغي أن نحرم أنفسنا من هذه المصلحة من أجل حرمان الآخرين، فمن الخطأ الكبير أن يكون تقديرنا للمصالح والمفاسد مبنيًّا على مراعاة حرمان الآخرين من هذه المصلحة، وإذا كانت هذه المفسدة سوف تضر الآخرين، لكنها تضرك أنت أيضًا، فهل من الحكمة أن تفعلها؟ كلا، فالمصالح الدنيوية والدينية

---

(1) ينظر: «مسند أحمد» (2724)، و«صحيح البخاري» (2509، 2916، 4467)، و«صحيح مسلم» (1603).

متشابكة، ولا يوجد في الدنيا مصالح محضة أو مفاسد محضة، وإنما المصلحة الغالبة في طيها بعض المفسدة، والمفسدة الغالبة معها بعض المصلحة، فالقضية لها حسابات لا يمكن إدراكها إلا بالنظر السديد والعقل الراجح، ولهذا يحسن الاعتناء بدراسة مقاصد الشريعة.

3- أن الله تعالى يحفظ الفرد والجماعة والدولة والأمة في الأخلاق العامة التي يحتاج الناس إليها، فإذا رأيت العدل يضرب بجِرَانِه في بلد أو دولة أو أمة، ورأيت المسامحة، والمحافظة على حقوق الناس، فهذه الصفات جديرة بأن تمنح أهلها التقدم والتمكين، ولو كانوا كفارًا.

وإذا رأيتَ الظلم والبغي والعدوان ومصادرة الحقوق ينتشر في دولة أو مجتمع؛ فهو جدير بأن يحل به عقاب الله تعالى، ولو كان مسلمًا، كما قال ابن تيمية رحمه الله : «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة»[1].

والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول: «**تقومُ الساعةُ والرومُ أكثرُ الناس**»[2]. وكثرتهم تعني القوة، والشجاعة، والتسلط، والكثرة ليست محصورة في الكثرة العددية.

**ولماذا هذه الكثرة فيهم؟**

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه[3]: «إن فيهم لخصالًا أربعًا: إنهم لأحلمُ الناس عند فتنة، وأسرعُهم إفاقةً بعد مصيبة، وأوشكُهم كرةً بعد فرة، وخيرُهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسةٌ حسنةٌ وجميلةٌ: وأمنعُهم من ظلم الملوك».

---

(1) ينظر: «مجموع الفتاوى» (28/ 146).

(2) أخرجه مسلم (2898) من حديث المستورد بن شدَّاد رضي الله عنه.

(3) كما في الحديث السابق.

فهذه الأخلاق عامة متعلقة بحقوق الناس، وإقامة العدل وإعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه.

وإن الله سبحانه ذكَّر قريشًا حفظَ مكانتهم؛ لما جُبِلوا عليه من مكارم الأخلاق، وقد ذكر عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن قريشًا كانوا إذا أصابتهم مجاعة أو مَـخْمَصة أو مَسْغبة، أدخل الرجلُ أولاده في بيت أو خباء، فمكثوا فيه جائعين حتى يموتوا من الـمَخْمَصة، بسبب الكرامة والأَنَفَة، فقال لهم هاشم بن عبد مناف: يا معشر قريش، إنكم أحدثتم حدثًا، حيث تتركون أنفسكم وأولادكم في بيت حتى تموتوا من الجوع، وبهذا تقلون أنتم، وتكثر العرب، وتذلون وتعز العرب، وأنتم أهل حرم الله تعالى، والناس لكم في ذلك تَبَعٌ. ثم أجمع أمرهم على أن ينشئوا هاتين الرحلتين إلى اليمن وإلى الشام وما ربحوه في هذه الرحلات يقتسمونه بينهم، غَنيهم وفقيرهم، كبيرهم وصغيرهم، ذكرهم وأنثاهم(1)، ولذلك قال مطرود الخُزاعي(2)، وهو يمدحهم:

يا أيُّها الرجلُ المحوِّلُ رحلَه *** هلَّا مررْتَ بآلِ عبدِ منـافِ
الآخذونَ العهدَ من آفاقِهـا *** والراحلونَ لرحلةِ الإيلافِ
والخالطون غنيَّهم بفقيرِهم *** حتى يكونَ فقيرُهم كالكافي

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (20/ 205).

(2) ينظر: «سيرة ابن هشام» (1/ 178)، و«المنمق في أخبار قريش» (ص46)، و«أنساب الأشراف» (1/ 60)، و«تاريخ الطبري» (2/ 252)، و«أمالي القالي» (1/ 241)، و«معجم الشعراء» (ص375). وتُنسب أيضًا إلى ابن الزِّبَعْرَى، كما في «الحماسة البصرية» (1/ 65)، وينظر: «شعر عبد الله بن الزِّبَعْرَى» (ص54) فيما نُسب إلى عبد الله بن الزِّبَعْرَى وإلى غيره.

فكان الفقير مثل الغني سواءً بسواء فيما يكسبونه، فلما كانت عندهم هذه الخصلة في بذل المال والإنصاف، وعدم تفضيل الغني على الفقير؛ جعل الله تعالى لهم هذه المنزلة.

**فمعنى الآية:** تذكير قريش بنعمة الله تعالى عليهم، وهي نعمة لم تكن لغيرهم ببركة لزومهم للبيت الحرام وحمايته، وعمارة المسجد الحرام، فكانت القبائل كلها تحترم قريشًا، وحتى القبائل التي لم تكن تعظم الأشهر الحرم، كقُضاعة، وخَثْعم، وطَيٍّ، كانوا يعظِّمون قريشًا.

ومن هنا صارت مكة مركزًا تجاريًّا تُجلب إليه البضائع من كل مكان، وكانت الحبشة ترسل البضائع عبر البحر إلى جدة، وهكذا الشام واليمن، وقامت حول مكة الأسواق المعروفة، مثل عُكاظ ومَـجَنَّة وذي الـمَجَاز، وانتشرت الحركة الاقتصادية، وصار العرب يقدمون مكة من أجل الحصول على مكاسبهم وأرزاقهم، ولذلك تحسَّنت لغة قريش وتهذَّبت، وصار عندهم شيء من الإبداع في العلم والأدب والشعر، والعلاقات الاجتماعية، وكل هذا فيه تمهيد لانبثاق رسالة الإسلام وانطلاقها من هذا البلد الحرام.

ولهذا امتن الله تعالى عليهم بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [العنكبوت: 67]. وقال في الآية الأخرى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: 57].

وهذا الإيلاف الذي ذكره تعالى لقريش في بقائهم بمكة، هو نقيض ما حكاه عن اليهود: ﴿ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ [الأعراف: 168].

* ﴿غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ رَبِّهِ﴾:

لم يأمرهم سبحانه أن يتركوا الرحلة إلى اليمن والشام ليفرغوا للعبادة، فلهم أن يألفوا هذه الرحلة ويستمروا عليها، ليعبدوا ربهم تبارك وتعالى.

**ومن العبادة**: أن يوظِّفوا ما رزقهم الله تعالى في مصلحة عباده، والعبادة هنا شكر لما أنعم الله به عليهم، كما في قوله سبحانه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا ﴾ [سبأ: 13].

وكلمة ﴿ ٢ ﴾ تشعر بالرعاية والحفظ، وما قصة أصحاب الفيل عنا ببعيد، ومقتضى هذا الأمر أن يجتنبوا عبادة الأوثان، وذكَّرهم أن لهذا البيت الذي يعتزون به ربًّا يحميه، فهو المستحق وحده للعبادة، ولذا أضاف ذاته العلية واسمه الشريف إلى البيت؛ إشارة إلى أن هذا بيت الله سبحانه، وشرفه بهذا، وليس بشيء آخر، وفي قوله تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ [البقرة: 125]. نسب البيت إلى ذاته العلية، فصار بيت الله عز وجل، والمقام هنا مقام امتنان بالنعم، فيناسبه ذكر صفة الربوبية دون غيرها.

وقوله: ﴿ وَمَا﴾ إشارة إلى البيت، والعادة أن الإشارة تكون لشيء حاضر، كما تقول: هذا الكتاب، وهذا القلم، فالإشارة كانت لأمر موجود عند السامعين، يُشار إليه، كما أشار عمر رضي الله عنه في صلاته، حيث صلَّى عند البيت، فقرأ ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا﴾، فجعل يومئ إلى البيت، ويقول: ﴿غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[1].

وفيه معنى عظيم، وهو أن الله سبحانه يقرِّر أن هذا البيت باقٍ مرفوع شامخ أبيٌّ، يتعالى على كل محاولات الهدم والتخريب، ولذلك يُشار إليه؛ لأنه موجود، وهذا قبل أن تنقل شاشات التلفاز والقنوات الفضائية الصور الحية من البيت الحرام، فهو اليوم يُشاهد من كل مكان في الأرض.

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة (8491).

وإنك تتعجب أَلَّا تجد اليوم حول هذا البيت الحركة والنشاط العلمي والنشاط الإيماني الذي يتناسب مع مكانته، في حين أن أمم الأرض كلها اليوم تفتخر بمعالمها ومتاحفها ورسومها وآثارها ورموزها، ويفتخرون بأبنية حديثة من المعابد والكنائس، والمسلمون في أمصار الإسلام يفخرون برمز من رموز العلم فيها، فالرمز العلمي والإيماني في مصر هو: الأزهر، وفي تونس: الزيتونة، وفي المغرب: القرويين، وهذا البيت عريق، والله تعالى فضَّله يوم خلق السماوات والأرض، وجعل الأنبياء يحجُّون إليه ويطوفون به، وجعل له هذه القدسية وهذا البقاء وهذا الخلود، وهذا يستوجب أن يكون حول البيت العمل الكثير، والحركة العلمية النشيطة، والتأثير الكبير بما يتناسب مع جلالة البيت ومكانته ومنزلته.

* ﴿ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ أَفَرَءَيْتُمُ﴾:

وثمة فرق بين ﴿۝٣﴾ و«أشبعهم»؛ فالإطعام نعمة كبيرة لا يستغني عنها أحد، بخلاف الشبع، فليس محمودًا بكل حال؛ فقد يفضي إلى التخمة، وربما أضر بالصحة، والمرء يُذَمُّ إذا كان منهمكًا في ألوان الملذات من المآكل والمشارب؛ ولذلك عبَّر بالإطعام، لأنه القدر الذي يحتاج إليه.

ويحتمل أن يكون معناها: أطعمهم من جوع ألـمَّ بهم بعض الوقت، ومن ذلك أنهم كانوا إذا جاعوا جلسوا في خباء حتى يموتوا[1].

ومن ذلك أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم لما استعصت عليه قريش قال: «**اللهمَّ أعني عليهم بسَبْعٍ كسَبْعِ يُوسف**»[2]. فجاعوا حتى أكلوا الجلود، وورق الشجر، وحتى كان الواحد منهم ينظر إلى السماء، فيرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان من

---

(1) كما تقدم قريبًا.

(2) أخرجه البخاري (4822) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

الجوع، حتى قالوا: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ [الدخان: 12]، فالله تعالى يذكِّرهم أنه هو الذي أطعمهم من جوع.

و﴿مِّن﴾ هنا بدلية، أي: أبدلهم من الجوع إطعامًا[1].

ويحتمل أن يكون المعنى: أطعمهم من جوعٍ كان يقتضيه المقام، باعتبار طبيعة مكة، فهي بلد غير ذي زرع، ولكن الله مَنَّ عليهم بأن جلب لهم الأرزاق من كل مكان فصار يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان، وهي دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: 126][2].

﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾: يحتمل آمنهم من خوف ألـمَّ بهم كانوا عليه، وأقرب مثال مذكور قصة أصحاب الفيل، فأهل مكة خافوا منهم، وخرجوا إلى شَعَف الجبال.

أو يكون المعنى: آمنهم من خوفٍ كانوا خليقين به؛ لأنه لم يكن عندهم مَنَعَةٌ ولا سلاح؛ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ [العنكبوت: 67]، فالقبائل العربية كانت تتناحر فيما بينها، ويحارب بعضها بعضًا، وهذا البلد آمن، وهذه دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾ [البقرة: 126]، فاستجاب الله دعاءه، وجعل البلد آمنًا[3].

**وهنا لفتات لطيفة في الآية الكريمة:**

1- الإشارة إلى أهمية الأمن والطعام في حياة الفرد والجماعة، وهذه من الحاجات الفطرية الضرورية التي ركّب في الإنسان حاجته إليها، فالإنسان إذا جاع لن يفكِّر

---

(1) ينظر: «حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (1/ 399)، (8/ 399)، و«روح المعاني» (15/ 473)، و«تفسير القاسمي» (9/ 551)، و«التحرير والتنوير» (30/ 561).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 366)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 349)، و«زاد المسير» (4/ 494)، و«تفسير القرطبي» (20/ 209)، و«التحرير والتنوير» (30/ 561).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 653)، و«الكشاف» (4/ 803)، والمصادر السابقة.

بشكل صحيح، ولن يعبد ربه كما ينبغي، ولن يتعلم، ولن يعمل، فالجوع يجعل الإنسان منقطعًا عن الخير الديني والدنيوي، وربما تجرَّأ على أن يكذب ويسرق، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن الرجلَ إذا غَرِمَ**- يعني: صار عليه دينٌ- **حدَّث فكذبَ، ووعدَ فأخلفَ**»[1].

وقد جعل الجوع والخوف عقوبةً للأمم المذنبة، كما قال الله تعالى: ﴿**إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ**﴾ [النحل: 112]. فالجوع والخوف قد يحيط بالإنسان مثل اللِّباس، ويحول بينه وبين مصالح الدنيا والآخرة.

والاستقرار الذي يفضي إلى الحصول على الحاجات الضرورية، هو أصل لنمو الخير، وتحقق المصالح، وبالعكس من ذلك، فإن الحروب الأهلية مثلًا، والقلق وزوال الأمن واشتداد الجوع من العوائق والعوارض التي تحول بين الناس وبين مصالح الدنيا والآخرة، ففي البلد الذي يشيع فيه الخوف أو الفقر لا تطمع أن يكون أهله على مستوى مقنع من العلم والعمل والأخلاق والتفكير.

وكثير من بلاد الإسلام مبتلاة بأحد الأمرين، إما أن يكون فيها الفقر، فتجد مئات الملايين فقراء، مع أنها قد تكون بلادًا نفطية، كنيجيريا وغيرها؛ وفقرها بسبب سوء التنظيم، وسوء توزيع الثروة، وإما أن تُصاب بالخوف، بسبب الحروب الأهلية.

ومن المحزن أن ثمانية وعشرين من بين ثلاثين نزاعًا عالميًّا موجودة في البلاد الإسلامية، ولا نقول: إن هذا بسبب كيد أعدائنا فحسب؛ فنحن غير سالمين من التَّبِعَات، وليس كل ما ينزل بنا بسبب عدونا، وعدونا سيصنع، ولكن كما قال الله: ﴿**لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى**﴾ [آل عمران: 111]، ﴿**ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ**﴾ [آل

(1) أخرجه البخاري» (2397)، ومسلم (589) من حديث عائشة رضي الله عنها.

عمران: 120]، فلو كنا على قدرٍ من الاستقامة لما استطاع الأعداء أن يوجدوا بيننا الحروب والصراعات.

2- أن الآية ليست خاصة بقريش، كما أنها ليست خاصة بها قبل النبوة، أو وقت النبوة، فها نحن اليوم بعد (1400) سنة، نقرأ السورة ونجد فيها أن الله ينعم على البلد الحرام وما حوله بالأمن، والطعام، ثم تأتي الدعوة للعبادة، بأن توظَّف هذه النعم لطاعة رب هذا البيت، وطاعة نبيه صلى الله عليه وسلم، ونشر دينه، والإحسان إلى عباده: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾ [القصص: 17]. وكل مخاطب يرى البيت المشار إليه عيانًا أو عبر الشاشات المباشرة.

فعلى الأمة أن تحقِّق التواصل مع الأمم الأخرى وتألفهم، مع حفاظها على هويتها وثقافتها، من أجل أن تقدم لها الصورة الصحيحة للإسلام، وتبحث عن مصالحها الدينية والدنيوية في كل مكان.



## سورة الماعون

*** تسمية السورة:**

**لهذه السورة أسماء عديدة، والمشهور في غالب كتب التفسير والمصاحف:**

«**سورة الماعون**»[1]؛ وذلك لذكر الماعون في آخرها.

و«**سورة** ﴿عَلَّمَهُۥ﴾». ورد ذلك في «صحيح البخاري»، وبعض كتب التفسير[2]، باعتبار أول لفظ فيها.

و«**سورة الدِّين**»[3]؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾.

و«**سورة اليتيم**»[4]؛ لذكره فيها.

وبعضهم سمَّاها: «**سورة التكذيب**»[1]؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْقُوَىٰ﴾.

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 865)، و«سنن النسائي الكبرى» (10/ 345)، و«تفسير الطبري» (24/ 657)، و«المستدرك» (2/ 536)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 304)، و«المحرر الوجيز» (5/ 527)، و«تفسير القرطبي» (20/ 210)، و«التحرير والتنوير» (30/ 563).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص753)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 463)، و«صحيح البخاري» (6/ 177)، و«تفسير السمعاني» (6/ 288)، و«زاد المسير» (4/ 495)، و«التحرير والتنوير» (30/ 563).

(3) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (20/ 511)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (22/ 275)، و«الإتقان» (1/ 196)، و«فتح القدير» (5/ 611)، و«روح المعاني» (15/ 474)، و«التحرير والتنوير» (30/ 563).

(4) ينظر: «فتح القدير» (5/ 611)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (15/ 401)، و«نيل المرام من تفسير آيات الأحكام» (ص467)، و«التحرير والتنوير» (30/ 563).

* **عدد آياتها:** ست آيات، باعتبار أن قوله: ﴿مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ ۝٢٠﴾، ﴿كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ وَلَهُۥ﴾ آية واحدة، وبعضهم يفصلها فيجعلها آيتين، فتصبح سبعًا، كما هو في المصاحف اليوم[2].

* **وهي مكية** على قول جمهور المفسرين. وقال ابن عطية: «مكية بلا خلاف علمته»[3].

**وقيل**: نزلت بالمدينة، وهو قول قتادة[4].

**وقيل**: نزل بمكة الآيات الثلاث الأول، والباقي نزل بالمدينة، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، واختاره بعض المصنِّفين في التفسير[5].

* **سبب نزولها: قال بعضهم**: إنها نزلت في أبي سفيان، وكان كريمًا ينحر في كل أسبوع ناقة، ويوزِّعها على الناس، فجاءه يتيم يطلب منه لحمًا أو غيره فقرعه بعصا[6].

---

(1) ينظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (22/ 275)، و«روح المعاني» (15/ 474)، و«التحرير والتنوير» (30/ 563).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 869)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص291)، و«الكشاف» (4/ 803)، و«روح المعاني» (15/ 474)، و«التحرير والتنوير» (30/ 563)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 869)، و«تفسير الطبري» (24/ 657)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 304)، و«المحرر الوجيز» (5/ 527)، و«زاد المسير» (4/ 495)، و«تفسير القرطبي» (20/ 210)، و«روح المعاني» (15/ 474)، و«التحرير والتنوير» (30/ 563).

(4) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 527)، و«زاد المسير» (4/ 495)، و«تفسير القرطبي» (20/ 210)، و«روح المعاني» (15/ 474)، و«التحرير والتنوير» (30/ 563).

(5) ينظر: «الكشاف» (4/ 803)، و«زاد المسير» (4/ 495)، و«روح المعاني» (15/ 474)، و«التحرير والتنوير» (30/ 563).

(6) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 350)، و«المحرر الوجيز» (5/ 527)، و«تفسير القرطبي» (20/ 210)، و«روح المعاني» (15/ 476)، و«التحرير والتنوير» (30/ 566).

**وقيل**: نزلت في العاص بن وائل، **وقيل**: في الوليد بن المغيرة، **وقيل**: في أبي جهل، ولأبي جهل قصة ذكرها ابن هشام وغيره من أهل السير، وهي قصته مع الأَرَاشي، حيث أخذ ماله، ورفض أن يعطيه حقه، فقيل له: استشفع إلى أبي جهل بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهو لا يدري ما بينه وبينه، فأخذ الأمر على التصديق، فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى أبي جهل، واستخرج للرجل حقه، فقالوا لأبي جهل في ذلك، فقال: والله، لقد رأيتُ شيئًا وهولًا بيني وبينه. فأصابه رعب وأعطى الرجل حقه![1].

**وقيل**: إن السورة عامة، وإنها لم تنزل في شأن أحد بعينه، وإنما نزلت فيمَن كان هذا حاله.

* ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ طَغَىٰ﴾:

هذا استفهام على سبيل التعجُّب، فهو تعالى يريد إثارة العجب والدهشة ممَن يتصف بصفات معينة، فهو حديث عن فئة من الناس تعيش بين أظهرنا، ونخالطها، ويُراد منا أن نلتفت ونتفطن لبعض مواطن الغرابة في حياتها وسلوكها!

وهذه الرؤية قد تكون بصرية؛ لأنهم أناس نشاهدهم ونراهم، وربما كانت علمية؛ وهي في الحالين تتعلق بأمر محسوس مشاهد.

﴿عَلَّمَهُۥ﴾ خطاب عام لكل مَن يصلح له الخطاب.

**ويحتمل أن يكون المقصود** ﴿۝٥﴾: الإسلام، كما قال الله: ﴿قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ﴾ [آل عمران: 19].

---

(1) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (4/ 176)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (2/ 233- 235)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم (1/ 196- 197)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (2/ 193- 194)، و«البداية والنهاية» (3/ 45)، و«فتح القدير» (5/ 612)، و«التحرير والتنوير» (30/ 566)، و«مع المصطفى صلى الله عليه وسلم» للمؤلِّف (ص285- 287).

**ويحتمل أن يكون المقصود:** الجزاء والحساب، وهذا كثير الورود في القرآن، كما في قوله: ﴿أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ﴾ [الانفطار: 9]، ﴿مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ﴾ [الانفطار: 17- 18]، فالغالب أن كلمة «الدين» في القرآن يقصد بها الدينونة[1]، ويقال: كما تَدِين تُدان. أي: كما تفعل تُجازى.

وفي هذا إشارة إلى أثر الوازع الإيماني في القلوب، وأن الإيمان بالدار الآخرة من أعظم الأركان؛ ولهذا قال تعالى عن أنبيائه: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا﴾ [ص: 46- 47]، فثَمَّ فرق جوهري بين إنسان يعيش في هذه الدنيا وهو مستيقن بالجزاء على الأعمال يوم القيامة، وآخر يرى أَلَّا بعث ولا نشور ولا جزاء ولا حساب؛ ولذا فحساباته تنتهي عند آخر لحظة في الدنيا.

والإيمان بالبعث والنشور والحساب يحمل الإنسان على مراعاة حقوق الخلق، ولذا قرن هنا التكذيب بدعِّ اليتيم، وترك الحض على طعام المسكين.

فأعظم ضمانة لحفظ حقوق الناس وعدم ظلمهم والإحسان إليهم هي الإيمان بالدار الآخرة؛ فالمؤمن يتعب في جمع المال ثم يُخرج منه حقه: ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ﴾ [المعارج: 24- 25]؛ لأنه يرجو الثواب في الآخرة، ولو لم يجد أثره وثمرته في الدنيا.

والتكذيب في القلب، والسورة تكشف عن العلامات الظاهرة في الأحوال والأخلاق والمعاملات التي تطبع أولئك المكذِّبين.

وقال بعض المفسرين: إن الفاء في قوله: ﴿مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ﴾، واقعة في جواب شرط محذوف، وكأن التقدير: إن كنت تريد أن تعرفه، فهو

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة المعارج»: ﴿ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا﴾، و«سورة الانفطار»: ﴿أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ ۝٢٢﴾، و«سورة المطففين»: ﴿يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ بِهَا﴾.

﴿فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ﴾، فتركيز السورة ليس على التكذيب بيوم الدين، مع أنه أعظم الفجور والكفر؛ بل على ذكر أخلاق اجتماعية فاسدة منحرفة، وتعليلها بأنها لا تصدر إلا من أقوام خلت قلوبهم من الإيمان.

وهل كان أولئك الطغاة المتجاهلون للحقوق الإنسانية مكذِّبين أم كانوا جاحدين؟

يحتمل أن أحدهم يكذِّب بلسانه، ولا يقيم للدين وزنًا في حياته، كشأن غالب البشر اليوم الذين لا يقيمون للدين وزنًا، ولكنهم يجرون على ألسنتهم كلمات التكذيب أو الشك أو اللامبالاة.

**والكفار أنواع**، والله تعالى وصف كل نوع منهم بصفته، **فمن الكفار مَن لا يؤمن بيوم الدين**، ويكذِّب به ظاهرًا وباطنًا.

**ومنهم مَن يقر بقلبه ويجحد بلسانه**، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ٢٢ إِنۡ﴾[الأنعام: 33]، وكما في الآية الأخرى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ﴾[النمل: 14].

ومنهم مَن يقع عنده شك وتردُّد.

**ومنهم الغافل**، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣﴾ [يونس: 7]، فيكون غافلًا عن قضية الدِّين أصلًا، بانشغاله بهموم وظيفته وتأمين مستقبله.

❊ ﴿مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ رَأَىٰ﴾:

﴿٦﴾ فعل مضارع يدل على الاستمرار، حتى صار طبعًا يُعرف به.

**والمعنى**: يدفعه دفعًا عنيفًا[1]، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: 13]، أي: يُدفعون إليها بقوة وشدة، والمعنى: يدفع اليتيم بالضرب، ولا يرفق به، ولا يراعي إحساسه ويتمه، أو يدفعه عن حقه إذا جاء يطالب به؛ لأنه يراه ضعيفًا لا أحد يحامي عنه، وهذه غاية الخساسة والأَثَرة.

**واليتيم** هو: صغير السن الذي فقد أباه، وقد يستمر اليتم إلى حال استغنائه عن الناس[2]، ومن هنا جاء الوعيد على زجره وتعنيفه وقهره، وهو لأجل يتمه يتجرَّأ عليه كثير من الناس ويؤذونه ولا يبالون به؛ لأنه ليس له والد يدافع عنه.

* ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ رَبِّهِ﴾:

﴿۝٧﴾ فعل مضارع يدل على التكرار، وهذه الصفة ترك وليست فعلًا.

**والحضُّ** هو: الحث؛ لكنه بالضاد أقوى، فحرف الضاد أشد من الثاء، واختيار الحرف في القرآن الكريم له دلالة وله معنى[3].

ويشبه سياق الآيتين هنا ما جاء في «سورة الفجر» في قوله تعالى: ﴿رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ۝١٨ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ يُوحَىٰ﴾.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 659)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 626)، و«تفسير الماوردي» (6/ 351)، و«الكشاف» (4/ 804)، و«تفسير القرطبي» (20/ 211).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص314- 315) «د ع»، و«إعراب القرآن» لِقِوَام السُّنَّة (ص555).

(2) ينظر ما تقدم في «سورة الفجر»: ﴿رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ۝١٨ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩﴾.

(3) ينظر: «تفسير القرطبي» (20/ 53)، و«فتح القدير» (5/ 534)، و«التحرير والتنوير» (30/ 566).

والكلام ليس عن شخص بعينه، وإنما عن فئة من الناس، فهذا لا يحض هذا، وهذا لا يحض هذا، فمن ذلك يتولَّد أنهم لا يتحاضون على طعام المسكين، فهو لا يحض نفسه ولا يحض غيره.

وقد يكون السياق يتعلق بإنسان غير واجد، ليس عنده ما يقدِّمه من مال أو طعام، ولكن قادر على أن يحض غيره على ما عجز هو عنه، كما قال المُتَنَـبِّي[1]:

لا خيلَ عندَكَ تُهديها ولا مالُ *** فليُسعِدُ النطقُ إن لم تُسْعِدِ الحالُ

ويسوِّغ أن يلام الإنسان إذا لم يكن بالذي يُطعم، ولا هو بالذي يَحُضُّ على الإطعام، وهذا تقبيح لحال الذي لا يحض، فما بالك إن كان عنده مال، ولا يحض نفسه على إطعام المحتاج؟

والشريعة والحكمة تستحثُّ المكلَّف القادر أن يبذل ما يستطيع، إن كان ذا مال أخرج من ماله، وإلا كان في جهده وعطائه المعنوي وحثه للناس ومشاركتهم في الأعمال الطوعية الخيرية، ما يجعله باب خير وبر، فربما شارك بعقله وتخطيطه وابتكاره للبرامج والطرائق التي تضبط هذا العمل وتطوِّره.

فوصفهم تعالى أولًا بـ«التكذيب»، وهو أمر اعتقادي، ثم وصفهم بـ«دَعِّ اليتيم»، وهو أمر وجودي فعلي، وهو أنهم يضربون اليتيم ويدفعونه، ثم وصفهم بأمر تركي أو منعي، وهو أنهم «لا يحضُّون على طعام المسكين»، فهذه الصفة ليست موجودة فيهم، وكان يجب أن تكون فيهم.

والإنسان قد يندفع إلى الإحسان للخلق بسبب فطري جِبلِّي يعود إلى طبيعته وسجيته الكريمة، والمؤمن يُثاب على فعل الإحسان حتى لو لم تحضره نية؛ تحفيزًا للناس إلى المبادرة للخير وعدم التردد.

---

(1) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص486)، و«شرحه» المنسوب إلى أبي البقاء العكبري (3/ 276).

وقد يفعل المعروف احتسابًا يرجو به خير الله تعالى وبره في الدنيا والآخرة، فهو يعرف أن مَن أحسن إلى الناس أحسن اللهُ إليه، فيبادر ببر الوالدين، وصلة الرحم، وطلب ثواب الآخرة ظاهر[1].

وهل طلب خير الدنيا من سعة الرزق والنَّسَأ في الأثر والصحة، مما يعكِّر على حسن النية، أو يُعَدُّ من إرادة الإنسان بعمله الدنيا؟

كلا، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال: «**مَن أحبَّ أن يُبسطَ له في رزقه ويُنسأَ له في أَثَرِه، فليَصِلْ رحمه**»[2]. من باب حث الناس على أن يصلوا أرحامهم؛ لأنهم يرغبون في طول العمر، وفي سعة الرزق، وهذا ليس بمذموم في حد ذاته، وإنما هو من عاجل البشرى.

وكذلك الحياة الطيبة الموعودة لـمَن عمل الصالحات، والسعادة والسكينة، وسائر ما ورد في الكتاب والسنة من عاجل الثواب.

وأفضل الناس حالًا مَن توفَّر عنده الدافع الفطري والشرعي، فهو كالأرض الطيبة التي نزل عليها المطر فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بَهِيج؛ لأن الدافع الفطري يحمله على هذا، فصار من طبعه لا يحتاج فيه إلى تكلُّف، فجاءت الشريعة وزكَّتْ نفسَه وكمَّلتها.

وأسوأ الناس حالًا «المُفْلِس» من الدافعين، فلا فطرة سليمة تدفعه إلى الخير، ولا رغبة في الآخرة!

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة الملك»: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ﴾، و«سورة الإنسان»: ﴿﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا﴾.

(2) أخرجه البخاري (5986)، ومسلم (2557) من حديث أنس رضي الله عنه.

و﴿مِسۡكِينٗا﴾ هو: المحتاج الذي لا يجد ما يكفي نفقته ونفقة مَن يعول، ويدخل فيه الفقير، وقد يكون اليتيم مسكينًا، وقد لا يكون كذلك، وكذلك المسكين قد يكون يتيمًا وقد يكون كبيرًا.

وهذه الآيات الثلاث دعوة إلى مراعاة الجانب الاجتماعي، وهو من أعظم مقاصد الشريعة، ومن العلامات الفارقة بين المؤمنين والمكذبين.

إن من الخطأ الكبير الانهماك في جانب من الشريعة أو الدين، والغفلة عن جوانب أخرى، مثل هذا الجانب الذي تعتني به هذه السورة، وهو الجانب الاجتماعي الخيري، وما يسمى بـ«النفع العام»، يفعله أفراد أو مؤسسات وجمعيات، فهذا الخير بسببه تُحفظ المجتمعات، ويدرأ سبحانه عنها الفتن والشر والبلاء بما تقدِّمه من النفع والخير والإحسان.

ومن العجب أن أكثر المسلمين الذين يردِّدون هذه الآيات في صلواتهم وحلقات درسهم ويلقِّنونها صبيانهم، من أبعد الناس عن تحقيق دلالتها، وليس بالأمر النادر أن نجد مجتمعات نفطية واسعة الثراء، ومدنًا ومباني شاهقات وسيارات فخمة غالية الأثمان، وبالقرب منها أحياء شعبية تدخلها فتجد فيها ألوانًا من الفقر وشَظَف العيش، وتنتشر فيها الجرائم والمخدرات والسرقات، وكل ذلك بسبب الفقر الذي كاد أن يكون كُفْرًا[1]، ويُروى عن علي رضي الله عنه: «لو كان الفقر رجلًا لقتلته».

والعجب أن هذه الآيات نزلت في مكة، وأغلب الناس يومئذ كانوا كفارًا، ولم يكن آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم إلا قليل، ولم يكونوا يجدون المال، وكأنما نزلت السورة لتهيئ نفوسهم للبذل، وترسِّخ الربط بين الإيمان وبين نداوة اليد للفقير والمسكين.

---

(1) وهذا رُوي مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «السلسلة الضعيفة» (4080).

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**بينما رجلٌ يمشي بطريق، اشتدَّ عليه العطشُ، فوجد بئرًا، فنزلَ فيها، فشربَ ثم خرجَ، فإذا كلبٌ يلهثُ، يأكلُ الثَّرَى من العطش، فقال الرجلُ: لقد بلغَ هذا الكلبَ من العطش مثلُ الذي كان بلغَ مني. فنزلَ البئرَ فملأ خفَّه ماءً، ثم أمسكه بفِيهِ حتى رَقِيَ، فسقى الكلبَ، فشكرَ اللهُ له، فغَفرَ له**». قالوا: يا رسولَ الله، وإن لنا في هذه البهائم لأجرًا؟ فقال: «**في كلِّ كبد رَطْبة أجرٌ**»[1].

وفي حديثه الآخر: «**بينما كلبٌ يُطيفُ برَكيَّة**[2]**، قد كاد يقتله العطشُ، إذ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل، فنزعت مُوقَها**[3]**، فاستقت له به، فسقته إياه، فغُفر لها به**»[4].

بعض الأخيار يقول: أُحسن لهذا الكافر من أجل أن يُسلم. وهذا حسن، وهو من تأليف القلوب، الذي هو أحد مخارج الزكاة.

**والمؤلفة قلوبهم أربعة أنواع**[5]**:**

1- الكافر الذي يُرجى إسلامه.

2- الكافر الذي يُرجى إسلام قبيله أو نظيره أو قريبه.

3- المسلم الجديد الذي يُرجى بإعطائه الزكاة أن يحسن إسلامه.

4- الكافر الذي يُرجى أن يدفع شره، أو يكون سببًا في دفع شر غيره عن المسلمين.

---

(1) أخرجه البخاري (6009)، ومسلم (2244).

(2) أي: يدور حول بئر.

(3) المُوق: الخف.

(4) أخرجه البخاري (3467)، ومسلم (2245).

(5) ينظر: «فقه العبادة» للمؤلِّف (3/ 282- 286).

ولا يدخل في عداد هؤلاء: المحارب؛ لإظهاره العداوة للإسلام.

ولكن الكرم والجود والبذل لا يحسن أن يكون محصورًا في هذا، بل ينبغي أن يكون طبعًا وجِبلَّة، تفيض حتى على مَن لا ترجو من وراء عطائه نفعًا عاجلًا؛ ولذا شُرع الإحسان إلى البهائم والطيور، وجاء النص النبوي عامًّا في حصول الأجر في كل كبد رَطْبة.

* ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ وَلَهُۥ﴾:

**ثَمَّ ترابط بين الآيات من وجوه:**

1- لما ذكر في أول السورة تقصير أولئك في حق المخلوقين من الأيتام والمساكين، انتقل إلى تقصيرهم في حق الخالق، وهو أنهم لا يصلون، أو يصلون رياءً، ويمنعون الماعون.

2- أن الله تعالى أراد توكيد المعنى، والربط بين الإيمان والإحسان، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والمصلون وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾، ثم ساق أوصاف المصلِّين، ومنها: ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ﴾ [المعارج: 19- 25].

فهؤلاء هم المصلُّون حقيقةً، فكأنه قال هنا: إن صلاة هؤلاء لم تنفعهم؛ لأنها صلاة رياء وسُمعة للناس لا لله.

3- قد تكون الآيات الأخيرة نزلت بشأن أقوام معينين في المدينة على ما ذكرنا، وكأن الآيات الأولى تدل على أن عدم الإيمان بيوم الدين هو سبب إيذاء اليتامى والمساكين وغيرهم، فكأن قائلًا يقول: في المدينة أناس يصلون في المساجد، ولا يطعمون المساكين، ولا يحسنون إليهم، فجاء النص ليقول: «ويل لهم»؛ لأنهم ليسوا مصلِّين؛ فهم: ﴿﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾، وكان يجب أن تكون صلاتهم لله، فحرَّفوها

وبدَّلوها وجعلوها للناس، كما قال الله في شأن المنافقين: ﴿ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا﴾ [النساء: 142].

4- التناسب في الانتقال من المفرد إلى الجمع في خطاب السورة، حيث بدأ بـ﴿فَٱسۡتَوَىٰ ٱلۡقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾، وانتهى بـ﴿مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

والذي يظهر أن سر الانتقال إلى الجمع، أن المراد في بداية السورة جنس المكذِّبين، وليس فردًا بعينه، والإفراد في أول السورة مناسب؛ لأن الآية تتحدَّث عن شخص يفجر ويعتدي ويبخس الناس أشياءهم وهو منفرد، وليس أمام الناس؛ هو الذي يعبِّر عن حقيقة أخلاقه إذا خلا من مراعاة الآخرين.

ثم انتقل إلى طبيعته وأمثاله حين يكونون في الملأ والناس، فيتظاهرون بما ليس من شأنهم!

قال كثير من القراء: لا يقف القارئ عند قوله: ﴿قَابَ﴾ مع أنه رأس آية، ومنهم مَن قال: إن وقف عندها أعادها وقرن معها ما بعدها[1].

* ﴿أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ ﴿١٩﴾﴾:

**السهو**: الغفلة والنسيان[2]، وقال هنا: ﴿﴿٩﴾ فَأَوۡحَىٰٓ﴾، ولم يقل: «في صلاتهم»، وبينهما فرق كبير؛ **فالسهو في الصلاة**، هو ما يقع فيها من شرود ذهني أو خطأ، يجبره سجود السهو، أما **السهو عن الصلاة**، فهو تأخير الصلاة عن وقتها، أو تعمُّد ترك بعض الفرائض أو كلها من أجل شواغل الدنيا، أو لقلة الاهتمام، أو لعدم الاعتياد.

---

(1) ينظر: «المكتفى في الوقف والابتدا» (ص15)، و«الكشاف» (4/ 80)، و«التمهيد في علم التجويد» (ص175)، و«النشر في القراءات العشر» (1/ 229- 230)، و«الإتقان» (1/ 292)، و«هداية القاري إلى تجويد كلام الباري» (ص388).

(2) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (20/ 433)، و«تفسير البغوي» (4/ 281)، و«زاد المسير» (4/ 168)، و«فتح القدير» (5/ 100).

وقال قتادة: «لا يبالي أصلَّى، أم لم يصلِّ!»[1].

وقال الشيخ محمد عبده: «فأولئك الذين يصلُّون ولا يأتون من الأعمال إلا ما يُرى للناس، مما لا يكلِّفهم بذل شيء من مالهم، ولا يخشون منه ضررًا يلحق بأبدانهم، أو نقصًا يلم بجاههم، ثم يمنعون ماعونهم، ولا ينهضون بباعث الرحمة إلى سد حاجة المعوزين، وتوفير ما يكفل لهم راحتهم، وأمنهم وطمأنينتهم؛ فهؤلاء لا تنفعهم صلاتهم، ولا تخرجهم عن حد المكذِّبين بالدين، ولا فرق بين مَن وسموا أنفسهم بسمة الإسلام أو غيره، فإن حكم الله واحد، لا محاباة فيه للأسماء المنتحلة... إلخ»[2].

وفي كلامه رحمه الله شدة وغلظة ومبالغة مفرطة، وقد وجدتُ له نظيرًا في كتبه، ففي أكثر من موضع يأتي في «تفسيره» بعبارات شديدة في حق العصاة والمخالفين، ومثل هذا الكلام موجود في كتابات بعض الدُّعاة، كالأستاذ سيد قطب، وبعض الناس يظنون أن هذا يدل على تكفيرهم للناس، وفي نظري أن هذه ليست أحكامًا، بل مواعظ يقصد بها الزجر والتحذير والتأثير.

ويُعرف من سير هؤلاء المصلحين أنهم لم يكونوا يكفِّرون المسلمين، بل يمقتون ما هم عليه من التناقض بين الدين الذي ينتسبون إليه، وما يقتضي منهم من مكارم الأخلاق؛ وبين واقعهم الرديء.

* ﴿مَآ أَوۡحَىٰ ١٠ ٢٠﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 463)، و«تفسير الطبري» (24/ 659- 662)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 305)، و«تفسير البغوي» (5/ 312)، و«زاد المسير» (4/ 495- 496)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 493)، و«التحرير والتنوير» (30/ 567).

(2) ينظر: «تفسير المراغي» (30/ 250).

قال بعض المفسرين، كالزمخشري: «إن الرياء لا يكون في صلاة الفريضة، وإنما يكون في النافلة»[1].

وهذا غير مسلَّم، وظاهر الآية يدل على أن رياءهم في صلاة الفريضة، ولعلهم منافقون لم يكونوا ينوون الصلاة أصلًا.

**والضابط الذي يميِّز الرياء عن غيره**: أن المكلَّف إذا كان سيقوم بالعمل، سواء وُجد الناس أم لم يوجدوا، فهو مخلص، ولو طرأ عليه رياء؛ لأن النية استقلت بإحداث العمل، أما إذا كان لن يعمل العمل ما دام الناس غير موجودين، فهذا يدل أنه فعله رياءً ولا يعتدُّ به.

وعلى المصلِّي أن يحذر من الوسوسة والمبالغة والتنطّع، وأن يقطع نظره عن الناس لا تركًا من أجلهم، ولا فعلًا من أجلهم، وكما قال البعض: «لا تتركها حياءً، ولا تفعلها رياءً».

وبعض طلبة العلم يعانون في هذا الباب، ويفتقدون الاعتدال في مراعاة الناس، وهذا يحتاج إلى تربية عظيمة، في كيفية التعامل مع الناس، حتى لا يبالغ في الاهتمام بهم والعمل من أجلهم، ولا يبالغ في إقصائهم خشية الرِّياء ﴿مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْأَخِرَةُ ﴾ [الفرقان: 67].

وفي الحديث: «**مَن سمَّعَ سمَّعَ اللهُ به، ومَن راءى راءى اللهُ به**»[2].

فالرِّياء يكون بالعمل الذي يراه الناس، مثل: الرِّياء في الصلاة، والتسميع يكون بالقول، مثل: قراءة القرآن أو الذكر أو الكلام الذي يسمعه الناس.

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (2/ 264)، (6/ 395)، و«الكشاف» (4/ 805)، و«المحرر الوجيز» (1/ 365)، و«تفسير القرطبي» (3/ 332)، (20/ 213).

(2) أخرجه البخاري» (6499) من حديث جُندب بن عبد الله رضي الله عنه.

وأخرجه مسلم (2986) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أو السُّمعة لقصد الشهرة، وقد يصلِّي الإنسان رِياءً وسُمعة، من أجل أن يراه الناس، ولتكون سمعته عند الناس حسنة؛ وليكون كلام الناس فيه حسنًا.

* ﴿كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ وَلَهُ﴾:

**قيل: الماعون** هو: الزكاة، كما ذكره جماعة من الصحابة والسلف والأئمة[1].

**وقيل**: الماعون المنتفع به في البيوت، مثل القِدْر والفأس والدلو والإبرة والغربال، وكل ما يحتاجه الناس ويتعارفون على إعارته واستعارته[2].

ولهذا قال العلماء: من الفضل أن يستكثر الإنسان في منزله مما يحتاجه الجيران، ومثله: طالب العلم يأخذ معه الممحاة والمبراة وقلم الرصاص والحبر، وإن لم يكن يحتاج هذا كله، لكن لينتفع به الآخرون.

وهؤلاء الذين توعَّدهم الله جعلوا ما لله مقصودًا به الناس، ولهذا جاءهم الوعيد المذكور، والوعيد ينبغي أن يكون على مجمل الخصال، يعني: لـمَن وُجدت فيه كلها، وفيه مع ذلك تنفير من أفراد هذه الخصال.

وسياق الآيات يبعث في المؤمن الرغبة في عمل الخير، والحرص على أَلَّا يقع في واحدة من الصفات المرذولة التي حذَّر الله تعالى منها، وذكر أنها مَن صفات مَن يكذِّب بيوم الدين، والله أعلم.



(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص754)، و«تفسير مقاتل» (4/ 871)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 463- 464)، و«تفسير الطبري» (24/ 667- 668)، و«تفسير السمعاني» (6/ 289)، و«روح المعاني» (15/ 475)، و«التحرير والتنوير» (30/ 568).

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 538)، و«زاد المسير» (4/ 496)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 496)، و«فتح القدير» (5/ 612)، والمصادر السابقة.

## سورة الكوثر

*** تسمية السورة:**

الأشهر تسميتها: «**سورة الكوثر**»[1].

وتسمى: «**سورة النَّحْر**»[2].

وسماها البخاري وغيره: «**سورة ﴿رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾**»[3].

*** عدد آياتها:** ثلاث آيات بلا خلاف[4]، وهي إحدى أقصر ثلاث سور في كتاب الله تعالى مع «العصر»، و«النصر».

*** وهي مكية،** على قول جمهور المفسرين، وهذا ظاهر سياقها، وجوُّها قريب من جو «سورة العلق» في قوله سبحانه: ﴿ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ أَنتُمْ﴾، وفيها الوعيد والتهديد للكافرين المعاندين للرسول صلى الله عليه وسلم، مما يدل على أنها مكية[5].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص756)، و«تفسير مقاتل» (4/ 873)، و«جامع الترمذي» (5/ 306)، و«سنن النسائي الكبرى» (10/ 345)، و«تفسير الطبري» (24/ 679)، و«المستدرك» (2/ 537)، و«تفسير القرطبي» (20/ 216)، و«التحرير والتنوير» (30/ 571).

(2) ينظر: «السراج المنير» للخطيب الشربيني (4/ 595)، و«روح المعاني» (15/ 478)، و«التحرير والتنوير» (30/ 571).

(3) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 466)، و«صحيح البخاري» (6/ 178)، و«التحرير والتنوير» (30/ 571).

(4) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص292).

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 679)، و«تفسير البغوي» (5/ 313)، و«تفسير القرطبي» (20/ 216)، و«روح المعاني» (15/ 478)، و«التحرير والتنوير» (30/ 571).

لكن يُشكل على هذا حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم استيقظ وهو يضحك، فقال: «**أُنْزِلت عليَّ آنفًا سورةٌ**». فقرأ: «﴿رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ﴾». ثم قال صلى الله عليه وسلم: «**أتدرونَ ما الكوثر؟!**». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنه نهرٌ وعدَنيه ربي عز وجل...**»[1].

والحديث يدل على أن السورة مدنية- وهو قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة[2]- لأن الراوي أنس بن مالك رضي الله عنه من الأنصار، فإن قيل بتعدُّد النزول فلا إشكال، وإلا فيحتمل أن يكون قوله: «**أُنزلت عليَّ آنفًا**». رواه الراوي بالمعنى، والمقصود أنها أنزلت فيما مضى.

**أو يكون المقصود**: أنه أُنزل عليه تفسير الكوثر، وأنه نهر في الجنة وعده الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، وبهذا يزول الإشكال، وتبقى السورة مكية، والحديث صحيح، وهو في بيان معنى الكوثر.

وموضوع السورة قريب من موضوع «سورة الضحى»، و«سورة الشرح»، و«سورة القدر»، وهو تسلية النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي «سورة الماعون» التي قبلها، توعَّد الله الساهين عن الصلاة بالويل، وفي هذه السورة أوصى نبيه صلى الله عليه وسلم بنقيض ذلك، فأوصاه بالصلاة بقوله: ﴿مَا﴾، وأوصاه بالإخلاص وعدم الرياء في قوله: ﴿يَرَىٰ﴾، فالمعنى: صلِّ لربك مريدًا بعملك وجهه تعالى.

---

(1) أخرجه مسلم (400).

(2) ينظر: «زاد المسير» (4/ 497)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 498)، والمصادر السابقة.

وفي مقابل ﴿كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ قال هنا: ﴿(١٢)﴾؛ لأن النحر يكون لله تعالى، مقصودًا فيه إطعام الفقراء والمساكين من المنحور من بهيمة الأنعام، ففي السورة أمر بما يضاد المذموم في السورة التي قبلها.

* وأول السورة الكريمة هذا الضمير العظيم: ﴿رَأَىٰٓ (١١) أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ﴾:

وهذا جاء في سور أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا﴾ [القدر: 1]، والبداءة بهذا الضمير لها دلالة عريقة عميقة.

ابتدئت بلفظ التعظيم والتفخيم والتأكيد: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، وهي تكون للجمع أو للواحد المعظَّم، وهي خطاب مباشر من الله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم، وفيه تعزير وتعظيم للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن عظمة العطية يُنظر إليها من جهة مقام المعطِي العظيم، ولذا يقال: الهدية على قدر مُهْدِيها.

إن كون هذه العطية من الله تعالى مالك الملك لنبيه، هو تشريف لقدره صلى الله عليه وسلم.

ومن هنا حوت هذه الآية على قصرها بيان عظمة الـمُعْطِي سبحانه وتعالى، وعظمة العطية أو الهبة، وعظم مقام الموهوب له، فبدأ بالضمير العائد إليه تعالى، ثم ثنَّى بضمير خطاب النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ثلَّث بالعطية وهي الكوثر.

والغالب في القرآن أن ضمير «نا» يأتي في مقام المنة والمنحة، أو في مقام الأخذ والعذاب، أو في الموضع الذي يكون للملائكة فيه عمل أُوكل إليهم كالحفظ والإنزال ونحوها.

وتأمل كيف قال: ﴿(١١)﴾، ولم يقل: ﴿ضِيزَىٰٓ﴾، مع أنه جاء لفظ ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ في قوله سبحانه: ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ (٢٢) إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ [الحجر: 87]، **فما هو الفرق بين اللفظين؟**

﴿١١﴾ تدل على الملكية والخصوصية، وأما ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ فقد لا تكون في شيء خاص، فمثلًا: إنزال المثاني والقرآن ليس شيئًا خاصًّا بالرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن واجب عليه بيانها للناس، بخلاف الكوثر ففيه خصوصية.

واختيار لفظ: ﴿١١﴾ دليل على أن هذه العطية لا يُرجع فيها، والله تعالى أكرم من أن يعود في عطيته، بخلاف الإيتاء؛ فقد يرجع فيه لحكمة، أليس الله تعالى يقول: ﴿١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ﴾ [آل عمران: 26]. فقال: ﴿يَرَىٰ﴾، ولم يقل: «تعطي»، ثم قال: ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، وتأمل لفظ: «تنزع»، فإنه يدل على الأخذ بشدة، وكأن المنزوع منه متمسك به، ولا يتركه ما استطاع، لكنه يُنْزع منه بالقوة؛ ولهذا جاء في سنة النبي صلى الله عليه وسلم النهي عن الرجوع في العطية والهبة[1].

وتأمل أن الفعل هنا جاء بصيغة الماضي «أعطى»؛ ليدل على أن العطية قد حصلت وتحقَّقت، ولهذا فرح بها النبي صلى الله عليه وسلم وسُرَّ؛ فهي عطية منجزة.

ويُروى عن أحد السلف أنه قال: «لا يتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجيله، وتصغيره، وستره»[2].

وستره بأَلَّا تذكره للناس، لكن إعلانه هنا من أحسن ما يكون؛ لأن السورة ذاتها نعمة جديدة، وإعلان العطية هو عز الدنيا والآخرة للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (2621)، و«صحيح مسلم» (1622).

(2) ينظر: «اصطناع المعروف» لابن أبي الدنيا (22)، و«المجالسة» (3/ 71) (685)، و«حلية الأولياء» (3/ 198)، و«شعب الإيمان» (10422)، و«سير أعلام النبلاء» (6/ 263).

إن إعلان العطية في سورة تُتلى إلى ما شاء الله تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن فيها رفعًا لقدره ومقامه عند الملائكة وعند عباد الله الصالحين.

وفيها رفع لمقامه صلى الله عليه وسلم في مقابل أولئك الذين ينتقصونه أو يسبونه من المشركين.

فإذا كان الله تعالى أعطاه هذه العطية العظيمة، فماذا يضيره أن يحط من مقامه أو ينال من عرضه مَن لا وزن لهم؟!

**وثمة لفتة أخرى مهمة:** وهي أن الله تعالى بدأ بالعطية، ثم أمره بالصلاة، **فهل العطية فضل ابتدائي، أو هي جزاء على فعلٍ فعله الرسول** صلى الله عليه وسلم؟

**الجواب:** بل هي فضل ابتدائي، فمن نعمة الله أن أعطاه الكوثر، وقد اصطفاه لهذا الفضل، ثم أمره بالصلاة والنحر على سبيل الشكر.

**وكَوْثَر**: على وزن: «فوعل»، مثل: كَوْكَب، وزَوْرَق، وجَوْهَر، ودَوْسَر، وهي أسماء جامدة، تدل على الكثرة في الشيء، فدَوْسَر، أي: كثرة في القوة والضخامة[1].

**والكوثر** هو: الخير الكثير المفرط في الكثرة، بما لا مزيد عليه. وهذا أعم ما قاله المفسرون، ويدخل فيه كل ما قيل.

وقد قيل فيه أكثر من خمسة عشر قولًا[2]، وصحَّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «الكوثر: الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه». فقيل لسعيد بن جُبير: إن أناسًا يزعمون أنه نهر في الجنة؟ فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه[3].

---

(1) ينظر: «تهذيب اللغة» (12/ 249)، و«اللسان» (4/ 285)، و«تاج العروس» (11/ 292).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 679)، و«تفسير الماوردي» (6/ 354)، و«زاد المسير» (4/ 497)، و«تفسير القرطبي» (20/ 216)، و«روح المعاني» (15/ 478).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (6578).

ويظهر أن الذين عبَّروا بأن الكوثر نهر في الجنة قصدوا التفسير بالمثال.

**ومن معاني الكوثر**: كثرة أولاد النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا نقيض ما قاله المشركون: إنه أبتر، **والأبتر** هو: مَن لا ولد له، أو لا يعيش أولاده الذكور[1].

وهذا من نذالتهم؛ لأنهم يلمزونه بما لا يد له فيه، وإنما هو شيء جرى به القدر، لا مجال للتعيير والشماتة بالموت، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم بما جُبل عليه من الـخُلُق العظيم يشمت بموت أعدائه أو موت أقاربهم، بل قال صلى الله عليه وسلم في شأن فرعون هذه الأمة أبي جهل: «**لا تسبُّوا الأمواتَ؛ فتؤذوا الأحياءَ**»[2]. وقال: «**لا تسبُّوا الأمواتَ؛ فإنهم قد أَفْضَوْا إلى ما قدَّموا**»[3].

**فإن قال قائل:** قد مات أولاده صلى الله عليه وسلم في حياته، فمن أين تندفع هذه الشماتة به صلى الله عليه وسلم بأنه أبتر؟

**الجواب:** إن ذرية النبي صلى الله عليه وسلم من السادة الأشراف الذين نسلوا من بناته، كثيرون في الحجاز واليمن وبلاد العرب والهند وسائر أصقاع الأرض، حفظوا أنسابهم وتناسلوا وتكاثروا، في حين لو أردت أن تبحث في ذرية الذين كانوا يعيِّرون النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أبتر، فلن تجد واحدًا ينتسب إليهم، ولا يمكن أن تجد واحدًا يقول: هذا من ذرية أبي لهب مثلًا؛ لأنهم قد اندرسوا واندثروا، وهم الذين كانوا يعيرونه بأنه أبتر ويفخرون بكثرة أبنائهم ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ﴾ [المدثر: 11- 13].

---

(1) ينظر: «فتح القدير» (5/ 615)، و«التحرير والتنوير» (30/ 576)، والمصادر السابقة.

(2) تقدم تخريجه في أول «سورة الهمزة».

(3) أخرجه البخاري (1393) من حديث عائشة رضي الله عنها.

**ومن معاني الكوثر**: كثرة علماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله تعالى حفظ هذه الأمة بالعلماء، فهم ورثة الأنبياء، وقد وعد نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يجعل في أمته من أهل العلم والحكمة مَن يحفظ الله تعالى بهم الأمة.

**ومن معاني الكوثر**: كثرة أتباع النبي صلى الله عليه وسلم، وما أكثرهم الآن، على رغم الصعاب التي تواجه الدعوة، ورغم حرب الاستئصال في غير ما مكان، حتى إنك لو رأيت أفواج الحجيج والعمار كالسَّيل المندفع في طرقات مكة وبين المشاعر، لأدركت جانبًا من هذه البشارة، ولو رآهم النبي صلى الله عليه وسلم لسُرَّ، ولو رآهم المشركون لعلموا أن وعد الله حق**!**

**ويشمل الكوثر**: الخير المعنوي، مثل: أن الله تعالى أعطاه النبوة، وهي خير كثير، وآتاه الإسلام، والقرآن، ورفعة الذكر، كما قيل[1]:

أغَرُّ عليه للنبوةِ خاتَمٌ *** من الله من نورٍ يلوحُ ويشهدُ
وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيِّ إلى اسمِه *** إذا قالَ في الخمسِ المؤذنُ: أشهدُ
وشقَّ له من اسمه ليجلَّه *** فذو العرشِ محمودٌ وهذا محمدُ

وبالمناسبة، فإن أكثر اسم ظهر في العالم كله هو اسم نبينا صلى الله عليه وسلم، وهذا من رفعة الذكر له، ولا يكاد أحد اليوم في العالم إلا يعرفه، سواءً كان مؤمنًا به أو كافرًا.

**ومن الكوثر**: فضائل النبي صلى الله عليه وسلم المحفوظة، وما أطلعه الله عليه من العلم والحكمة.

(1) ينظر: «ديوان حسان بن ثابت» (1/ 306).

وقد كان هذا الخطاب له وهو في مكة مستضعف محارَب، فهي معجزة باقية أبد الدهر، وهي بشارة وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وبشارة لأمته في عصره ومن بعده؛ لأن الله تعالى وعدهم بالخير الكثير في الدنيا والآخرة.

أما الخير الكثير في الدنيا، فكما ذكرنا، وأما خير الآخرة، فمنه النهر الذي وعد الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم في الجنة، وقد جاء في الأحاديث ذكر آنيته ولونه وحوافه وغير ذلك من صفاته[1].

ومنه الشفاعة، ومنه الوسيلة، ومنه ما يعلم الله له من الفضيلة.

وقد علم سبحانه أنه سوف تمر بالأمة أزمات ومحن، ففي مكة كان الإسلام محاصَرًا، ولما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كانت الهجرة انفتاحًا وسَعة، ومع ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لهم يومًا: «**أَحْصُوا لي كم يلفظُ الإسلامَ**». فقلنا: يا رسولَ الله، أتخافُ علينا ونحن ما بين الستمئة إلى السبعمئة؟ قال صلى الله عليه وسلم: «**إنكم لا تدرونَ لعلكم أن تُبتلوا**». قال حذيفةُ رضي الله عنه: فابتُلينا، حتى جعل الرجلُ منا لا يصلِّي إلا سرًّا[2].

وفي غزوة الأحزاب زُلزلوا زلزالًا عظيمًا، وكانت عاقبته الفرج والعز، حتى قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**اليومَ نغزوهم ولا يغزوننا**»[3]. نحن نسير إليهم، وهكذا كان.

ثم جاء موت النبي صلى الله عليه وسلم وارتدت قبائل العرب، ثم آمنوا ورجعوا.

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (4964- 4966، 6581)، و«صحيح مسلم» (400).

(2) أخرجه البخاري (3060)، ومسلم (149).

(3) أخرجه البخاري (4109، 4110) من حديث سليمان بن صُرَد رضي الله عنه.

ثم جاءت حوادث الخلاف بين المسلمين.

ثم غُزي أهل المدينة واستبيحت المدينة في عهد يزيد بن معاوية.

ثم جاءت أزمات ومحن، والإسلام يتجاوز العقبات التي تعترضه، والناس بحاجة إلى التطمين، وإذا فقدوا الطُّمأنينة وقعوا في يأس وإحباط وقنوط، واليائس لا يعمل شيئًا، وما لم يكن ثَمَّ أمل فلا عمل، كما قيل[1]:

أعلِّلُ النفسَ بالآمالِ أرقبُها *** ما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الأملِ

على المؤمن أن يكون واثقًا من ربه ومن انتصار دينه، ولا يلزم من هذه الثقة أن تدرك بذاتك نصر الله لدينه؛ فهذا ليس بلازم، فقد ينصر الله دينه بغيرك أو بعد موتك، والذي عليك أن تكون متفائلًا بأن الله تعالى سوف يأتي بالفرج، وكما قيل[2]:

اشتدِّي أزمةُ تنفرجي *** قد آذنَ ليلُك بالبَلَجِ

وكما قيل[3]:

ولرُبَّ نازلـةٍ يـضـيـقُ بها الفتى *** ذَرْعًا وعند الله منهـا المخـرجُ

ضاقت فلما استَحْكَمَتْ حَلَقاتها *** فُرِجت وكنتُ أظنُّها لا تفرجُ

وعلى المؤمن حين يواجه عسرة مادية أو مشكلة عائلية أو شخصية أو أزمة صحية، أن يملأ قلبه بالثقة بوعد الله، ويفوِّض الأمر إلى الله، فإن هذا يعطيه قوة ودفعة إلى الأمام، ويعينه على الانعتاق وتجديد الانطلاق.

* ﴿مَا يَرَىٰ ۝١٢ رَأَىٰ﴾:

---

(1) ينظر: «معجم الأدباء» (3/ 1112)، و«بغية الطلب في تاريخ حلب» (6/ 2693)، و«وفيات الأعيان» (2/ 187)، و«سير أعلام النبلاء» (19/ 454) منسوبًا إلى مؤيد الدين الطُّغْرائي.

(2) ينظر: «عنوان الدراية» لأبي العباس الغبريني (ص326)، و«تاريخ الإسلام» (35/ 360) منسوبًا إلى أبي الفضل يوسف بن محمد، المعروف بابن النحوي.

(3) ينظر: «ديوان الشافعي» (ص29).

الأمر بالصلاة تفريع على العطاء، أي: نحن أعطيناك فَصَلِّ، ففي هذا أن الله تعالى أمره بالشيء الذي كان المشركون ينهونه عنه، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ﴾ [العلق: 9- 10]، ولذلك قال في تلك السورة: ﴿ٱلْأَنفُسُ ۚ﴾ [العلق: 19].

والعادة أن النعم يأتي عقبها الأمر بالشكر، وهنا لم يقل: «فاشكر»؛ لأن الصلاة جامعة لكل معاني الشكر، **ويقول العلماء: إن الشكر يكون بثلاثة أشياء**[1]:

**بالقلب**، وذلك بأن يشعر قلبك بالامتنان، وتذكر المنة التي طوق الله بها عنقك في خلقك ورزقك وسمعك وبصرك.

**وباللِّسان**، بأن تلهج بالشكر بلسانك، كما قال الله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا﴾ [الضحى: 11].

**وبالجوارح**، وذلك بالعمل وحسن توظيف النعم.

يقول الشاعر[2]:

أفادتْكُم النَّعماءُ مني ثلاثةً: *** يدي ولساني والضميرَ المحجَّبا

والصلاة تتضمن ذلك كله، ولهذا جاء في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا صلَّى قام حتى تَفَطَّر رجلاه، فقالت عائشةُ رضي

(1) ينظر: «تنبيه الغافلين» للسمرقندي (ص448)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص461)، و«الذريعة إلى مكارم الشريعة» (ص198)، و«إحياء علوم الدين» (4/ 81)، و«تفسير الرازي» (5/ 191)، و«مختصر منهاج القاصدين» (ص277)، و«مجموع الفتاوى» (11/ 135)، و«عدة الصابرين» (ص149)، و«مدارج السالكين» (2/ 237).

(2) ينظر: «غريب الحديث» للخطابي (1/ 346)، و«الكشاف» (1/ 8)، و«ربيع الأبرار» (5/ 277).

الله عنها: يا رسولَ الله، أتصنعُ هذا وقد غُفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟! فقال: «**يا عائشةُ، أفلا أكونُ عبدًا شكورًا**»[1].

فالصلاة شكر، بل هي رأس الشكر، وهكذا تأسَّى النبي صلى الله عليه وسلم بإخوانه من المرسلين عليهم السلام، كنوح الذي وصفه ربه بأنه كان عبدًا شكورًا، وداود الذي أمره ربه أن يعمل شكرًا.

وهنا أتى باللام؛ واللام هي سر الإخلاص؛ لأن معناها: لا تصلِّ كما يصلِّي المشركون لآلهتهم، وإنما صلِّ لربك موحِّدًا له، ولا تكن مرائيًا، كأولئك الذين يراءون ويمنعون الماعون.

وهي صيغة قصر، يعني: أن تكون صلاتك مقصورة على ربك؛ بحيث لا تصلِّي إلا لربك.

ولم يقل: «فصلِّ لنا»، أو: «فصلِّ لله»، أو: «لي»، وإنما قال: ﴿**مَا يَرَىٰ**﴾؛ إشارة للاسم المناسب لموضوع الصلاة، وهو أن الصلاة عبودية، والعبودية اللائق فيها اسم «الرب» الذي يعبده الناس.

وفيه إيماء إلى رعاية الله تعالى وحفظه؛ لأنه «ربك» الذي رباك في الماضي، وتعاهدك، وأعطاك الكوثر.

والعادة في القرآن أن الصلاة لا تكاد تُذكر إلا مقرونة بالزكاة، وهنا تذكر الصلاة مقرونة بالنحر، **فلماذا عدل عن «الزكاة» واختار «النحر»**؟

**لعل ذلك**؛ لأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يكن يملك مالًا تجب فيه الزكاة، وكان إذا حصل على شيء ينفقه في الحال.

---

(1) أخرجه البخاري (1130)، ومسلم (2820). وينظر ما تقدم في «سورة المزمل»: ﴿٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾.

ولذا فإنك لا تقرأ في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أنه أخرج زكاة؛ لأنه لم يكن عنده مال يحول عليه الحول فيزكِّيه، وإنما كان يدخر لأهله قوت سنة[1]، ومثل هذا لا يزكَّى؛ لأنه قوتٌ من تمر أو شَعِير أو بُر، وأما النقد فكان يتصدَّق به فورًا، حتى إنه صلَّى العصر يومًا، ثم قام مسرعًا إلى بيته، فلما رجع سأله الناسُ، فقال: «**ذكرتُ شيئًا من تِبْرٍ عندنا، فكرهتُ أن يحبسني، فأمرتُ بِقسمته**»[2].

وقد أَهْدَى النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع مئة بدنة، نحر منها ثلاثًا وستين بيده، وأمر عليًّا رضي الله عنه فنحر ما بقي منها[3].

والنَّحر نوع خاص من الذبح، وهو للإبل، حيث تُنحر قائمة معقولة يدها اليسرى، تُطْعَنُ في لَبَّتِها[4] فتسقط، بخلاف الذبح؛ فإنه يكون للغنم والبقر.

والنحر يُطلق ويقصد به مطلق القُربان، ولذلك يُسمى يوم العيد: يوم النحر، مع أن من الناس مَن ينحر ومنهم مَن يذبح، وما يُذبح فيه من الغنم أكثر مما يُنحر من الإبل، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿١٢﴾ يشمل الأمرين معًا.

ومن أهل العلم مَن احتج بهذه الآية على وجوب الأُضحية، وهو قول الحنفية؛ لأن الله تعال أمر بها نبيه صلى الله عليه وسلم.

وذهب كثير من الفقهاء والمفسرين- وهو مروي عن الإمام مالك- إلى أن المقصود بالصلاة: صلاة عيد الأضحى، أي: فصل صلاة العيد ثم انحر، وهذا وجه

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (5357)، و«صحيح مسلم» (1757).

(2) أخرجه البخاري (851) من حديث عقبة بن الحارث رضي الله عنه. **والتِّبْر**: الذهب.

(3) ينظر: «مسند أحمد» (1374، 2359، 14549)، و«صحيح البخاري» (1718)، و«صحيح مسلم» (1218)، و«جامع الترمذي» (815)، و«سنن ابن ماجه» (3076).

(4) **اللَّبَّة**: وسط الصدر والمنحر. ينظر: «لسان العرب» (1/ 733)، و«تاج العروس» (4/ 189) «ل ب ب».

جيد، ولا يلزم قصر الآية عليه، فالآية دليل على مشروعية صلاة العيد، ومشروعية الأضاحي.

**والراجح** أنها لا تدل على وجوب صلاة العيد، ولا وجوب الأضحية، والوجوب يفتقر إلى دليل آخر، وغاية ما فيها الأمر بمطلق الصلاة ومطلق النحر(1).

كما استدلوا بهذه الآية على أن النحر يكون بعد الصلاة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه أَلَّا ينحروا إلا بعد صلاة العيد، ولما جاءه أبو بُردة بن نِيَار رضي الله عنه وأخبره أنه ذبح قبل الصلاة، قال له: «**شاتُك شاةُ لحم**». وأمره أن يذبح بدلها أخرى(2).

وقد خاطب اللهُ نبيَّه صلى الله عليه وسلم بهذه الآية، مع أنه كان هو وأصحابه في مكة فقراء جياعًا خائفين، وفيه تأكيد على أنه سيعطيهم من الخير العميم ما تتغير به أحوالهم من الضيق إلى السعة ومن الفقر إلى الغنى.

وفيه تأكيد على عز الدين وأهله، فما أمره أن يصلِّي لربه وينحر، إلا وقد تعهد له ولأصحابه أنه سوف يبدلهم من بعد خوفهم أمنًا، فيعبدونه، ويصلون وينحرون ولا يشركون به شيئًا.

* ﴿رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ رَبِّهِ﴾:

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 693- 696)، و«تفسير الرازي» (32/ 318)، و«فتح القدير» (5/ 614- 615)، و«روح المعاني» (15/ 481)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (15/ 412- 413)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (2/ 495- 497)، (4/ 371- 373).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (955)، و«صحيح مسلم» (1961).

**والشانئ**: المبغض[1]، كما قال الله: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ [المائدة: 8].

**والأَبْتر**: المقطوع[2]، يقال: بُتر العضو، أي: قُطع، **والبتراء** هي: الركعة الواحدة؛ لأنها مقطوعة عما بعدها، وهكذا هو الأَبْتر مَن لا يأتيه أولاد ذكور، أو مَن يموت أولاده الذكور[3].

ومن هنا جاء في بعض الروايات[4] أن بعض المشركين في مكة- **قيل**: أبو جهل، **وقيل**: العاص بن وائل السهمي، **وقيل**: عُتبة بن رَبيعة، **وقيل**: أبو لهب- كانوا يعيِّرون النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فرد سبحانه بأن مبغضك وقاليك وكارهك هو الأبتر، وليس أنت كما يدَّعي.

ومن شرف مقام النبي صلى الله عليه وسلم أن تولَّى الله عز وجل الدفاع عنه بما لم يكن النبي يعلمه، ولا يملك أن يقوله، وإذا كان هؤلاء يسبُّون النبي صلى الله عليه وسلم وينتقصونه؛ فماذا يضيره إذا كان ربه تبارك وتعالى هو الذي يسليه ويدافع عنه؟ وأبدل الله الحزن والألم الذي كانوا يسعون في تسبيبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن جعل هذا العطاء الجَزْلَ مسوقًا بمناسبة الكلام الذي قالوه، فجعل الله عاقبته خيرًا، ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ﴾ [النساء: 19].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 697)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 630)، و«تفسير الماوردي» (6/ 356)، و«المحرر الوجيز» (5/ 530)، و«زاد المسير» (4/ 498)، و«تفسير الرازي» (32/ 320)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 504)، و«التحرير والتنوير» (30/ 577).

(2) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (24/ 382)، و«تفسير القرطبي» (20/ 222)، و«التحرير والتنوير» (30/ 576)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «لسان العرب» (4/ 37)، و«تاج العروس» (10/ 97) «ب ت ر».

(4) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص245، 272)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (2/ 69).

وفي وصف العدو بالشانئ دليل على أنه لم يتحقق من كيدهم إلا بغض قلوبهم له؛ لأن الله تعالى يدافع عنه، وقد قيض أبا طالب في أول البعثة يدافع عنه، وكان يقول[1]:

والله لن يصِلوا إليك بجَمْعِهم *** حتى أُوسَّدَ في التراب دفِينَا

ثم لما مات أبو طالب قيَّض له في المدينة الأنصار والمهاجرين، ثم حمى الله سبحانه دينه، ونصره وأعلاه على الأديان الأخرى.

والمبغضون حالهم كما قال ابن حزم في بعض قصائده[2]:

قالوا: تحفَّظْ فإن الناسَ قد كثُرَتْ *** أَقْـوَالُهم، وأقاويلُ الوَرَى محَِنُ

فقلتُ: هل عيبُهم لي غيرَ أنِّيَ لا *** أقولُ بالرأي؛ إذ في رأيهم فِـتَـنُ

وأنَّني مُوْلَعٌ بالنصِّ لستُ إلى *** سواهُ أنحو ولا في نصرِه أَهِـنُ

دعهم يعضُّوا على صُمِّ الحَصَى كَمَدًا *** مَن ماتَ مـن قوله عندي له كفنُ

أخذ هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران: 119]، وهنا قال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، فليس له إلا مجرد البغض الذي يحمله في قلبه، ولذلك قالوا: «لله در الحسد؛ ما أعدله! بدأ بصاحبه فقتله».

وفي أعقاب أحداث سبتمبر قامت في الولايات المتحدة الأمريكية حملة ضارية على النبي صلى الله عليه وسلم:

فـ(جيري فالويل) له برنامج تلفزيوني، وستة ملايين أسرة تستقبل البرنامج وتتأثر به! وعنده جامعة أصولية، وله موقع على الإنترنت، يقول في قناة فوكس عن

---

(1) ينظر: «ديوان أبي طالب» (ص91)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (2/ 188)، و«ثمرات الأوراق» (2/ 4)، و«سبل الهدى والرشاد» (2/ 327).

(2) ينظر: «سير أعلام النبلاء» (18/ 212).

النبي صلى الله عليه وسلم: إنه إرهابي! ورجل عنف! ودموي! وإن كانوا قد نقلوا عنه أنه اعتذر بعد ذلك.

وكذلك (بات روبرتسون) له برنامج تلفزيوني شهير اسمه: نادي السبعمئة، تكلم عن النبي صلى الله عليه وسلم ووصفه بأنه يدعو أصحابه إلى قتل الناس! وأنه متعصِّب! وأنه- حاشاه صلى الله عليه وسلم- كان لصًّا وقاطع طريق!

و(فرانكلين جراهم) عنده برنامج تلفزيوني، وموقع إلكتروني ضخم يبث بست لغات عالمية، وهو ممن تولَّوا كبر النيل من الرسول صلى الله عليه وسلم ووصف الإسلام بأنه دين شرير، وهؤلاء من الأصوليين اليمينيين المتطرِّفين، وكانت فترة رئاسة جورج بوش الابن تشكِّل العصر الذهبي لهم.

ومهما يقولون، فإن رجالًا من بني جلدتهم كانوا أكثر حيادية وأبعد عن التعصب، وهم كثير:

منهم: (مايكل هارت)، صاحب كتاب «المئة الأوائل» الذي وضع النبي صلى الله عليه وسلم في الرتبة الأولى، وجعل عيسى عليه السلام في الرتبة الثالثة، وموسى عليه السلام في الرتبة السادسة عشرة.

وقال: إن النبي محمدًا (صلى الله عليه وسلم) كان سياسيًّا محنكًا، وكان قائدًا عسكريًّا، وإنه ملأ قلوب المسلمين بالعدل والإنصاف.

ونجد كثيرًا من الأدباء والشعراء والفلاسفة والمؤرِّخين والمفكِّرين الذين درسوا الإسلام باعتدال وإنصاف، أشادوا بالنبي صلى الله عليه وسلم بلغة غريبة.

حتى إن الشاعر الفرنسي (لا مارتين) يقول: أعظم حدث في حياتي هو أنني قرأتُ سيرة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، ودرستها دراسة وافية، وأدركت ما في سيرته من عظمة وخلود.

ويقول: أي رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثل ما أدرك محمدٌ (صلى الله عليه وسلم)؟! وأي إنسان بلغ من مراتب الكمال مثل ما بلغ؟

لقد هزم الرسول (صلى الله عليه وسلم) المعتقدات الباطلة التي تجعل واسطة بين الخالق وبين المخلوق.

وعالم اللاهوت السويسري الدكتور (هانت كونت) يقول: محمد (صلى الله عليه وسلم) نبي بمعنى الكلمة، ولا يمكننا إنكار أن محمدًا (صلى الله عليه وسلم) هو المرشد القائد إلى طريق النجاة.

وشاعر الألمان الشهير (جوته) يقول: بحثت في التاريخ عن مثل أعلى يمثِّل الإنسانية في أرقى صورها، فوجدته النبي العربي محمدًا (صلى الله عليه وسلم).

ويقول في كلمة مؤثِّرة تأخذ باللُّب يخاطب بها أستاذه الروحي الشاعر الكبير حافظ الشيرازي: يا حافظ، إن أغانيك وقصائدك تبعث السكون في نفسي، إنني مهاجر إليك بأجناس البشرية المحطَّمة، بهم جميعًا، أرجوك أن تأخذنا في طريق الهجرة إلى المهاجر الأعظم محمد (صلى الله عليه وسلم).

ويقول (فارس الخوري): إن محمدًا (صلى الله عليه وسلم) أعظم عظماء العالم، والدين الذي جاء به هو أكمل الأديان.

ويقول الأديب والروائي الروسي الشهير (تولستوي): أنا واحد من المبهورين بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي اختاره الله الواحد إله الكون ليكون آخر الأنبياء، ولتكون رسالته آخر الرسالات على وجه الأرض.

ومن العجيب أن (برناردشو) الأديب والفيلسوف الغربي المعروف يقول: قرأتُ حياة رسول الإسلام (صلى الله عليه وسلم) جيدًا مرات، فلم أجد فيها إلا الـخُلق كما ينبغي أن يكون، وكم تمنيت أن يكون الإسلام هو سبيل العالم!

ويقول أيضًا: لقد درستُ محمدًا (صلى الله عليه وسلم) باعتباره رجلًا مدهشًا، فرأيتُه بعيدًا عن مخاصمة المسيح، بل يجب أن يُدعى: «منقذ الإنسانية»، وأوروبا مبتعدة عن عقيدة التوحيد، وربما ذهبت إلى أبعد من ذلك، وتمنيت أن تعترف أوروبا بقدرة هذه العقيدة الإسلامية على حل مشكلاتها، وبهذا الروح يجب أن تفهموا كلامي!

كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم رجلًا متواضعًا، بعيدًا عن الادِّعاء والتكلف والتفاخر بالدنيا، فتولَّى ربه الدفاع عنه في وجه الشانئين المغرضين، ووعده فأجزل وأنجز، وأوصاه بدوام الذكر والشكر، وبيَّن مصير خصومه، فما كان التاريخ سوى ترجمة أمينة دقيقة لهذا الوعد وذاك الوعيد!



## سورة الكافرون

*** تسمية السورة:**

المشهور تسميتها: «**سورة الكافرون**»، وبعضهم يسميها: «**سورة الكافرين**» باعتبار أنها مضاف إليه مجرور بالياء[1].

وسماها البخاري في «صحيحه»: «**سورة ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾**»[2].

ولها أسماء أخرى، ذكرها بعض المفسِّرين والمصنِّفين في «أصول التفسير» كالسيوطي، منها: «سورة المقشقشة»، و«سورة البراءة»، و«سورة الدِّين»، و«سورة العبادة»، و«سورة المنابذة»[3].

وهذه ليست أسماء، بل أوصاف، ولذا تشترك مع غيرها، كـ«سورة الدِّين» التي هي من أسماء «سورة الماعون»، و«المقشقشة» التي تُطلق على «سورة التوبة».

*** عدد آياتها:** ست آيات بلا خلاف[1].

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 885)، و«سنن النسائي الكبرى» (10/ 347)، و«تفسير الطبري» (24/ 702)، و«إعراب القرآن» للنحاس (5/ 190)، و«زاد المسير» (4/ 499)، و«تفسير القرطبي» (20/ 224)، و«التحرير والتنوير» (30/ 579).

(2) ينظر: «مجاز القرآن» لأبي عُبيدة (2/ 314)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 469)، و«صحيح البخاري» (6/ 178)، و«تفسير ابن فورك» (3/ 286)، و«تفسير السمعاني» (6/ 294)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 506)، و«التحرير والتنوير» (30/ 579).

(3) ينظر: «جامع البيان في القراءات السبع» (4/ 1728)، و«تفسير الرازي» (32/ 323)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (1/ 202)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 527)، و«تفسير النيسابوري» (6/ 581)، و«الإتقان» (1/ 196)، و«روح المعاني» (15/ 484)، و«التحرير والتنوير» (10/ 95)، (30/ 579).

* **وهي مكية** باتفاق العلماء، كما ذكره ابن عطية، وغيره، وفي المسألة خلاف يسير[2].

* **وجاء في فضلها أحاديث**، منها: حديث جابر رضي الله عنه، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قرأ في ركعتي الطواف بسورتي الإخلاص: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾، و﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ١ ١﴾[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قرأ في ركعتي الفجر: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، و﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾[4].

وجاء عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسولَ الله قرأ في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب بضعًا وعشرين مرة أو بضع عشرة مرة: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، و﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾[5].

والأحاديث تدل على استحباب القراءة بها في راتبة الفجر، وراتبة المغرب، وركعتي الطواف، وفي الوتر.

* **سبب نزول السورة:** هو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يطوف بالبيت، فجاءه ملأٌ من قريش، وقالوا: يا محمد، عَلِمْنا الذي تدعو إليه، فهلمَّ نعبدُ إلهكَ سنةً،

---

(1) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص293)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص326)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (2/ 560)، و«روح المعاني» (15/ 484).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 702)، و«المحرر الوجيز» (5/ 531)، و«زاد المسير» (4/ 499)، و«تفسير القرطبي» (20/ 224)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 634)، و«روح المعاني» (15/ 484)، و«التحرير والتنوير» (30/ 579).

(3) أخرجه أبو داود (1905)، والترمذي (869)، وله أصل في «صحيح مسلم» (1218).

(4) أخرجه مسلم (726).

(5) أخرجه أحمد (4763)، وابن ماجه (1149)، والنسائي (2/ 170).

وتعبدُ إلهنا سنةً، فإن كان الذي تعبده خيرًا، كنا قد أدركنا حظَّنا منه، وإن كان الذي نعبده خيرًا، كنتَ قد أخذتَ بحظِّك منه. فرفض النبيُّ صلى الله عليه وسلم ذلك، ثم نزلت هذه السورة لترد على هذه المفاوضة[1].

* ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾:

افتتحت السورة بفعل أمر، وهو: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾، والقرآن كله من عند الله، وقد أُمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم أن يتلوه على الناس، لكن ثَمَّة سور افتتحت بهذه الكلمة، كـ«سورة الجن»، وهذه السورة، و«سورة الإخلاص»، والمعوِّذتين، فهذه خمس سور، وأما الآيات فكثيرة.

**وما الحكمة من هذا الاستفتاح؟**

1- للتأكيد على أن موضوع السورة ليس مما يخص النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يدخل تحت اختياره أو اجتهاده، بل هو من محكمات العقيدة التي لا يملك الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أحد من البشر أن يجتهد فيها، وهو مسألة الإيمان بالله تعالى ونبذ عبادة ما سواه.

وهنا نلحظ فرقًا بين هذه المسألة وبين مسائل أخرى وقع للنبي صلى الله عليه وسلم فيها اجتهاد لمصلحة المسلمين، كقصة الأحزاب حين أحاطوا بالمدينة، ورأى النبي صلى الله عليه وسلم أن العرب قد رمته عن قوس واحدة، فعَرَض صلى الله عليه وسلم على الصحابة أن يصالح غَطَفان وغيرهم، على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا.

فهذه من مسائل السياسة الشرعية الاجتهادية، وليست مسألة عقيدة.

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 887)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (2/ 208)، و«تاريخ الطبري» (1/ 550)، و«تفسير الطبري» (24/ 703)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص467)، و«الكشاف» (4/ 808)، و«فتح الباري» (8/ 733)، و«التحرير والتنوير» (7/ 303).

وكذا لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة عام صلح الحُدَيْبِيَة، وردوه، وحصلت المفاوضة بينه وبين كفار مكة قال صلى الله عليه وسلم: «**أما والله لا يدعوني اليومَ إلى خُطَّة يعظِّمونَ فيها حُرمةً، ولا يدعوني فيها إلى صلة إلا أجبتُهُم إليها**»[1]. فلما جاؤوه وعرضوا عليه الصلح بشروطهم قبل بها صلى الله عليه وسلم؛ لأنها من قَبِيل المسائل الاجتهادية الداخلة في السياسة الشرعية.

وكثير من الناس- بسبب قلة الفقه، أو شدة الغيرة- يخلطون بين هذه وتلك، في حين نجد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم العامة الفصل الواضح المبين؛ فالمسائل المحكمة الأصولية القطعية لا مجال فيها للاجتهاد والتفاوض كما في موضوع هذه السورة، أما المسائل المتعلقة بالسِّلْم والحرب والمواقف الاجتهادية، فيسوغ فيها الاجتهاد.

2- لتجديد أمر الرسالة وتأكيد مصدرها، وأن النبي مؤتمن على القرآن يبلِّغه بحروفه؛ وكأنه يقول: علموا أن الله تعالى هو الذي حسم هذا الأمر، وأمر به، فتبين بهذا أن ﴿**وَٱلنَّجۡمِ**﴾ هنا ضرورية.

3- للتبليغ وعدم الكتمان، كما قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ**﴾ [المائدة: 67]، فالنبي صلى الله عليه وسلم مأمور بتبليغ القرآن، وقد بلغه ولم يكتم منه شيئًا.

والنبي صلى الله عليه وسلم كان في مكة في حالة ضعف، والكفار من حوله بمكة هم أكابر في السن والمكانة، ودعوته لا زالت في مهدها، فأن ينزل القرآن ليجابههم بهذا الخطاب: ﴿**وَٱلنَّجۡمِ**﴾ أي: يا محمد! لهؤلاء: ﴿**إِذَا هَوَىٰ**﴾ فهو شيء مزلزل، وقطع لا تردُّد فيه لأي مفاوضة من هذا القبيل.

---

(1) تقدم تخريجه في أول «سورة الفيل».

4- في ذلك إعراض عن الكافرين وتعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فإنه تعالى عظَّم النبي صلى الله عليه وسلم بمخاطبته، ويكفيه فخرًا وشرفًا أن يخاطبه ربه جل وعز خطابًا مباشرًا، وهذا تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم، وفيه صدود عن المشركين والكافرين؛ لأن الله تعالى لم يخاطبهم، وإنما أمر نبيه أن يخاطبهم بمدلول الآية، كما وصفهم تبارك وتعالى بوصف لا مجاملة فيه ولا ملاينة فوصفهم بـ﴿هَوَىٰ﴾ وهو وصف مقرِّع شديد.

5- في هذا أن الله تعالى علِمَ في طبع النبي صلى الله عليه وسلم ما جُبل عليه من الرحمة واللِّين، والله تعالى اختاره على علمه بهذه الصفات؛ لأن الله تعالى أراد أن يجمع به الشمل المتفرِّق لهذه الأمة، والشمل المتفرِّق يجتمع على الرحمة واللِّين، وليس على الغلظة والشدة.

فلقَّنه هنا البراءة الصريحة من الشرك والمشركين؛ للإشارة إلى أن حُسن خُلُقه صلى الله عليه وسلم مكرمة نبيلة في حقه، وشرف عظيم، وسبب لنجاح الدعوة وقبولها لدى الخاص والعام، كما قال الله تعالى: ﴿يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [القلم: 4]، لكن حسن الخلق لا يتنافى مع المفاصلة مع الكفار والبراءة من شركهم.

ولما كان موسى عليه السلام مجبولًا على الشدة والقوة في طبعه، كما في قصته مع الرجل الذي وَكَزَهُ فقضى عليه، كان أول ما أوصاه الله تعالى أن قال له: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: 43- 44].

فربنا سبحانه وتعالى يعلم أن فرعون من أهل النار، ولكن الحجة لا تقوم إلا بالقول اللَّيِّن؛ ولذا أمر به وأوجبه.

وكثير من الناس يخلط بين البراءة من الشرك وأهله، وبين حسن المعاملة والملاينة، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يعيش في مكة بين أظهر المشركين، ويحسن

معاملتهم ويخالقهم بخلق حسن، ولما هاجر إلى المدينة كان فيها اليهود والمنافقون والمشركون، وكانت أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم مع هؤلاء أخلاقًا حسنة يحسن معاملتهم ويعدل معهم.

وبعضهم يظن أن البراءة من الشرك تلزمه أَلَّا يصافح المشرك، وليس لديه دليل قطعي على ذلك، بل العلماء مجمعون على أن الكافر ليس بنجس العين، وإنما نجاسة الكافر معنوية، لا ينجس المسلم بملامسته[1].

كما أن البراءة من الشرك وأهله لا تمنع التعامل معهم بيعًا وشراءً، ولا التبسم والمصافحة وحسن الأدب، ومراعاة الأعراف العامة التي لا تنافي أحكام الإسلام وأصوله، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتلطَّف معهم، ويغشى مجالسهم، ويأكل من طعامهم، ويبايعهم، ويتكلم معهم، ويباسطهم.

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «جاء حَبْر إلى النبي فقال: يا محمد- أو: يا أبا القاسم- إن الله تعالى يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال والشجر على إصبع، والماء والثَّرَى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهن، فيقول: أنا المَلِكُ، أنا المَلِكُ. فضحك رسولُ الله تعجبًا مما قال الحبر تصديقًا له»[2]. فلم يمنعه كونه يهوديًّا أن يصدِّق بما قال، وأن يتبسم لكلامه.

وفي خيبر دعت اليهودية النبيَّ صلى الله عليه وسلم والصحابة إلى الشاة، فجاؤوا وأكلوا عندها من طبخها، وكانت قد وضعت فيها السُّمَّ[3].

---

(1) ينظر: «المبسوط» (1/ 47)، و«بدائع الصنائع» (1/ 64)، و«المحلى» (1/ 138)، و«كشاف القناع» (1/ 53)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (1/ 94- 95).

(2) أخرجه البخاري (7513)، ومسلم (2786).

(3) أخرجه البخاري (2617)، ومسلم (2190) من حديث أنس رضي الله عنه.

وقد يجد المسلم في قلبه حبًّا لشخص ما، لا لكفره ومعاصيه، وإنما بمقتضى الطبيعة والفطرة، كحب الابن لوالده أو الوالد لولده، وحب الزوج لزوجته، والله يقول: ﴿ (١٢) وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا﴾ [الروم: 21]، فإذا تزوج كتابية فسوف يأكل معها، ويضاحكها ويداعبها، وهذا يستدعي مودة ومحبة في قلبه لها، لكنها ليست محبة لشركها وكفرها.

ومثل هذا حب الوالدين، كما قال الله سبحانه: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: 15]، والولد يحب والده فطرة؛ لأن الولد بعض من الوالد، وإبراهيم عليه السلام كان واضحًا في محبته لأبيه وحرصه عليه، كما قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم: 47]، وقال تعالى عنه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة: 114].

وحب مَن أحسن إليك، كما قال سبحانه عن أبي طالب: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: 56].

والحب لا يحمل المؤمن على ما لا يحل من عبادة غير الله، أو ارتكاب ما حرم الله، أو المداهنة في الدين، أو إفشاء أسرار المسلمين.

فثَمَّ فرق بين البراءة من الشرك والكفر والمعصية، والبراءة من أهلها بهذا الاعتبار، وبين مخالقتهم بخلق حسن، ومحبتهم المحبة الفطرية الطبيعية.

وأما الكفار المحاربون، فقد صرَّح القرآن بالنهي عن موالاتهم، وأن مَن تولَّاهم فأولئك هم الظالمون، ووصف متولِّيهم بأنه قد ضَلَّ عن سواء السبيل.

وقد ذكر الرازي في «تفسيره» أكثر من ثلاثة وأربعين وجهًا في سر افتتاح السورة بهذا المطلع ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿إِذَا﴾ فيه ثلاثة حروف، هي حروف نداء: «يا»، وهو وحده كافٍ، والحرف الثاني: «أيُّ»، والحرف الثالث: «الهاء»، والهاء قد يكون حرف نداء، وقد يكون حرف تنبيه، فهذه الحروف الثلاثة هي لحشد الانتباه، وأتت من أجل استجماع الذهن والسمع؛ لتلقي القرار الصارم الذي لا تردُّد فيه.

وقد وصفهم الله بـ«الكافرين»، وفي موضع آخر بـ«الجاهلين»، كما في قوله: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: 64].

وورد أن الآية نزلت في السبب نفسه الذي نزلت له «سورة الكافرون».

**وبين «الجهل» و«الكفر» تلازم**، وربما يكون الجهل سببًا، والكفر نتيجة، فبسبب الجهل بالله وقعوا في الكفر، والكفر أشد من الجهل.

وهنا سمَّاهم: «كافرين»، وهو الاسم الذي ينطبق عليهم ويعبِّر عن حقيقتهم، فليست من أجل التعيير، وإنما من أجل الدعوة إلى ترك ما هم عليه، ومباعدة الحالة التي هم فيها، وهم يصرحون بذلك ويقولون: ﴿أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ [سبأ: 34].

والمقصودون هنا هم الذين يعبدون الأوثان، كاللَّات والعُزَّى ومَنَاة الثالثة الأخرى، وليس المقصود كل الكافرين؛ لأن منهم مَن يعبد الله، أو يدَّعي ذلك، مثل أهل الكتاب، فأهل الكتاب يزعمون أنهم يعبدون الله، لكن عبادتهم على جهل وضلال، أو بملة منسوخة محرفة.

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (32/ 323- 329).

ويوجد من الكافرين مَن لا يعبد شيئًا أصلًا، أو لا يؤمن بوجود الله، وهؤلاء ليسوا عابدين لشيء البتة.

فالمقصود إذًا عبدة الأوثان، وقد قال أهل أسباب النزول[1]: إن هذه السورة نزلت في الأسود بن المطَّلب، أو الوليد بن المغيرة، أو أُمَيَّة بن خلف، أو العاص بن وائل، وهؤلاء هم الأربعة الذين حاولوا مفاوضة النبي صلى الله عليه وسلم، لـمَّا قالوا: تعبدُ إلهنا سنةً، ونعبدُ إلهك سنةً، وكانوا يظنون أن أمر الدين كأمور الدنيا، فهم كانوا إذا اختلفوا في أمر دنيوي يتصالحون فيما بينهم، فيتنازل هذا عن بعض حقه، وهذا عن بعض حقه، ثم يلتقون على حل وسط.

**والكفر** لغة: السَّتْر[2]، ومنه تسمية الفلَّاح: كافرًا؛ لأنه يستر الحب، وفي مصر يسمون القرى الزراعية: كَفْر.

وصفهم بأنهم كافرون؛ لأنهم يسترون الحقيقة، ويجحدونها.

* ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا رَأَىٰ﴾:

أي: في الحال، أي: الآن، لا أعبد الشيء الذي تعبدونه، كما قال: ﴿ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ [يونس: 104].

* ﴿﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ رَبِّهِۦ﴾:

---

(1) تقدم قريبًا.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (8/ 246)، و«تفسير الرازي» (4/ 143)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص714)، و«تفسير القرطبي» (1/ 183)، وينظر أيضًا: «لسان العرب» (5/ 144)، و«الكليات» للكَفَوي (ص763)، و«تاج العروس» (14/ 50) «ك ف ر».

أي: ما دمتم على الكفر، فلستم عابدين إلهي، حتى لو تظاهرتم بشيء من ذلك، في وقت أو سنة، كما جاء في عرضكم التفاوضي، فالحقيقة أنكم لم تعبدوا الله الذي أعبد؛ لأن العبادة يشترط لها الإخلاص، وهو أول شرط من شروطها، وهم ليسوا مخلصين ولا مؤمنين ولا عابدين.

فعبادة الأصنام شر وشرك، وعبادة الله تعالى يشترط لها أن يكون العابد مؤمنًا بالله وحده، ولو عبد على أنه سيجرب، فهنا لا يكون عابدًا لله، إذ ليست عبادة لله إلا إذا كان مبناها على الإيمان والتوحيد، والخلوص من الشرك.

وتأمَّل كيف عبَّر بالفعل: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا﴾؛ لينفي أنه يعبد آلهتهم، حتى ولو لحظة واحدة.

لكن لما خاطبهم قال: ﴿٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾، ولم يقل: «ولا أنتم تعبدون»؛ لأنه قد يقع منهم الفعل، ولكن لا يتحقق به عبادتهم لله؛ لغياب شرط الإيمان وهو الخلوص من الشرك والبراءة من الآلهة المدَّعاة.

فالشرك يقع ولو للحظة واحدة، لكن بالنسبة للإيمان بالله سبحانه فإنه لا يتحقَّق بمجرد كون الواحد عَبَدَ، حتى يبقى على ذلك ويدوم.

وربما يستغرب بعض الناس تكرار الآيات في هذه السورة على قصرها، ولا يفهم معنى التكرار، وما فيه من الأسرار اللطيفة والمعاني الشريفة.

﴿٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ تصريح بأنهم حتى لو ادَّعوا العبودية لله فإنهم لم يعبدوه، لكن قال بعض العلماء: إن في الآية سرًّا آخر، وهو أن المعنى: أنكم أنتم على وجه الخصوص، يا مَن عرضتم على النبي صلى الله عليه وسلم فكرة «اعبد إلهنا سنة، ونعبد إلهك سنة» محكوم عليكم عند الله تعالى أنكم لن تعبدوا الله، ولن تؤمنوا،

وسوف تموتون على الشرك، وهكذا كان، فإن هؤلاء الأربعة ماتوا مشركين، وكان هذا من دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم.

**والمقصود**: لستم بعابدين الله الذي أعبده، فـ﴿عَنِ﴾ هنا تكون للعالم وغير العالم، فإذا أمن اللبس فهي موصولة، وتصلح للعالم وغيره.

والتكرار مقصود لأهمية الموضوع؛ لأنه أصل الدين، ويستحق أن يكرر الكلام فيه؛ لأنه لب اللباب، وأصل الكتاب.

ويتكرر لتكرر العرض منهم، فهم يعرضون على النبي صلى الله عليه وسلم مرة ومرتين وثلاثًا، ولم ييئسوا من العرض، فيأتي التكرار في القرآن الكريم، وكأن المعنى: مهما كررتم العرض، ونوعتم في أساليبه وطرائقه، فإن الجواب سيظل واحدًا لا يتبدل.

**❊ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾:**

لم يقل: «ولا أنا عابد ما تعبدون»، **وفيها أسرار:**

**منها**: أن المعنى ما تعبدونه لم أعبده قط في حياتي، فقد كان يمقت الأصنام ويكرهها، حتى قبل البعثة، وكان لا يأكل ما ذُبح على الأنصاب، ولو كان النبي صلى الله عليه وسلم يعبدها في الجاهلية لقالوا له: أنت كنت تعبدها. بل كانوا يعرفون مجانبته لها وهجرها.

**ومنها**: الإشارة إلى عراقتهم في الكفر والشرك، فهذا الأمر مما توارثوه، فهو ليس شيئًا جديدًا طارئًا عليهم يسهل زواله، بل هو أمر قديم، فهم غارقون فيه هم وآباؤهم إلى الأذقان.

ويحتمل أن يكون التكرار لنفي المعبود ونفي العبادة ذاتها، أي: لا أعبد أصنامكم، ولا أتعبد بعباداتكم التي تفعلون، وفيه دليل على تحريم مشابهة المشركين فيما يفعلونه على سبيل التعبُّد.

أما الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة، فهي عبادات توحيدية جاءت بها الرسل عليهم السلام، وبقيت من آثار الرسالة، فأخذتها قريش، ولذلك أُقرِّت في الإسلام، وصارت من أركان الحج والعمرة ومناسكهما بعد إزالة ما أضافته الجاهلية إليها من الطقوس الفاسدة، كالعُرِي في الطواف.

ولم يذكر الله سبحانه حججًا في هذه السورة كالعادة، فلم يحتج عليهم بالسماء ولا بالأرض ولا بالنبات ولا بخلق الإنسان.

**ولعل السر في ذلك:** أن مقام السورة ومقصدها واضح، وهو إعلان البراءة من الشرك والمشركين، ومن أوثانهم، وإعلان مفاصلتهم في المنهج والعقيدة؛ ولذلك لم تكن السورة مشوبة بمعانٍ أخرى لمحاجتهم ومجادلتهم، بل هي مخصَّصة لإعلان البراءة؛ ولهذا سُمِّيت: «سورة الإخلاص»، و«سورة البراءة»، و«سورة المنابذة».

وكما تجلَّى فيها أنه صلى الله عليه وسلم لن يعبد ما يعبدون، فكذلك تجلَّى أنهم لن يعبدوا ربه الواحد الذي يعبده، فإن قلنا: المقصود فئة خاصة، فلأنهم يموتون على الكفر، وإن قلنا: المقصود أعم، فإن المعنى: ما دمتم كافرين؛ لأنه وصفهم الآن أنهم كافرون.

* ﴿(٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ (١٩)﴾:

إخبار بأنهم لا يعبدونَ اللهَ إخبارًا ثانيًا، تنبيهًا على أن الله أعلمه بأنهم لا يعبدونه، وتقويةً لدلالة هذين الإخبارين على نبوته صلى الله عليه وسلم؛ فقد أخبر عنهم بذلك، فمات أولئك كلهم على الكفر، وكانت هذه السورة من دلائل النبوة.

ويجوز أن تكون جملة ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٢﴾﴾ تأكيدًا لفظيًّا لنظيرتها السابقة بتمامها، والمقصود من التأكيد: تحقيق تكذيبهم في عرضهم أنهم يعبدون رب محمد صلى الله عليه وسلم[1].

* ﴿فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ﴿٢٠﴾﴾:

وهذا أسلوب حصر، فحين أقول: لك الكتاب، فمعناه: أنه يخصك وحدك.

وفرق بين قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾﴾ وبين أن يقول: «دينكم لكم»، فإذا قُدِّم المسند، ففيه إشارة إلى اختصاصهم بدينهم[2]، وكأنه يقول: دينكم لكم وحدكم، ولا تعلق لي فيه بحال من الأحوال، وديني لي وحدي، ولا يتجاوزني ديني لكم ما دمتم على شرككم، فأنتم تختصون بدينكم، وأنا أختص بديني.

وهذا ليس إذنًا لهم بأن يكفروا، وإنما هي مفاصلة في المنهج، وبيان أن الإسلام لا يختلط بالكفر، وفيه بيان الاختلاف الأصلي بينه وبينهم، كما قال الله عز وجل على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ﴾ [الأعراف: 87]، وكما قال موسى عليه السلام: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: 47]، أي: اتركهم لنا، وخلِّ بيننا وبينهم، وهؤلاء جماعتنا ندعوهم إلى الله تعالى، فإن أسلموا فالحمد لله، وإن لم يسلموا فجرمهم على أنفسهم.

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (30/ 583- 584).

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 531)، و«التحرير والتنوير» (30/ 584).

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لقريش لما حاربوه وآذوه: «**يا وَيْحَ قريش، قد أكلتهم الحربُ، ماذا عليهم لو خَلَّوْا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني اللهُ تعالى دخلوا في الإسلام وهم وافرون**»[1].

والحكم المذكور هنا حكم مستغرق لكل زمان ومكان لا يتبدل ولا يعطل.

وتأمل كيف ابتدأت السورة بالخطاب الصريح المباشر المؤكَّد: ﴿**وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ**﴾، واختتمت بخطاب أقرب إلى اللُّطف، وهو: ﴿**فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ**﴾.

**والخلاصة** أن الله تعالى قرَّر المفاصلة مع المشركين، حتى لا يلتبس الحق بالباطل، والإسلام بالكفر، والهدى بالضلال، ولم يتعرض في السورة لموضوع المعاملة.

**وتحتمل الآية معنًى آخر**، وهو أن المقصود بالدِّين: الجزاء والحساب[2]، فحسابي على نفسي، وحسابكم عليكم، ولن أؤخذ يوم القيامة بجريرتكم، ولن تؤخذوا بجريرتي، فعلى هذا تكون هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [القصص: 55].



---

(1) أخرجه أحمد (18910)، والبخاري (2732) من حديث المِسْور بن مَخْرمة ومَرْوان بن الحكم. وينظر ما تقدم في «سورة العلق»: ﴿رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ إِلَّا﴾.

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (32/ 322)، و«روح المعاني» (15/ 489)، وما تقدم في «سورة الانفطار»: ﴿أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ ۝٢٢﴾، و«سورة المطففين»: ﴿يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُهَا﴾.

## سورة النصر

*** تسمية السورة:**

**للسورة تسميتان:**

«**سورة النصر**»، وهو المشهور[1].

و«**سورة الفتح**»[2]، والأول أغلب، وتسميتها بـ«الفتح» يُحدث لبسًا مع «سورة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝﴾».

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يسميها: «**سورة التوديع**»[3]؛ لأنها إيذان بقرب أجل الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث أدَّى الرسالة وبلَّغ الأمانة وأكمل الله به الدين ودخل الناسُ في دينه أفواجًا.

وهكذا فهم ابن عباس رضي الله عنهما- كما في «صحيح البخاري»- قال: كان عمرُ يُدْخلُني مع أَشْياخ بدر، فقال بعضُهم: لِمَ تُدْخِلُ هذا الفتى معنا ولنا أبناءٌ مثلُه؟ فقال: «إنه مِمَّن قد علمتم». قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، وما رُئِيتُهُ دعاني يومئذ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ منِّي،، فقال لهم: «ما تقولون في: ﴿۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 903)، و«سنن النسائي الكبرى» (10/ 348)، و«تفسير الطبري» (24/ 705)، و«تفسير القرطبي» (20/ 329)، و«التحرير والتنوير» (30/ 587).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 297)، و«جامع الترمذي» (5/ 307)، و«التحرير والتنوير» (30/ 587).

(3) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 321)، و«الكشاف» (4/ 812)، و«تفسير الرازي» (32/ 339)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (1/ 202)، و«تفسير القرطبي» (20/ 229)، و«روح المعاني» (15/ 491)، و«التحرير والتنوير» (30/ 587).

﴿قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ...﴾». حتى ختم السورة؟ فقال بعضُهم: أُمرنا أن نحمدَ اللهَ ونستغفرَه إذا نُصرنا وفُتح علينا. وقال بعضُهم: لا ندري. أو لم يقل بعضُهم شيئًا. فقال لي: «يا ابنَ عباس، أكذاك تقولُ؟». قلتُ: لا. قال: «فما تقولُ؟». قلتُ: هو أَجَلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، أعلمه اللهُ له: ﴿۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾: فتح مكة، فذاك علامة أَجلِكَ، ﴿مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾. فقال عمر: «ما أعلمُ منها إلا ما تعلمُ»[1].

وليس في السورة تصريح بأَجَل النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما فيها البشارة بالفتح والنصر ودخول الناس في الدين، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتسبيح والاستغفار، لكن الفقيه الفطن يدرك أن كمال الأمر له ما بعده، كما قيل[2]:

إذا تمَّ شيءٌ بدا نقصُهُ *** ترقَّب زوالًا إذا قيل: تَمْ

فمن وراء ذلك إشعار باقتراب أجل الرسول صلى الله عليه وسلم وتمام مهمته.

* **عدد آياتها:** ثلاث آيات[3]، وهي إحدى أقصر ثلاث سور في القرآن الكريم؛ مع «العصر»، و«الكوثر»، إلا أن فيها من المعاني ما يُعجز البلغاء.

* **توقيت نزولها:** هي مدنية بالاتفاق، بل هي من أواخر سور القرآن الكريم نزولًا، وهي آخر سورة نزلت كاملة، كما قال كثير من المفسرين[4].

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (4294، 4970).

(2) ينظر: «عيون الأخبار» (2/ 358)، و«الزهد» لابن أبي الدنيا (ص90)، و«الصناعتين: الكتابة والشعر» (ص39)، و«يتيمة الدهر» (4/ 259).

(3) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص294)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (2/ 560)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (3/ 268).

(4) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص468)، و«الكشاف» (4/ 810)، و«المحرر الوجيز» (5/ 532)، و«تفسير القرطبي» (20/ 229- 230)، و«التحرير والتنوير» (30/ 587).

**ولكن اختلف في وقت النزول، فبعضهم يقول**: في السنة السابعة، وعلى هذا تكون قبل فتح مكة؛ لأنه كان في السنة الثامنة.

**وقيل**: كانت بعد الفتح، وهو الأظهر، وقبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بوقت يتراوح بين سنتين إلى بضعة أشهر[1].

* ﴿ﰆ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﰇ فَكَانَ﴾:

بدئت السورة بظرف الزمان ﴿ﰆ﴾، وغالبًا ما تستخدم للمستقبل، وقد تستخدم للحاضر، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﰖ﴾ [الشورى: 29]، أي: حين يشاء[2].

ومجيء النصر والفتح مشعر بالتوقيف، وأنه لا يأتي اعتباطًا أو دون ترتيب، بل بتوقيت وتوفيق وتوثيق من الله تعالى، وفي ذلك رعاية للأسباب؛ لأن هذا النصر جاء بعد عشرين سنة كان فيها من المجاهدة والمصابرة ما لا يحتمله إلا الأصفياء الأتقياء، فمن الصحابة رضي الله عنهم مَن قُتل، ومنهم مَن ضُرب، ومنهم مَن طُرد، ومنهم مَن أُوذي، ومنهم من لاقى آلامًا لا يحتملها إلا الصابرون المجاهدون.

والأمر كما قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [الحجر: 21]، فجاء النصر هنا على قَدَرٍ، كما قال الشاعر[3]:

جاءَ الخلافةَ أو كانتْ له قَدَرًا *** كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ

---

(1) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (24/ 401)، و«زاد المسير» (4/ 501)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 562)، و«روح المعاني» (15/ 491)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (25/ 98).

(3) ينظر: «ديوان جرير» (1/ 416)، و«شرح الكافية الشافية» (3/ 1222)، و«مغني اللبيب» (ص89).

والتعبير بـ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ مشعر بأن النصر مِنَّةٌ من عنده سبحانه، وهذا يدعو للتواضع والانكسار، واستحضار فضل الله بما تحقق؛ ولذا لما دخل النبيُّ صلى الله عليه وسلم مكة فاتحًا منتصرًا دخلها متواضعًا مطأطئًا رأسه، وقد خرج بالأمس طريدًا من مكة خائفًا يترقب، واليوم يدخل فاتحًا مظفرًا منصورًا[1].

وقد جرت عادة السلاطين والملوك أنهم إذا فتحوا وتمكَّنوا من عدوهم يظهرون القوة والعزة والتشفِّي والبطش، ولسان حال أحدهم يقول: خصومك وقد أظفرك الله بهم، فأعملْ فيهم السيف، ولا تبق منهم ولا تذر، واجعلهم عبرة لـمَن خلفهم.

لكن النبي صلى الله عليه وسلم لِمَا جبله الله عليه من صدق العبودية، وعدم التعلق بالدنيا، دخل مكة مطأطئًا، متواضعًا لله.

وفي «الصحيح» أنه صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة صلَّى صلاة الضُّحى[2].

ولو شاء الله لنصر هذا الدين بالملائكة، أو لخرق لهم النواميس، ولكنه شاء أن يبتلي بعض العباد ببعض، كما قال تعالى: ﴿ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا﴾ [محمد: 4]. فالمسألة مسألة مجاهدة ومصابرة، ويوم علينا ويوم لنا، ويوم نُساء ويوم نُسَر، حتى تكون العاقبة للتقوى.

إن نشوة الانتصار والظفر بالمطلوب وتحقق المقصود الذي كابدوا وبذلوا واجتهدوا وصابروا من أجله تنسيهم الآلام التي لقوها.

ولهذا كان عمر رضي الله عنه يتمثَّل بهذا البيت[1]:

---

(1) ينظر: «مغازي الواقدي» (2/ 824)، و«سيرة ابن هشام» (2/ 405)، و«المستدرك» (3/ 47)، (4/ 317)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (5/ 68- 69)، و«الكامل في التاريخ» (2/ 121)، و«تاريخ الإسلام» (2/ 548)، و«البداية والنهاية» (6/ 545-548)، و«فتح الباري» (8/ 18، 49).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (1103، 1176)، و«صحيح مسلم» (336).

كأنك لم تنصبْ من الدهرِ ليلةً *** إذا أنت أدركتَ الذي كنتَ تَطْلُبُ

ونسبة النصر والفتح إليه تعالى نسبة تشريف.

**ومن معاني ذلك**: الدلالة على عظمة النصر، وديمومته، فهو لم يكن نصرًا محدودًا في معركة، أو تغلبًا على عدو، وإنما استقرار لأمر الدين، ولذلك سطع تاريخ الإسلام منذ ذلك الوقت؛ وقامت دولته في المدينة أولًا ثم في جزيرة العرب، ولم تكن البشارة به باعتباره نصرًا مرحليًّا، أو محدودًا ببيئة جغرافية أو بزمن معلوم، بل بنصر خالد يُخلِّد ذكر الإسلام وبقاءه إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

وفيه ثناء مبطن على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين؛ لأنهم استحقوا نصر الله، وأي ثناء أعظم من أن يقال: أصبحتم جديرين بنصر الله؛ ولذلك تُربط هذه الآية بقوله سبحانه في «سورة الحج»: ﴿أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ﴾ [الحج: 40].

ثم بيَّن الجديرين بالنصر بقوله: ﴿ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الحج: 41]، فربط الصفة بأمر مستقبل، ولم يقل: «لينصرن الله الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة».

والسر هنا لطيف، وربما وجد مَن يستحقون النصر في ظاهر الحال، لكن الله يعلم أنهم لو انتصروا ما التزموا بتبعات النصر ولا قاموا بتكاليفه، فيحجب الله عنهم النصر رحمة بهم وبالخلق، وحفاظًا على الرسالة وقدسيتها.

وبين ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾، ﴿﴿٨﴾﴾ فرق، والنصر قد يحصل ولا يكون معه فتح، فلو أن عدوك هجم عليك ثم قاتلته وطردته عن بلادك، فإن هذا «نصر»، وليس معه «فتح»،

---

(1) ينظر: «المنمق في أخبار قريش» (ص311)، و«الفرج بعد الشدة» للتنوخي (5/ 10)، و«معجم الشعراء» (ص271)، و«شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (ص156)، و«سمط اللآلي في شرح أمالي القالي» (1/ 842)، و«التحرير والتنوير» (30/ 64) منسوبًا إلى مرة بن عدَّاء الفَقْعَسي.

وإنما سلمتَ من شرٍّ، فـ«النصر» تغلب في معركة، أما «الفتح» فيدل على أنهم خاضوا المعركة، وانتصروا واستطاعوا أن يفتحوا، ويحققوا مقصودهم الأعظم.

**و«النصر» له صور كثيرة:**

**منها:** أن يثبت الإنسان على دينه، ولو تغلَّب عليه عدوه.

**ومنها:** إهلاك الله للأعداء، حتى لو لم يُفتح للمؤمنين.

ووعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالفتح، كما في قوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: 52]، وكذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: 1].

* ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ رَأَىٰ﴾:

هذا هو **الوعد الثالث، والمقصود بالناس هنا:** العرب، وليس الناس كلهم، ولهذا قال: ﴿إِلَىٰ﴾ أي: جماعات إثر جماعات، كما قال بعضهم: إن (ال) هنا للاستغراق العرفي، يعني: الناس المعروفين في جزيرة العرب[1].

**والأفواج** جمع: فوج، وهو الجماعة، وهنا لم يعد الناس يدخلون أفرادًا مستخفين مستترين كما كان عليه الأمر[2].

وذلك دليل على قوة شوكة الإسلام، وأن شيئًا ما تغير فعلًا، وهؤلاء الذين دخلوا أفواجًا لا يعدون من السابقين إلى الإسلام؛ لأن الشيء الذي حملهم على أن يدخلوا أفواجًا هو إما الفتح وإما دينونة جزيرة العرب للإسلام، كما في حديث عمرو بن سَلَمة

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 705)، و«تفسير الماوردي» (6/ 360)، و«تفسير القرطبي» (20/ 230)، و«التحرير والتنوير» (30/ 592).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 372)، و«تفسير الماوردي» (5/ 137)، (6/ 361)، و«الكشاف» (4/ 687، 810)، و«زاد المسير» (4/ 501)، و«تفسير الرازي» (31/ 12)، و«تفسير القرطبي» (20/ 230).

رضي الله عنه: «كانت العرب تَلَوَّمُ بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبيٌّ صادق»[1].

وبعضهم قد يكون منعه من الإسلام خوفه على نفسه، أو ماله، أو سلطانه، فلما رأوا أمر الإسلام قد عز واستوثق وتعاظم ذهبت المخاوف، ودخلوا في الدين مطمئنين.

ومنهم مَن دخل لرغبة أو رهبة، خوفًا أو رجاءً، كما جاء عن صفوان بن أُمَيَّة أنه قال: «أعطاني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يوم حُنين وإنه لأبغض الخلق إليَّ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إليَّ»[2].

ومسألة تغيير الدين والانسلاخ من ملة لأخرى ليس بالأمر الهين، وبهذا تظهر منقبة السابقين للإسلام وفضلهم على غيرهم؛ حيث آثروا ما عند الله على متع الدنيا وشهواتها، وجاهدوا في ذلك أعظم المجاهدة، وتغلَّبوا على مألوفهم وعاداتهم، وبادروا لقبول الدعوة والتضحية في سبيلها.

والذين دخلوا في دين الله أفواجًا كان أكثرهم على مدى عشرين سنة شجًى في حلوق المؤمنين، آذوهم، وقتلوا منهم ونهبوا الأموال، ومع هذا قبل الله منهم الإسلام، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعفو عنهم، فالإسلام يَـجُبُّ ما قبله، والهجرة تَجُبُّ ما قبلها، والتوبة تَجُبُّ ما قبلها، والحج يَـجُبُّ ما قبله.

ذِكْرُ النصر والفتح، ثم ذِكْرُ دخول الناس في دين الله، يبيِّن أن الهدف هو دخول الناس في دين الله أفواجًا، وها هو قد تحقق.

---

(1) أخرجه البخاري (4302).

(2) أخرجه أحمد (15304)، ومسلم (2313)، والترمذي (666).

إن فرح المؤمنين بدخول الناس في دين الله، هو دليل على تجردهم من حظوظ نفوسهم، وتغلبهم على أنانيتهم وقدرتهم على التسامح والصفح عن أولئك الذين ظلموهم وحاربوهم، ثم ها هم يفرحون بهم إخوانًا ينافسونهم في الطاعة والتقوى والجهاد.

إن المقصود الأعظم هو إزالة العقبات التي تحول دون دخول الناس في دين الله، والجهاد ليس غاية في نفسه، ولم يشرع من أجل إزهاق الأرواح، والكفر بمجرده ليس موجبًا لإزهاق النفس.

ولذلك قدر الله سبحانه وتعالى أن يظل وجود الكفار في الدنيا إلى قيام الساعة، بل لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، و«**لا تقومُ الساعةُ حتى لا يُقالُ في الأرض: الله الله**»[1]. وله تعالى الحكمة البالغة التي لا يحيط بها خلقه.

ومن حكمته أن خلق الناس مختلفين، كما قال: ﴿٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٖ﴾ [التغابن: 2]، وقدَّم الكافر؛ لأن الكفار هم الأكثر عددًا.

وليس المقصود إزهاق أرواحهم بالقتال، بل دعوتهم وهدايتهم.

ولذا كان الإسلام يمنع القتل ويحقن الدم، حتى ولو كان إسلامًا في الظاهر، كما في قصة أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: بعثنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في سرية، فصبَّحنا الحُرَقات من جُهينة، فأدركتُ رجلًا، فقال: لا إله إلا الله. فطعنتُه، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرتُه للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**أقال: لا إله إلا الله. وقتلته؟**». قلتُ: يا رسولَ الله، إنما قالها خوفًا من

(1) أخرجه مسلم» (148) من حديث أنس رضي الله عنه.

السلاح. قال صلى الله عليه وسلم: «**أفلا شققتَ عن قلبه، حتى تعلمَ أقالها أم لا**». فما زال يكرِّرها عليَّ حتى تمنيتُ أني أسلمتُ يومئذ[1].

ولما بعث النبيُّ صلى الله عليه وسلم عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه إلى خَيْبر قال له: «**امشِ ولا تلتفتْ حتى يفتحَ اللهُ عليك**». فسار عليٌّ رضي الله عنه شيئًا، ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ: يا رسولَ الله، على ماذا أقاتلُ الناسَ؟ قال: «**قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسولُ الله**». هذه رواية مسلم.

وفي رواية «الصحيحين»: قال عليٌّ رضي الله عنه: يا رسولَ الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «**انفُذْ على رِسْلكَ حتى تنزلَ بساحتهم، ثم ادْعُهُم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حقِّ الله فيه، فوالله لأن يَهْدِيَ اللهُ بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من أن يكونَ لك حُمْرُ النَّعَم**»[2].

ودخول الناس في دين الله أفواجًا كان ثمرة صلح الحُدَيْبِيَة؛ لأن الناس بدأ يتحدَّث بعضهم إلى بعض، وكذلك بعد فتح مكة استقر الأمر؛ لأن جزيرة العرب كلها دانت للمسلمين.

وإضافة الدين إلى الله هي في مقابل إضافة النصر إليه، فـ«نصر الله» جاء من أجل «دين الله»، ولم يقل: «الدِّين»؛ لأن العرب تُطلق الدِّين على الطاعة والاتِّباع للملوك[3]، والدعوة لم تكن إلى عبادة أحدٍ غير الله وحده.

* ﴿مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ رَبِّهِ﴾:

---

(1) أخرجه البخاري (4269)، ومسلم (96).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (4210)، و«صحيح مسلم» (2405، 2406).

(3) ينظر: «العين» (8/ 73)، و«جمهرة اللغة» (2/ 688)، و«غريب الحديث» للخطابي (1/ 580)، و«لسان العرب» (13/ 169)، و«تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب» (ص125).

أمر اللهُ سبحانه نبيَّه صلى الله عليه وسلم بالتسبيح، وقد صحَّ من حديث عائشة رضي الله عنها، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم بعدما نزلت عليه هذه السورة، كان قلَّما يركع أو يسجد إلا قال: «**سبحانك اللهمَّ ربنا وبحمدك، اللهمَّ اغفرْ لي**». يتأول القرآن[1]. أي: يحقِّق ما أمره ربه تبارك وتعالى.

والأمر بالتسبيح بحمد الله معناه: قل: «سبحان الله والحمد لله». أو يكون المعنى: سبِّح ربك وأنت متلبِّس بحمده، يعني: قائم بحمده. وهو أقرب.

وكأن النبي لما جاء النصر والفتح، وتحقَّق له ما وعده ربه؛ حمد ربه من تلقاء نفسه بمجرد رؤيته لهذه النعم، وإن كان قبلها يحمد ربه بقلبه ولسانه وجوارحه.

**والفرق بين** «**الحمد**» **و**«**الشكر**» هو أن «**الحمد**» يكون بالثناء على المحمود بصفات الكمال والمجد والعظمة والكبرياء، والجلال والقوة والقدرة والعلم والرحمة، وأما «**الشكر**» فيكون بالثناء عليه بالمعروف الذي أسداه إلى الشاكر[2].

**ولماذا رتبت هذه الأشياء الثلاثة، فبدأ بالتسبيح، ثم الحمد، ثم الاستغفار؟**

**الجواب:** إن هذا الترتيب مناسب؛ لأن حقيقة التسبيح هو الثناء على الله بالمحامد، ونفي النقائص، وهذا أكمل وأعلى ما يكون.

ثم ثنَّى بالحمد، والحمد فيه معنى الشكر، فهو حمد الله تعالى على ما أنعم به على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين من الخير والنصر.

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (817)، و«صحيح مسلم» (484).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للنحاس (1/ 57)، و«قوت القلوب» (2/ 5)، و«معجم الفروق اللغوية» (ص301)، و«تفسير الثعلبي» (1/ 108)، و«مدارج السالكين» (2/ 226)، و«بصائر ذوي التمييز» (3/ 340).

ثم ثلَّث بما يتعلق بحال العبد نفسه، وهو الاستغفار من الذنب والتقصير في العبادة والحمد والثناء، كما قال الله سبحانه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [محمد: 19].

**وهنا سؤال: ما معنى أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالاستغفار؟ وهل صدر منه ما يُوجِب الاستغفار حتى يؤمر بذلك؟!**

**من أهل العلم مَن قال:** المقصود بهذا أمته صلى الله عليه وسلم، أو أن يستغفر لأمته.

**ومنهم مَن قال:** أمره بالاستغفار من أجل أن تقتدي به أمته، فكأنه يقول: إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم مأمورًا بالاستغفار فأنتم بذلك أولى!

**ومنهم مَن قال:** إن النبي صلى الله عليه وسلم قد يقع منه ما ينبغي له الاستغفار منه من غير أن يكون معصية لله، فقد يقع منه اجتهاد على خلاف الأولى في بعض المسائل، أو يقع منه انشغال في بعض الأمور التي يكون الاستغفار منه لائقًا ومناسبًا ومحقِّقًا لكمال نبوته صلى الله عليه وسلم، كما في قصة الأعمى، وأسرى بدر، وزواج زينب، وتحريم شرب العسل على نفسه ونحوها، وهي من جنس فعل المفضول، أو خلاف الأَوْلَى في الاجتهاد[1].

**وأولى من ذلك أن يقال:** إنه لا يستطيع أحدٌ أن يصل إلى أداء حق الله عليه، وإنَّ كل ما يعمله لله فهو قاصر عن أداء حق الله، ولذا تُتْبع الصلاة بالاستغفار[2]، ويُتبع

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (6/ 361)، و«تفسير الرازي» (32/ 344)، و«تفسير القرطبي» (20/ 233)، و«تفسير الخازن» (4/ 493)، و«اللباب في علوم الكتاب» (20/ 543)، و«روح المعاني» (15/ 494).

(2) كما في حديث ثوبانَ رضي الله عنه قال: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرفَ من صلاته استغفرَ ثلاثًا». أخرجه مسلم (591).

الحج بالاستغفار: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ﴾ [البقرة: ١٩٩]، ويُختم عمر النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته بالاستغفار: ﴿مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا ﴾.

فكل كثير يُؤدَّى لله فهو قليل في جنب حقه العظيم جل وعز، ولا يلزم أن يتوجَّه الاستغفار إلى ذنب أو خطأ بعينه، ولكن حال كل أحد مهما اجتهد قاصرة عن أداء ما يجب لله.

﴿ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾: لم يقل: «إنه كان غفارًا»، مع أنه أُمر بالاستغفار، من باب التنويع ورعاية الفواصل، وهو أدل على أن المقصود ليس الاستغفار من ذنوب أو معاصٍ، وإنما هو من باب ختم العمل والحياة بالتذلل لله العظيم حين كان صلى الله عليه وسلم في آخر أيام عمره المبارك، والتوبة رجوع، فناسب ذكرها للإشارة إلى قرب رجوعه صلى الله عليه وسلم إلى ربه، وانقضاء أجله.



## سورة المسد

*** تسمية السورة:**

أشهر أسمائها: «**سورة ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾**»، وهكذا هي في كثير من المصاحف، وكتب التفسير، وبعضهم يزيد فيسميها: «**سورة ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾**»[1].

وتسمَّى: «**سورة المَسَد**»، كما في طائفة أخرى من المصاحف وكتب التفسير[2].

و«**سورة أبي لهب**»، وهذا ذكره جمع من المفسرين[3].

*** عدد آياتها:** خمس آيات، بلا خلاف[4].

*** وهي مكية** باتفاق العلماء[5].

*** سبب نزولها:**

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص759)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 473)، و«صحيح البخاري» (6/ 179)، و«جامع الترمذي» (5/ 308)، و«تفسير السمعاني» (6/ 298)، و«تفسير القرطبي» (20/ 234)، و«التحرير والتنوير» (30/ 599).

(2) ينظر: «سنن النسائي الكبرى» (10/ 350)، و«تفسير الطبري» (24/ 724)، و«المحرر الوجيز» (5/ 534)، و«زاد المسير» (4/ 502)، و«التحرير والتنوير» (30/ 599).

(3) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 298)، و«المستدرك» (2/ 539)، و«تفسير ابن فورك» (3/ 296)، و«تفسير الرازي» (32/ 348)، و«التحرير والتنوير» (30/ 599).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 714)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص295)، و«تفسير القرطبي» (20/ 234)، و«روح المعاني» (15/ 496)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (15/ 435).

(5) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 534)، و«زاد المسير» (4/ 502)، و«تفسير القرطبي» (20/ 234)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 636)، و«روح المعاني» (15/ 496).

جاء من حديث ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]، ورهطَك منهم المخلَصين، خرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا، فهتف: «**يا صَبَاحاه!**». فقالوا: مَن هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فاجتمعوا إليه، فقال: «**يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطَّلب**». فاجتمعوا إليه، فقال: «**أرأيتكم لو أخبرتُكم أن خيلًا تخرجُ بسَفْح هذا الجبل، أكنتم مصدِّقيَّ؟**». قالوا: ما جرَّبنا عليك كذبًا. قال: «**فإني نَذِيرٌ لكم، بين يَدَيْ عذاب شديد**». فقال أبو لهب: تبًّا لك سائرَ اليوم، ألهذا جمعتنا؟! ثم قام، فنزلت هذه السورة: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾[1].

وهذا الحديث يرجِّح أن تكون السورة نزلت في السنة الرابعة من البعثة[2].

* ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ طَغَىٰ﴾:

**التباب** هو: الخسران، والهلاك، والخيبة[3].

وهذه الجملة مقابلة لقول أبي لهب للنبي صلى الله عليه وسلم: «تبًّا لك سائرَ اليوم، ألهذا جمعتنا».

ويحتمل أن يكون هذا على سبيل الدعاء من الله عز وجل عليه، وهذا أولى، وفي لغة العرب إذا تكلم الإنسان بكلام سوء أو فعل فِعل سوء قيل له ذلك.

---

(1) أخرجه البخاري (1394، 4770، 4801)، ومسلم (208).

وأخرجه البخاري (4771)، ومسلم (204، 206) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجه مسلم (205، 207) من حديث عائشة رضي الله عنها، وغيرها نحوه.

(2) ينظر: «البدء والتاريخ» (4/ 146)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص469- 470)، و«المنتظم» (2/ 364)، و«التحرير والتنوير» (14/ 88)، (30/ 99).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 714)، و«تفسير السمعاني» (6/ 299)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص612)، و«تفسير الرازي» (32/ 349).

فعبَّر بيديه؛ لأنه كان يرجم النبي صلى الله عليه وسلم بهما، أو أنه كان يعتقد أن يده هي الغالبة، وهي الطولى، فبيَّن سبحانه أن الأمر ليس كما يزعم، بل يده هي الفاجرة، وصفقته هي الخاسرة.

وقد يعبِّر باليد ويقصد المسمَّى كله، كما قال الله: ﴿١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً﴾ [الحج: 10]، وكما قال سبحانه: ﴿وَٱلۡأُولَىٰ ٢٥ ۞ وَكَم﴾ [الروم: 41]، أي: بما كسبوا؛ لأن غالب ما يفعله الإنسان بيديه.

**وأبو لهب** هو: عبد العُزَّى بن عبد المطَّلب، ولم يذكر الله اسمه؛ لما فيه من النكارة والتعبيد لغير الله، والعُزَّى: اسم صنم في الجاهلية يعبدونه، كما بيَّنه الله تعالى في «سورة النجم».

**يقال**: إن له ولدًا اسمه: لهب، وهذا الولد ليس له ذكر في التاريخ، وقد يكون مات متقدمًا.

**وقيل**: كان يسمى بهذا في الجاهلية لتوهج وجنتيه، وتورد وجهه، فقد كان أبيض أحمر وضيئًا جميلًا، فكانت كلمة أبي لهب كلمة مدح تثني على وضاءته وجماله.

**وقيل**: لُقِّب بذلك؛ لشدة غضبه وسرعة انفعاله[1].

وجاءت الكنية متوافقة مع الوعيد، فهو يكنى أبا لهب، والله تعالى توعَّده بأنه سوف يَصْلَى نارًا ذات لهب، وبهذا تحولت من مدح إلى ذم.

والعرب يطلقون الأب على الوالد، وعلى الملازم للشيء، فيقولون: أبو هريرة، وأبو العينين، وأبو جعدة، وهو الذئب، وجعدة هي: السخلة، فليس هو أباها بالحنو

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 913)، و«التفسير البسيط» للواحدي (4/ 568)، و«تفسير السمعاني» (6/ 299)، و«الكشاف» (4/ 814)، و«تفسير الرازي» (32/ 350)، و«تفسير القرطبي» (20/ 236)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 514)، و«روح المعاني» (15/ 497).

عليها، لكن هو صاحبها الذي يتربص الغفلة منها، وهكذا يقال: «أبو مالك» للبحر، ويقال: «أبو مالك» للطائر الحزين، و«أبو أمامة» للفأر.

وأبو لهب هو عم النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ورد أنه فرح بولادة النبي صلى الله عليه وسلم، كما ذكر البخاري في حديث طويل من قول عروة بن الزُّبير: «فلما مات أبو لهب أُرِيَهُ بعض أهله بشرِّ حِيْبَةٍ[1]، قال له: ماذا لقيتَ؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدَكم راحة، غير أني سُقِيتُ في هذه بعَتاقتي ثُويبةَ». وأشار إلى النَّقيرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع.

وكانت ثُويبة هي التي بشَّرته بولادة النبي صلى الله عليه وسلم، ففرح بميلاده، وأعتقها لهذه البُشرى[2].

وقد كان لأبي لهب ثلاثة أولاد، منهم عُتبة وعُتيبة، وقد تزوج عُتبة وعُتيبة- كما في بعض الروايات- بنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم رقية وأم كلثوم، عقدا عليهما ولم يدخلا بهما، فلما جهر الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة وظاهرته قريش بالعداوة، كان أبو لهب يقول: دعوا الأمر لي؛ فإن لي عند محمد يدًا ومنَّة، وأنا أكفل لكم أن ينتهي أمره، ويوقف هذه الدعوة.

ولم يستجب النبي صلى الله عليه وسلم له؛ فعظم ذلك عليه واشتد عليه، حتى أصبح من أعظم الناس حربًا على النبي صلى الله عليه وسلم، وأمر ولديه بأن يطلقا

(1) بالحاء المهملة، أي: سوء حال. ينظر: «مشارق الأنوار» (1/ 219)، و«النهاية» (1/ 466)، و«لسان العرب» (1/ 339)، و«فتح الباري» (9/ 145)، و«تاج العروس» (2/ 321) «ح و ب».

(2) ينظر: «طبقات ابن سعد» (1/ 87)، و«صحيح البخاري» (5101)، و«سنن البيهقي» (7/ 162)، و«البداية والنهاية» (3/ 407)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (2/ 183)، و«تاريخ الإسلام» (1/ 45)، و«فتح الباري» (9/ 140)، (11/ 431).

بنتي الرسول صلى الله عليه وسلم، وقال لهما: وجهي من وجهيكما حرام، إذا بقيت رقية وأم كلثوم في ذمتكما. فطلقا بنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كان هذا فعلًا رديئًا في منتهى الدناءة، والله تعالى أبدلهما خيرًا منهما وأبر، لكن كان هذا الأمر مع علاقة القرابة وعلاقة الأبوة أمرًا في غاية القبح.

ولما رأى أبو لهب إلحاح النبي صلى الله عليه وسلم في الجهر بالدعوة أصبح يعلن العداوة له، وكانت العرب تنتظر إسلام هذا الحي من قريش، فيقولون: إذا أطاعه قومه أو انتصر، فهو نبي.

وقريش كانت تتربَّص أمر سادتها وزعمائها وأشياخها، وربما كان واسطة العقد في هؤلاء كلهم جميعًا أبو لهب، **لاعتبارات عديدة، منها:**

خاصية القرابة، فهو عم النبي صلى الله عليه وسلم، ونحن نجد بالمقارنة أن أبا طالب كان عم النبي صلى الله عليه وسلم مثل أبي لهب ولم يؤمن به، ولكنه كان حفيًّا به، ومعروفًا بحمايته له، وكان يُجلسه إلى جنبه، ويدافع عنه أشد المدافعة، وله في الثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم قصيدة شهيرة، منها قوله[1]:

ولقد علمتُ بأن دينَ محمدٍ *** من خيرِ أديانِ البريَّةِ دينَا
لولا الملامةُ أو حِذاريَ سُبَّةً *** لوجَدَتني سمْحًا بذاكَ مبينَا

وقوله[2]:

فوالله لولا أن أجيءَ بسُبَّةٍ تَجُرُّ *** على أشياخنا في المحافلِ
لكنَّا اتَّبعناه على كلِّ حالةٍ *** من الدهرِ جدًّا غيرَ قولِ التَّهازُلِ
وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغَمامُ بوجهِه *** ثِمَالُ اليتامى عصمةٌ للأرامِلِ

---

(1) ينظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (2/ 188)، و«سير أعلام النبلاء» (1/ 121- قسم السيرة)، و«ديوان أبي طالب» (ص67، 73، 91).

(2) ينظر: «سيرة ابن هشام» (1/ 276- 280)، والمصادر السابقة.

يلوذُ بهِ الـهُلَّاكُ من آلِ هاشـمٍ *** فهُمْ عندَه في نعمةٍ وفـواضِــلِ

في حين أن أبا لهب كان يلاحق النبي صلى الله عليه وسلم في الأسواق، كعُكاظ ومَـجَنَّة وذي الـمَجَاز، وعند الكعبة، وعند البيت، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول للعرب: «**يا أيها الناسُ، قولوا: لا إله إلا الله؛ تفلحوا**»[1].

يقول راوي القصة: رأيتُ وراءه رجلًا أحمر وضيئًا ذو غديرتين أحول يمشي وراءه ويقول: لا تطيعوه؛ فإنه صابئ كذَّاب مجنون، وإنا لم نجد له طبًّا. يعني: لقد عرضناه على الرُّقاة وعلى الأطباء، ولكننا حتى الآن لم نجد له حلًّا ولا علاجًا، فكان الناس يقولون: مَن هذا؟ فيقال: عمه أبو لهب. فيقال: عمه أبصر به. ويتركون دعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

والكلمة التي قالها أبو لهب أول ما سمع الدعوة العلنية- «تبًّا لك سائرَ اليوم، ألهذا جمعتنا!؟»- ظلَّت منهجًا له حتى مات على الكفر وحرب الدعوة بلا هوادة.

والله تعالى خاطب أنبياءه بأَلَّا يُكْرِهوا الناس على الإيمان، مع أن الدين حق من عند الله الذي خلق الخلق، ومن حقه أن يطيعوه فلا يعصوه، ومع ذلك بيَّن أن الدين لا يتحقَّق ولا يُقبل إلا أن يكون بإيمان وعن قناعة، فكيف بمَن يحاولون إكراه الناس على الباطل والشرك، كما يفعل أبو لهب؟!

---

(1) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (1/ 652)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (37720)، و«مسند أحمد» (16020، 16027، 16066- زوائد عبد الله)، و«سنن النسائي» (5/ 61)، و«صحيح ابن خزيمة» (159)، و«صحيح ابن حبان» (6562)، و«المستدرك» (1/ 15)، (2/ 611- 612)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (5/ 380- 381)، و«تفسير القرطبي» (14/ 242)، و«الإصابة» (14/ 498)، و«الدر المنثور» (15/ 735)، و«روح المعاني» (15/ 499).

وكيف بمَن يحاولون أن يمنعوا الدعوة من أن تنتشر، أو أن يتسامع الناس بها، وأن يمنعوا النبي صلى الله عليه وسلم من حقه في القول والبلاغ؟! وكل ما كان يقوله صلى الله عليه وسلم: «**أيها الناسُ، قولوا: لا إله إلا الله؛ تفلحوا**».

على أن عداوة أبي لهب لم تقتصر على سب النبي صلى الله عليه وسلم وإيذائه بلسانه، بل كان يحرِّض على ذلك، ويؤجِّج العداوة ويسعى في قطع الرحم، وجنَّد معه زوجته وولديه، وقد دعا النبيُّ صلى الله عليه وسلم على ولده عُتيبة؛ لأنه آذى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: «**اللهمَّ سَلِّط عليه كلبًا من كلابك**». فخرج إلى الشام وافترسه الأسد.. في قصة معروفة، وقد ذكر هذا حسان بن ثابت رضي الله عنه[1] في بعض شعره:

مَن يرجعُ العامَ إلى أهلِه *** فما أكيلُ السَّبْعِ بالراجعِ

أما عُتبة ومُعَتَّب فقد أسلما، وحسن إسلامهما، وشهدا مع النبي صلى الله عليه وسلم معركة حُنين[2].

وفي الآية أن الإنسان لا تنفعه قرابته، ولا نسبه، وإنما ينفعه عمله الصالح، كما ذكر تعالى امرأة نوح وامرأة لوط، وابن نوح[1] عبرة في هذا، كما قيل[2]:

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 418)، و«تفسير القرطبي» (17/ 83)، و«ديوان حسان بن ثابت» (ص162- 163).

(2) ينظر: «طبقات ابن سعد» (4/ 55)، (8/ 17)، و«تاريخ الطبري» (11/ 529)، و«تصحيفات المحدثين» للعسكري (2/ 708)، و«المستدرك» (2/ 539)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (5/ 2488، 2972)، و«أعلام النبوة» للماوردي (ص127)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (2/ 338)، و«الاستيعاب» (3/ 1430)، و«تاريخ دمشق» (38/ 301- 302)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (3/ 377- 378)، و«أسد الغابة» (5/ 166)، و«كشف المشكل من حديث الصحيحين» (2/ 544)، و«طرح التثريب» (5/ 69)، و«فتح الباري» (4/ 39)، و«الإصابة» (11/ 208).

لَعَمرُكَ ما الإنسانُ إِلَّا بدينـــهِ *** فلا تَترُكِ التقوى اتِّكالًا على النَّسَب

فقد رَفَعَ الإسلامُ سلمانَ فارسٍ *** وقد وضعَ الشِّركُ الشَّريفَ أَبا لَهَب

وفي التصريح بكنيته معنًى لطيف، فقد كان رأسًا في أذية النبي صلى الله عليه وسلم، فلما نزلت السورة سقط السلاح الذي معه وتم تحييده، وصار إذا تكلم تهامس الناس وقالوا: هذا الذي نزل فيه ما نزل.

والذين يأتون من خارج مكة يسمعون أن الله أنزل فيه سورة تُتلى، فيصبح متَّهمًا، فإذا تكلم في حق النبي صلى الله عليه وسلم لا يُلتفت إليه، وكأن عنده ثأرًا يريد أن يدركه.

ومع شدة قرابته كان النبي صلى الله عليه وسلم يلقى منه الأذى، وكان يلزم الصمت ولا يتكلم؛ لما جبله عليه ربه من حُسن الخُلُق وسعة الـحِلْم، ولما في قلبه من الرغبة في إسلام الناس ودخولهم في الدين، فكان يصبر عليهم، وهو لا يعرف مصيرهم ولا يدري ما يختم لهم به، فكان الله هو الذي تولَّى الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم، كما قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: 38].

**وفيما يتعلق بالتشخيص والتسمية في الإنكار لها جانبان:**

**الأول:** الأصل أن الأمر بالخير والنهي عن الشر يكون على سبيل العموم، دون تسمية أو تحديد، وعليه معظم ما نزل في القرآن الكريم، حتى إن أبا جهل نزلت فيه آيات كثيرة، ولم يسمه الله تعالى مع أنه فرعون هذه الأمة، وهكذا قال صلى الله عليه

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة التحريم»: ﴿نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ...﴾ [التحريم: 10]، و«سورة نوح»: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ...﴾ [نوح: 28].

(2) ينظر: «مفيد العلوم» (ص378)، و«تاريخ دمشق» (67/ 137)، و«ديوان علي بن أبي طالب» (ص12).

وسلم: «**ما بالُ أقوام يفعلونَ كذا وكذا**». ولم يسم؛ من باب الستر عليهم وإطفاء الشر وفتح باب التوبة والرجوع لمن أراد الله هدايته.

**الثاني**: بعض الحالات تحتاج إلى التصريح باسم إنسان ما، لمصلحة عامة؛ كما إذا كان رأسًا في الشر، وشديد النكاية والأذى للمؤمنين، وعظيم الصد عن سبيل الله، واضح المجاهرة والاستخفاف، مع ملاحظة أن الشخص المذكور في السورة كافر، فلو أن أحدًا تكلم عن رؤوس الكفر الذين يحملون راية الحرب على الإسلام، لم يكن في ذلك من بأس، وهذا ينسجم مع الدرس الذي تلقنه «سورة ﴿ **أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ** ﴾»، والمتكلم هو الله الذي علم أنه لن يؤمن هو ولا زوجه، ولكن كتب الله بعد ذلك الهداية لولديه عُتبة ومُعَتَّب أسلما بعد الفتح، وسُرَّ النبي صلى الله عليه وسلم بإسلامهما سرورًا عظيمًا، واستقبلهما وهَشَّ لهما وبَشَّ، وشهدا مع النبي صلى الله عليه وسلم معركة حُنين، ولما هرب الناس وانفضوا كانا من الذين ثبتوا، وعني النبي صلى الله عليه وسلم بهما، وأعاد اللُّحمة الماضية، وتحولت العداوة العائلية القديمة إلى محبة ونصرة، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن إيذائهم، حتى إنه لما قال رجلٌ لدُّرة بنت أبي لهب: أنت بنت عدو الله أبي لهب. فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تشتكي، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**لا يُؤذَى مسلمٌ بكافر**»[1]. أي: لا يعيَّر هؤلاء بأبيهم.

وكان من حكمة الناس أن يقولوا: «أَبْقِ للصلح موضعًا». ومصداق هذا في القرآن: ﴿ **شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ** ﴾ [الممتحنة: 7].

---

(1) ينظر: «الحلم» لابن أبي الدنيا (112)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (6/ 3324)، (7624)، و«تاريخ دمشق» (67/ 172)، و«روح المعاني» (15/ 511).

والمرء ينتقل ويتغيَّر ويتطوَّر، ولا تكاد تراقب إنسانًا إلا وجدته في العشرين غيره في الأربعين غيره في الستين، خاصة إن كان صاحب ضمير حي واطلاع واسع وفكر نير، فمن البصيرة أَلَّا يحاصَر هؤلاء بالأحكام الحاسمة، وأَلَّا يعامَلوا وكأنهم أعداء لله ورسوله أو أولياء للكافرين.

وبعض الغيورين يتسرعون في الحكم على المخالفين بالتفسيق أو التكفير، وربما صار الحكم أو التصنيف محاصرة له لا لهم؛ لأنه لا يريد أن ينسخ هذا الحكم ولا أن يغيِّره، فلو بدا منهم تعديل أو تصحيح لم يقبله؛ واعتبره تمويهًا أو خداعًا ؛ لأنه لا يريد أن يغيِّر حكمه، ولو أخذه على أنه بداية التحول أو الخطوة الأولى في التصحيح، لكان أخلق بروح الداعية الحريص.

﴿١٢﴾ إن كان أول الآية دعاء عليه، فالمعنى أنه قد حصل وتحقَّق الذي دعا الله تعالى عليه وهو محقَّق، كما قال النَّابغة[1]:

جزى ربُّه عني عديَّ بنَ حاتمٍ *** جزاءَ الكلابِ العاوياتِ وقد فَعَلْ

والدعاء من الله هو بمعنى الحكم، لكن فيه توبيخ وتقريع وتحقير له، والثاني خبر صريح بحال هذا الإنسان.

وفي الآية احتمال آخر أن أول الآية بيَّن أن التَّباب ليديه، وآخرها عمم التَّباب له كله.

* ﴿رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ رَأَىٰ﴾:

---

(1) ينظر: «الخصائص» لابن جني (1/ 295، 296)، و«تفسير الرازي» (1/ 64)، و«التحرير والتنوير» (30/ 603)، ونُسب أيضًا إلى أبي الأسود الدُّؤلي وغيره. ينظر: التعليق على «الخصائص».

إما أن يكون المقصود بماله: ما ورثه عن آبائه وأجداده، وما كسب: ما كسبه بجهده وعرقه؛ لأنه كان يفتخر، ويقول: لو بُعِث الناس فسوف أفتدي نفسي بمالي وولدي، فرد الله تعالى عليه ذلك.

أو يكون المقصود بالكسب ما هو أوسع من المال؛ لأن الولد من الكسب، كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**إن أطيبَ ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادَكم من كسبكم**»(1). **ومن الكسب**: الجاه والمجد والسُّمعة.

فأما المال، فقد صار للوارث، وأما الكسب، فقد تبرؤوا منه، ولم يكن يشرِّفهم أن يقولوا: نحن أولاد أبي لهب، وكانوا يتمنون أن يكون لهم اسم غير هذا الاسم، وأن يكون لأبيهم غير هذا المصير، وهذا في الدنيا، وأما في الآخرة، فلا ينفعه عمل ولا شفاعة ولا قرابة، حتى الذين أسلموا من أولاده لا ينفعه إيمانهم.

* ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ١٤ رَبِّهِ﴾:

عبَّر بالسين؛ دلالة على القرب، فالوعد قريب، والدنيا قصيرة.

**والصَّلْي** هو: الشَّي، أي: يُشوى بالنار(2)؛ لأنه صاحب رسالة إلحاد وكفر، وصد عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، وفي أيام المواسم كان أكثرهم شرفًا وجاهًا وأطولهم نارًا، يَصْطَلِي حولها، وحوله الأكابر من زعماء قريش وزعماء العرب الذين

---

(1) أخرجه الطيالسي (1685)، وأحمد (25296)، وأبو داود (3528، 3529)، والترمذي (1358)، وابن ماجه (2137)، والنسائي (7/ 240)، وابن حبان (4260)، والحاكم (2/ 46) من حديث عائشة رضي الله عنها. وينظر: «علل ابن أبي حاتم» (1396، 1418)، و«علل الدارقطني» (14/ 250)، و«المنتخب من علل الخلال» (208، 209)، و«إرواء الغليل» (1626).

(2) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (2/ 1361)، و«زاد المسير» (1/ 471)، و«تفسير القرطبي» (5/ 158)، و«روح المعاني» (2/ 425)، و«التحرير والتنوير» (19/ 225)، وما تقدم في «سورة الانفطار»: ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا﴾، و«سورة المطففين»: ﴿أُخْرَىٰ ١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ صَاحِبُكُمْ﴾.

يحضرون هذه المناسبات، وهو يخشى أن يتسرب إليهم شيء من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، فيرميه بالكذب والجنون وغيرهما، فتوعَّده الله تعالى بنار الآخرة، ووصفها بـ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ تناسبًا مع كنيته التي كان يفتخر بها.

* ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ أَفَرَءَيْتُمُ﴾:

قد يكون هذا الرفع على الاستئناف.

وكنيتها: أم جَمِيل، واسمها: أَرْوَى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان، وعمة معاوية رضي الله عنهما، فهي امرأة شريفة في ذؤابة قريش نسبًا ورِفعة ومكانة، وكانت من سيدات نساء قريش، ولكن علاقتها مع أبي لهب وانسجامها معه وتقبلها لما هو عليه جعلها أيضًا شديدة العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم.

وسبب وصف امرأة أبي لهب بحَمَّالة الحطب- على قول بعض المفسرين-: إنها كانت تحمل الحطب والشوك وتلقيه في طريق النبي صلى الله عليه وسلم؛ حتى يعقر إذا مرَّ بالطريق، **وهذا محتمل**.

لكن روى ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد- وحسبك به في التفسير- أنه فسَّر هذه الآية تفسيرًا آخر، فقال: كانت تمشي بالنميمة[1].

وعلى هذا فمعنى كونها حمالة الحطب: أنها كانت تمشي بالنميمة، وبالكلام الذي يوقد نيران العداوة والبغضاء بين الناس كما تُوقد النيران بالحطب.

وهكذا رُوي عن قتادة والحسن وعكرمة أنها كانت تنقل الأحاديث من بعض الناس إلى بعض[2].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص759)، و«تفسير الطبري» (24/ 721)، و«التفسير البسيط» للواحدي (24/ 415)، و«المحرر الوجيز» (5/ 535)، و«زاد المسير» (4/ 503)، و«تفسير القرطبي» (20/ 239).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 720- 721)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 515)، و«الدر المنثور» (15/ 737)، والمصادر السابقة.

والعرب تقول: فلان يحطب على فلان، أي يجمع أخطاءه وأغلاطه، وما يقال فيه، وما ينسب إليه، ويزيد من كيسه[1].

وكأن هذا أنسب مع حال المرأة؛ لأنها كانت شريفة، ومثلها لا تباشر المهنة بنفسها.

ولا يبعد أن تقوم بذلك لما تجده في نفسها، أو أن تكون فوَّضت بعض خدمها أن يقوم بحمل الحطب وإلقائه في وجه النبي صلى الله عليه وسلم، ونسب إليها على سبيل المجاز.

* ﴿يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ ۝١٩﴾:

بين الجِيد والعنق فرق، فإن العرب لا يذكرون الجِيد غالبًا إلا إذا كان جميلًا طويلًا، فإذا أرادوا الثناء على المرأة قالوا: جِيدها كأنه إبريق فضة.

والغالب أنهم إذا ذكروا الجِيد ذكروا موضع القِلادة، كما قال امرؤ القيس[2]:

وجِيدٍ كجيدِ الرِّئْمِ ليسَ بفاحشٍ *** إذا هـي نصَّـتْـهُ ولا بمُعَـطَّلِ[3]

وذكر موضع القلادة فقال:

ترائبُها مَصْقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ[4]

---

(1) ينظر: «تأويل مشكل القرآن» (ص103)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص542)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 326)، و«مجمع الأمثال» (1/ 256).

(2) ينظر: «ديوان امرئ القيس» (ص40- 43).

(3) **الرِّئم**: الظبي الأبيض، **والنَّص**: الرفع. ينظر: «طبقات فحول الشعراء» (1/ 88)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 312)، و«زاد المسير» (4/ 429)، و«روح المعاني» (15/ 308).

(4) **التّرائب**: موضع القلادة من الصدر، **والسَّجَنْجَل**: المرآة، بالرومية، **وقيل**: سبيكة الفضة.

ولذا بيَّن قلادتها هنا وأنها ﴿ مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ ﴾ فهذه قلادتها في النار؛ والله أعلم؛ لأنه لم يكن يعرف أنه كان يوضع في عنقها في الدنيا حبل من مَسَد، والـمَسَد هو: اللِّيف الشديد الخشن[1]، والعرب كانت تفتل الحبال فتلًا قويًّا من ليف أو من غيره.

ابتدأ الله تعالى السورة بذكر أبي لهب، وأنه سيصلى نارًا ذات لهب، واختتمها بذكر امرأته، وأن في جِيدها حبلًا من مسد، وفي هذا بيان بأن المعركة مع الباطل ليست معركة ذكورية أو أنثوية، فأعداء الإسلام هم من الرجال ومن النساء، والمؤمنون والدعاة والصالحون هم أيضًا من الرجال ومن النساء، والله يقول: ﴿ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ ﴾ [آل عمران: 195]،والله تعالى أعلم.



---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 723)، و«تفسير البغوي» (5/ 328)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 516).

## سورة الإخلاص

* **سورة الإخلاص** أعظم سور القرآن الكريم، وحين يَدْلِفُ المرء إلى تفسير هذه السورة العظيمة يحس بالهيبة، ويشعر أنه ينبغي عليه أن يتهيَّأ نفسيًّا بقدر من الصفاء واليقين للدخول إلى هذا الحرم القدسي الذي فيه مباحث تتعلق بذات الرب سبحانه وأسمائه وصفاته.

* **تسمية السورة:**

لهذه السورة أسماء كثيرة، وكثرة الأسماء تكون دليلًا على عظمة المسمَّى، فقد ذكر الفخر الرازي لها عشرين اسمًا، وغالبها أوصاف.

منها: «**سورة الإخلاص**»، وسمِّيت به في معظم المصاحف وكتب التفسير[1]، ولعله أشهر أسمائها، وسمِّيت به لما تضمنته من التوحيد والثناء على الله.

ولأجل هذا سُمِّيت «سورة ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾»: «سورة الإخلاص» أيضًا[2]؛ إذ بين السورتين ارتباط عقدي، وتعبدي؛ فـ«سورة الكافرون» فيها البراءة من الشرك، و«سورة ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾» فيها إثبات التوحيد، والإنسان بحاجة إلى التخلية قبل التحلية، أي: التخلية من الشرك قبل التحلية بحقائق الإيمان.

ولهذا يقول العلماء: إن للإخلاص ركنين: النفي، والإثبات.

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 917)، و«جامع الترمذي» (5/ 308)، و«سنن النسائي الكبرى» (7/ 263)، و«تفسير الطبري» (24/ 727)، و«صحيح ابن حبان» (3/ 73)، و«المستدرك» (2/ 540)، و«المحرر الوجيز» (5/ 536)، و«التحرير والتنوير» (30/ 612).

(2) ينظر ما تقدم في «سورة الكافرون».

**ويقول بعضهم: الحق ركنان: بنَّاء، وهدَّام، فركن الهدم:** «سورة ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾» التي هدمت الأوثان المعبودة من دون الله عز وجل، **وركن البناء:** «سورة ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾» التي جاءت لبناء التوحيد لله الواحد القهار.

ومن أسمائها: «**سورة** ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾»[1]، فقد جاء في أكثر من حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن «﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾ تعدل ثلث القرآن». وهو مروي عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم[2].

و«**سورة الله الواحد الصمد**»، وهذا الاسم جاء في «صحيح البخاري»، وفي «السنن» أيضًا[3].

و«**سورة الصمد**»، كما ذكره غير واحد من أهل الحديث والتفسير[4]؛ وذلك لأن هذا الاسم الشريف لم يذكر في القرآن في غير هذا الموضع.

وتُسَمَّى مع ﴿يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ﴾، و﴿أَوۡحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ﴾ بـ«المعوِّذات»، كما سيأتي في «سورة الفلق».

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 475)، و«صحيح البخاري» (6/ 180)، و«روح المعاني» (15/ 305)، و«التحرير والتنوير» (30/ 609).

(2) مروي عن أبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي مسعود، وأبي الدرداء، وغيرهم رضي الله عنهم. ينظر: «مسند أحمد» (9535، 11306، 17109، 21705)، و«صحيح البخاري» (5013- 5015، 6643، 7374)، و«صحيح مسلم» (811، 812)، وغيرهم.

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (5015)، و«جامع الترمذي» (2896)، و«سنن النسائي الكبرى» (10463)، و«تفسير القرطبي» (20/ 247)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 520)، و«التحرير والتنوير» (30/ 609).

(4) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص760)، و«سنن أبي داود» (2/ 72)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص296)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (22/ 348)، و«إرشاد الساري» (7/ 438)، و«التحرير والتنوير» (30/ 610).

* **عدد آياتها:** أربع آيات، **وقيل:** خمس آيات، باعتبار قوله: ﴿غَوَىٰ ۝٢﴾ آية، و﴿ وَمَا يَنطِقُ ﴾ آية[1].

* **توقيت نزولها:**

**هي مكية** عند جمهور العلماء، **وهو الأقرب**[2]؛ لملاحظة قصر آياتها، كما هو الشأن في السور المكية غالبًا، وخلوصها في تقرير العقيدة، ومن المعلوم أن الآيات والسور المكية كانت تُعنى ببيان العقيدة، وغرسها في النفوس دون ربطها بالأحكام، أما السور المدنية فهي تشتمل على أحكام الحلال والحرام وأمور التشريع.

ولِما ذُكر في سبب النزول، فقد جاء عند الترمذي، وغيره، أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: انسُب لنا ربك. أي: ما نسبته، وما هو؟! فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾[3].

وقد ورد أن أهل الكتاب جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسألوه هذا السؤال، فأجابهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجواب نفسه، وهو هذه السورة[4].

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 921)، و«تفسير الطبري» (24/ 727)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص296)، و«تفسير القرطبي» (20/ 244)، و«التحرير والتنوير» (30/ 612).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 921)، و«تفسير الطبري» (24/ 727)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 330)، و«المحرر الوجيز» (5/ 536)، و«زاد المسير» (4/ 505)، و«تفسير القرطبي» (20/ 244)، و«التحرير والتنوير» (30/ 611).

(3) أخرجه أحمد (21219)، والترمذي (3364)، والطبري في «تفسيره» (24/ 727)، والحاكم (2/ 540) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 729)، و«تفسير البغوي» (5/ 329)، و«المحرر الوجيز» (5/ 536)، و«زاد المسير» (4/ 505)، و«تفسير الرازي» (32/ 357)، و«التحرير والتنوير» (30/ 611).

ولا يمنع أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم تلاها على اليهود الذين جاوروه بالمدينة حين سألوه عن الله عز وجل، وقد كانوا يسألون على سبيل التعنُّت.

وهكذا نصارى نجران جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسألوه، فأجابهم بنحو ذلك[1].

ولا ينافي هذا أن تكون السورة نزلت قبل ذلك بمكة، وقد يكون بعض الرواة ظن أن وقت تلاوتها عليهم كان وقت نزولها.

**❊ فضلها:**

ذكر الدارقطني، وغيره أنه لم يرد في فضل سورة من القرآن ما ورد في فضلها، سواء من حيث كثرة الروايات، أو من حيث صحتها[2].

**ويكفي في فضلها:** قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**إنها تعدل ثلث القرآن**». وجاء من طرق كثيرة، وصنَّف فيه الإمام ابن تيمية: «جواب أهل العلم والإيمان بتفسير ما أخبر به رسول الرحمن بأن ﴿**وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ①**﴾ تعدل ثلث القرآن».

**وأما معنى كونها تعدل ثلث القرآن:** فقد ذهب بعض العلماء إلى أن ذلك من جهة أن القرآن الكريم، إما أن يكون أحكامًا، أو يكون أخبارًا عن الماضي أو عن الغيب، أو يكون توحيدًا وعقائد، وهذه السورة تخلَّصت وتمحضت للكلام عن التوحيد والإيمان والعقائد، فصارت تعدل ثلث القرآن من حيث النظر إلى موضوع السورة وتعلقها بقضية التوحيد.

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (10/ 333)، و«تفسير الرازي» (32/ 357)، و«مجموع الفتاوى» (17/ 453)، و«السيرة الحلبية» (2/ 156).

(2) ينظر: «مجموع الفتاوى» (17/ 6).

وذهب آخرون في معنى ذلك إلى أن القرآن إما خبر أو إنشاء، فالإنشاء هو الأوامر والنواهي، والأخبار إما أخبار عن الله، وإما أخبار عن الخلق، وهذه السورة خبر عن الله عز وجل، فصارت ثلث القرآن بهذا الاعتبار.

وذهب فريق ثالث من العلماء إلى القول بأنها ثلث القرآن في الأجر، من غير أن يقصدوا المعنى، فمَن قرأ هذه السورة فله أجر مَن قرأ ثلث القرآن، مع أنها لا تعدل ثلث القرآن في الأحكام، ولو أن إنسانًا قرأ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾ ثلاث مرات في الصلاة، فلن تجزئه عن قراءة الفاتحة؛ إذ ليس المقصود أنها تعدله من كل وجه.

وذكر ابن عبد البر أن السكوت في هذه المسألة وما كان مثلها أفضل من الكلام فيها وأسلم[1].

ولعل مراده الإشارة إلى أن قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**تعدل ثلث القرآن**». أراد به الإشادة بفضلها، وعظمة معانيها، ودقائق أسرارها، وأن العبد لو أكثر من قراءتها وتدبرها لنفعه الله تعالى بها نفعًا عظيمًا، وهذا كافٍ دون الحاجة إلى الخوض في سر كونها تعدل ثلث القرآن.

* ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾ طَغَىٰ﴾:

استفتحت السورة بـ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾، وقد خُوطب النبي صلى الله عليه وسلم بهذا اللفظ في ثلاثمئة وعشرين موضعًا من القرآن الكريم، هذا أحدها.

---

(1) ينظر: «نزهة الأبصار في مناقب الأنصار» (ص299- 301)، و«الاستذكار» (2/511- 512)، و«التمهيد» (19/228- 232)، و«تفسير القرطبي» (20/247)، و«التحرير والتنوير» (30/609- 621).

ويتبين بالاستقراء أن عددًا غير قليل من هذه المواضع كان النبي صلى الله عليه وسلم يتلقَّى فيها أسئلة الناس ثم يجيب الله تعالى عنها، ويُوجِّه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم فيقول: «قل لهم..».

وقد تكون هذه الإجابات لأسئلة المسلمين، كما في قوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: 189]، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 220].

وقد تكون لأسئلة غير المسلمين طُرحت على سبيل الاستشكال، أو التعنُّت، أو الإحراج للنبي صلى الله عليه وسلم، أو السخرية.

**فمن ذلك**: سؤال الوثنيين النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن ينسب لهم ربه؛ لأنهم كانوا يعرفون الأصنام التي يرونها بأعينهم عند الكعبة، وعند الصفا والمروة، وفي الطائف، وكانت مصنوعة من حجارة أو خشب على شكل إنسان، وأصبح المعنى العظيم للألوهية مرتبطًا عندهم بالأوثان التي تعوَّدوا على رؤيتها، فلما عرفوا اسم الله العظيم، كان فيه شيء من الدهشة عندهم، كما قال تعالى: ﴿ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً ﴾ [الفرقان: 60]، وقالوا: لا نعرف إلا رحمان اليمامة، فلهذا جاء بعض المشركين إلى النبي صلى الله عليه وسلم قائلين له: انسُب إلهك: أحجر هو؟ أحديد هو؟ كما تقدم[1].

سألوا هذا على وفق ما كانوا يعتقدون، وما كان في عقولهم السخيفة في الجاهلية من تصور الآلهة بطريقة ساذجة مادية.

---

(1) تقدم أول السورة.

**ومن ذلك:** سؤال اليهود والنصارى النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن الله، وهي أسئلة خُبث، فكان سؤالهم على سبيل التحدِّي والإحراج، وأحيانًا على سبيل التظاهر بالعلم؛ لأن عندهم علم من الكتاب، فهم يفتخرون به.

**ومن أسئلتهم:** سؤالهم النبي صلى الله عليه وسلم عن الولد، كيف ينزع إلى أبيه أو أمه؟ وسؤاله عن أول طعام يأكله أهل الجنة؟[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ إشارة إلى أن العقيدة تُتَلقَّى من عند الله، وأما البشر فإنهم لا يستطيعون أن يحيطوا به تعالى علمًا، ولا أن يعرفوا العقيدة لو لم يعلِّمهم ويعرِّفهم بها، والله تعالى يقول للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ﴾ [الشورى: 52]، وليست العقائد مما يُدرك بالعقل المجرد.

ولو نظرت إلى أكابر الفلاسفة من أمثال سُقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وإلى كلام أهل العلم في كل مجالات الحياة، لوجدت الكلام الذي يقولونه عن الله مضطربًا ضعيفًا، لا يزرع هيبة في القلوب، ولا يجيب على أسئلة العقول، ولا يزيل شبهة، ومع ذلك فهو مقصور على الباحثين والمتخصِّصين، ولا يصل إلى العامة وسائر المكلَّفين.

فالنبوة هي التي تعرِّف الناس بربهم حق المعرفة بواسطة الوحي المنـزَّل من حكيم حميد.

ونحن نؤمن بأن الفطرة السليمة مثل الورقة البيضاء التي تقبل الكتابة عليها، وتستجيب لها، وتفرح بالهداية إذا وصلت إليها، وتنسجم معها.

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (3329، 3938، 4480)، و«صحيح مسلم» (311، 313، 315).

ونؤمن بأن العقل السليم يتقبل المعاني الصحيحة، كما قال ابن تيمية: «إن الأنبياء هم أكمل الناس كشفًا، وهم يخبرون بما يعجز عقول الناس عن معرفته، لا بما يُعرف في عقولهم أنه باطل، فيخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول».

ومعنى هذا أنه لا يوجد في الشريعة شيء يناقض العقل، ولكن يوجد في الشريعة أشياء تتحيَّر فيها العقول؛ لأنها أكبر من العقول[1]، كما قال القائل[2]:

فيك يا أُعجوبـةَ الكَـوْ *** نِ غدا الفِكْرُ كليـلَا

أنت حيَّرْتَ ذوي اللُّبْـ *** ـبِ وبَلْبَلْتَ العقولَا

كلـما أَقْـدَمَ فـكـري *** فيك شبرًا فَـرَّ مـيـلَا

ناكصًـا يخـبـطُ في عَمْـ *** ـياءَ لا يُهْدَى السبيلَا

والإجابات الصحيحة عن الله تعالى وعن عالم الغيب لا يمكن الحصول عليها بواسطة العقل، ولا بواسطة الفطرة السليمة فقط، ولا بواسطة النظر البشري، بل عن طريق الوحي الذي تتقبَّله الفطرة ويصدِّقه العقل.

**فإن قيل**: إن الفطرة قد تهدي الإنسان إلى الإيمان بوجود الله تعالى؛ إذ إن من جملة الأدلة على وجود الله تعالى أدلة الفطرة!

فهذا صحيح، لكن لو أن إنسانًا اهتدى بفطرته إلى معرفة وجود الله تعالى، فإنه لن يهتدي إلى معرفة التفاصيل عن أسماء الله تعالى، وعن صفاته، وعما يجب له من ألوان العبادات.

---

(1) ينظر: «الجواب الصحيح لَمن بدَّل دين المسيح» (4/ 309، 400)، و«الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص115- 116)، و«بيان تلبيس الجهمية» (2/ 361)، (8/ 533)، و«درء تعارض العقل والنقل» (2/ 214)، (5/ 296- 297)، (7/ 327)، و«مجموع الفتاوى» (2/ 312)، (11/ 243- 244)، (17/ 444).

(2) تقدم تخريجه في «سورة الحديد»: ﴿ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا﴾.

وفي قوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ إشارة إلى تشبُّع النبي صلى الله عليه وسلم بهذه المعاني، واستغراقه فيها، فهي وإن كانت وحيًا من عند الله تعالى بالقطع واليقين، إلا أنه نزل بها جبريل الأمين على قلب النبي صلى الله عليه وسلم فتشرَّبها، وتشبَّع بها، وآمن بها، واستغرق النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المعاني، فخالطت بشاشته.

فإذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ فإنما يقولها كما أُمر، وظاهره وباطنه صلى الله عليه وسلم متواطئان منسجمان، يقولها بلسانه وقلبه وعقله، وتُذْعِن لذلك جوانحه وجوارحه.

كما أن المجيء بلفظة ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ لأنها تتعلق بأعظم وأشرف علم ينبغي أن يتلقاه الناس، وهو العلم بالله تبارك وتعالى.

**فإن قيل:** في القرآن الكريم كثير من الآيات التي فيها تلقين العقيدة من غير أن يكون فيها ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾؟!

**فالجواب: أن لهذه السورة خصائص:**

1- أنها كلها من أولها إلى آخرها في أمر التعريف بالله، وهذا ليس لغيرها من السور.

2- أن فيها معاني خاصة ليست في غيرها، كاسم الله «الصَّمَد»، وهو من الأسماء العظيمة والدعاء به له سر، كما أن كل اسم من أسماء الله الحسنى عظيم وله سر، وهو مأمور به، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180].

﴿إِذَا﴾ ضمير غائب من حيث اللفظ، والله تعالى حيٌّ لا يموت، حاضر لا يغيب، وهو ضمير الشأن، للإشادة بالخبر، والاهتمام به، ولفت نظر المستمع، فكأنه تعالى يقول: هذا الذي تسألون عنه، وتنكرونه، وتعبدون غيره، وتتطلعون إلى معرفته ﴿إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾.

وقد يكون في هذا إشارة إلى سؤالهم، فكأنه يقول: لما سألوا: مَن ربك؟ قال: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾.

﴿هَوَىٰ﴾ هو الاسم العلم الذي تُنسب إليه الأسماء الأخرى، كما في قوله سبحانه في آخر سورة الحشر: ﴿مَا يَغْشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ لَقَدْ﴾ [الحشر: 22].

**وقيل هو**: الاسم الأعظم، أو في ضمن الاسم الأعظم، وقد جاء في غير ما حديث أن رجلًا قال: اللهمَّ إني أسألك بأني أشهدُ أنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلد ولم يُولد، ولم يكن له كفوًا أحدٌ. فقال صلى الله عليه وسلم: «**والذي نفسي بيده، لقد سألَ اللهَ باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجابَ، وإذا سُئل به أعطى**»[1].

وفي حديث آخر أن رجلًا دعا، وقال: اللهمَّ إني أسألك بأن لك الحمدُ، لا إله إلا أنت، المنَّان، يا بديعَ السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيومُ. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**والذي نفسي بيده، لقد دعا اللهَ باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجابَ، وإذا سُئل به أعطى**»[2]. وما تقدَّم أصح منه.

فأجمع لفظ مشتمل على **اسم الله الأعظم** يكون: «الله الذي لا إله إلا هو الحيُّ القيومُ، الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلد ولم يُولد ولم يكن له كفوًا أحدٌ، المنانُ، بديعُ السماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام»[3].

---

(1) أخرجه أحمد (21874)، وأبو داود (1493)، والترمذي (3475)، وابن ماجه (3857) من حديث بُريدة بن الـحُصيب رضي الله عنه.

(2) أخرجه أحمد (12150، 13081)، وأبو داود (1495)، والترمذي (3544)، والنسائي (1300)، وابن ماجه (3858)، وابن حبان (893)، والحاكم (1/ 503- 504).

(3) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص43- 48).

﴿هَوَىٰ﴾ هو الاسم الذي لا يُسمَّى به غيره سبحانه، وكذلك «الرحمن»، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الإسراء: 110].

وأما بقية الأسماء فقد يُسمَّى ببعضها غير الله تعالى، فالله يقول: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الإنسان: 2]، وقال: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: 128]، ولكن إطلاقها على المخلوقين باعتبار، وعلى الخالق باعتبار آخر، فتُطلق على المخلوق بما يناسبه من ضعف، وعلى الله عز وجل بما يناسبه من الكمال والجلال والعظمة.

﴿ا﴾ أي: واحد، وهذا من حيث أصل المعنى اللُّغوي، إلا أن كلمة ﴿ا﴾ أبلغ وأدل على المقصود، وأكثر تمكنًا، ودلالة على نفي الشريك، وقد دخل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المسجدَ ذات مرة، فإذا هو برجل قد قضى صلاته وهو يتشهَّد وهو يقول: اللهمَّ إني أسألُكَ يا الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحدٌ أن تغفر لي ذنوبي؛ إنك أنت الغفورُ الرحيمُ. فقال صلى الله عليه وسلم: «**قد غُفر له، قد غُفر له، قد غُفر له**»(1). والحديث لا بأس بإسناده.

وأما «الفرد» فهي كلمة شائعة على ألسنة الناس، ولم يثبت في حديث صحيح أنه من أسماء الله تعالى(2).

---

(1) أخرجه أحمد (18974)، وأبو داود (985)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (2385)، والنسائي (3/ 52)، وابن خزيمة (724)، والطبراني في «المعجم الكبير» (20/ 296) (702)، والحاكم (1/ 267)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (97)، وفي «الدعوات الكبير» (107) من حديث مِحْجَن بن الأدرع رضي الله عنه.

(2) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص44).

فـ«الأحد» اسم من أسماء الله الحسنى، وهو اسم عظيم؛ ولذلك كان شعار المسلمين في معركة بدر: «أَحَدٌ أَحَدٌ»، وكان بلال بن رباح رضي الله عنه حين عذَّبه المشركون بمكة في الرمضاء يصرخ ويقول: «أَحَدٌ أَحَدٌ، والله لو أعلمُ كلمة هي أغيظ لكم من هذه الكلمة لقلتها»[1].

وهذا تأسيس للعبودية في السورة؛ ففيها بيان أن الله عز وجل «واحد أحد»، ولا معبود بحق معه، فكل ما يدعيه الناس من الآلهة والمعبودات مرفوض، وهي مجرد أسماء، كما قال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ [يوسف: 40]، فالمعنى الأول في الأحدية: أن الله تعالى أحد في ذاته، ليس معه إله آخر؛ فلا خالق، ولا رازق، ولا مالك، ولا رب، ولا مدبر في الكون، إلا هو جل وعلا.

والله تعالى أحد في أسمائه وصفاته، فإن الله تعالى له الأسماء الحسنى، والصفات العليا، ما لا يحيط بكنهه أحد، ولا يدركه عقل، ولا يصل إليه ظن ولا وهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: 110].

ورؤية المؤمنين لربهم جل وعلا يوم القيامة كائنة كما أخبر الله عز وجل، أما ذاته عز وجل وعظمته ومجده وكبرياؤه وجلاله وجماله وكماله، فهو مما لا يحيط به خلقه، وهذا من أحديته في أسمائه وصفاته.

**ومن أحديته** عز وجل: استئثاره بأسماء لا يعلمها أحد ولم يطَّلع عليها مخلوق، ولهذا كان من جملة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «**أسألُكَ بكل اسم هو لك؛ سمَّيتَ**

(1) ينظر: «سيرة ابن هشام» (1/ 634)، و«طبقات ابن سعد» (3/ 213- 214)، و«مسند أحمد» (3832)، و«فضائل الصحابة» لأحمد (191)، و«صحيح ابن حبان» (7083)، و«المستدرك» (3/ 284)، و«تاريخ دمشق» (10/ 439- 444)، و«تحفة الصديق في فضائل أبي بكر الصديق» لابن بلبان (ص80)، و«سير أعلام النبلاء» (1/ 348)، و«البداية والنهاية» (5/ 100)، و«تفسير ابن كثير» (4/ 606)، و«التحرير والتنوير» (30/ 615).

به نفسكَ، أو أنزلته في كتابكَ، أو علَّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندكَ...» الحديث[1].

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: «**إن لله تسعةً وتسعينَ اسمًا، مئةً إلا واحدًا، مَن أحصاها دخلَ الجنةَ**»[2]. فلا يعني أن الأسماء محصورة في هذا العدد، وإنما المراد: أن من أسماء الله تعالى تسعة وتسعين اسمًا موجودة في القرآن والسنة، مَن أحصاها وفهمها وعمل بها دخل الجنة[3].

وأحديته تعالى تفرض أن كل ما يكون من تصورات وخيالات تعرض للسامع أو القارئ عن الله تعالى، فإنما هي من إلقاءات الشياطين، أو من خيالات النفس، ولا اعتبار لها ولا قيمة، ولا يضر الإنسان أن تقع هذه الصورة والأخيلة على صفة من النقص؛ لأن «كل ما خطر ببالك فالله ليس كذلك»، ومما يُنسب إلى علي رضي الله عنه في هذا المعنى قوله[4]:

العجزُ عن دَرَكِ الإدراكِ إدراكُ *** والبحثُ عن سِرِّ ذاتِ السِّـرِّ إشراكُ

أي: أنه يكفي الإنسان أن يدري ويدرك أنه عاجز عن الإحاطة بربه تبارك وتعالى.

ويكفي في هذا أن يتخيل الإنسان حجمه ومكانته بالنسبة إلى الأرض، والأرض بالنسبة إلى الكون، والبحار وأعماقها، وليتدبر قوله تعالى: ﴿**إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ**

---

(1) أخرجه أحمد (3712، 4318)، وأبو يعلى (5297)، وابن حبان (972)، والحاكم (1/ 509)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (7، 8) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (199)، وما تقدم في «سورة الحشر»: ﴿مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

(2) أخرجه البخاري (2736، 7392)، ومسلم (2677) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص35- 42).

(4) تقدم تخريجه في «سورة الحديد»: ﴿ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا﴾.

ٱلۡقُوَىٰ ﴿٥﴾ [الحاقة: 38- 39]؛ فإذا تدبر ذلك أدرك أنه مخلوق صغير لا يكاد يذكر، وأن عقله الذي يفكر به لو وضع في كأس لوسعه، فكيف يُريد أن يحيط بعلم الله تعالى؟

**ومن لوازم أحديته:** وجوب توحيده في إلاهيته، فلا يُعبد إلا الله، وجميع صور العبادة القلبية والحسية البدنية الظاهرة والباطنة لا يجوز أن تصرف إلا لله، وهذا مخُّ ما جاء به الأنبياء والمرسلون، كما قال تعالى حكاية عنهم أنهم خاطبوا أقوامهم: ﴿مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [هود: 26]، وهذا معنى: «لا إله إلا الله».

وبعض الناس يظن أنه لا خلاف في توحيد الربوبية مع المشركين، والصواب: أنهم وإن أقروا في بعض الحالات نظريًّا بأن الله الخالق، إلا أنهم سرعان ما يجحدون وينكرون، وإقرارهم كان عَرَيًّا عن تحقيق مقتضى هذا التوحيد، وإلا فهو باب عظيم من أبواب التدبر والتأمل والخشوع والإخبات، وهو مدخل وأساس لما بعده.

* ﴿ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ رَأَىٰ﴾:

كُرر الاسم الظاهر ﴿ضَلَّ﴾ دون إعادته بالضمير ﴿إِذَا﴾ وكأن هذا على سبيل التلقين، كما يُلقن الطالب الذي يتعلم، فيذكر له أصل المسألة ثم يفرع عليها، فيقال- مثلًا-: الصلاة هي أقوال وأعمال، الصلاة أحد أركان الإسلام، الصلاة فيصل بين الإيمان والكفر والشرك، والصلاة صلة بين العبد وربه.

كما أن في تكرار الاسم الظاهر تأكيدًا لأهمية الخبر الآخر، المتعلِّق بالصمدية، فجاءت الآية الأولى بالخبر عن الله تعالى أنه ﴿١﴾ أي: واحد لا شريك له، وجاءت الآية الثانية بخبر جديد يُراد له أن يكون بنفس قوة الخبر الأول، وهو أنه تعالى ﴿صَاحِبُكُمۡ﴾.

و﴿صَاحِبُكُمْ﴾: الذي تصمد إليه الخلائق بحاجاتها وتتوجَّه إليه[1].

وهذا قول جماعة من السلف والخلف، وهو قول أكثر أهل اللغة، بل قيل: إنه قول أهل اللغة كلهم، قال أبو بكر بن الأنباري: «قال أهل اللغة أجمعون، لا اختلاف بينهم في ذلك: الصمد عند العرب: السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم»[2].

وهذا الذي رجَّحه الخطَّابي وغيره، فـ﴿صَاحِبُكُمْ﴾: السيد العظيم الذي يتوجَّه إليه الناس بمطالبهم وحاجاتهم وسؤالهم، أي: سؤال المسألة والدعاء والتضرع والشكوى[3].

وكلما تأملت هذا الاسم وجدت القلب يتزلزل منه ومن وقعه وثقله، حيث يدخل في معناه: أن الله تعالى غني غنًى مطلقًا عن الناس، ولهذا قال سبحانه: ﴿١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ١٨ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [فاطر: 15]، وقال سبحانه: ﴿أُخْرَىٰ ١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ١٥ إِذْ﴾ [الرحمن: 29]، فهو يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويغني ويفقر، ويصح ويمرض، ويرفع ويخفض، غني عن خلقه، ولا يحتاج إلى شيء؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿يَغْشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ﴾ [الأنعام: 14]، أي: هل من العقل والرشد والحكمة

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 926)، و«تفسير الطبري» (24/ 735)، و«زاد المسير» (4/ 506)، و«تفسير الرازي» (32/ 363)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 528)، و«روح المعاني» (15/ 511)، و«التحرير والتنوير» (30/ 617).

(2) ينظر: «الزاهر في معاني كلمات الناس» لابن الأنباري (1/ 83- 84)، و«عمدة الكتاب» لأبي جعفر النحاس (ص114)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 334)، و«زاد المسير» (4/ 506)، و«روح المعاني» (15/ 511).

(3) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص241- 245).

أن أتخذ وليًّا غير الله تعالى، هو فاطر السماوات والأرض، الخالق المالك الرب، الذي يطعم الناس ولا يُطعم؟!

وكونه سبحانه وتعالى مستغنٍ عن حاجة الأكل والشرب داخل في معنى ﴿صَاحِبُكُمْ﴾؛ لأنه ليس بحاجة إلى ذلك.

وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾: «السيدُ الذي قد كمُل في سُؤْدَدِه، والشريفُ الذي قد كمُل في شرفه، والعظيمُ الذي قد عظُم في عظمته، والحليمُ الذي قد كمُل في حلمه، والغنيُّ الذي قد كمُل في غناه، والجبَّارُ الذي قد كمُل في جبروته، والعالـمُ الذي قد كمُل في علمه، والحكيمُ الذي قد كمُل في حكمته، وهو الذي قد كمُل في أنواع الشرف والسُّؤْدَد، وهو الله سبحانه، هذه صفته، لا تنبغي إلا له»[1].

ومَن فسَّر ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ بأنه الذي لا يأكل ولا يشرب، فهذا من باب تفسير الاسم ببعض معانيه، وهو منقول عن الصحابة والتابعين وبعض أهل اللغة، إلا أنه داخل في المعنى الأول[2].

* كما أن صمديته تعالى وغناه المطلق يتضمن أنه عز وجل: ﴿غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ رَبِّهِ﴾، وذلك لأن الإنسان يحتاج إلى الوالد، ويحتاج إلى الولد، ويحتاج إلى النظير والشبيه، وهذا أمر جبل تعالى عليه الناس، أما هو سبحانه فهو غني بذاته عما سواه.

**كيفية مجيء وصف الله عز وجل في القرآن والسنة:**

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 736).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 924)، و«تفسير الطبري» (24/ 731)، و«تفسير السمعاني» (6/ 304)، و«تفسير البغوي» (5/ 330)، و«المحرر الوجيز» (5/ 536)، و«تفسير الرازي» (32/ 362)، والمصادر السابقة.

ويُلحظ في هاتين الآيتين أن الله عز وجل وصف نفسه بطريق السلب، أي: نفي صفات النقص، والأصل في تقرير الاعتقاد في القرآن والسنة أن يأتي غالبًا بالإثبات المفصَّل المطوَّل لصفات الكمال، والنفي المجمل، فيفصِّل في إثبات الأسماء والصفات لله تعالى، كما في آخر «سورة الحشر».

**أما النفي فيُؤتى به على سبيل الإجمال لا التفصيل؛** لأن الأشياء المذمومة السلبية التي يُراد نفيها كثيرة لا يأتي عليها الحصر، كما أنه ليس من مقام التعظيم والأدب مع الربوبية أن يُوصف الله تعالى بسلب النقائص عنه مجردة؛ إذ نفي النقائص على التفصيل لا رفعة فيه لـمَن نُفيت عنه؛ ولذا كانت طريقة القرآن هي الإثبات المفصل المستفيض المطول، والنفي المجمل الذي جاء لمناسبة.

**ومن أمثلة النفي المفصل**: ما جاء هنا في قوله تعالى: ﴿**غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ رَبِّهِ**﴾.

ومناسبة النفي- والله أعلم- هو لكون بعض الناس قد قال بهذا القول، فاحتاج الأمر إلى نفيه، كقول اليهود: إن الله تعالى خلق الخلق فتعب فاستراح يوم السبت، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿**بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩**﴾ [ق: 38][1].

ولما ادَّعى فريق من الناس أن لله تعالى ولدًا، كقول اليهود: ﴿**مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦**﴾ [التوبة: 30]، وقول النصارى: ﴿**ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ**﴾ [التوبة: 30]، وكزعم العرب أن الملائكة بنات الله، رد على هؤلاء جميعًا ونفى الولد.

**والفرق بين** ﴿**غَوَىٰ ۝٢**﴾ **و**﴿**غَوَىٰ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ**﴾ [الإسراء: 111] هو أن قوله: ﴿**غَوَىٰ ۝٢**﴾ **يحتمل معنيين:**

**الأول**: أنه لم يلد.

---

(1) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص397).

**الثاني**: أنه لم يتخذ ولدًا، ولو لم يكن على سبيل الولادة، ولكن على سبيل نسبته إليه سبحانه وتعالى، فنفى الأمرين معًا.

وقدَّم تعالى نفي الولد على الوالد، مع أن الذي يجيء أولًا هو الأب؛ لأن الولد هو المدعى لله تعالى، وليس هناك أحد ادعى أن لله تعالى والدًا، فكان المناسب أن يبدأ بنفي ما يدعيه الجاهلون من اليهود والنصارى ومشركي العرب ومَن على شاكلتهم، فقال: ﴿غَوَىٰ ۝٢﴾ ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ ﴾.

**فإن قيل: إذا لم يثبت عن أحد ادعاء الوالد لله** عز وجل، **فما السر في نفيه هنا؟ فيجاب عن ذلك بأجوبة:**

1- يحتمل أن يكون ذلك جوابًا لقريش حين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: اُنسب لنا ربك[1]! لأنهم ربما سألوا هذا على سبيل التعنت، فقال الله تعالى: ﴿غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ ﴾.

2- أنه من باب المقابلة؛ لأن النسب له عمودان: الولد والوالد، فلما نفى الولد ناسب نفي العمود الآخر وهو الوالد.

3- الإشارة إلى أنه عز وجل ليس قبله شيء، فقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ ﴾ يتضمن معنى: أن الله تعالى أول ليس قبله شيء، كما قال سبحانه: ﴿ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن﴾ [الحديد: 3]، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**أنت الأولُ، فليس قبلك شيءٌ**»[2].

4- أنه في مقام الحجة، فلما قال تعالى: ﴿غَوَىٰ ۝٢﴾ ونفى ما كانوا يدعون قال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ ﴾. وفي هذا إقامة للحجة عليهم، ونفي وجود الولد، وكأن المعنى: أن

---

(1) تقدم في أول السورة.

(2) أخرجه مسلم (2713) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الذي يكون له ولد يكون له والد، فلما نفى الله تعالى الولد نفى الوالد، وبيَّن ما في دعواهم الباطلة من الخطأ العظيم، والجهل الفاضح.

* ﴿ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا أَفَرَءَيۡتُمُ﴾:

وهذا ختام لهذه السورة العظيمة، وإشادة بمعناها العظيم.

**وخاتمة ما يقال في هذه السورة العظيمة أن رحاها تدور حول ثلاثة معانٍ:**

1- أن الله تعالى أحد في ذاته وأسمائه وصفاته وألوهيته وربوبيته.

2- أنه الغني السيد الكريم المتفضِّل الـمُعطي لعباده.

3- أن الله تعالى ليس له كفؤ ولا شريك ولا مثيل، ولا نِدَّ ولا نظير.

فتضمنت السورة أصل التوحيد وفصله وبدايته ونهايته، وبهذا يتبين أن هذه السورة مع «سورة الكافرون» تتضمنان لباب التوحيد والإيمان بالله تعالى، والبراءة من الشرك.



## سورة الفلق

*** تسمية السورة:**

**لها أسماء عديدة، من أشهرها:**

«**سورة الفلق**»، وهكذا هي في المصاحف، وكتب التفسير[1].

وسماها النبيُّ صلى الله عليه وسلم في عدد من الأحاديث: «**سورة ﴿يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ﴾**».

فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال له: «**ألم تَرَ آياتٍ أُنزلت الليلةَ، لم يُرَ مثلُهُنَّ قطُّ: ﴿يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ﴾، و﴿أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ﴾**»[2].

وعنه رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال له: «**لن تقرأَ شيئًا أبلغَ عند الله من: ﴿يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ﴾، و﴿أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ﴾**»[3].

وبذلك سمَّاها بعض المفسرين والمحدِّثين والأئمة في كتبهم[1].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص761)، و«تفسير الطبري» (24/ 741)، و«المستدرك» (2/ 540)، و«المحرر الوجيز» (5/ 538)، و«زاد المسير» (4/ 507)، و«تفسير القرطبي» (20/ 251)، و«التحرير والتنوير» (30/ 623).

(2) أخرجه مسلم (814).

(3) أخرجه أبو عُبيد في «فضائل القرآن» (ص271)، وأحمد (17341، 17455)، وابن الضُّريس في «فضائل القرآن» (282)، والنسائي (2/ 158)، وابن حبان (795)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (696)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (3499).

وتسمَّى مع ﴿أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ﴾ بـ«المعوِّذتين».

ورد ذلك في بعض طرق حديث عقبة رضي الله عنه المتقدِّم، وعلى لسان بعض الصحابة رضي الله عنهم[2]؛ لأن المسلم يتعوَّذ بهما.

وتُسمَّيان مع ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ بـ«المعوِّذات». ورد ذلك في غير حديث، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا اشتكى نَفَثَ على نفسه بالمعوِّذات، وكان إذا مرض أحدٌ من أهله نفثَ عليه بالمعوِّذات[3].

*** عدد آياتها:** خمس آيات بلا خلاف[4].

*** توقيت نزولها وسببه:**

الجمهور على أنها نزلت في مكة، وهو الأصح عن ابن عباس رضي الله عنهما، كما رواه كُريب وغيره، وهو قول الحسن وعطاء.

وقال قتادة وجماعة- وهو رواية عن ابن عباس رضي الله عنها-: إنها نزلت بالمدينة[1].

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 476)، و«صحيح البخاري» (6/ 181)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (5/ 174)، و«التحرير والتنوير» (30/ 623).

(2) ينظر: «مسند الطيالسي» (543، 1096)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 479)، و«مسند أحمد» (17299، 17322)، و«صحيح البخاري» (4976)، و«صحيح مسلم» (814)، و«تفسير القرطبي» (20/ 260)، و«روح المعاني» (15/ 517)، و«التحرير والتنوير» (30/ 623).

(3) ينظر: «مسند أحمد» (17417، 17792)، و«صحيح البخاري» (4439، 5016، 5017، 6319)، و«صحيح مسلم» (2192)، و«سنن أبي داود» (1523)، و«المرض والكفارات» لابن أبي الدنيا (188)، و«زاد المعاد» (1/ 294، 477)، و«هدي الساري» (ص161)، و«فتح الباري» (8/ 231-132)، (9/ 62).

(4) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص297)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (2/ 560)، و«بصائر ذوي التمييز» (1/ 556)، و«التحرير والتنوير» (30/ 624).

❋ **وأما سبب نزول السورة:** فالمشهور أنها نزلت بسبب سحر لَبِيد بن الأَعْصم اليهودي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كما جاء عن عائشة رضي الله عنها، أن لَبِيد بن الأَعْصم سحر النبيَّ صلى الله عليه وسلم في مُشْط ومُشَاطة- والـمُشَاطة هي: الشعر المجتمع- فوضعها في جُفِّ طَلْعةِ ذكرٍ- أي: في الغلاف الذي يكون فيه طلع النخل- ثم وضعها في بئر بالمدينة يُقال له: بئر ذَرْوَانَ، أو: ذي أَرْوان، وتأثر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بهذا السحر تأثرًا ظاهرًا في أشياء معينة كان يلاحظها أزواجه وأهل بيته القريبون منه، دون أن يؤثر ذلك في أمر آخر وراء هذا، ولم يلاحظ الناسُ عليه صلى الله عليه وسلم من هذا شيئًا، ثم نزل جبريلُ عليه السلام ونزل معه مَلَكان، فقعد أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فقال أحدهما للآخر: ما به؟ قال: مَطْبُوبٌ. ثم قرأ عليه هذه السورة، فشُفِي النبي صلى الله عليه وسلم، ثم بعث عليًّا وأمره أن يردم هذا البئر والقَلِيب الذي وجد فيه السِّحر، فقالت عائشة رضي الله عنها: أفلا أحرقته؟ يعني: إخراج السحر وإحراقه، فقال: «**لا، أما أنا فقد عافاني الله، وكرهتُ أن أُثيرَ على الناس شرًّا**»[2].

وهذا يحتمل أن يكون سببًا لنزول السورة، وعليه تكون السورة مدنية، ويحتمل أَلَّا يكون هو سبب نزولها، وإنما تكون السورة نزلت قبل ذلك بمكة، كما هو في المصاحف وغيرها، وهو قول جمهور المفسرين كما ذكرنا، فنزل المَلَكَ بقراءتها على النبي صلى الله عليه وسلم لبيان أنها رُقية[3].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 741)، و«تفسير السمعاني» (6/ 305)، و«المحرر الوجيز» (5/ 538)، و«زاد المسير» (4/ 507)، و«تفسير القرطبي» (20/ 251)، و«روح المعاني» (15/ 517).

(2) أخرجه البخاري (5763)، ومسلم (2189).

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 931)، و«الكشاف» (4/ 820)، والمصادر الآتية.

ولذا رُوي أنها نزلت لما ندبت قريش رجلًا منها مشهورًا بالإصابة بالعين؛ ليلحظ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ويعينه[1].

* ﴿يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ طَغَىٰ﴾:

الاستفتاح بـ﴿يُوحَىٰ﴾ سأل عنه أبيُّ بنُ كعب رضي الله عنه النبيَّ صلى الله عليه وسلم- كما في «صحيح البخاري»- فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**قيل لي: ﴿يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ﴾، فقلتُ**»[2].

وهو خطاب من الله للنبي صلى الله عليه وسلم، وللناس أن يقولوا هذا، فبلَّغه النبيُّ صلى الله عليه وسلم كما أُنزل عليه؛ لأنه وحي لا يتصرف فيه؛ ولأنها تعويذة من الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم وللمسلمين عامة، فإثبات لفظ ﴿يُوحَىٰ﴾ واجب لا بد منه من أجل صحة المعنى.

**والعَوْذ** هو: الاعتصام والالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى، وقد أُمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة به تعالى في مواضع عديدة في القرآن بحسب المقام، كقوله عز وجل: ﴿مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النحل: 98]، وكقوله: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ﴾ [المؤمنون: 97- 98].

**فإن قيل: ما سر التفريق في الاستعاذة بين ذكر لفظ الجلالة «الله» عند استفتاح القرآن الكريم، وذكر «الرب» في غيرها من المواضع؟**

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 597)، و«المحرر الوجيز» (5/ 354- 355)، و«تفسير الرازي» (30/ 618)، (32/ 368)، و«تفسير النسفي» (3/ 527)، و«تفسير النيسابوري» (6/ 598)، و«التحرير والتنوير» (30/ 624)، وينظر أيضًا: «أسباب النزول» للواحدي (ص443).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (4976).

**فالجواب:** أن «الله» هو الرب سبحانه، **لكن اختيار لفظ الجلالة «الله» له أسرار ومعانٍ فيما يتعلق بافتتاح القرآن الكريم، منها:**

1- أن اسم «الله» هو الاسم العظيم، وهو الاسم العلم، وهو اسم الجلالة، فالبداءة به فيما يتعلق بقراءة كلام الله تعالى هو المناسب.

2- أن الاستعاذة به أخصر وأقصر من قول: «أعوذ برب الفلق»، أو «أعوذ برب الناس»، أو «أعوذ بربي»، أو ما أشبه ذلك، وأسهل تناولًا وتداولًا في اللسان، فإن لفظ «الله» من أخف الألفاظ على اللسان مع عظمة معناه، وكل حروفه سهلة تنساق على اللسان؛ ولذا يقرأها الصبي الصغير، ويقرأها العجمي، ولا يقع فيها شيء كاللَّثْغة في راء «الرب»، ونحو ذلك، فلحاجة الصغير والكبير إليها عند القراءة كان لفظ الجلالة مما يستعاذ به عند قراءة القرآن الكريم.

3- قراءة القرآن عبادة لله عز وجل، والعبادة يتناسب معها لفظ الجلالة «الله»، أي: المألوه المعبود.

وأما الاستعاذة من ضرر المخلوقات وشرها، فالمناسبة فيها أن تكون باسم «الرب» الذي هو رب المخلوقات وخالقها، إذ معنى «الرب»: الخالق المالك المدبِّر المتصرِّف، فذكر لفظ «الربوبية» هنا أولى من ذكر لفظ «الإلهية»؛ فـ«الإلهية» تُذكر في مقام العبادة، أما «الربوبية» فتُذكر في مقام الاستعاذة من الخلق ومن شرِّهم.

**والفلق** هو: الصباح، وبهذا قال كثير من المفسرين(1).

**ويشهد لهذا:** قول الله عز وجل: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [الأنعام: 96].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص761)، و«تفسير الطبري» (24/ 743)، و«الكشاف» (4/ 820)، و«زاد المسير» (4/ 508)، و«التحرير والتنوير» (30/ 617).

وقول عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «كان لا يرى رُؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصُّبح»[1]. فعلى هذا يكون المقصود أن يستعيذ برب الصبح إذا انفلق وانفتح.

وهذا معنى جيد، **والأجود منه أن يقال**: إن المقصود بـ«الفلق»: كل شيء مما يمكن أن ينفلق وينشق وينفتح فيظهر ما بداخله، فيدخل فيه الصباح والنبات، كما قال تعالى: ﴿إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ﴾ [الأنعام: 95]، والرحم إذا انفتق عن المولود، والعدم إذا انفتق عن الموجود، فالاستعاذة على هذا المعنى أوسع من مجرد الاستعاذة برب الإصباح أو رب النهار؛ إذ هي استعاذة برب المخلوقات كلها؛ كما ذكر بعض أهل اللغة، كالزَّجَّاج وغيره أن الخلق يكاد أن يكون كله عبارة عن فلق[2].

وعبَّر بـ﴿شَدِيدُ﴾ دون لفظ «الخلق» للتنويع بين الألفاظ وتجنب تكرارها، حيث ذكر «الخلق» في الآية التي بعدها.

وكذلك في ﴿شَدِيدُ﴾ حركة وانتقال، كخروج الأجنة من الأرحام، وخروج النبات من الأرض، وخروج الشمس من أفقها، وفي هذا من البشارة والإيذان بالفتح والفرج من عند الله عز وجل.

وهو معنًى عظيم؛ لأن الفَلْق يشمل كل مخلوق جديد يطرق ناموس هذا الكون بإذن ربه تبارك وتعالى.

فمَن نزل به خوف أو ضيق أو همٌّ أو كرب، فليتذكر «رب الفَلَق» الذي يفلق الإصباح، ويفلق الحب والنَّوَى، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وكل يوم هو في شأن، فيخلق ويرزق ويحيي ويميت.

---

(1) أخرجه البخاري (3)، ومسلم (160).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 379)، والمصادر السابقة.

فكلمة «الفلق» توحي بهذا المعنى العظيم الذي يحيي تفاؤلًا في القلب.

و«رب الفلق» يشفي المريض من مرضه بعدما أيس من العلاج.

و«رب الفلق» يأتي بالغنى واليسار والخير والسعة بعدما ضاقت على الإنسان أسباب الدنيا وأسباب العيش.

وهكذا على المؤمن أن يظل مستحضرًا هذا المعنى العظيم؛ لأنه من جملة ما كان يستعيذ به النبي صلى الله عليه وسلم.

**وهذه السورة استعاذة بالله وبكلماته، وكلمات الله نوعان:**

1- كلمات قدرية.

2- كلمات شرعية.

**والكلمات القدرية** هي الكلمات التي بها يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويرفع ويخفض.

**والكلمات الشرعية** هي الأمر والنهي، أي: ما ينزل على الرسل والأنبياء من الكتب والأوامر والنواهي والبلاغ.

والكلمات الشرعية كلها صدق وحق وعدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: 115]، فليس فيها إلا الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، فهي خير محض.

وأما الكلمة القدرية، فهي خير في ذاتها، والشر معها يتعلق بالمخلوقات لا بها.

* ﴿ ٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ رَأَىٰ ﴾:

﴿مِرَّةٍ﴾ موصولة، أي: من شر الذي خلق.

والعموم في الآية ليس مقصودًا، وإنما الاستعاذة هنا من شر المخلوقات التي فيها شر؛ لأن من المخلوقات ما لا شر فيه، كالملائكة والرسل والأنبياء عليهم السلام،

وكالجنة، فلا يستعيذ الإنسان منها، ولذلك لما تزوج النبيُّ صلى الله عليه وسلم الـجَوْنية ودخل عليها قالت: أعوذ بالله منك. فقال لها النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**قد عُذْتِ بمَعَاذٍ**»[1].

وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: «**أعوذُ بك من شرِّ كلِّ دابة أنت آخذٌ بناصيتها**»[2].

وكان صلى الله عليه وسلم يقول عن الرِّيح: «**اللهمَّ إني أسألُكَ خيرَها، وخيرَ ما فيها، وخيرَ ما أُرسلت به، وأعوذُ بك من شرِّها، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أُرسلت به**»[3].

فيدخل في الآية الاستعاذة من شر الأشرار، وكيد الفجار، وما اختلف به الليل والنهار، وشر الحيوانات، والهوام، والسباع، والجن، والإنس، والمخلوقات الضارة مما يُعلم وما لا يُعلم، بل يدخل فيها الاستعاذة من شر المستعيذ نفسه، فإن النبيَّ صلى الله عليه وسلم علَّم أبا بكر رضي الله عنه أن يقول: «**أعوذُ بك من شرِّ نفسي، ومن شرِّ الشيطان وشِرْكه**»[4]. وعلَّمنا أن نقول: «**نعوذُ بك من شُرور أنفسنا**»[5].

وبين الآيتين الأولى والثانية تناسب في العموم، فهي استعاذة عامة من شرٍّ عام.

ونسبة الشر إلى الخلق في قوله تعالى ﴿٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ إشارة إلى أن الشر ليس في فعل ربنا تبارك وتعالى، وقد كان صلى الله عليه وسلم يقول: «**والشَّرُّ ليس**

---

(1) أخرجه البخاري (5255) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(2) أخرجه مسلم (2713) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) أخرجه مسلم (899) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(4) أخرجه الطيالسي (9، 2705)، وأحمد (51، 63)، وأبو داود (5067)، والترمذي (3392)، وابن حبان (962) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (2753).

(5) أخرجه الطيالسي (336)، وأحمد (3720)، وأبو داود (1097)، والترمذي (1105)، وابن ماجه (1892)، والنسائي (3/ 104)، والحاكم (3/ 82) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

**إليك**»[1]. فالشر ليس إلى الله عز وجل، ولذا كانت أسماؤه كلها حسنى؛ ففعله ذاته ليس فيه شر، وإنما الشر في مخلوقاته[2].

* ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ رَبِّهِ ﴾:

**الغاسق** هو: الليل، وهو قول جماهير المفسرين وأهل اللغة[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ [الإسراء: 78].

**وقيل**: المقصود بغسق الليل: منتصف الليل.

ولهذا قال الفقهاء: إن وقت العشاء الآخرة يمتد إلى نصف الليل، واستدلوا بهذه الآية[4].

وخصه؛ لأنه يشتد ظلامه ويسوَد، وهذا وقت المكر والكيد.

وفي تكرير لفظ «الشر» إشارة إلى أن الغاسق الذي هو الليل ليس شرًّا محضًا، وإنما فيه الخير وفيه الشر، وهو وقت يمكن أن يكون سببًا للقُربى والزُّلفى إلى الله تعالى، ويمكن أن يكون سببًا في الإضرار بالعباد وبالنفس، فيستعاذ من شره وينتفع بخيره.

---

(1) أخرجه مسلم (771) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(2) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف.

(3) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص761)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 476)، و«تفسير الطبري» (24/ 745)، و«تفسير الماوردي» (6/ 375)، و«المحرر الوجيز» (5/ 538)، و«زاد المسير» (4/ 509)، و«تفسير القرطبي» (20/ 256)، وينظر أيضًا: «غريب الحديث» لأبي عُبيد (2/ 194)، و«غريب الحديث» للحربي (2/ 715)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص606)، و«لسان العرب» (1/ 801)، و«تاج العروس» (26/ 251) «غ س ق».

(4) ينظر: «أحكام القرآن» للجصاص (3/ 259)، و«المجموع» (3/ 39)، و«الشرح الممتع» (2/ 115)، و«تفسير آيات الأحكام» للسايس (ص487)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (2/ 72).

وقوله: ﴿ثُمَّ ﴿٧﴾﴾ يقرب أن يكون معناه: إذا دخل ظلامه وتسلَّل وغطَّى كل شيء[1].

وجاء في بعض الروايات: أن «الغاسق إذا وقب» هو القمر، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أخذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيدي، ثم أشار إلى القمر، فقال: «**يا عائشةُ، استعيذى بالله من شرِّ هذا؛ فإن هذا هو الغاسقُ إذا وقب**»[2]. وسند الحديث ليس به بأس.

**والجمع بينهما**: أن القمر علامة الليل، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: 12].

فحديث عائشة رضي الله عنها لا يعارض القول بأن الغاسق إذا وقب هو الليل، فالقمر من آياته، وهو جزء من المدلول العام لهذه الآية.

وهدوء الليل وسكينته ولباسه وسكنه هو في وقت الظلام، فإذا جاء الظلام وذهب النور نشطت شياطين الإنس والجن وأهل السوء، وأهل الريب والشر والفساد.

فهو لفئات من الأشرار فرصة للمكر والحيلة والغدر والشر، وأكثر ما تقع جرائم السرقة والسلب والنهب والقتل والمؤامرات والغدر والفواحش وغيرها في الليل، وأكثر ما يقع السكر والعُهر وتجمع أرباب الفسوق والغفلة والشهوات هو في الليل، فلذلك استعاذ من شره.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 749)، و«تفسير الماوردي» (6/ 374)، و«الكشاف» (4/ 821)، و«تفسير الرازي» (32/ 373)، و«التحرير والتنوير» (30/ 627).

(2) أخرجه الطيالسي (1589)، وأحمد (24323، 25802)، والترمذي (3366)، والحاكم (2/ 540). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (372).

ومع ذلك فإن الليل هو محل العبادة، وأُنس الذاكرين بربهم، ووقت السكن والبحث والعلم والسَّمَر المباح، ولهذا رُوي في الحديث: «**لا سَمَر إلا لمُصلٍّ أو مسافرٍ**»[1]. فالمسافر في الليل يقطع طريقه بهدوء، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**عليكم بالدُّلْجة؛ فإن الأرض تُطوى بالليل**»[2].

وقيام المصلِّي فيه مما أثنى الله تعالى عليه، كما في قوله تعالى: ﴿**وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ**﴾ [المزمل: 1- 2].

ويلحظ هنا التناسب الشديد بين قوله تعالى: ﴿**يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ**﴾ وبين الآيتين اللتين بعده، فمعناه العام- الذي هو الفتح والشق- يناسب الاستعاذة من شر ما خلق، أي: من شر كل شيء، ومعناه الخاص- الذي هو الإصباح- يناسب الاستعاذة من شر الليل الغاسق إذا وقب، فكأنه قال: أعوذ برب النهار والنور من الظلام والليل.

وفي الآيات إشارة إلى التفاؤل بغلبة الخير على الشر، فقد نُسب الفلق إلى الله عز وجل، في حين نُسب الشر إلى الخلق، والغالب هو الخالق سبحانه.

* ﴿**فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَفَرَءَيۡتُمُ**﴾:

**النفث** هو: النفخ مع شيء من الرِّيق[3]، **والنفاثات في العقد فيها أقوال**[1]:

---

(1) أخرجه الطيالسي (363)، وأحمد (3917، 4244)، ومحمد بن المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (109)، و«قيام الليل» (1/ 115- مختصره للمقريزي)، والبيهقي (1/ 452). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (2435).

(2) أخرجه أحمد (15091)، والنسائي في «الكبرى» (10725) من حديث جابر رضي الله عنه.

وأخرجه أبو داود (2571)، وأبو يعلى (159)، وابن خزيمة (2555)، والحاكم (1/ 445)، (2/ 114) من حديث أنس رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (681).

(3) ينظر: «لسان العرب» (11/ 77)، و«تاج العروس» (5/ 373) «ن ف ث».

1- قد يراد بها النفوس الشِّرِّيرة التي تنفث وتتعاطى حرفة السحر، فتقوم بعقد بعض الحبال والنفث عليها بتعاويذ شيطانية ورقًى شركية بقصد الإضرار بشخص معين، أو التأثير عليه.

ونسب الله تعالى الشر إلى النفاثات لا إلى النفث؛ لأن النفث نفسه لا يضر، وإنما التي تضر هي النفوس التي تقوم بهذا النفث، وبهذا الكيد والمكر، ولذلك سميت بـ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾، وإن كانت تمارس أعمالًا أخرى في إلحاق الضرر بالشخص.

2- أنها الجماعات، سواء كانوا رجالًا أم نساءً، ففي بعض البلدان تعقد مؤتمرات جماعية للسَّحَرة، وفي اجتماعهم من الضرر والشر ما ليس في عمل الفرد الواحد، فيكون ذلك أبلغ في الشر وإلحاق الأذى.

3- وأما القائلون بتخصيص النفاثات في العقد بالنساء دون الرجال، فيحتاجون إلى بيان وجه تخصيص النساء دون الرجال في موضوع السحر؛ مع أنه قد يقع من هؤلاء وهؤلاء.

**وقال بعضهم**: إن المقصود به بنات لَبِيد بن الأَعْصم؛ لأنهن قُمن بسحر النبي صلى الله عليه وسلم.

**وقال بعضهم**: إن السحر عند النساء أكثر منه عند الرجال، وهذا ليس ببعيد؛ لأن كثيرًا من النساء يلجأن للسحر حتى تؤثِّر على زوجها وتعطِفُه إليها، أو تصرفه عن امرأة أخرى، أو تكيد بالسحر لغيرها، أو تستميل قلب من عشقته إليها، ثم تتعاطاه بعد ذلك.

---

(1) ينظر: «تفسير ابن فورك» (3/ 307)، و«تفسير الماوردي» (6/ 376)، و«تفسير الرازي» (32/ 374)، و«تفسير النيسابوري» (6/ 602)، و«فتح القدير» (5/ 640)، و«تفسير القاسمي» (9/ 576).

4- وذكر أبو مسلم الأصفهاني أن النفاثات في العقد: النساء اللاتي يؤثِّرن في عزائم الرجال، واعتبر أن العُقد هي العزيمة، أي: عزيمة الرجل على أمر، فقد تؤثِّر عليه المرأة، فتحدث له التراجع عما أراد بسبب تأثيرها وكيدها ونفثها وحلو حديثها[1].

وهذا القول وإن كان ظاهره لا بأس به، إلا أنه لا يساعده السياق والرواية.

5- **وقيل**: المشَّاءات بالنميمة، وهو قول الشيخ محمد عبده، ومَن تابعه وأخذ عنه[2]، ولم أجده منسوبًا إلى أحد من أئمة السلف وعلمائهم، إلا أن يشبه قول أبي مسلم الأصبهاني.

**والمختار** أن المقصود بالنفاثات في العقد: السَّواحر من النساء، أو السَّحَرة من الرجال والنساء على سبيل العموم، أو النفوس الشريرة التي تتعاطى السحر وتُؤذي به عباد الله تعالى.

و(ال) في ﴿فَكَانَ﴾ جنسية، وهذا من باب التنويع في السياق؛ فقد نكَّر ما قبلها فقال: ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، ثم أدخل (ال) على النفاثات، ثم عاد إلى النكير، فقال: ﴿أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ ۝١٩﴾، وإلا فالكل نكرة.

ويحتمل أن التعريف في قوله تعالى: ﴿فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ﴾ لبيان أن فعل النفاثات لا يكون إلا شرًّا، فيستعاذ منهن استعاذة مطلقة، بخلاف شر الغاسق إذا وقب؛ إذ فيه الخير والشر، والحاسد إذا حسد قد يضر حسده المحسود وقد لا يضره.

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (32/ 374)، و«تفسير النيسابوري» (6/ 602)، و«تفسير القاسمي» (9/ 576).

(2) ينظر: «تفسير المراغي» (30/ 267)، و«التفسير القرآني للقرآن» (16/ 1723)، و«التفسير الوسيط» (10/ 2057- مجمع البحوث الإسلامية)، و«التفسير الواضح» (3/ 922).

* ﴿أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ ۝١٩﴾:

**الحسد**: ما يقع في قلب الإنسان بسبب النعمة التي أنعم الله تعالى بها على أحد من الخلق.

وإنما أمر تعالى بالاستعاذة من شرِّ الحاسد إذا حسد؛ لأنه ما من نفس إلا وفيها شيء من الحسد، كما قال بعض السلف: «ما خلا جسدٌ من حسد، ولكن اللَّئيم يُبديه، والكريم يُخفيه»[1]. وهذا ليس على إطلاقه، وقد قال محمد بن سيرين: «ما حسدتُ أحدًا قطُّ، بَرًّا ولا فاجرًا»[2].

فالحسد باعتباره شعورًا يقع في القلب ليس بغريب، بل يقل أو يندر أن يسلم منه أحد، كما ذكر ابن رجب الحنبلي وغيره[3]، خاصة بين الأقران والمشتركين في عمل أو فنٍّ واحد.

فالحاسد إذا حسد يُستعاذ منه، أما الحاسد إذا كتم واستعاذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم، ولم يؤذ أحدًا، فلا يدخل في هذا؛ لأن هذا من طبع بني آدم.

وحسد الحاسد تقع منه العين، و«**العينُ حقٌّ**»، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**ولو كان شيءٌ سابقَ القَدَرِ سبقَتْه العينُ**»[4]. وورد: «**إن العينَ تُدْخِلُ الرجلَ القبرَ، وتُدخِلَ الجملَ القِدْرَ**»[1].

---

(1) ينظر: «أمراض القلوب وشفاؤها» لابن تيمية (ص21)، و«مجموع الفتاوى» (10/ 125)، و«المقاصد الحسنة» (955)، و«كشف الخفاء» (2/ 219).

(2) أخرجه الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (2/ 57)، والدينوري في «المجالسة» (7/ 67) (2931)، وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص134، 135)، وأبو الشيخ في «التوبيخ والتنبيه» (83)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (3/ 23)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (845).

(3) ينظر: «جامع العلوم والحكم» (2/ 260).

(4) أخرجه مسلم (2188) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال صلى الله عليه وسلم في رقية المريض: «**باسم الله أَرْقِيكَ، من كلِّ شيء يُؤذيكَ، من شرِّ كلِّ نفسٍ أو عينِ حاسد، اللهُ يشفيك، باسم الله أَرْقِيكَ**»[2]. فإذا رأى الإنسان شيئًا فاستحسنه، ووقع في قلبه نوع من الحسد وتمنَّي زوال هذا الأمر عن هذا الإنسان، فإنه قد يضره.

والشريعة جاءت ببيان حصول هذا الأمر، وأما كيفية حصوله فهذا إلى الله سبحانه، ولا داعي لأن نقحم هذا الكلام في تفسير كلام الله عز وجل.

والحسد قد يقع من الأخيار، فقد سُئل الحسن البصري: أيحسدُ المؤمنُ؟ فقال: «لا أبا لك! أنسيت إخوة يوسف؟!»[3]. أي: أنهم حسدوه وكادوا له، وعملوا ما عملوا وهم أنبياء وأبناء أنبياء.

والحسد كثيرًا ما يؤثِّر في علاقة الناس بعضهم ببعض، وغالبًا ما يكون بين الأقران، بل قد يقع بين المخلصين المنطلقين في طريق واحد من الخير.

فالواجب أن يستعيذ المؤمن منه وأن يجاهد نفسه، ولا يستجيب للخواطر المريضة، ومَن اجتهد وجاهد، فإنه يستطيع أن يتخلص من هذا الداء، وعليه أن يكثر من الدعاء في سجوده لَمن يظن أنه حسده، وأن يثني عليه خيرًا بلسانه في المجالس، وأن يعينه بما يستطيع، حتى يرغم أنف الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، والله أعلم.



(1) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (7/ 90)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (1057) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (1249).

(2) أخرجه مسلم» (2186) من حديث أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه.

(3) ينظر: «عيون الأخبار» (2/ 12)، و«نثر الدر» لأبي سعد الآبي (5/ 128)، و«التمهيد» (6/ 126)، و«مجموع الفتاوى» (10/ 125)، و«بدائع الفوائد» (2/ 236).

## سورة الناس

*** تسمية السورة:**

**لهذه السورة أسماء عديدة:**

أشهرها: «**سورة الناس**»[1].

وسمَّاها النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**سورة ﴿أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ﴾**»[2].

وهي مع «﴿يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ﴾» تسميان بـ«**المعوِّذتين**»، كما تقدم في «سورة الفلق».

وتُسمَّيان مع ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ بـ«المعوِّذات»، كما تقدم في «سورة الفلق».

*** عدد آياتها:** ست آيات، **وقيل**: سبع[3].

*** توقيت نزولها:**

الخلاف فيها كالخلاف في «سورة الفلق»، والجمهور على أنها مكية، وهو القول الراجح عن ابن عباس رضي الله عنه.

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص762)، و«تفسير مقاتل» (4/ 941)، و«تفسير الطبري» (24/ 753)، و«معاني القرآن وإعرابه» للنحاس (5/ 381)، و«المحرر الوجيز» (5/ 540)، و«زاد المسير» (4/ 510)، و«تفسير القرطبي» (20/ 260)، و«التحرير والتنوير» (30/ 631).

(2) ورد ذلك في حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، ينظر ما تقدم في «سورة الفلق».

(3) باعتبار قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ رأس آية، واطلعنا على بعض المصاحف كذلك. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص298)، و«تفسير الرازي» (32/ 376)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص327)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (2/ 560)، و«التحرير والتنوير» (30/ 632).

**وقيل**: مدنية؛ باعتبار أنها نزلت بسبب قصة لَبِيد بن الأَعْصم اليهودي وسحره للنبي صلى الله عليه وسلم[1].

وفي هذه السورة جوانب يحسن التنبه إليها مع «سورة الفلق»، ففي «سورة الفَلَق» علَّمنا سبحانه أن نستعيذ بـ«رب الفَلَق»، ولم يذكر إلا هذا الاسم له سبحانه وتعالى، ثم ذكر الاستعاذة من أربعة شرور، ومرجعها إلى ثلاثة؛ لأن الأمر الأول منها عام: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ رَأَىٰ﴾، ثم فصَّل ثلاثة أشياء: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا﴾.

أما في هذه السورة فنلاحظ العكس؛ حيث إنه أمر بالاستعاذة بثلاثة أسماء من أسمائه عز وجل، فقال: ﴿أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا﴾، ثم ذكر المستعاذ منه، وهو شيء واحد، وهو ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾.

* ﴿يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا﴾:

**بين «الرب» و«الإله» فرق**، فـ«الرب» هو: الخالق المالك المتصرِّف، أما «الإله» فهو المعبود.

أما سر ذكر «الملك» مع «الرب»، مع أن «الرب» يتضمن معنى «الملك»، **فلعل ذلك لمعانٍ، منها:**

1- أن الناس من عادتهم إذا أصابتهم نازلة أن يلجؤوا إلى أكابرهم وملوكهم، فيطلبون منهم الحماية، وأقصى ما يتمناه الإنسان في الدنيا إذا خاف من شيء أن يكون في حماية «المَلِك»؛ لتكون كل قوى الملك في خدمته وحفظه ووقايته.

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 921)، و«تفسير الطبري» (24/ 753)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 659)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 341)، و«تفسير السمعاني» (6/ 308)، و«تفسير البغوي» (5/ 336)، و«المحرر الوجيز» (5/ 540)، و«زاد المسير» (4/ 510)، و«التحرير والتنوير» (30/ 631).

فكان للتنصيص على اسم «المَلِك» معنًى مباشرًا أن ﴿مَا رَأَىٰٓ﴾ يحميه، وإذا حماه «المَلِك» فلا يضره أن يكون البشر والعبيد والجنود والرعية معه أو ضده، كما يقال:

وإذا العنايةُ لاحظتك عيونُها *** نمْ، فالمخاوفُ كلُّهن أمانُ

2- أن الضرر غالبًا ما يلحق الناس من الأكابر، من الملوك ومَن حولهم من الأعوان والحاشية.

وكانت العرب تخاف من ملوك الجن، ويستعيذون بهم إذا نزلوا واديًا من شرِّ سفهائهم، وكذلك السَّحَرة؛ فإنهم كثيرًا ما يعوِّلون على ملوك الجن الذين يطيعونهم، ويأتمرون بأمرهم، وينصاعون لأقوالهم.

واليوم صار للملوك معنى أوسع لا يختص بذوي السلطة السياسية، بل يتعدَّاها إلى النفوذ العالمي، كالنفوذ الإعلامي أو الاجتماعي.. وأباطرة الإعلام يبثون للناس عبر تقنياتهم كمًّا هائلًا من التأثيرات المثيرة للغرائز والمهيِّجة للعواطف، مما يشكِّل مادة استهلاكية تمنحهم متعة عابرة، وتسرق من جيوبهم دخلهم المحدود.

ومثلهم أباطرة الموضة الذين يتحكَّمون في أذواق الناس، ويتدخلون في أخص خصوصياتهم، ويفرضون عليهم ما يلبسون، حتى يصبح هذا قانونًا عامًّا يصعب على الفرد مخالفته أو الخروج عنه، وهم يملكون المال والدعاية والمصانع والإعلان، ويشتغلون على تحريك وساوس الناس بالشهوات المغرية أو بالشبهات المشكِّكة.

ولهذا جاء التأكيد على معنى «الملك» لله سبحانه وتعالى، وأن الأمر بيده، والسلطان له، وهذا معنًى مناسب لأن يستعيذ الإنسان من شرِّ أولئك الملوك الذين يبسطون سلطتهم على كثيرين، وكأنهم وكلاء عن الشيطان.

وقد ذكر السياق «الناس» ثلاث مرات، ولم يقل: «أعوذ برب الناس وملكهم وإلههم»، وهذا يسمى: إقامة الظاهر مقام المضمر.

وفي الآيات التكرار الحلو العذب على اللسان، فإن الإنسان يقرأ السورة ويستشعر جمال المعنى، ويجد الكلمة في سياقها ملائمة لا ينوب غيرها عنها، والتكرار فن في لغة العرب وأسلوب القرآن، ومنه تكرار مالكِ بن الرَّيْبِ لبعض الألفاظ في قصيدته المشهورة التي قالها في مرض الموت، وفيها(1):

فليتَ الغضا لم يقطعِ الركبُ عَـرْضَه *** وليت الغضا ماشى الركابَ لياليا

لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا *** مزارٌ ولـكـنَّ الغضا ليس دانـيـا

فتكرار كلمة ﴿كَذَبَ﴾ احتفاءٌ بالناس الذين يذكرهم ربهم في آخر سورة في المصحف، وفي نهاية كل آية من السورة.

ويعرِّف نفسه سبحانه وتعالى بأنه: ربهم وملكهم وإلههم، وهو ربُّ كل شيء، وملك كل شيء، وإله كل شيء.

إن الناس وحدهم هم المتعبَّدون بالأمر والنهي، بخلاف الملائكة والطيور والأشجار والجمادات وغيرها؛ فإنها مسخَّرة بأمر ربها.

والناس من شأنهم أن يطيعوا فيُشكَروا ويجزوا بالجنة، أو يعصوا ويكفروا فيجزوا بالنار، فهي تبعة ومسؤولية يقابلها حساب وجزاء.

والإشادة بالناس معنى يتكرر في القرآن الكريم، كما في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[الإسراء: 70].

---

(1) ينظر: «جمهرة أشعار العرب» (ص607)، و«الشعر والشعراء» (1/ 342)، و«أمالي اليزيدي» (ص39).

وفي كثير من المواضع يأتي الخطاب المكي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾[1]، وأيُّ رفعة للبشر أعظم من أن يخاطبهم ربهم خطابًا مباشرًا في نص قدسي يُتلى إلى يوم الدين!

* ﴿يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾:

لم يستعذ من الوسواس، بل من شرِّه؛ لأن الوسواس يعرض للإنسان فيدفعه ولا يضره، كما في الحديث أنهم قالوا: يا رسولَ الله، إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدُنا أن يتكلم به؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «**وقد وجدتموه؟**». قالوا: نعم. قال: «**ذاك صريحُ الإيمان**»[2].

فلم يضرهم، ولم يكن شرًّا بالنسبة لهم؛ لأنه محض الإيمان، وهو كيد الشيطان الذي عجز عن التأثير عليهم به، فرد الله كيده إلى الوسوسة، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**الحمدُ لله الذي ردَّ كيدَه إلى الوسوسة**»[3].

وفي هذا إشارة إلى أن مجرد حصول الوسواس في القلب ينبغي أَلَّا يُقلق الإنسان، وإنما يستعيذ بالله تعالى من شره، وكثير من الناس ليست مشكلتهم المرض ذاته، فقد يكونون في عافية منه، بل مشكلتهم الخوف من المرض، ولذلك كان من أفضل ما يُوصَى به المبتلون بالوسواس هو الإهمال.

والشيطان مثل الكلب إذا التفتَّ إليه لحقك وتحرَّش بك، وإذا أهملته وتركته نبح ثم تركك.

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (3/ 409)، و«الكشاف» (1/ 89).

(2) أخرجه مسلم (132) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) أخرجه الطيالسي (2827)، وأحمد (2097، 3161)، وأبو داود (5112)، وابن حبان (147).

والوسواس مأخوذ من الوسوسة، كالزلزال والزلزلة، وهو الصوت الخفي، كما قال الأَعْشَى[1]:

تَسْمعُ للحَلْي وَسَوْاسًا إذا انصـرفتْ *** كما استعان بريح عِشـرِقٌ زَجِلُ

فالوسواس هنا: صوت الحَلي الخفيف إذا احتك بعضه ببعض، فهو ليس شيئًا ظاهرًا، ولكنه مؤثِّر في قلب الإنسان، فتسميته بـ«الوسواس» إشارة إلى ضعفه، وأن تأثيره السيئ ناتج عن الاستجابة والإصغاء.

و﴿رَءَاهُ﴾: صيغة مبالغة، فهو يخنس، أي: يرجع، يقال: خنسَ، إذا اختفى، كما قال عز وجل: ﴿مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً﴾ [التكوير: 15- 16]، **قيل**: هي النجوم التي تطلع وتغيب، فقوله: ﴿رَءَاهُ﴾ يعني: أنه كلما ذُكر الله تعالى خنس وهرب[2].

فهو إذًا ضعيف في ذاته، سريع الاندحار كلما قاومه الإنسان واستعاذ بالله منه.

ولذا قال تعالى: ﴿عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[النساء: 76]، ونستطيع أن نقرنه مع قوله هنا: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ وهذا معنًى لطيف[3].

ومن ضعفه أنه يوسوس في الصدور، ولم يقل: «في القلوب»، والقلوب في الصدور، ولكن لو كان الوسواس في القلوب لكانت المشكلة أكبر؛ لأن معنى ذلك أن القلب أصبح سكنًا للشيطان، وإنما الواقع أن الشيطان يوسوس في الصدور، ولا يلزم أن تصل وسوسته إلى القلب ولا أن تستقر فيه.

---

(1) ينظر: «ديوان الأعشى» (ص55).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 754)، و«تفسير الماوردي» (6/ 378)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 540)، و«التفسير القيم» (ص670)، وما تقدم في «سورة التكوير».

(3) ينظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (3/ 1003)، و«التفسير البسيط» للواحدي (6/ 604)، و«المحرر الوجيز» (2/ 79)، و«تفسير الرازي» (10/ 142)، و«تفسير القرطبي» (5/ 280)، و«روح المعاني» (3/ 100).

ولما ذكر تعالى آدم وحواء قال: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ﴾ [طه: 120]، في حين أنه قال هنا: ﴿(١٣) عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ وسوس إليه؛ لأنه كان في الجنة، وكأنه أرسل إليه الوسواس إرسالًا؛ ولذلك جاءت كلمة: «إلى» التي تدل على أنه كان بعيدًا عنه، وإنما يبعث إليه الوسواس بعثًا، أما هنا فقال: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ للدلالة على أن الشيطان يلازم ابن آدم، ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**إن الشيطانَ يجري من الإنسان مجرَى الدم**»[1]. يعني: في العروق.

فبدأت السورة بذكر ما يدل على ضعف الشيطان من كون أمره مجرد وسوسة، وأنها كثيرًا ما تندفع، فلا يكون منها شر على المؤمن، وأنها إن أحدثت أثرًا، فسَرْعان ما تخنس وتختفي، وأن ميدانها الصدر وليس القلب.

وثنَّت بما يدعو إلى الحذر منه، وأن أمره قد يتطور ويعظم بالاستجابة.

* ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ (٢٠)﴾:

**قد يُظن أن في نظم الآية إشكالًا؛** حيث قال سبحانه: ﴿أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، ثم قال: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾، فبيَّن تعالى أن الشيطان ﴿(١٣) عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، ثم قال: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾.

**والجواب:** يحتمل أن الناس مأخوذ من النوس، وهي الحركة، وعلى هذا فإن الجن يسمون: ناسًا، ويكون المعنى: يوسوس في صدور الناس من الجن والإنس[2].

هذا معنًى ضعيف، وفيه تكرار وتداخل.

---

(1) أخرجه البخاري (2038، 3281، 7171)، ومسلم (2174، 2175) من حديث صفية بنت حُيَيٍّ رضي الله عنها.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 756)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 638- 639)، و«الكشاف» (4/ 824)، و«تفسير الرازي» (32/ 377- 378)، و«تفسير القرطبي» (20/ 263- 264)، و«التحرير والتنوير» (30/ 635).

**وأجود منه** أن يكون قوله: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ ليس متعلِّقًا بقوله: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ١٣﴾، بل بقوله: ﴿أُخْرَىٰ ١٣﴾ أي: بالموسوِس نفسه، فقد يكون الوسواس من شياطين الجن، وهم إبليس وجنوده، أو من شياطين الإنس، وهذا أمر معروف، كما قال: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: 112]، فالشيطان الجني يوسوس، والشيطان الإنسي- وهو قرين السوء- يوسوس، فكأنه قال: استعذ بالله من الوسواس الخناس، سواءً كان وسواسًا إنسيًّا أو جنيًّا، ممن يوسوس في صدور الناس(1).

وذكر بعضهم معنًى آخر غريبًا، وإن لم يكن مشهورًا عند المفسرين، وهو: أن ﴿كَذَبَ﴾ الأخيرة يقصد بها الناسي من النسيان، فحذفت الياء.

**والمعنى**: أن الشيطان يوسوس في صدور الناسي الذي يغفل؛ لأنه إنما يتسلَّط على مَن ينسى ذكر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ٢٣ أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ٢٤ فَلِلَّهِ﴾.

وهذا ما يسميه البلاغيون بالجِناس التام بين «الناس» الذين هم البشر، وبين «الناس» الذي هو الشخص الذي ينسى(2).

وهنا تكون الاستعاذة للجن والإنس؛ لأن النسيان يكون منهما معًا، والشيطان يوسوس في صدور كل مَن ينسى من الجن والإنس.

وعلى هذا الوجه، فليس في السورة تقديم وتأخير، بل آخر آية فيها هي بيان وتفسير لما قبلها.

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 478)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 638)، و«تفسير الماوردي» (6/ 379)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «خزانة الأدب» لابن حجة الحموي (1/ 74- 85)، و«الطراز لأسرار البلاغة» (2/ 185).

**ولكن يضعِّف هذا القول**: مجيء ﴿سِدۡرَةِ﴾ بالجمع، ولو كان السياق: «في صدر الناس» لكان القول متَّجها، والله تعالى أعلم.



## فهرس المحتويات

